

سلسلة الكتب الأساسية في العلوم الإنسانية و الاجتماعية

د. عـقون محمّد العـربي

الاقتصاد والمجتمع في الشمال الأفريقي القديم

مزوّد بـ 66 لوحة (أشكال وخرائط وصور) داخل النصّ

ديوان المطبوعات الجامعية

د. عقون محمد العربي

أستاذ محاضر

جامعة منتوري قسنطينة

الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم



ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية . بن عكنون . الجزائر

رقم النشر: 4.07.4958
رقم ر.د.م.ك (ISBN): 978.9961.0.1142.3
رقم الإيداع القانوني:1716/ 2003

سلسلة الكتب الأساسية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

يصدرها ديوان المطبوعات الجامعية

تحت إشراف نخبة من أساتذة التعليم العالي

تهدف هذه السلسلة بالدرجة الأولى إلى تمكين الطلبة من التمتع بتجربتهم الجامعية والنجاح فيها، وذلك بأن توفر لهم كتبا ثرية بالمعارف في ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية.

وبطبيعة الحال فإن فائدة هذه الكتب تتعدى فئة الطلبة لتشمل مختلف أطراف الشريحة الجامعية من أساتذة وباحثين.

إن اللجنة العلمية المشرفة على هذه السلسلة يسرها أن ينشر أساتذة الجامعة وأصحاب الفكر أعمالهم البحثية فيها وذلك للمساهمة في إثراء المكتبة الوطنية والجامعية وفي توطين هذه العلوم في ربوع الجزائر والبلدان العربية.

مدير السلسلة

أ.د. بوسنه محمود

تلعب اللجنة العلمية دورا استشاريا هاما في هذه السلسلة، حيث أنها تقرأ وتناقش مشاريع الكتب المقترحة للنشر قبل صدورها. مع العلم أنها تتكون من مجموعة من أساتذة التعليم العالي ينتمون إلى مختلف التخصصات ويسنّون بمختلف الجامعات الجزائرية.

المختصرات

A.A.A. ...Atlas Archéologique de l'Algérie**Ant. Afr**..... Antiquités Africaines.

B.A.H. .... Bulletin de l'Académie d'Hippone.

B.C.T.H. .... Bulletin de Comité des Travaux Historiques.

B.S.G.A.O. ....Bulletin de la Société Géographique et Archéologique d'Oran.

C.R.A.I. .... Comptes Rendus de l'Académie des Inscriptions.

C.I.L. .... Corpus Inscriptionum Latinarum.

C.T. .... Cahiers de Tunisie.

D.A.G.R. . Dictionnaire des Antiquités Grecques et Romaines.

E.S.C. .... Economie, Société, Civilisation.

Hist. Nat. ...... Histoire Naturelle.

I. L. Alg. .... Inscriptions Latines de l'Algérie.

J.S. .... Journal des Savants.

M.E.F.R. .... Mélanges de l'école française de Rome

R. Af. .... Revue Africaine.

R. E. A. .... Revue des Etudes Anciennes.

R.S.A.C. Recueil de la Société Archéologique de Constantine.

R.T. .... Revue Tunisienne.

مقدّمة

كان إثراء برنامج التكوين في مرحلة التدرّج بوحدة بيداغوجية هامّة هي الاقتصاد والمجتمع في الشمال الأفريقي القديم خطوة طموحة تعكس حرص لجنة البرامج والمناهج على رفع مستوى التكوين وتجاوز التكوين التقليدي الذي يقتصر على الجانب السياسي ولا يكاد يتجاوزه إلى مجالات أخرى ذات أثر كبير في مسار التاريخ البشري ، وبمقدار ما كانت الخطوة جريئة بقدر ما هي بحاجة إلى أدوات ووسائل لتحقيقها تدريجيا،لأنّ تاريخنا القديم كما هو معروف مكتوب بلغات الأمم التي سيطرت على هذه البلاد تباعا ولسنا نبالغ إذا قلنا أنّنا لا نكاد نجد شيئا في المكتبة العربية يمكن الاستعانة به في هذا المجال.

ليس حاجز اللغة هو العقبة الوحيدة في وجه الطالب، ولكن المسألة الأخطر هي أنّ النصّ التاريخي الذي يدرَّس في جامعاتنا نصّ كتبه الآخر ووضعه في سياق كثيرا ما يكون متناقضا مع رؤيتنا الوطنية والحضارية وقد يكون هذا الآخر متحاملا على تاريخنا أو يدسّ فيه ما يراه فعّالا لتمرير ما يودّ تمريره، طبقا لرؤاه وفلسفة بلده، فالتاريخ غير الطبيعة والعلوم الصحيحة، إنّه وجدان ومشاعر وناطق باسم الأمّة ومُنافح عنها، والآخر عندما يكتب تاريخنا يكون كمن يقدّمنا إلى أنفسنا، فكيف يقدّمنا وفي أيّ صورة تركيبية سيُبرِزنا؟ لا ريب أنّ ذلك لن يخلو من التشويه لأنّ الموضوعية نسبية في جميع الأحوال، وفي هذه الأجواء كم هو صعب تحرير المادّة التاريخية المتعلّقة بالشمال الأفريقي القديم وتطويعها لإرجاعها إلى حقيقتها، فقد ظلّ المؤرّخون وأوّلهم الإغريق والرومان يشكّلون تلك المادّة على هواهم، فطمسوا تاريخ الشمال الأفريقي القديم واختصروه في الصراع القرطاجي الروماني، وجاء المؤرّخون المحدثون وبقدر ما أثروا هذا التاريخ بقدر ما عملوا على جمعه لترحيله نحو وجهة أخرى وتجريده من هويته!.

هذه الأسباب إذن، وكذا استجابةً لرغبة الطلبة، هي التي دفعتنا إلى جمع محاضراتنا المتواضعة هذه - وهي محاضرات ألقيناها على طلبة السنة الثالثة على امتداد سنوات منذ استحداث هذا المقياس - في كتاب يكون مرجعا وأداة عمل للطالب وشاملا للمقرّر الوزاري وملتزما بشروط البحث العلمي، يفيد الطالب ولا يستغني عنه الأستاذ، فالمتن موجّه للطلبة، والهوامش موجّهة للأساتذة والمتخصّصين المهتمّين، وهي تتيح لهم إمكانية إثراء بعض الجوانب التي لم يتّسع لنا المجال لضمّها إلى المتن.

تتوزّع هذه المحاضرات على قسمين، الأول للاقتصاد والثاني للمجتمع، ونظرا لطبيعة الموضوع وطبقا لمقتضيات منهجية البحث العلمي التي تراعي الانسجام والتوازن، وزّعنا موادّ كلّ قسم على أربعة أبواب، ووزّعنا موادّ كلّ باب على عدّة فصول.

يتضمّن **الباب الأول** من القسم الأول ، الفترة الليبية - النوميدية ويشتمل على خمسة فصول الأول في النشاط الرعوي والثروة الحيوانية والثاني في الزراعة والثالث في الصناعة والرابع عن دور المدينة والخامس عن التجارة والعملة، أمّا **الباب الثاني** فموضوعه الاحتكارات الاقتصادية في الشمال الأفريقي القديم، ويشتمل على فصلين الأول عن الاحتكارات القرطاجية والثاني عن الاحتكارات الإغريقية، وفي **الباب الثالث** عالجنا موضوع التحوّلات التي عرفها الشمال الأفريقي القديم في شأن استغلال الأرض خلال الفترة الرومانية، ويتكوّن من أربعة فصول الأول عن التحوّلات التي عرفها تنظيم استغلال الأرض والثاني عن المستثمرات الفلاحية والثالث عن التوسّع الزراعي والرابع عن نظام السقي الزراعي، وفي **الباب الرابع** وهو آخر أبواب القسم الأول ، تناولنا موضوع النمو الاقتصادي في ظلّ الاستعمار الروماني [خلال "عهد الإمبراطوري الاول (Haut-Empire)] من خلال خمسة فصول؛ الأول عن النمو الديمغرافي والعمراني والثاني عن الصناعة الأفريقية والثالث عن الطرق والرابع عن التجارة والخامس عن الضرائب الرومانية التي كانت أحد العوامل الأساسية في انهيار اقتصاد الشمال الأفريقي وتدهوُر أوضاعه الاجتماعية.

يشتمل القسم الثاني المخصّص للمجتمع على أربعة أبواب، عالجنا في **الباب الأول** موضوع مجتمع الشمال الأفريقي القديم عبر ثلاثة فصول الأول عن المنظومة الاجتماعية (القبيلة والعائلة) والثاني عن شعوب الشمال الأفريقي القديم والثالث عن أهمّ المجموعات القبلية، وفي **الباب الثاني** تناولنا موضوع أصول الشعوب الأمازيغية وهو الموضوع الذي كان محلّ نقاش كبير بين المؤرّخين، وتوزّع ذلك النقاش بين الروايات والفرضيات، وقد أبرزنا هذا الموضوع الهامّ من خلال أربعة فصول، الأول عن روايات المؤرّخين القدامى والثاني عن فرضيات المؤرّخين المحدثين والثالث عن المعطيات الأنثروبولوجية وختمنا هذا الباب بالتطرّق إلى موضوع اللغة في الشمال الأفريقي القديم لعلاقته الوطيدة بموادّ الفصول السابقة، وحيث أنّ المعتقدات الدينية في غاية الأهمّية في ما يتعلّق بالدراسات الاجتماعية فقد خصّصنا **الباب الثالث** لموضوع المعتقدات الدينية

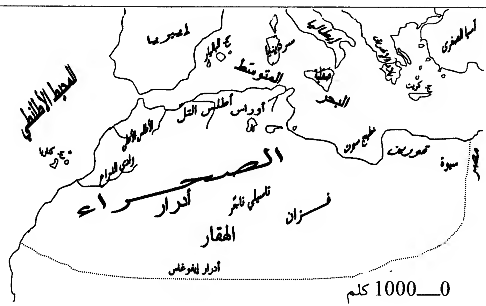
الأفريقية ويتوزّع هذا الباب على أربعة فصول، الأول عن الآلهة الأفريقية الكبرى والثاني عن طائفة صغار الآلهة والثالث عن تقديس المكان والحيوان وختمنا بفصل عن الاحتفاء بالآلهة، وإذا كانت الأبواب السابقة قد ركّزت على الفترة الليبية - النوميدية فإنّ الباب الرابع والأخير مخصّص لوضع المجتمع الأفريقي في ظلّ الاستعمار الروماني، الذي عالجناه في أربعة فصول، الأول عن الحياة الحضرية في أفريقيا الرومانية، والثاني عن الوضع اللغوي والاجتماعي والثالث عن إجراءات الكنطنة (الحشد والعزل) والرابع والأخير عن الدوناتية والثورة الريفية، وختمنا بإشارة موجزة إلى انهيار الاستعمار الروماني ونهاية التاريخ القديم.

لجمع مادّة هذه المحاصرات كنّا كمن يسابق الزمن، ولم ندّخر جهدا رغم ثقل الأعباء، للاطلاع على المصادر والمراجع والدراسات الحديثة، وكان لا بدّ من الاعتكاف في فترات متقطّعة في المكتبة الوطنية بكلّ من الجزائر وتونس، ومكتبة الجامعة المركزية بالجزائر وكذا مكتبة مديرية الوثائق والأرشيف بقسنطينة التي أحيّي عمّالها على المساعدة التي أسدوها إليّ في كلّ مرّة رغم طلباتي الملحّة والكثيرة.

لعلّ القارئ المطّلع سيلاحظ أنّ موادّ هذه المحاضرات تتجاوز مفردات المقرّر الوزاري- التي ركّزت على الفترة الرومانية - إلى مواضيع رأينا أنّه لا يمكننا بحال من الأحوال إهمالها حرصا منّا على تغطية الفترة التي يمثّلها التاريخ القديم، أي تقديم المشهد التاريخي للشمال الأفريقي القديم وافيا قدر الإمكان، والحال أنّ هذا العمل أُنجز في ظروف صعْبة، وما كان له أن يبصر النور لولا صدق العزيمة، والتشجيع من لدن العاملين المخلصين.

وعسى أن نكون بهذا الجهد المتواضع قد قدّمنا شيئا مفيدا.

الدكتور العربي عقون



الشكل (1) خريطة الشمال الأفريقي

.... حدود تقريبية

مدخل

يدرس الاقتصاد وهو أحد العلوم الاجتماعية الطرق والأساليب التي يستعملها الأفراد والجماعات في استغلال مختلف مصادر إنتاج وتوزيع وتنمية الثروة تباعا لإشباع حاجياتهم ويتناول الاقتصاد على الخصوص مجموع الأنشطة المتعلّقة بإنتاج وتوزيع واستهلاك الثروة ضمن مجموعة سكّانية معيّنة وأنماط تنظيم هذه الأنشطة، والإنتاج هو النشاط المتميِّز الذي ينمّي القدرات الاقتصادية، ويجعل الاقتصاد يتجاوز حدّ الاكتفاء الذاتي ليحصل التراكم الذي يستجيب لحاجيات المجتمع المتمدّن، وهذا يتمّ من خلال المبادلات (التجارة) حيث يلتقي العرض بالطلب (السوق)، وتتدخّل السلطة (الدولة) لتنظّم وتوجّه المعايير والموازين التي تسمح بتبادل المنافع، وبذلك يتكامل دور الدولة ودور السوق وتتمّ الدورة الاقتصادية في أحسن الظروف، ويهمّنا في التاريخ الاقتصادي الإشارة إلى أنّ الاقتصاد في بداية التاريخ القديم كان يهتمّ بالإشباع المباشر للحاجات (اقتصاد طبيعي) بحيث لا يتحوّل إلى سلعة أي أنّه ليس بحاجة إلى سوق فالمنتج لا ينتج من أجل التبادل بل من أجل الاستهلاك.[1]

إذا كان علم الاقتصاد في حدّ ذاته من العلوم الحديثة فإنّ التاريخ الاقتصادي - وهو فرع منه يلتقي فيه علم التاريخ بعلم الاقتصاد- ظهر منذ فترة قصيرة، فقد كان علم التاريخ منشغلا بالفاعلين السياسيين والدينيين على الخصوص وكان الاقتصاد مشغولا بحسابات الرواج والكساد وحركة رأس المال...الخ، ولكن التقاء العلْمين أخرج جوانب معرفية هامّة، كان العلْمان (التاريخ والاقتصاد) يفتقران إليها، أهمّها الكشف عن دورالاقتصاد كمحرّك قوي للتاريخ البشري، ومن هذا المجال المعرفي الجديد صيغت نظريات المادّية التاريخية والصراع الطبقي...الخ، وهي أهمّ التيارات الفكرية التي ميّزت القرن العشرين.

واكب ظهور التاريخ الاقتصادى ظهور صِنْوه التاريخ الاجتماعي في بدايات القرن العشرين، والاثنان يسيران دائما جنبا إلى جنب ويعملان على تقديم مقاربات في هذا المجال الهامّ ، وكأيّ علم في بداياته كان التاريخ الاقتصادي والاجتماعي عبارة عن رؤى وأفكار باحثين لا تتّفق في جميع الأحوال، ولكن ظلّ موضوعه يثير الحماس،

---

1 هذا الاقتصاد يتميّز بأنّه غير صناعي وغير سلعي والقيمة الاعتبارية فيه هي القيمة الاستعمالية فقط (Valeur d'usage) وهو غير نقدي وهو بالأساس اقتصاد زراعي،أنظر: عليّة (بشير)، القاموس الاقتصادي، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر،ط1، بيروت1985،ص ص 58-59.

وأخذت ملامحه في التشكّل والظهور تدريجيا في إطار نظريات ومبادئ قارّة، وكانت مجالاته ومفاهيمه الإبيستيمولوجية ميدانا لنقاش واسع بين الروّاد المتخصّصين، وكانت العلوم التاريخية أكبر مستفيد منه بحيث امتدّت الأبحاث الاجتماعية الاقتصادية إلى تاريخ الشعوب، وقد كانت قبل ذلك منحصرة في يوميات الطبقة الحاكمة، وبهذا المجال المعرفي الجديد يمكن رصد حركة القوى المجتمعية والدور الفعّال للعوامل الاقتصادية في حركة التاريخ عموما وهو الجانب الذي أهملته الدراسات التقليدية رغم أهمّيته.

يتمّ الحراك الاقتصادي والمجتمعي في مجال جغرافي محدّد ويقيم بالتدريج مجاله القائم على الانسجام والتكامل، ويكون تكيّف المجتمع مع بيئته الطبيعية راسخا بقدر ما يحسن الانتفاع منها، لأنّه يتعرّف تدريجيا على ما تختزنه من مصادر ثروة فيجتهد ليتعدّى حدود الاكتفاء إلى الرخاء، والبيئة الطبيعية في موضوعنا هذا هو هذا المجال الجغرافي الممتدّ من غربي حوض النيل إلى المحيط الأطلنطي وجزر الكناري ومن ضفاف البحر المتوسّط إلى هضبة الصحراء الكبرى، هذه المنطقة التي توزّعتها ثلاثية التلّ والسهوب والصحراء على الصعيد الجغرافي، وثلاثية الحضر والريفيين والجبليين على الصعيد الاجتماعي أو ثنائية البدو الرحّل والمزارعين المستقرّين[1]، هذه الأطراف تمثّل الفاعلين الاقتصاديين والاجتماعيين في المنطقة عبر تاريخها.

التنوّع في المناخ ومظاهر السطح هو ميزة إيجابية في الشمال الأفريقي، ولكن امتداد فترات الجفاف على حساب الفترات المطيرة من سلبيات الطبيعة في هذه المنطقة، ومن هذه السلبيات خلو البلاد من أنهار غزيرة دائمة الجريان تحقّق التوازن الطبيعي وتدعم الأنشطة الاقتصادية وخاصّة استغلال الأرض، وإذا كان انخفاض السطح في مصر قد سمح بجريان النيل شمالا نحو البحر المتوسّط وأنقذ مصر من جفاف مميت، فإنّ هضبة الصحراء الكبرى (آذرار إيفوغاس Adrar iforas) وقفت في وجه جريان نهر النيجر القادم من مرتفعات فوتا جالون باتجاه الشمال الشرقي وجعلته يميل باتجاه الجنوب الشرقي نحو بلاد غنية في مطرها وغطائها النباتي وليست في حاجة إلى مياه هذا النهر الذي يصبّ في خليج غينيا، والأخطر من ذلك هو أنّ الصحراء طغت في امتدادها، وظلّت تتوسّع حتّى أطلّت على المتوسّط بين السيرتين وعلى الأطلنطي بين وادي الدراع ونهر السينيغال، ولم تترك للمنطقة التلّية إلاّ شريطا ضيّقاً في الشمال، وإذا كانت

---

[1]-Rouissi(Moncer), Population et société au Maghreb, série horizion maghrébin, Éd. OPU., Tunis - Alger. 1983, pp. 28-30.

وأخذت ملامحه في التشكّل والظهور تدريجيا في إطار نظريات ومبادئ قارّة، وكانت مجالاته ومفاهيمه الإبيستيمولوجية ميدانا لنقاش واسع بين الروّاد المتخصّصين، وكانت العلوم التاريخية أكبر مستفيد منه بحيث امتدّت الأبحاث الاجتماعية الاقتصادية إلى تاريخ الشعوب، وقد كانت قبل ذلك منحصرة في يوميات الطبقة الحاكمة، وبهذا المجال المعرفي الجديد يمكن رصد حركة القوى المجتمعية والدور الفعّال للعوامل الاقتصادية في حركة التاريخ عموما وهو الجانب الذي أهملته الدراسات التقليدية رغم أهمّيته.

يتمّ الحراك الاقتصادي والمجتمعي في مجال جغرافي محدّد ويقيم بالتدريج مجاله القائم على الانسجام والتكامل، ويكون تكيّف المجتمع مع بيئته الطبيعية راسخا بقدر ما يحسن الانتفاع منها، لأنّه يتعرّف تدريجيا على ما تختزنه من مصادر ثروة فيجتهد ليتعدّى حدود الاكتفاء إلى الرخاء، والبيئة الطبيعية في موضوعنا هذا هو هذا المجال الجغرافي الممتدّ من غربي حوض النيل إلى المحيط الأطلنطي وجزر الكناري ومن ضفاف البحر المتوسّط إلى هضبة الصحراء الكبرى، هذه المنطقة التي توزّعتها ثلاثية التلّ والسهوب والصحراء على الصعيد الجغرافي، وثلاثية الحضر والريفيين والجبليين على الصعيد الاجتماعي أو ثنائية البدو الرحّل والمزارعين المستقرّين[1]، هذه الأطراف تمثّل الفاعلين الاقتصاديين والاجتماعيين في المنطقة عبر تاريخها.

التنوّع في المناخ ومظاهر السطح هو ميزة إيجابية في الشمال الأفريقي، ولكن امتداد فترات الجفاف على حساب الفترات المطيرة من سلبيات الطبيعة في هذه المنطقة، ومن هذه السلبيات خلو البلاد من أنهار غزيرة دائمة الجريان تحقق التوازن الطبيعي وتدعم الأنشطة الاقتصادية وخاصّة استغلال الأرض، وإذا كان انخفاض السطح في مصر قد سمح بجريان النيل شمالا نحو البحر المتوسّط وأنقذ مصر من جفاف مميت، فإنّ هضبة الصحراء الكبرى (آذرار إيفوغاس Adrar iforas) وقفت في وجه جريان نهر النيجر القادم من مرتفعات فوتا جالون باتجاه الشمال الشرقي وجعلته يميل باتجاه الجنوب الشرقي نحو بلاد غنية في مطرها وغطائها النباتي وليست في حاجة إلى مياه هذا النهر الذي يصبّ في خليج غينيا، والأخطر من ذلك هو أنّ الصحراء طغت في امتدادها، وظلّت تتوسّع حتّى أطلّت على المتوسّط بين السيرتين وعلى الأطلنطي بين وادي الدراع ونهر السينيغال، ولم تترك للمنطقة التلّية إلاّ شريطا ضيّقاً في الشمال، وإذا كانت

1 -Rouissi(Moncer), Population et société au Maghreb, série horizion maghrébin, Éd. OPU., Tunis - Alger, 1983, pp. 28-30.

الحضارات الكبرى القديمة قد نشأت على ضفاف الأنهار غزيرة الجريان ، حيث تمركَز الثقل البشري ونشأ العمران وازدهر الاقتصاد، فإنّ الثقل الديمغرافي تمركَز - في حال الشمال الأفريقي، نتيجة لعوامل طبيعية وأخرى استعمارية على الخصوص - في الجبال، والجبال تعيش دائما اقتصاد الحرب ولا تكاد تتجاوز حدود الاكتفاء الذاتي.

كان الشعب الأمازيغي في هذا التضادّ المادّي والبشري قد تنازعته حياة الترحال (البداوة) وحياة الاستقرار (الزراعة) وسيصارع الطبيعة وسيعمل على بثّ روح الحياة في الأرض التي استخرج منها الثروة فشيّد حضارة لا تزال آثارها قائمة، حضارة قادتها سيرتا في الداخل وقرطاج البونية في السواحل وقرطاج الرومانية في عموم الشمال الأفريقي القديم حتّى اندثرت ليقوم مقامها القيروان الذي كان إيذانا بفصل أفريقيا عن الغرب وتراجع الاقتصاد الزراعي أمام عودة الاقتصاد الرعوي حينا من الزمن، أمّا الوندال والبيزنطيون فلم ينشئوا مدنا وكانت فترتهم استنزافاً لا غير.

وجدنا ونحن نحرّر هذا العمل أنّ اعتماد اسم ثابت لهذه المنطقة ولسكّانها أمر غير متيسّر، فقد تعاقبت عليها تسميات ليبيا والليبيين وأفريقيا والأفريقيين والمغرب والمغاربة، ومنذ تعميم اسم أفريقيا على القارّة ظهرت تسمية أفريقيا الصغرى، وفي الجغرافيا السياسية اعتُمدت تسمية أفريقيا الشمالية أو الشمال الأفريقي (Afrique du Nord , North Africa) الدالّة على البلدان الأربعة: ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، ولم يتردّد البعض في اعتماد تسمية بلاد البربر[1] (Berbérie)، وإذا كان اسم موريتانيا القديم قد نزح جنوبا تاركا مكانه للمغرب (الأقصى) فإنّ اسم ليبيا - الذي كان شاملا لكلّ الشمال الأفريقي القديم ثمّ أخذ يتقلّص حتّى تلاشى - عاد من جديد مع مطلع القرن العشرين، وبقت الجزائر وتونس تحملان اسمي عاصمتيهما، والحال أنّنا استعملنا تباعا عدّة أسماء من بين التي ذكرناها، ولم نشأ اعتماد تسمية نمطية وللقارئ أن يختار ما يشاء، مع أنّنا نميل إلى التسمية الجغرافية: **شمال أفريقيا** وهي التسمية المستعملة كثيرا في بلدان الشرق العربي.

---

1 بعد أن استعرض شارل أندري جوليان عديد التسميات برّر تفضيله استعمال تسمية بلاد البربر قائلا: وأفضل تسمية هي بلاد البربر إذ أنّ سكّانها... من البربر...، وهو يقصد هنا البربر المستعربين والمحافظين على السواء، أنظر: جوليان (شارل أندري)، تاريخ أفريقيا الشمالية، ج1، تعريب محمّد امزالي وبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس 1969، ص 12 ، مع أنّ اسم البربر هذا لا وجود له في مصادر التاريخ القديم.

ذات الشيء يقال عن الشعوب التي تعمُر هذه البلاد فالدراسات تشير إليها بتسميات : **سكّان** (Populations)، **أهالي** (Indigènes)، **أصليون** (Autochtones)، **ليبيون**(Libyens)، **أفريقيون** (Africains)، **بربر**(Berbères)وأخيرا **أمازيغ** (Amazighs) وفي هذه التسميات بحثنا عن اسم جامع معتمَد فلم نجد، خاصّة وأنّ الكثير ينظر نظرة سطحية إلى الماضي البعيد من خلال الحاضر ويجعله رهنا له، فيربط الاسم باللغة دون غيرها من عناصر الهوية وقد لا ينتبه إلى أنّ الاسم له إطار زماني أيضا، ومع هذا كلّه يبدو أنّ تسمية أمازيغ أصبحت مقبولة إلى حدّ كبير، وكما هو الحال بالنسبة للبلاد، استعملنا على التوالي كلّ هذه الأسماء حسب السياق، ولم نقتصر على تسمية واحدة.

القسم الأول

اقتصاد الشمال الأفريقي القديم

الباب الأول

نظرة على اقتصاد الشمال الأفريقي
خلال الفترة الليبية النوميدية

الفصل الأول / النشاط الرعوي والثروة الحيوانية

1. الأغنام.
2. الفرس البربري.
3. الأبقار.
4. الأفيال.
5. الجمل.

الفصل الثاني / الزراعة من فجر التاريخ إلى الفترة النوميدية

1. البدايات الأولى للاستقرار الزراعي.
2. قِدم الزراعة في أفريقيا الشمالية.
3. قدم زراعة الحبوب.
4. السياسة الفلاحية في الفترة النوميدية.
5. الأملاك الملَكية.
6. الملْكية الزراعية.

الفصل الثالث / الصناعة النوميدية

1. النسيج والحلي.
2. الفخار.
3. الأسلحة.
3 .1- الرمح.
3. 2- السيف.

الفصل الرابع / المدينة الليبية النوميدية

1. ملامح المدينة الليبية النوميدية
2. تصنيف المدن ذات المنشأ الليبي النوميدي

الفصل الخامس / التجارة والعملة والضرائب

1. الأسواق.
2. العملة.
3. الضرائب.

الفصل الأول

النشاط الرعوي والثروة الحيوانية

كان النشاط الرعوي في الشمال الأفريقي القديم سابقا للنشاط الزراعي بكثير لأنّ استئناس الحيوان سبق استئناس المزروعات، كما أنّ الخصائص المناخية والنباتية جعلت المنطقة بيئة مناسبة لتربية الحيوان بامتياز(**أنظر أدناه الشكل3 ص23**)، وحتّى بعد ظهور الزراعة ظلّ النشاط الرعوي يحتلّ الدرجة الأولى كما تشير إلى ذلك الكثير من الدلائل الأثرية[1] وما قام به الملك ماسينيسا ما هو في الواقع إلاّ محاولة لإقامة توازن بين النشاطين الرعوي والزراعي وذلك دليل على تمتُّع هذا الملك برؤية اقتصادية معتبرة (وهي رؤية استراتيجية كما يقول الاقتصاديون المحدثون).

يستفيد الاقتصاد الرعوي من تنمية القطعان، فيتحصّل منها على الأصواف والجلود لصناعة الملابس الصوفية والجلدية والأحذية والسروج والدروع، فضلا عن المادّة الغذائية: الألبان والأجبان واللحوم،وهو ما جعل المؤرّخ الروماني سالوست يشيد باحتفاظ النوميد بأجسام قويّة لا تتسرّب إليها الأمراض وأرجع ذلك إلى أغذيتهم التي هي من موادّ حيوانية في الغالب[2]، ومثله بوليب الذي أشار إلى أنّ سكّان ليبيا يعيشون من قطعانهم وليس من الزراعة[3]، ولكن الاقتصاد الرعوي لا يصنع التمدّن لأهله ويتوقّف عند حدود الاكتفاء الذاتي في الغالب،وتنتفع منه "قطاعات اقتصادية" أخرى كالحرف والتجارة بحيث يزوّدها بالمادّة الأولية فيساهم في تنميتها وثرائها، ولذلك تكون الاحتكارات الفينيقية ومن بعدها القرطاجية قد وجدت في الشمال الأفريقي مصدر ثراء فاحش بأقلّ التكاليف لأنّ نتاج هذا الاقتصاد الرعوي كان يتّجه دائما نحو مصارفها المرفئية.

---

1 - Camps (G.). Origines de la domestication en Afrique du Nord et au Sahara. Revue française d'Histoire d'Outre-Mer. t. 63. 1978, pp. 363-376.
2 - Sallustius (C .C.) , Jug., XVII.
3 - Polybe. XII, 3, 34.

1. الأغنام

كانت البلاد الأفريقية آهلة بقطعان الأغنام والماعز والأبقار[1] وحتّى الحيوانات الضارية التي تهدّد الإنسان إلى الحدّ الذي جعله يعيش حياة الترحال لأنّه لا يأمن على نفسه من خطرها إن هو استقرّ في مكان واحد، وهو السبب الذي فسّر به المؤرّخون استئناس الأفريقيين القدامى بحياة البداوة والترحال التي وجدوا فيها الأمن والحرّية، وإذا استثنينا الشريط الساحلي فإنّ المناطق الداخلية لا تشجّع كمّية التساقط المطري بها على اعتماد الزراعة نشاطا أساسيا ومع أنّ التربة خصبة إلاّ أنّ الأمطار لا تكفي ولذلك كان التوجّه إلى تربية الأغنام، وهذا النشاط ظلّ لفترة طويلة المصدر الأساسي لمعاش السكّان وبه رسخت البداوة بنظامها الاجتماعي والاقتصادي.

سلالة أغنام وماعز الشمال الأفريقي قديمة ومميّزة، وإذا كان الفيل والفرس محلّ اعتبار السلط السياسية والعسكرية لدورهما الحربي فإنّ الكبش احتلّ مكانة هامّة في المعتقدات الأفريقية، ومن سلالة الغنم البربرية الجيّدة في صوفها، أغنام الميرينوس Mérinos (أو غنم بني مرين). ولا تزال أغنام المناطق السهبية في الجزائر من أجود سلالات هذا الحيوان، وكانت هذه الثروة الحيوانية بأعداد كبيرة فقد أشار القدامى إلى كثرة قطعان الأهالي من الأبقار والأغنام والجمال في الأرياف[2].

2. الأبقار

نستخلص من المصادر أنّ تربية الأبقار في الشمال الأفريقي القديم كانت واسعة الانتشار، كما أنّ مؤشّرات أركيولوجيا فجر التاريخ تدلّ على وجود هذا الحيوان بأعداد كبيرة تفوق ما هو موجود الآن[3]، وتنبغي الإشارة هنا إلى أنّ المستقرّين هم الذين يزاولون نشاط تربية الأبقار، وأنّ استعمال الثيران لجرّ المحراث لهو خير دليل على الجمع بين النشاطين الرعوي والزراعي، وهو ما يحرّر تربية الحيوان تدريجيا من البداوة ويضمّها

---

1 نوّه هوميروس بأغنام وماعز وأبقار ليبيا في ملحمته، Homère, Odyssée, IV, 85, 89.

2 - Corippus, Johannides, II, 93-5.

3 قدّمت لنا مواقع صيفار في طاسيلي ناجّر عيّنات من قطعان الأبقار (تعود إلى الفترة التي يسمّيها مؤرّخو الرسوم الصخرية بالمرحلة البقرية bovidienne époque الألف الثالثة إلى الألف الأولى ق.م.) ويرى كامبس أنّ عدد الأبقار استمرّت إلى نهاية الألف الثانية لأنّ الرسوم الصخرية احتفظت بصور عربات تجرّها الثيران، أنظر :

- Camps (G.). Aux origines de la Berbérie. Massinissa ou les débuts de l'Histoire, in Libyca, 1962, p.41.

ولو جزئيا إلى النشاط الزراعي[1]، وممّا يدعّم هذا الاستنتاج الرسوم الصخرية المصاحبة للنقوش الليبية في الشرق الجزائري وتونس حيث تتضمّن صورا لأبقار عليها إشارات كتابية ليبيّة[2]، وقد لاحظ الطبيعيون أنّ الشمال الأفريقي عرف سلالتين من هذا الحيوان إحداهما حديثة وهي المسمّاة علميًّا البقرالإيبيري (bos ibericus) والأخرى قديمة ومنقرضة اسمها العلمي البقر الأفريقي (bos africanus) وهي التي رسمها فنّان الرسوم الصخرية[3]، وظلّت هذه الثروة موجودة بأعداد كبيرة، يدلّ على ذلك ما جاء في المصادر وهوأنّ القائدالقرطاجي هاميلكار سلب عشرين ألف رأس[4] في غزوته الانتقامية من النوميد المجاورين للقطر القرطاجي.

3. الأفيال

اعتبر اقزال أنّ الفيل[5] يمكنه أن يعيش إلى الآن في الجبال الريفية وفي سفوح الأطلس المغربي، وهذا يجعلنا نستنتج أنّ انقراضه لا يعود إلى عوامل طبيعية، مع أنّ كامبس يشكّك في هذا الأمر ويرى أنّ استمرار هذا الحيوان إلى الفترة التاريخية كان بسبب الاحتفاظ به من قبل الإنسان في أماكن خاصّة موفّرا له ما يحتاج إليه[6]، والحال أنّ أهمّية هذا الحيوان تكمن في استعماله في الحروب فهو دبّابة الحروب القديمة، ولذلك كان

---

1 لا تزال تربية الأبقار المحلّية المسمّاة (وشتاتة)بالطريقة التقليدية بحيث يودعها أصحابها في الجبال الغابية في أواخر الخريف إلى بدايات الربيع ويتفقّدونها بين الحين والآخر،ويلاحَظ ذلك إلى اليوم في غابات الإيدوغ وبني صالح بناحية عنّابة،وغابات القل والأوراس.

2 - Soulignac (M.), Les pierres écrites de la Berbérie orientale (Est Constantinois et Tunisie) . Tunis 1928, figure 48.

3 - Espérandieu (Docteur) , Domestication et élevage dans le Nord de l'Afrique au Néolithique et dans la Protohistoire d'après les figurations rupestres , Actes du II e congrès pan africain de Préhistoire, Alger 1952. pp. 551-573.

4 وفرض عليهم دفع ألف طالنت فضّي .Orose. Adversus paganos. IV, 9. 9- وهذه الأرقام التي أوردها أوروس كانت محلّ نقاش فاعتبرها اقزال أرقاما مبالغا فيها Gsell (S.), H.A.A.N., V. pp. 179-180، في حين اعتبرها كامبس مقبولة وافترض أنّ غزوة هاميلكار تكون قد وصلت إلى المنطقة التلّية بين الإيدوغ وسوق أهراس وهي تقليديا منطقة تربية الأبقار إلى يومنا هذا .Camps (G.). Massinissa .... p.40 وما يهمّنا هنا هو أنّ البلاد كانت فعلا غنيّة بالثروة الحيوانية التي هي أساس اقتصادها على امتداد قرون.

5 الاسم البربري للفيل هو إيلو (Elu) وذُكر أنّه لم يكن له اسم في لغة الرومان فاشتقّوا اسمه من اللغة الليبية،ولعلّ التقارب الواضح بين إيلو وإيلفانت دليل اشتقاق الثاني من الأوّل،ولا تزال بعض الأماكن تحمل اسما مقترنا باسم الفيل أومشتقًا منه مثل الفنطاريا(El-phantaria)وهو اسم لوادي مابين قسنطينة والخروب،وهو نفس الاسم الذي يحمله مكان في سفح الأطلس المتيجي ومكان آخر بحوض مجردة: شنيتي(بشير)،الليمس الموريتاني ومقاومةالمور ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1999، ص291 ،وكانت إحدى القلاع المحيطة بسيرتا تحمل اسم قلعة الفيل(Castellum Elephantum)، أنظر: عقون(محمّد العربي)، من التاريخ البلَدي للجزائرخلال العهدالإمبراطوري الأول:الاتحادالسيرتي، دراسة في تاريخ وآثار ونظم سيرتا العتيقة،أطروحة دكتوراه،جامعة منتوري قسنطينة(2005)، ص 331.

6 - Camps (G.). L'éléphant berbère, Encyclopédie berbère - Cahier. t. 2. 1972, pp. 1-10.

سلاحا استراتيجيا وحسب أبيان كانت إسطبلات قرطاج تتسع لـ 300 فيل[1]، وقد قام أرماند بجرد أعداد الفيل الأفريقي[2] التي استعملت في الحروب من هذا الحيوان، فوصل العدد إلى 714، (**أنظر أدناه الجدول 2، ص 22**).

4. الفرس البربري

الخيل من أهمّ الحيوانات الأفريقيّة التي يدلّ ظهور صورها في العملة النوميدية إلى جانب الملوك على مكانة هذا الحيوان في الحظيرة الأفريقية، ولذلك كان محلّ اعتبار لدى الأمّة الأفريقية باعتبارها أمّة فروسية، ولقد كانت أفريقيا القديمة تصدّر بأعداد هامّة هذا الحيوان، وقد ذكر تيت-ليف أنّ الرومان أبرموا عدّة صفقات مع الملك ماسينيسا لشراء الخيل الأفريقيّة.

كان الحصان البربري (Le Barbe) أهمّ حيوان لاستخداماته العديدة في الحرب والسلم وكان أيضا عنوان الفخامة والأبّهة[3] (**أنظر أدناه ش2 ص22**) ومثل المواضيع الأخرى في تاريخ الشمال الأفريقي كان موضوع أصالة الفرس البربري محلّ نقاش بين المؤرّخين، وخلص هؤلاء إلى أنّه قديم الظهور اعتمادا على مضامين الرسوم الصخرية، وعلى العموم فإنّ ظهور هذا الحيوان كان بارزا مع بداية الفترة التاريخية، وذلك واضح من استخدام الغرامنت له في جرّ عرباتهم[4]، كما أشارت المصادر القديمة إلى استخدام الليبيين له في مطاردة الغزلان لصيدها[5]، هذا الحصان الذي كان عماد الحروب التي خاضها الملوك النوميد: ماسينيسا ويوغرطة ويوبا الأول، ويمتاز بالسرعة وسهولة الانقياد ومتوسّط طوله 1,50 م ولونه في الغالب رمادي، وهو محلّ تكريم قديما وحديثا، وكان قدماء البربر يحتفظون لكلّ فرس باسمه ونسبه وعند موته يقيمون له قبرا[6].

---

1 في دراسته القيّمة عن أفيال الجيش القرطاجي، استنتج الجنرال فيدارب أنّ الفيل الذي استعمله القرطاجيون في حروبهم هو الفيل الليبي الذي كان يعيش في غابات الجبال الأطلسية في نوميديا وموريتانيا، للمزيد أنظر :
- Faidherbe (Le Général), Mémoire sur les éléphants des armées carthaginoises, in B.A.H., n°3, pp.12-13

2 - Armandi (P.), Histoire militaire des éléphants , Paris 1843. s d., pp. 2025 .

3 ولا يزال الحصان في أفريقياالشمالية محل اعتبار في سباق الفروسية والفنطازيا، وموطنه السهول العليا في الجزائرعلى الخصوص:
-Aureggio, les chevaux du Nord de l'Afrique, Alger 1903. p. 87.

4 في رأي هؤلاء أنّ الحصان لا وجود له في آثار الباليوليتي الشمال أفريقي، وفي آثار النيوليتي توجد بعض الآثار الباهتة له، وأنّه جيء به من أفريقيا الشرقية (بلاد النوبة)، وللإطلاع على هذه الافتراضات يمكن الرجوع إلى:
- Gsell (S.), H.A.A.N., T. I, p. 61. et 230-232.

5 - Elien, Nat. Anim. XIV, 14.

6 عثر الأثريون على كتابة في شاهد قبر لفرس نقشت عليها العبارات الآتية:
يا ابنة الجيتولية هارينا! يا ابنة الجيتولي إيكوينوس!
سريعة في السباق مثل الرياح! وعلى مرّ الايام عـــذراء!
يا سبودوسا (Speudusa) الساكنة في ضفاف ليثي!(Léthé)
أنظر : - Lacroix (L.), Histoire de la Numidie et de la Mauritanie, Paris 1844, p. 60

السنة	العدد	السنة	العدد
200 ق.م.	1000 فرس	171 ق.م.	1000 فرس
198 ق.م.	200 فرس	170 ق.م.	1200 فرس
191 ق.م.	500 فرس		

الجدول (1) مجموع الخيول التي صدّرتها المملكة النوميدية إلى روما في عهد الملك ماسينيسا

5. الجمل

شكّل الجمل الأفريقي نقاشا كبيرا بين القائلين بأصالته اعتمادا على الرسوم الصخرية التي يظهر في بعضها مع محاربين وكتابات ليبية، والقائلين بأنّه حديث الظهور ومع أنّ قوتيي يقول بأنّ الجمل هو أفضل وسيلة لفكّ الحصار عن بلد تحيط به الصحراء[1] إلاّ أنّه استمرّ في إصراره على أنّ جمل الرسوم الصخرية إن لم يكن غير مستأنس فإنّه انقرض ولا علاقة له بجمل الفترة التاريخية[2]، والحال أنّ هؤلاء يستندون إلى المصادر الرومانية التي لم تذكره إلاّ عندما أصبح في عداد "الأسلحة" المستخدمة ضدّ روما، ولكن البحوث الحديثة المسنودة بالوثائق الأثرية كشفت عن وجود هذا الحيوان منذ المرحلة القفصية (بداية النيوليثي)[3]، ومن جهتنا نعتبره من حيوانات البدو الكبار ما وراء خطّ الليمس ولذلك لم تشر إليه المصادر الرومانية إلاّ في وقت متأخّر[4]، ولا شكّ أنّ أهمّيته تعدّت الدور التقليدي له- وهو نقل السلع على مسافات طويلة (تجارة القوافل) - إلى الجانب العسكري، منذ أن استخدمه كاباوون في مقاومته للبيزنطيين.

1 عن شنيتي (بشير)، الليمس الموريطاني ... ص 324.

2 أجود سلالة جمال في الصحراء الأفريقية هي سلالة "الجمل التارقي" ولا نعرف اسم الجمل في لهجة تامشق أمّا اسمه في باقي لهجات اللغة البربرية الحالية فهو آلغُم (ALµUM) وهو كما نرى مشتقّ من الاسم العربي مع حذق الحرف الأخير، كما تلقّمه سمع البربر من العرب في أوّل احتكاك بين الطرفين، وهذا ما جعل روني باسي رائد الدراسات اللغوية البربرية يعتبر أنّ الجمل في أفريقيا جاء مع الفتح العربي، وكان عليه أن يدقّق في الأمر، ويكون الاسم العربي احتمالا قد مسح الاسم البربري منذ أن أصبحت البيئة البدوية في أفريقيا الشمالية بيئة مستعربة، أمّا قوتيي فلم يعتدّ باستنتاج باسي معتبرا إياه لغويا وليس مؤرّخا، أنظر:
-Gautier(E.F.), le Passé de l'Afrique du Nord, les siècles obscures.. éditions Payot, Paris 1937, p.195

3 - Camps (G.), Berbères au marges de l'histoire, édition des hespérides, 1980, p. 126.

4 جاءت أول إشارة إليه في نصّ روماني في كتاب الحرب الأفريقية، الذي ذكر أنّ قيصر غنم من يوبا الأول عددا من الجمال (46 ق.م.)، وكذا في نصّ أثري من رادس (Maxula) يحدّد أقساط الرسم على السلع CIL VIII, 24512، ولا ريب أنّ هذا الحيوان قد نما بأعداد كبيرة لخدماته الهامّة إلى حدّ أنّ قبيلة تسمّت باسمه (تلاغمة = آيت تيلغمت) وتعني أهل الإبل.



الشكل (02): رسم صخري يمثّل الفرس البربري، موقع جرف التربة [ناحية بشار، الجزائر]



الشكل (3): قِدم النشاط الرعوي في الشمال الأفريقي:
قطيع أبقار (لوحة من تاسيلي ناجّر)

عدد الأفيال	الحرب التي استُعملت فيها	فترة الحرب
140	الحرب البونية الأولى	264-241 ق.م.
170	حرب الجند المأجور	241- 237 ق.م.
20	حرب أسدروبال في إسبانيا	228-221 ق.م.
140	الحرب البونية الثانية	218-201 ق.م.
80	معركة زاما	19 أكتوبر 202 ق.م.
44	الحرب الرومانية النوميدية (أفيال خسرها يوغرطة في إحدى المعارك)	111- 105 ق.م.
120	حرب أفريقيا (هذا العدد قدّمه الملك يوبا الأول لحلفائه البومبيين)	47- 46 ق.م.
714	المجموع	

الجدول (2) تعداد الأفيال الأفريقية التي استُعملت في الحروب.

الفصل الثاني

الزراعة من فجر التاريخ إلى الفترة النوميدية

كان الشمال الأفريقي القديم، يتوفّر على إمكانيات اقتصادية هامّة، وكانت الفلاحة قديما هي الركن الأساسي في الاقتصاد، وإذا كانت الجغرافيا لا تتغيّر كثيرا فإنّ هذه البلاد كانت تتوفّر على إمكانيات كبيرة يُستخلَص من المصادر أنّها كانت دائما تفوق حاجياته البشرية، ولم يحدث أن عرف الشمال الأفريقي الخلل الذي عرفته مناطق أخرى بحيث أنّ بعض الشعوب اضطرّتها الظروف إلى الهجرة والنزوح من أوطانها وحتّى غزو أوطان أخرى، وإذا كان وادي النيل وخاصّة الدلتا قد شهد تدفق عناصر ليبيّة تباعا وشارك بعضها في ما يعرَف بغزوات شعوب البحر، فإنّ ذلك لا يخرج عن نطاق النزوح الذي يتمّ داخل البلد الواحد، لأنّ الليبيين الشرقيين كانوا دائما يرون في مصر واحة في صحرائهم وهي كذلك فعلاً.

ظلّ الشمال الأفريقي القديم مكتفيا على الدوام، يعيش على إمكانياته التي توفّرها الأرض بسهولها الخصبة وطبيعتها المتنوّعة، ولذلك ظلّ الشعب الأفريقي في هذه البلاد لا يكاد يبرحها جيلا بعد جيل، وكان الشمال الأفريقي منذ أن نشأت الحضارات في شمال المتوسّط وشرقه منطقة جذب وصراع بين الشرق والغرب إلى الحدّ الذي جعله "مشتّتا" بين دواعي الجغرافيا وروابط الحضارة.

البدايات الأولى للاستقرار الزراعي

تدلّ الشواهد الأثرية على أنّ الزراعة في أفريقيا الشمالية القديمة أصبحت نشاطا اقتصاديا منذ نهاية النيوليثي، وليس هناك ما يشير إلى أنّ الإنسان القفصي كان قد مارس الزراعة، أمّا آثار فجر التاريخ فتدلّ على أنّ الإنسان الأفريقي كان يمارس الزراعة خلال تلك الفترة[1]، ويستخلص ذلك من الشواهد الآتية :

1 -Camps (G.), Massinissa ..., op. cit. pp. 73-74.

أ- **الرسوم الصخرية** : مثل مشهد حرث في كهف الأروية بالشافية (القال
ومشهد حرث آخر في الأطلس الأعلى.[2]

ب- **آثار التهيئة الفلاحية في تازبنت (ناحية تبسّة)** : لقد أبرزت الصور الجوية ا
التقطها باراداز آثار تهيئة يدلّ عليها تقسيم الأرض إلى مساحات مربّعة كانت تمار
فيها الزراعة منذ فترة باكرة، واستطاع باراداز أن يميّز بين آثار الفترة الرومانية وآ
الفترات السابقة لها.[3]

وقد استخلص عدد من الباحثين بأنّ الاحتلال الروماني وجد في أفريقيا الشم
منظومة زراعة وريّ وأنّ الرومان قاموا بتوسيع تلك المنظومة وتطويرها، وهو ما ج
شوفاليي يقول: "إنّ منشآت الريّ التي نظّمها الرومان وطوّروها هي منشآت ذات أص
محلّي"[4]. ومثله غابريال كامبس الذي استخلص بأنّ " منشآت الفلاحة والريّ في تازب
تشهد على العمل الفلاحي الذي قام به النوميد، وهو نتيجة محسوسة لسياسة ماسين
الفلاحية"[5]، ثمّ يستدرك بأنّ " هذا العمل ليس عملا فرديا بل هو دليل على أنه ع
تمّ في إطار اجتماعي - اقتصادي، يمكن اعتبار النمط الفلاحي المستمرّ إلى الآن في المنا
الجبلية عموما امتدادا له وهو نمط دلّت البحوث المتخصّصة على قدمه".

مع أنّ تربية الحيوان سابقة على الزراعة في الشمال الأفريقي القديم، إلاّ أنّ ظه
الزراعة في المنطقة قديم ويعود إلى النيوليثي وفجر التاريخ وما عُرف بثورة إنتاج الطعا
وهذا استنادا إلى المعطيات الأثرية (موقع الداموس الاحمر قرب تبسّة، الرس
الصخرية في الشافية بالقرب من عنّابة وفي الأطلس الأعلى في المغرب) فمن خا
الأدوات المكتشفة في المواقع الأثرية أمكن للباحثين القيام بجرد أولي لتلك الأدو
[كويرات مثقوبة Boules de pierre، حجارة سحق الحبوب Meules، منا
Faucilles، مطارق Herminettes، فؤوس Pics] ودورها في نشأة الزراعة الأفريقية
وأهمّ دليل أثري على الزراعة في فجر التاريخ هو ما يمكن التعبير عنه بالتهيئة الفلا
في تازبنت حيث تظهر من التصوير الجوّي أشكال رباعية للمساحات الزراعية، ليس

Morel (J.), les peintures de l'abri du moufflon et la station préhistorique du Hammam sidi djeballa, s la Cheffia (Est Constantinois) in Libyca, T. III , 1955, pp. 163-181.
Malhomme (J.), les représentations anthropomorphe du Grnad Atlas, in Libyca, T. 1, 953, pp. 373- 385.
Baradaz (le Colonel), Nouveaux éléments de Fossatum et hinterland productif du limes le Numidie. Acte de IV e congrès des Frontières romaines, Durham, 1959.
Chevalier (R.), la culture en terrasse en Afrique du Nord, annales:Economie, Société, Civilisations, 1956, pp. 42-50.
Camps(G.), Massinissa ... ,op. cit. , p. 74.

بالدقّة التي تدلّ على الكنترة، ممّا يدلّ على أنّها سابقة للفترة الرومانية، وقد توصّل العقيد باراداز إلى أنّ منطقة السهول العليا القسنطينية الممتدّة من بوطالب غربا إلى الحدود التونسية تتوفّر على دلائل عديدة على وجود زراعة في هذه المنطقة بجوار السباخ (البحيرات المالحة)، وقد أبرز البحث العلمي الفرق بين هذه التهيئة التي تعود إلى فجر التاريخ وأعمال الكنترة الرومانية.[1]

كانت أقدم زراعة هي زراعة الحبوب (قمح وشعير)، وهي سابقة كثيرا على وصول البحّارة الفينيقيين إلى المنطقة[2] وامتدّت إلى المناطق الصحراوية في بلاد الغرامنت[3]، وشهدت تطوّرا ملموسا في المنطقة التي ستصبح إقليما بونيا بجوار قرطاج وباقي المدن البونية والنوميدية، ولا نعتقد أنّ الزراعة في الشمال الأفريقي القديم تأخّر ظهورها إلى عهد ماسينيسا، بل إنّ ما فعله هذا الملك ما هو إلاّ تعميم وتوسيع للزراعة وتشجيع للبدو على الاستقرار لتحقيق التوازن بين الإنتاج الحيواني والإنتاج الزراعي.

لم يكن الانتقال من تربية الحيوان إلى الزراعة أي من البداوة إلى الاستقرار عملا سهلا، لأنّ التوسّع في المساحات المزروعة يقتضي الحدّ من مجالات الرعي والترحال لمن بقي من البدو، وهذا يعني تقسيم الإقليم إلى أرض زراعية وأخرى رعوية، والحال أنّ زراعة الحبوب لا تتعارض كثيرا مع تربية الحيوان لأنّ الحبوب تحتاج العمل فترتين في السنة (الحرث والحصاد)، وتربية الحيوان مكمّلة للعمل الزراعي لأنّها توفّر حيوانات الجرّ والنقل والدرس كما أنّ إراحة الأرض سنة تفسح المجال لتربية وتسمين الحيوانات والغذاء الحيواني والنباتي يكمّل بعضه بعضا، ولذلك يكون الشمال الأفريقي القديم احتمالا منذ القرن الخامس ق.م. قد وصل إلى التوازن ما بين تربية الحيوان والزراعة وتعايُشهما وتكاملهما ما عدا المنطقة الجنوبية (جيتوليا) موطن كبار البدو، حيث استمرّت فيها البداوة ولا تزال.

قِدم الزراعة في أفريقيا الشمالية :

إنّ آثار التهيئة الزراعة في تازينت (تقسيم الأرض إلى قطع Compartiments إحاطة كلّ قطعة بجدار صغير) تدلّ على أنّ النوميد عرفوا النشاط الزراعي من حرث وزرع وسقي في وقت مبكّر، وهو ما جعل شوفاليي يقول بأنّ: "...كلّ الدلائل تشير إلى

---

1 - Ibid., pp. 73-75.

2 - الفينيقيون فرع من الكنعانيين بدأ ذكرهم منذ الربع الأخير من الألفية الثانية ق.م. أنظر:

- Decret (F.), Carthage ou l'Empire de la Mer, collection le point éd. Le Seuil, Paris 1977 pp. 11-15.

3 - Hérodote, IV, 183.

أنّ المنشآت الفلاحية التي أقامها الرومان في وقت لاحق كانت تستند على أصول محلّية"[1]، ويدعّم جان ديبوا هذا الاستنتاج بقوله بأنّ: "... إرجاع كلّ المنشآت الفلاحية في أفريقيا القديمة إلى الرومان مسألة ينبغي مراجَعتها"[2]، ومن هنا تساءل غابريال كامبس قائلا: "... ألا تكون المنشآت الزراعية في ناحية تبسّة من ضمن نتائج سياسة ماسينيسا الزراعية"[3].

تشير المُعْطيات الأثرية من معاول وشظايا السيليكس التي عُثر عليها في القِطَع المهيَّأة بتازبنت (بالقرب من تبسّة) على أنّ الزراعة في تلك الجهة تعود إلى فترة باكرة، كان الأفريقيون أثناءها لا يزالون يستعملون الأدوات الحجرية، أمّا وجود مقبرة ميغاليثية في جبل مستيري المجاور فدليل على وجود استقرار سكّاني دام فترة طويلة سابقة لفترة حكم ماسينيسا، وهذا كلّه دليل على أنّ تلك الأعمال الزراعية لم تكن فردية بل كانت تتمّ في إطار اجتماعي اقتصادي خاصّ، لا تزال بعض الجوانب منه (زراعة المدرّجات culture en terrasses) مستمرّة في المناطق الجبلية[4].

درج المؤلّفون على نفي أصالة شجرة الزيتون في الشمال الأفريقي غير أنّ الأبحاث العلمية التي قام بها المتخصصون في علم النبات (Botanistes) أثبتت أصالة هذه الشجرة في المنطقة[5]، ففي دراسته عن الغطاء النباتي للأطلس الأعلى حدّد الباحث مار (R. Maire) العلو المناسب لنمو هذه الشجرة بـ 1000 إلى 1300م.[6]، وأنّ لشجرة الزيتون في الشمال الأفريقي ميزتها الخاصّة، فهناك نوع خاصّ منها يسمّيه علماء النبات زيتون البربر (Argan) يفضّل السكّان في السوس زيته، وهو ما يدلّ على أنّ شجرة الزيتون في أفريقيا الشمالية عموما شجرة محلّية عريقة بدليل وجود شجرة الزيتون البرية

1 - Chevalier (R.), la Centuriation romaine et la mise en valeur des sols dans la province d'Afrique, Géog. 22ème année, sept-oct. 1958, pp. 149-154.
2 - Despois (J.), la culture en terrasses en Afrique du nord, Annales Economie, Société, Civilisations, 1956, pp. 42-50.
3 - Camps (G.), Massinissa..., p. 74.
4 - Camps (G.), Données nouvelles sur les tombeaux du Djebel Mistiri d'après une note de M Latapie, Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie, t. 6-7, 1958-1959, pp. 229-242 .
5 - Bettendier et Trebut, Flore de l'Algérie, Alger, Jourdan 1888-90, p. 581; - Bonnet et Barette, Catalogue raisonné des plantes vasculaires de la Tunisie, Imp. Nat. 1896, p. 282, etc.
6 - Maire (R.), études sur la végétation et la flore du Grand Atlas et du Moyen Atlas marocains (Mém. S. Sc. Nat. Maroc), VII. 1924, pp. 18-22.

في جهات الهقار أيضا على علو 1400 م إلى 2000 م وهو علو مماثل لمناخ البحر المتوسّط[1].

3. قدم زراعة الحبوب

يمثّل القمح في الزراعة البربرية الجبلية الدرجة الثانية ولكنّه هو الأول في السهول، والقمح الصلب (Triticum durum) هو القمح المعروف في هذه البلاد منذ القديم، أمّا زراعة الشعير فتحتلّ المناطق الأقلّ خصبا مثل سفوح الجبال والمناطق الجافّة[2].

لقد تكيّف القمح الصلب مع مناخ هذه البلاد إلى درجة أنّ بعض الباحثين فكّروا في الأصل المحلّي لهذا القمح[3]، وإذا رجعنا إلى المصدر اللغوي نلاحظ أنّ كلّ الناطقين بالبربرية وإلى اليوم من واحة سيوة إلى المحيط الأطلسي يستعملون كلمة واحدة للدلالة على هذا المنتوج وهي (ئِرْذَنْ Irden) ممّا يدلّ على وحدة وقدم هذا المنتوج، وهو دون ريب سابق للوجود الفينيقي في البلاد الأفريقية، ومثل القمح يأتي الشعير كمنتوج هامّ يحمل هو الآخر اسما واحدا هو(ثِيمْزِينْ Timzin)[4] عند جميع الناطقين بالبربرية من واحة سيوة إلى جزر الكناري، وإلى جانب الحبوب كان الأفريقيون القدامى يزرعون الخضر والبقول والأشجار المثمرة ومن القاموس اللغوي استنتج الباحثون أنّ الأسماء البربرية لتلك المزروعات دليل على أصولها المحلّية[5]، (أنظر أدناه الجدول 3 ص 33).

4. السياسة الفلاحية في الفترة النوميدية: الأملاك الملَكية

يبدو أنّ إنتاج وتصدير القمح كان النشاط الاقتصادي الأساسي في المملكة الماسيلية، التي توسّعت بعد استكمال الوحدة، بحيث أصبحت تمتلك أراضي فلاحية شاسعة وخصبة في جهات السهول الكبرى والإمبوريا، وكانت أملاك الأسرة الملَكية تمثّل قسما كبيرا في تلك السهول، وقد أشار سترابون إلى أنّه (في أفريقيا) بعد الحصاد

---

1 سجّل ديودور أنّ أولياء الرهائن من أهل تيفست (تبسّة)، توجّهوا إلى القائد القرطاجي حانون (الذي غزا ونهب مدينتهم وأسر أبناءهم القرن الثالث ق.م.) وهم يحملون أغصان الزيتون طالبين الأمان متوسّلين إليه أن يعيد أبناءهم، وإذا صحّ ذلك فإنّ الزيتون في أفريقيا وناحية تبسّة قديم جدّا وهو سابق لوصول البحارة الفينيقيين بكثير، أنظر :
- Diodore de Sicile, XXXIV, fragments.

2 ويرى كاندول أنّ أصل هذا القمح هو أفريقيا الشمالية وإسبانيا، أنظر :
- De Candolle (A.) , Origines des plantes cultivées , Paris 1883, p. 289.

3 - Laoust (E.), Mots et Choses berbère, Paris 1919, p. 265.

4 حرف الزاي في ثيمزين ينبغي نطقه مفخّما كالجيم الفارسية،أو كنطق الزاي في كلمة زُوَّالي(فقير) البربرية.

5 وتعليل هؤلاء أنّ السلعة الأجنبية تحمل اسمها الأجنبي معها، ولو كانت هذه المزروعات أجنبية لما حملت أسماء بربرية! ألا نرى اليوم حتّى الأحياء في مدننا تحمل أسماء الشركات الأجنبية التي بَنَتْها.

يكفي تحريك التربة بأيّ وسيلة لكي تنبت الأرض زرعا جديدا من البذور التي سقطت خلال الحصاد[1].

أشار هيرودوت إلى خصوبة الأرض الأفريقية مقارنا إياها بخصوبة أرض بابل[2]، أمّا بوليب فقد أشار بأنّ نوميديا قبل ماسينيسا لم تكن لها أهمّية فلاحية وأنّ هذا الملك هو الذي جعلها منتجة، بسياسته الفلاحية التي حوّلت الأرض البور إلى أرض خصبة ومنتجة، وكان بوليب قد استضافه الملك ماسينيسا سنة 150 ق.م. قبل سنتين من وفاته، ويكون الملك قد حدّثه عن سياسته في استصلاح الأرض وتوسيع النشاط الزراعي، ومكّنه من معاينة الواقع الفلاحي بالمملكة، ولذلك يعتبَر شاهد عيان على الفلاحة الأفريقية في عهد ماسينيسا[3].

اعتنى ماسينيسا باستصلاح الأرض ولعلّ الاستقرار الذي تمتّعت به المملكة في عهده على امتداد حوالي نصف قرن، ساعده على ذلك، ويكون قسم كبير من الأراضي المستصلحة قد تحوّل إلى أملاك للعائلة الملَكية في عدّة جهات من المملكة، ويرى كامبس أن تلك الملْكيات الكبرى للعائلة الملكية النوميدية هي التي سيحوّلها الرومان إلى مستثمرات (اللاتيفونديا، الفندس والسالتوس...)، وأنّ المدن التي كانت تحمل صفة مدن ملكية كانت ضمن إقليم أملاك العائلة الملكية النوميدية. والحال أنّ الفلاحة وزراعة الحبوب بالخصوص في أفريقيا قديمة ولكن ما أضافه ماسينيسا هو حثّه رعاياه على المزيد من الاستصلاح فتضاعفت بذلك المساحات الزراعية [4].

الملْكية الزراعية:

يمكن أن نستخلص من المصادر وجود ملْكية زراعية منذ الملوك النوميد الأوائل، فقد ذكر ديودور الصقلّي أنّ ماسينيسا ترك لكلّ واحد من أبنائه 10000 بلاتر Plèthres (874 هكتارا)، ومعها كلّ المعدّات التي تتطلّبها الأعمال الزراعية[5]، وأشار سالوست إلى ازدهار الزراعة في عهد يوغرطة[6]. وهو ازدهار استمرّ في عهد يوبا الأول حسب نصّ الحرب الأفريقية، والدليل على وجود أملاك كبيرة (Domaines royales) هو سفر هذا

1 - Strabon, XVII, 3, 11.
2 -Hérodote, IV, 91.
3 - Polybe, L, 32, 2.
4 - Camps (S.), Massinissa..., op. cit., pp. 209-212.
5 - Diodore de Sicile, XXXII, 17.
6 - Salluste (C.C.), B. Jug. XVI.

الملك - وكان آنذاك لا يزال وليا للعهد - في مهمّة بتكليف من والده يمسال الثاني إلى روما، حيث رافع في مجلس شيوخها دفاعا عن حقّ الأسرة الملكية النوميدية في أملاكها التي توارثتها، منذ ملوكها الأوّلين داخل الإقليم القرطاجي الذي أصبح مقاطعة رومانية بعد سقوط قرطاج.

تدلّ الاحتجاجات التي قامت بها قبائل الموسولام، وهي احتجاجات تحوّلت إلى ثورة عارمة قادها تاكفاريناس (17-24 م) على وجود ملْكية الأرض ولكن لا نعرف إن كانت فردية أم جماعية، والأهمّ أنّ الأرض كانت من بين أسبابها الرئيسية إلى الحدّ الذي جعل تاكفاريناس يشترط إرجاعها إلى أصحابها مقابل وقف الحرب، أمّا الأراضي الرعوية فلا ريب أنّها كانت ملْكية جماعية تعود إلى كلّ أبناء القبيلة[1].

من الواضح أنّ إنتاج وتصدير القمح كان أهمّ نشاط اقتصادي في المملكة النوميدية، فقد كان توفّر الأراضي والمناخ الملائم من أبرز عوامل توسُّع هذا النشاط، وقد أشاد المؤرّخون القدامى بخصوبة الأرض الأفريقية ودور الملك ماسينيسا في ازدهار الزراعة الأفريقية، وفي هذا السياق يشيد بوليب بالملك النوميدي قائلا: إنّ ماسينيسا هو الملك الكامل والأسعد في عصرنا، لقد حكم أكثر من ستّين سنة، وتوفّي عن عمر يناهز التسعين، وكانت له بنية قوية تمكّنه من الوقوف في مكان واحد يوما كاملا[2].

---

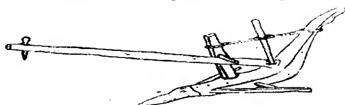
1 - Camps (G.). Massinissa..., op. cit. pp 251-252
2 - cité par Camps (G.), Ibid. , p. 211.



الشكل (04) الملك النوميدي، الأَقَلّيد ماسينيسا



الشكل (05) محراث بربري من المنطقة الأوراسبة



الشكل (06) محراث بربري من منطقة الريف



الشكل (07) محراث شمال أفريقي من الفترة الرومانية

المقابل الفرنسي	الاسم البربري	المقابل العربي
Blé dur	Irden......................ئرذن	القمح الصلب
Orge	Timzin............ثيمزين	الشعير
Mil, Sorgho	Afsu, Inelli , Illan.......أفسو ، ئنلّي ، ئلاّن	الدخن(الذرة البيضاء)
Ail	Tischert...........ثيسكرث	الثوم
Fèves	Ibawen..............ئباون	الفول
Grains de céréales	Imendi............ئمندي	بذور الحبوب
Poire	Afiras..............آفيراس	إجّاص
Pomme	Adeffu................أظفّو	تفّاح
Figue	Ametchi, Akermus. ....آمَتْشِي ، أكرموس	تين
Figue sèche	Azaire.......................أزار	تين مجفّف
Olive	Azemmur..................آزمّور	زيتون
Palmiers-dattiers	Tizdaïn.................. تيزدايين	النخيل
Raisins, Vignes.	Tizurin.................. تيزورين	العنب

الجدول (03) الأسماء الأمازيغية لأهمّ الأنواع الزراعية في الشمال الأفريقي القديم

المصدر:

- Laoust (E.), Mots et Choses berbères, Paris 1919.

- Mercier (G.), Les noms des plantes en dialecte Chaouia de l'Aurès, IN Acte de XIVe congrès international des orientalistes, Alger 1905, (Paris 1907) pp. 79-92.

الفصل الثالث

الصناعة النوميدية

لقد ظلّ النشاط الزراعي وتربية الحيوان هما النشاطان اللذان يستحوذان على أغلبية القوى العاملة، ومع ذلك ظهرت أنشطة حرفية صناعية لتلبية حاجيات المجتمع، ومن خلال المكتشفات الأثرية أمكن التعرّف على أهمّ تلك الأنشطة وما وفّرته من مصنوعات.

1. صناعة النسيج والحلي: دلّت الآثار على أنّ اللباس الكامل لقدامى الشمال الأفريقي يتكوّن من المعطف والجبّة وتحت الجبّة سترة (Tunique)، وتصنع أغلب الملابس من الصوف. كما دلّت رسوم سيقوس الصخرية على وجود البرنوس منذ فترة موغلة في القدم، وكانت صناعة الحلي شائعة وهي من الفضّة في الغالب[1] (أنظر أدناه الشكل 08 ص37).

2. صناعة الفخار: يقسّم كامبس الفخار الأفريقي إلى:

- فخّار نذري للأغراض الدينية.
- فخّار منزلي للأغراض العائلية.

أمّا اقزال فقسّم الفخار الأفريقي حسب اللون والزخارف إلى:

- فخار غير مزخرف كالقدور والصحون والمصابيح... .
- فخار مصبوغ ومزخرف، ويستعمل فيه على الخصوص اللونان الأسود والأحمر، وهو ما يميّز الزخارف الفخارية إلى الآن في جهة القبائل[2].

3. صناعة الأسلحة:

تتحدّث المصادر الأدبية عن الأسلحة التي صنعها واستعملها الأفارقة وجاءت الأبحاث الأثرية لتدعّم وتثري المعلومات التاريخية في هذا المجال، وأهمّ هذه الأسلحة:

---

1 حارش (الهادي)، التطوّر السياسي والاقتصادي في نوميديا (203-46 ق.م) رسالة ماجستير، جامعة الجزائر 1985، ص 120-122.

2 - Gsell (S.), H.A.A.N.. T. I, pp. 356-357.

3.-1.- الرمح: اعتبر اقزال الحربة سلاح البربر الوطني[1] وتشير المصادر إلى استعمال الليبيين: النوميد، المور والجيتول، الفرسان منهم والمشاة لهذا السلاح في الصيد وفي الحرب، وهو سلاح الهجوم الوحيد الذي يمتلكونه، وكانت مسافة الرمي بهذا السلاح تصل إلى الأربعين مترا وكان الأفريقيون يرمونها بنفس البراعة التي اشتهر بها الفرس والفرثيون (Parthes)، وكان كلّ فارس يحمل معه ثلاثة حراب على الأقلّ (صواري خشبية وأسنّة معدنيه حادّة) كما ورد في هيرودوت[2]، أمّا سيليوس الإيطالي فذكر بأنّ الحربة الليبية تُصنَع من القصب (Roseau)[3]، ولكن الرسوم الصخرية تدعّم ما جاء في المصادر الأدبية الأخرى بأنّ أسنّة (Pointes) الرماح الليبية كانت معدنية وهي مثلّثة الشكل يتّضح ذلك من النتوءات (Nervures) التي تظهر في وسطها.

عُثر على ثلاثة أسنّة نحاسية في موقع إيويلن (Ewelen) في هضبة الأيير النيجيرية في نصب يعود إلى العهد الإمبراطوري ويظهر في النصب محاربون يمسكون بحراب ذات أسنّة عريضة ، وهو ما نجده أيضا في النصب الليبية في عموم أفريقيا الشمالية (في المجال الجغرافي الذي يمتدّ عليه المغرب القديم) مثل نصب السوامع (قبائل جرجرة) الذي يعود إلى الفترة ما بين القرن الثالث إلى القرن الرابع ق.م. (أنظر أدناه الشكل 12 ص 38)، فإلى هذا التاريخ كان الرمح أهمّ سلاح استعمله المور[4].

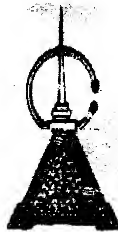
3.- 2.- السيف : تدلّ العديد من النصب على وجود السيف ضمن أسلحة محاربي الشمال الأفريقي القديم، ويُثبِت نصب عين خنقة (سيقوس) قِدم هذا السلاح في المنطقة وفي هذا النصب المعروض في ساحة متحف سيرتا يظهر محارب ليبي يمسك في يمناه الرمح وفي يسراه السيف[5] وأشار تيت ليف إلى أنّ السيف لم يكن واسع الانتشار إلاّ أنّه كان من بين الأسلحة التي استعملها الأفريقيون ولعلّه كان مقتصرا على فرق النخبة من الفرسان والمشاة أو طبقة القادة مثل الملك يوغرطة كما جاء على لسان سالوست: "... في تلك الأثناء أشهر يوغرطة سيفه وهو يقطر بدماء مشاتنا الذين قتلهم في المعركة"[6].

---

1 - Ibid., T. VI, pp. 49-50.
2 - Hérodote, VIII, 71.
3 - Silius Italicus, III, 304.
4 - Procope, Livre I, 8, 28. ; Livre II, 11-27.
5 هذا دليل واضح على وجود السيف لدى قدماء أفريقيا الشمالية، ويفنّد طروحات اقزال الذي ملأ كتابه بأحكام مسبّقة تصبّ كلّها في سياق واحد هو نفي أيّ إبداع عن الأفريقيين فكلّما تناول الحديث عن سلاح ما إلاّ وأجهد نفسه ليثبت بأنّه من صنع الرومان واليونان وحتّى السلتيين الذين ينتمي إليهم الغاليون... الخ.
6 - Jug. CI.

كانت الفرق النوميدية المجنّدة كفرق مساعدة في الجيش الروماني مسلّحة بالرماح والدروع لا غير كما يظهر في عمود تراجان بروما ولعلّ الفنّان الذي أنجز تلك اللوحة كان يقصد إبراز الأفريقيين بسلاحهم "الوطني"، وقد أشار كلوديان من القرن السادس إلى أنّ المور إذا فقدوا رماحهم يصبحون كالمجرّد من سلاحه لأنّ الرمح هو سلاحهم الوحيد[1]، وذكر بروكوب بأنّ المور إذا فقدوا الحراب والدروع فليس لهم سلاح آخر فعّال يحتمون به من العدو[2]، أمّا واقية الصدر التي تحدّثت عنها المصادر، فإنّ الأبحاث الأثرية لم تكشف بعدُ ما يدعّم ما جاء في تلك المصادر.

وعموما فإنّ صناعة الأسلحة تضاف إليها صناعة المعدّات الفلاحية هي صناعة معدنية، وتدلّ الآثار على وجود هذه الصناعة منذ العهد النوميدي.



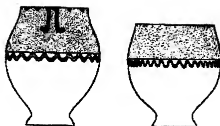
الشكل (08) حلية وتعويذة تجسّد الإلهة البربرية تانيت

B'Zim de Tlemcen, Abzim chez les Qbaïl, Thakhlalt chez les Chaouïa Source: Eudel (Paul), Dictionnaire des Bijoux de l'Afrique du nord (Maroc, Algérie, Tunisie, Tripolitaine)



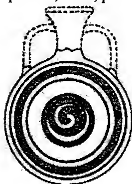
الشكل (09) : شكل يرمز إلى تانيت في النصب المخصّصة لها ويُلاحَظ الشبه الواضح بينه وبين الحلية.

1 - Bell. Gildon..., 435-6.
2 - Procope, Livre II, 10, 9.

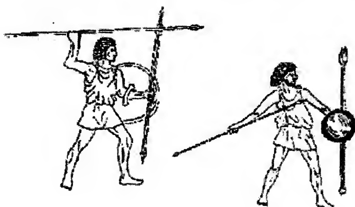


الشكل (10) آنية فخارية بربرية من موقع قسطل بالقرب من تبسّة

Source: Camps (G.), Berbères Aux marges de l'Histoire, éditions des Hespérides, 1980, p. 239



الشكل (11) آنية فخارية بربرية من بوشّن بالقرب من سيقوس



الشكل (12) محاربون مشاة أفريقيون (الرمحان ودرع مثبّت في الساعد)

الفصل الرابع

المدينة الليبية - النوميدية

المدينة في كلّ الحضارات هي مركز الإبداع والرقي، وهي أيضا مركز الأنشطة الحرفية والتجارية لأنّها تكوّن سوقا لسكّانها ولمحيطها الريفي كما توفّر لهم الخدمات، ويمكن القول أنّ المدينة في الشمال الأفريقي القديم ليست اختراعا أجنبيّا كما تريد بعض الطروحات المغرضة، وإذا كانت المدينة في أفريقيا القديمة متفتحة على حضارات أخرى أثّرتها في مراحل لاحقة، فإنّ نواتها وقاعدتها المجتمعية ظلّت دائما ليبية نوميدية أهلية[1].

ا. ملامح المدينة الليبية - النوميدية

إذا كنّا اليوم لا نكاد نجد آثارا للمدينة الأفريقية ما قبل الرومان فلأنّ العمران النوميدي اندثر وحلّ محلّه عمران الفترة الرومانية[2]، ولكن من خلال المقارنة والمقاربة يمكن أن نكوّن صورة عن معمار المدينة النوميدية من خلال شواهد العمارة الجنائزية التي لا تزال أطلالها هنا وهناك على امتداد الشمال الأفريقي، وخير مثال على ذلك ضريح إيمدغاسن وضريح الصومعة، وضريح صبراتة والجدّارات، فهذا المعمار الجنائزي الفخم يوجد بكلّ تأكيد ما يقابله من معمار مدني يساويه في الفخامة، يمكن استخلاص أشكال العمارة النوميدية منها ومن وريثتها العمارة المغربية، بل يمكن أن تنشأ مدرسة معمارية حديثة تستوحي أنماطها وأشكالها من هذه المعالم (أنظر أدناه، الأشكال13، 14، 15ص44).

يمكن اعتبار المدن الثلاث سيرتا، دوقّة وتيفست[3] نموذجا لأقدم المدن في أفريقيا الشمالية، وكان يمكن أن تنمو في شكلها المعماري الأفريقي الأصيل أكثر، لولا الاستعمار الذي قضى على السيادة الوطنية وأزال معالم الحضارة النوميدية ورموزها

---

1 -Lacoste(Y.)et autres, L'ALGERIE passé et présent, éditions sociales, Paris S. D., pp. 76-77.

2 هناك مؤشّرات أثرية عديدة على وجود معمار ليبي- نوميدي سابق للفترة الرومانية كما هو الحال في محيجبية وتيدّيس ولكن الأثريون لم يعتنوا بهذا الجانب، Gsell (S.), H.A.A.N.,V, p. 241, Note: 3

3 قدّر عدد سكّانها عندما غزاها القائد حانون القرطاجي(حوالي247 ق.م.) بـ15000 نسمة وهو عدد كبير حسب متوسّط سكّان المدن في ذلك العصر:
-Courtois(Ch.), les Vandales et l'Afrique, Paris 1955, pp. 107-108.

الفنّية وحمل إلى هذه البلاد فنونه وحضارته[1]، ومؤرّخ من فترة ازدهار الاستعمار مثل اقزال يصنّف المدن الساحلية في بلاد البربر إلى مدن ما بين خليجي السيرت، ومدن القطر القرطاجي والمدن النوميدية ما بين تابراكا ومولوشا وأخيرا مدن موريتانيا ما بين مولوشا وطنجة إلى ما يليها على الساحل الأطلنطي، ويكاد المؤرّخون يجمعون على أنّها من تأسيس فينيقي قرطاجي مع أنّه يحقّ لنا اليوم أن نتساءل عن حقيقة هذه "المسلّمة" التي يسوقها هؤلاء والتي لا تخلو من أحكام مسبّقة، وهو خلط بين نشأة المصارف الفينيقية في المدن المرفأية الأفريقية ونشأة تلك المدن في حدّ ذاها، ولكن الاحتكارات الفينيقية وبعدها الاحتكارات القرطاجية لن تدوم ففي عهد ماسينيسا عادت مدن ما بين السيرتين والمدن ما بين توسكا ومولوشا إلى السيادة النوميدية، وزال الطوق الذي ضربته الاحتكارات القرطاجية على المملكة النوميدية التي أصبح بإمكانها الارتباط بعلاقات مباشرة مع بلدان العالم الخارجي وأوّلها بلاد الإغريق وروما[2].

تمركزت بالمدن الأفريقية الساحلية مصارف تجارية (Comptoirs commerciaux) تحتكرها جاليات بونية، ولكن ذلك لن يدوم فقد عادت إلى السيادة النوميدية ولذلك سترتبط بظهيرها (Arrière pays) أكثر وخاصّة مدن الأسواق الكبرى (Emporia) ما بين السيرتين (صبراتة وأُويّة ولبدة) ممّا يعيد دورة النشاط الاقتصادي إلى المملكة عموما، ومن الطبيعي في اقتصاد فلاحي أن يكون القرويون والريفيون عموما أكثر عددا من الحضر، ولم نجد مسوّغا لتفسير هذا الوضع بميل النوميد والمور إلى الحياة القروية[3].

تمتّعت بعض مدن المملكة النوميدية باستقلال ذاتي اقتصادي وإداري لتسيير شؤونها، مكّنها من إصدار عملتها الخاصّة وانتخاب مجالسها البلدية، وفي ما يتعلّق بهوية بعض المدن التي يحاول بعض المؤرّخين خاصّة من ذوي النزعة السامية (Sémitistes) أنّها فينيقية بونية، نرى أنّ الترجمة لعبت دورا كبيرا، والإغريق يأخذون

---

1 يصنّف اقزال المدينة والقرية في الشمال الأفريقي القديم تصنيفا طريفا، وفي نظره أنّ المدينة فينيقية والقرية ليبية، وفي رأينا أنّ المدينة تستقطب الأجنبي أكثر باعتبارها المكان النموذجي للتبادل التجاري، ولا يعني وجود جاليات أجنبية في تلك المدن أنّها مدن أجنبية.

2 الدليل على ذلك الصفقات التجارية مع روما وبلاد الإغريق، وصادرات الحبوب إليها، وهو ما جعل الإغريق يقيمون تمثالا لماسينيسا، وحتّى ليمبسال الثاني.

3 وتشير المصادر في هذا السياق إلى أنّ ماسينيسا استرجع من قرطاج خمسين ما بين قرية ومدينة محصّنة،لأنّ ظهير قرطاج كان آهلا بالعنصر الليبي، أنظر: Tite - Live, XLII, 23.

عن القرطاجيين الترجمة البونية للاسم الليبي ولهذا الوضع ما يشبهه إلى الآن[1] وكذلك الشأن بالنسبة لأسماء الوظائف، فالوثائق القرطاجية التي أخذ عنها الإغريق والرومان لا تسمّي أغلب المدن والوظائف الإدارية باللغة الليبية ولكن تسمّيها مترجمة إلى لغتها فيأخذها عنهم الإغريق والرومان ويدوّنونها مترجَمة في كتبهم، ليتّخذ منها مؤرّخو العصر الحديث ذريعة لاعتبار كلّ شيء في أفريقيا القديمة كان فينيقيا - بونيا وأصبح رومانيا لاتينيا ولا أثر للفعل الحضاري الليبي النوميدي الموريتاني!.

اكتفى سترابون بذكر ثلاث مدن مرفأية في الساحل النوميدي (ماسيسيليا) هي المرسى الكبير (Portus divini) ويول (Iol = Cherchel) وبجاية (Saldae)[2]، ولعلّه اكتفى بذكر الأهمّ وترك الباقي، وهذه المدن كانت مرتبطة بالاحتكارات الفينيقية القرطاجية، كما بيّنته الحفريات الأثرية التي كشفت عن رواج التجارة بينها وبين المدن المقابلة لها على الساحل الإيبري[3]، والحال أنّ الوضع القانوني لمدن أفريقيا القديمة "المعتبَرة" مصارف فينيقية-بونية، ظلّ محلّ نقاش بين الباحثين، ومن جهتنا نرى أنّ الفينيقيين والقرطاجيين من بعدهم ليس لهم إلاّ الاحتكار التجاري، ولا تتعدّى سلطتهم الميناء - المصرف (Port- Comptoir) فالسيادة كانت للشعب الأهلي وللملوك وأعيان القبائل فقرطاج مهما تكن قوّتها لا تستطيع فرض سيطرتها بالقوّة على هذه المدن، وكلّ ما في الأمر أنّ الامتيازات الفينيقية القديمة جرى بها العمل وأصبحت تقليدا تجري على منواله حياة هذه المدن التي لا ريب أنها كانت تتمتّع باستقلال ذاتي، وكانت لها هيئاتها البلَدية بحسب ظروف كلّ مدينة أو بحسب معاهدة أو تسوية مرحلية (Modus vivendi) لتنظيم تعايُش قديم، وهذا الوضع أنتج تعايُشا بين السيادة الأهلية والاحتكارات القرطاجية، وإذا اتّضح بأنّ مدينة ما من هذه المدن ذات أهمّية كبيرة

---

1 من يعرف من الأجانب الأباعد خاصّة بأنّ اسم الجزائر عند أهلها هو دزاير؟ ومن يعرف بأنّ توبونيميا الكثير من المناطق مزدوجة اللغة (عربية أمازيغية) كلّها مترجمة، ماعدا النادر الذي لم تجد له العامّة معنى فبقي أمازيغيا، هذا دون الحديث عن التجاهل المقصود من مؤرّخي العصر الحديث للغة الليبية واللهجات البربرية المنحدرة منها في الكشف عن أصول أسماء الأماكن،ولا يخفى على الباحثين أنّ المكان يستمدّ هويته من اسمه ولعلّ ذلك السبب هو الذي يقف وراء هذا الإبعاد الذي نعتبره مقصودا،فمؤرّخ مثل موفارس وهو ألماني لم يكلّف نفسه عناء البحث عن أصل اسم تيفست (تبسّة القديمة) في لغة البلاد أو على الأقلّ اعتبار الأصل المحلّي من بين الاحتمالات، ولكن انتقل بنا آلاف الكيلومترات إلى صعيد مصر محاولا مطابقة اسم تيفست باسم مدينة طيبة (Thèbes)، أنظر : cf. Camps (G.) , Massinissa ..., op. cit. , p. 42, note 136 ؛ مع أنّ الاسم في صيغته أمازيغي واضح (بداية ونهاية الاسم المؤنّث بحرف التاء كما هو معروف...) إنّها طريقة ليّ العنق والقسم بأغلظ الإيمان بأنّ طرابلس تعني التراب اليابس على حدّ قول أحدهم، وكان الأمر عاديا لو توقّفت مثل هذه النوادر عند العامّة ولكن الطريف هو أن تغزو البحوث "العلمية" وتتجوّل في أروقة الجامعة.

2 - Ibid. p. 170.

3 - Vuillemont (G.),Vestiges puniques aux andalouses, in B.S.G.O. T. LXXIV, 1951, pp. 55-73.

للمملكة فإنّ الملك بامكانه وضع حدّ للاحتكارات القرطاجية وذلك هو حال ميناء سيقا (Portus sigensis) عند مصبّ التافنا الذي تشير الوثائق الأثرية إلى رجوعه تحت السيادة التامّة للملك سيفاكس (206 ق.م.)، ومثله ميناء ثابسوس-روسيكاد -Thapsus) (Rusicade الذي استرجع ملك ماسيليا (نوميديا الشرقية) سيادة مملكته التامّة عليه (205 ق.م.) مع أنّ هذين الميناءين كانا في الأساس تحت الخضوع التامّ للاحتكارات الفينيقية القرطاجية[1].

2. تصنيف المدن ذات المنشأ الليبي - النوميدي :

في ما يلي تصنيف للمدن الأفريقية حسب درجتها ووظيفتها :

أ- عواصم :

العاصمة	الملوك
سيرتا (CIRTA) [قسنطينة ، الجزائر]	سيفاكس ، ماسينيسا ، ميكيبسا
سيقا (SIGA) [سيقا ، الجزائر]	سيفاكس ، بوكوس ؟.
يول (IOL) [شرشال ، الجزائر]	ميكيبسا ، بوكوس الثاني ، يوبا الثاني
بولّة ريجيا (BULLA REGIA) [حمّام الدرّاجي ، تونس]	الملك المنشقّ يارباص
زاما (ZAMA) [جاما ، تونس]	يوبا الأول

ب- مدن ملَكية :

الاسم القديم	الاسم الحديث
ثيميدا ريجيا (THIMIDA REGIA)	سيدي علي (تونس)
زاما ريجيا (ZAMA REGIA)	جاما (تونس)
بولّة ريجيا (BULLA REGIA)	حمّام الدرّاجي (تونس)
هيبو ريجيوس (HIPPO REGIUS)	عنّابة (الجزائر)

1 - Camps (G.) , Massinissa ..., op. cit. , p. 173.

جـ - مدن مقرّ خزينة الدولة (مركز دائرة جبائية):

الاسم القديم	الاسم الحديث
مكثر (MACTHAR)	مكثر (تونس)
ثيميدا (THIMIDA)	سيدي علي (تونس)
ثالة (THALA)	ثالة (تونس)
كابسا (CAPSA)	قفصة (تونس)
سوثول (SUTHUL)	جهة سوق اهراس (الجزائر)
كالاما (CALAMA)	قالمة (الجزائر)
سيرتا (CIRTA)	قسنطينة (الجزائر)
مولوشا (MULUCHA)	على وادي ملوية ؟ (المغرب)

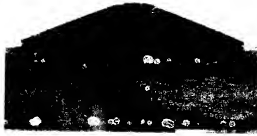
د- مدن بلدية Villes municipales :

الاسم القديم	الاسم الحديث
ألتيبوروس (ALTHIBUROS)	مْدَيْنة (تونس)
كالاما (CALAMA)	قالمة (الجزائر)
كابسا (CAPSA)	قفصة (تونس)
سيرتا (CIRTA)	قسنطينة (الجزائر)
قاديوفلة (GADIAUFALA)	الصبيحي(الجزائر)
غالس (GALES)	خروبة (تونس)
لتيس ماقنا (LEPTIS MAGNA)	لبدة (ليبيا)
ليميسا (LIMISA)	قصر لمسة (تونس)
مكثر (MACTHAR)	مكثر (تونس)
ماسكولولة (MASCULULA)	هنشير قرقور (تونس)
ثوقة (THUGGA)	دوقة (تونس)

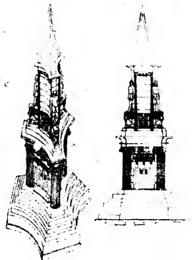
هـ- مدن ذات منشأ نوميدي ازدادت نموا في الفترة الرومانية :

الاسم القديم	الاسم الحديث
كاماراتا (CAMARATA)	سيدي جلول ، ناحية تلمسان (الجزائر)
قونوقو (GUNUGU)	سيدي ابراهيم ، ناحية شرشال (الجزائر)
إيكوسيم (ICOSIM)	الجزائر العاصمة (الجزائر)
لارس (LARES)	الاريص (تونس)
ماسكولة (MASCULA)	خنشلة (الجزائر)
ماكوماداس (MACOMADES)	أم البواقي (الجزائر)
ماداوروس (MADAUROS)	مداوروش (الجزائر)
ناراقارا (NARAGGARA)	سيدي يوسف ، ناحية سوق اهراس (الجزائر)
ريجياي (REGIAE)	أغبال ، ناحية وهران (الجزائر)
روسيكاد (RUSICADE)	سكيكدة (الجزائر)
صالداي (SALDAE)	بجاية (الجزائر)
سيكا (SICCA)	الكاف (تونس)
سيميتو (SIMITTHU)	شمتو (تونس)
ثيناي (THENAE)	هنشير طين ناحية صفاقس (تونس)
تاقورة (THAGURA)	طاورة (الجزائر)
تيميسي (TIMISI)	قلعة بناحية الشلف (الجزائر)
تيسيديوم (TISIDIUM)	قريش الواد (تونس)
واقا (VAGA)	باجة (تونس)
زوكابار (ZUCCHABAR)	مليانة (الجزائر)

نماذج من العمارة الجنائزية النوميدية :



الشكل (13) ضريح المدغاسن محيط قاعدته 59 م. (صورة التقطها المؤلّف 2004)



الشكل (14) ضريح صبراتة.



الشكل (15) ضريح الخروب كما كان في عهد الملوك النوميد من تصميم : ف. راكوب (F.Rakob)

الفصل الخامس

التجارة والعملة والضرائب

تحتلّ الحبوب في الزراعة الأفريقية المكانة الأولى وعلى الأخصّ القمح والشعير والدخن (الذرة البيضاء) لأنّ زراعتها هي الأقدم، وطبيعي أن تكون السلعة الرئيسية في التجارة الخارجية، النوميدية، وظلّت تتطوّر بازدياد المساحة وتنوّع البذور إلى عهد ماسينيسا بدليل إعجاب بوليب بالزراعة النوميدية خلال مجيئه إلى أفريقيا مع سيبيون الإيميلي ولقائه بماسينيسا، وقد أصبح الشمال الأفريقي القديم مصدّرا للحبوب خاصّة القمح والشعير نحو اليونان وعلى الخصوص نحو روما، وهو ما دوّنه تيت ليف[1] في تاريخه بخصوص الصادرات النوميدية من القمح والشعير نحو روما ويتمثّل في الأرقام الآتية:

السنة	الكمّية (بالقنطار)	المادّة
200 ق.م.	14.000	قمح
	10.500	شعير
198 ق.م.	14.000	قمح
191 ق.م.	28.900	شعير
	56.000	قمح
170 ق.م.	70.000	""

الجدول (04) صادرات نوميديا من القمح والشعير نحو روما في عهد الملك ماسينيسا

أقام الديليون (سكّان جزيرة ديلوس الإغريقية) تمثالا لماسينيسا عرفانا له، نظير الهبة التي قدّمها لهم سنة 179 ق.م. وقدرها 11600 قنطار من القمح، كما شيّد له التجار الروديون بدورهم تمثالا، وكانوا يستوردون من المملكة خشب التويا والعاج[2].

---

1 - Tite-Live, XXXI, 19.; XXXII.27; XXXVI. 3; XLIII, 6.

2 كما أقام له الملك نيقوميدوس (Nicomède) تمثالا، اعترافا بالجميل لدعمه له ضدّ خصمه بروسياس (Prusias)، أنظر:
- Camps (G.), Massinissa …. op. cit. p. 199.

السنة	الكمّية (Boisseux)	المادّة
200 ق.م.	200.000	قمح
	200.000	شعير
198 ق.م.	200.000	قمح
	200.000	شعير

الجدول (05) صادرات نوميديا من القمح والشعير نحو اليونان في عهد الملك ماسينيسا

1. الأسواق

يمكن استنتاج وجود أسواق أسبوعية وأخرى موسمية في شكل معارض كبرى، رغم قلّة الوثائق التي تلقي الضوء على التجارة الداخلية في المدن وخاصّة الأرياف النوميدية ولعل تلك التجارة الداخلية هي التي لعبت دورا هامًّا في ازدهار العاصمة سيرتا ذاتها لأنّها ملتقى سلع الشمال بسلع الجنوب، ولعلّ الأسواق التي تحمل أسماء الأيام التي تقام فيها في أيامنا هذه هي امتداد لذلك النظام القديم، ويكون الكثير من تلك الأسواق قد تحوّل إلى قرى أمّا الأسواق الموسمية أو السنوية فخير مثال عليها هو سوق الخريف بتكوت (باتنة) الذي ظلّ يقام كلّ خريف إلى عهد قريب، وحسب اغزال فإنّ أغلب المدن النوميدية كانت أماكن تقام فيها أسواق مثل ماكوماداس (بالقرب من أم بواقي) التي كانت حسبه سوقا للنوميد والجيتول منذ عهد الملوك وتيفست هي الأخرى يمكن أن تكون سوقا كبيرة ثمّ تطوّرت إلى مدينة، وكانت باجة سوقا للحبوب، وعرفت الأرياف التجار المتجولين منذ عهود قديمة، وفي الفترة الرومانية ستظهر الأسواق نصف الشهرية[1].

2. العملة النوميدية:

العملة هي عنوان الشخصية الوطنية والهوية الحضارية والاستقلال الاقتصادي وقد وجد الأثريون خلال أبحاثهم وحفرياتهم عددا كبيرا من القطع النقدية من معدني البرونز والرصاص تعود إلى الملوك النوميد والموريتانيين، وتحمل العملة النوميدية في

1 -Gsell(S.), H.A.A.N., T.VI, pp. 60-80.

الغالب صورة ملك ملتحٍ على رأسه إكليل الغار، وعلى الجهة الأخرى صورة حصان في حالة عدْو[1]، كما عثروا على عملات كثيرة لممالك ومدن البحر المتوسّط[2] في المدن النوميدية وخاصّة العاصمة سيرتا[3]، وهذا يدلّ على أنّ التجار الأجانب الذين يحملون معهم عملاتهم كانوا يزاولون نشاطهم في مدن البلاد وحتّى أريافها، وهو امتياز تحصّلوا عليه من ملوك البلاد، بحيث نلاحظ قلّة اهتمام النوميد عموما بالنشاط التجاري وتركيزهم على الفلاحة (زراعة وتربية حيوان)، فمنذ أن حلّ الفينيقيون بالبلاد لم نجد في المصادر ما يشير إلى منافسة نوميدية في هذا المجال، ممّا جعل العملة "الأجنبية" أكثر رواجا في المملكة، وفي رأينا أنّ العملة النوميدية كانت حاضرة أمّا تداول العملة الأجنبية أكثر فمردّه إلى أنّ الصفقات الكبيرة يدفع فيها الطرف النوميدي السلع أمّا الطرف الأجنبي فيدفع النقد، وذلك ما يفسّر التداول الكبير للنقد الأجنبي[4]، وهذا لا يعني أنّ النقد النوميدي غير متداول خارج البلاد، فلقد عُثر على كنز أثري هامّ بكرواتيا يعود الى العام 89 ق.م. - أي بعد وفاة ماسينيسا بحوالي 60 سنة - يضمّ 328 قطعة نقدية نوميدية[5]، وهذا دليل مادّي على رواج العملة والتجارة النوميدية في عهد الملوك.

إذا كان إصدار العملة النوميدية قد تضاعف في عهد ماسينيسا، فإنّ الإصدار الأوّل كان قبل ذلك بكثير، وهذا النمو في الكتلة النقدية النوميدية دليل على اقتصاد مزدهر، وكان لسيفاكس (Syphax) ملك نوميديا الغربية (ماسيسليا) هو الآخر عملته التي حمل بعضها صورته والبعض الآخر صورة ابنه ورمينا (Vermina) ولعلّ صدور هذه العملات الأفريقية كان متزامنا مع إصدار قرطاج لعملتها التي سُكّت في صقلية ثمّ في قرطاج بعد ذلك، ويستفاد من نتائج البحث الأثري أنّ العملة القرطاجية لم تكن

---

1 كان الأثريون قد رجّحوا أن تكون الصورة للملك ماسينيسا وتأكّدوا من ذلك بعد العثور على قطعة نقدية تحمل الاسم الكامل لماسينيسا بالحرف البوني (م س ن س ن)، واختصاره (م ن)، وهو الاختصار الذي تحمله أغلب القطع، ومنه الاختصار (AL) ويعني أدربال والاختصار (GN) ويعني غودن (غودة)، أمّا الاختصار هـ ت (HT) الذي يختصر كلمة همملكت فقد فسّره الأثريون بعبارة الذات الملَكية (Personne royale)، ويتّضح لنا في مقارباتنا اللغوية أنّ الكلمة بونية بصبغة ليبية (أمازيغية) فالمختصّون في اللغة والألسنية البربرية يقدّمون لنا الدليل على هذا الافتراض وهو أنّ البادئة ت أو تا في أوّل الكلمات المؤنّثة البربرية تتحوّل في لهجة بعض قبائل جبل أوراس أو في لهجة شنوة إلى هـ، وعليه فإنّ همملكت هي تامملكت أي المملكة.

2 - Charrier (L.). Description des monnaies de la Numidie et de la Maurétanie,Macôn 1912, p. 10.

3 عُثرعلى العملةالنوميدية في مناطق متوسّطية عديدة في إسبانياوفرنسا وإيطاليا واليونان. كما عُثر على عملات مدن هذه البلاد في عديدالمواقع النوميدية، أنظر: .Gsell(S.)H.A.A.N., T., VI, pp. 80-81-

4 وهوماجعل مروّجي التشهير بالعجز الأفريقي يسارعون إلى تركيب استنتاجات استعجالية،مفادها الظهور المتأخّر للعملة"الوطنية"الأفريقية في كلّ من نوميدياوموريتانياعلى السواء،وحتّى في حديثهم عن العملة النوميدية يجهد القوم أنفسهم في إثبات سكّها في هذه الجهة الأجنبية أو تلك... الخ.

5 - Gsell(S.), H.A.A.N., T. V, p. 158, note 3.

رائجة في كلّ المملكة النوميدية وأنّ تداولها كان مقتصرا على المدن الليبية التي ضمّتها المملكة[1] وعلى العموم فإنّ الاقتصاد النوميدي يكون قد تحوّل من اقتصاد طبيعي[2] إلى اقتصاد نقدي منذ القرن الثالث ق.م. على الأقلّ، بتحوّل المعاملات التجارية إلى معاملات نقدية خاصّة في المدن، وتكون المقايَضة (وهي تبادل مباشر، ولهذا السبب قد يفضّلها البعض من الريفيين) قد استمرّت إلى حدّ ما في الأرياف، والحال أنّ المقايَضة لم تُلْغَ تماما عبر العصور وهي مستمرّة إلى الآن بشكل أو بآخر، وعلى الخصوص في حال تدهوُر العملة أو وقوع تضخُّم... .

كانت صادرات المملكة النوميدية مصدرا أساسيا للعملات الأجنبية (لعلّه شبيه لما نسمّيه اليوم العملة الصعبة) في مقابل السلع النادرة التي تسوّقها باتجاه موانئ البحر المتوسّط، خاصّة بعد تحرير المدن الساحلية المرفأية وزوال الطوق القرطاجي مثل ريش وبيض النعام، حيوانات السيرك، الحيوانات المستعملة في الحروب (الخيول والأفيال)، خشب التويا (Thuya)، وتساءل البعض عن سبب عدم إصدار عملة ذهبية نوميدية، والحال أنّ العملة الذهبية كانت مظهرا للأبّهة أكثر من الضرورة الاقتصادية، ولعلّ الملوك النوميد والموريتانيين فضّلوا الاحتفاظ بالذهب في خزائنهم لوقت الحاجة إليه، طالما أنّ العملة المصنوعة من المعادن الأخرى تقوم بالدور المنوط بأيّ عملة.

ذكرت المصادر عددا من المدن كان مقرّا للخزينة الملكية: سيرتا العاصمة، سوثول، تالة، كابسا...، ويستفاد من ذلك أنّ هذه المدن كانت مقرّات جهوية للإدارة المالية التي تقوم بدفع رواتب الموظّفين والعمّال في تلك الأقاليم ودورها في ذلك شبيه بدور البنوك اليوم، وكانت هذه الخزائن تحتوي على "رصيد" نقدي كبير، يدلّ على ثراء واسع، جعل شيشرون يقول إنّ يوبا (الأول) له من المال بعدد شعر رأسه[3]، وجعل متلوس يشترط على يوغرطة دفع مائتي ألف ليرة فضّية لإبرام السلم، عدّها سالوست رشوة، وهو مبلغ كبير يدلّ على النفقات الكبرى التي تحمّلتها المملكة النوميدية لصون وجودها واستقلالها إزاء المتربّصين الرومان الذين لا حدّ لجشعهم، ممّا يدعّم فكرة أنّ

---

1 سُكّت قرطاج عملتهافي القرن الخامس بصقلّية،وهي قطع مقلّدةلمعيارالنقد المتداوَل في الجزيرة، أنظر :
- Picard (G.Ch.), La vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal. Paris 1958, p. 182.

2 يعرّف الاقتصاديون الاقتصاد الطبيعي بأنّه اقتصاد غير نقدي لأنّ التبادل فيه يتمّ عن طريق المقايَضة وبالتالي لا تبلغ فيه قيمة الإنتاج شكلها المتطوّر أي شكلها النقدي، وهو بالأساس اقتصاد زراعي، أنظر: علية (محمّد بشير)، مرجع سابق، ص 58-59.

3 ... Juba filius, adulescens non minus bene nummatus quam bene capillatus Cicéron, De Lege agrari... II, 22. 59.
وكان يوبا الأول قد سافر إلى روما في مهمّة كلّفه بها والده لتسوية القضايا المتعلّقة بأملاك العائلة الملَكية النوميدية داخل مقاطعة أفريقيا الرومانية.

المحرّك الرئيسي لسياسة روما الخارجية إزاء المنطقة الأفريقية هو الأطماع الاقتصادية أكثر من أيّ شيء آخر، ولكن هذا الثراء ستستنزفه الحرب، بحيث أنّ ما وجده ماريوس من أموال في خزينة يوغرطة بعد الغدر به كان قليلا على حدّ تعبير بلوتارك[1].

3. الضرائب النوميدية

الضريبة هي مجموع الواجبات المستحقّة للدولة على الأفراد والجماعات أي اقتطاع أقساط من أموال الشعب أو الرعية لدعم خزينة الدولة، وإذا كانت الضريبة في العصر الحديث تدخل في تمويل الخدمات وتسيير المرافق التي تعود بالنفع على الشعب فإنّها في القديم غير ذلك تماما، حيث كانت تنفق على أجهزة الدولة أو على رفاهية الطبقة الحاكمة، ولذلك كانت إحدى مظاهر القهر المسلّطة على الشعوب أفرادا وجماعات[2].

في أيّ نظام سياسي مهما كان شكله يكون تحصيل الضرائب من المهامّ الأساسية لتمويل خزينة الدولة والإنفاق على أعمالها ونشاطاتها، ويستفاد من الإشارات الواردة في المصادر على قلّتها أنّ الضرائب كانت منتظمة في المدن النوميدية وفي الأرياف حيث المزارعون المستقرّون[3]، وتكون بعض المدن قد استفادت من الإعفاء الضريبي[4]، كما أنّ بعض القبائل تكون معفاة ظرفيا أو بصفة دائمة بالنظر إلى ما تقدّمه من خدمات للدولة وأهمّها القيام بالواجب العسكري[5]، وهناك القبائل شبه المستقلّة التي لا تدفع الضريبة.

ورد في خطاب قيصر أمام مجلس الشيوخ الروماني بعد انتصاره في أفريقيا وضمّه المملكة النوميدية أنّه ضمّ إلى الجمهورية (الرومانية) بلدا سيقدّم لروما سنويا 105000 هكتولتر من القمح، وهو ما جعل اقزال يستنتج بأنّ هذه الكمّية هي حجم الضريبة التي كان ملوك النوميد يحصّلونها من المزارعين من هذه المادّة مع أنّ روما لم تتمكّن من ضمّ

---

1 - Plutarque, Marius, 12.

2 يعرّف الاقتصاديون الضريبة بأنّها اقتطاع إجباري، دون تعويض مباشر، تفرضه الدولة على مواطنيها لتتمكّن من تغطية نفقاتها ويتمّ الاقتطاع مباشرةً بالنسبة للضريبة على الإنتاج (Impôt sur le revenu) وضريبة الرأس (Capitation) والعشر (Dîme) والضريبة على العقارات(Impôt foncier) والإتاوات(Redevance)... والضرائب غير المباشرة هي أقساط تضاف إلى أسعار بيع موادّ معيّنة يحدّدها المشرّع، أنظر: علية (بشير)، مرجع سابق، ص 286-287.

3 إشارة في شيشرون وماكسيم فالير:
- Cicéron, Verrines, Aét. II, IV, 46, 103.;Maxime Valère,I,1,ext.,2

4 ورد ذلك في سالوست بخصوص مدينة قفصة، Salluste, B. Jug. LXXXIX, 4 -

5 وهي القبائل التي عبّر عنها غابريال كامبس باسم قبائل مخزن على غرار ما تمّ في العهد العثماني، أنظر:
Camps (G.), Massinissa ..., pp.252-253.

كل نوميديا في البدايه، بل إنّ هذه الكمّية هي مجموع الإتاوة التي فرضها قيصر على المدن التي قاومت حملته وأيّدت التحالف البومبي النوميدي[1].

هناك رسوم (Taxes) على القطيع خاصّة وأنّ تربية الحيوان في أفريقيا ظلّت الثروة الأساسية للسكّان، وجاء في سترابون أنّ الملوك النوميد كانوا يقومون سنويا بإحصاء المهور[2] (صغار الفرس)لأهمّية الخيل في الميدان العسكري، ولعلّ ذلك كان بغرض تزويد الإسطبل الملكي بالخيول الضرورية في السلم والحرب معاً، ونعتقد أنّ الإحصاء لا يمكن أن يقتصر على عدّ هذا الحيوان فقط بل يشمل كلّ الممتلكات لتقدير ما نسمّيه اليوم الوعاء الضريبي[3] وتحديد حجم الرسوم وشكلها، وقد تكون هذه الرسوم عينية على الأغنياء أو على جماعة القبيلة، وقد تكون نقدية على الأفراد أو الجماعات التي لا تمتلك الحدّ الأدنى للضريبة العينية[4]. وتوكل مهمّة تحصيل الضرائب إلى مكلّفين محلّيين في المدن والقرى والقبائل، ويكون هؤلاء تحت رقابة أمناء يعيّنهم الملك، وقد يحدّد القصر الملكي كمّية الضريبة المفروضة على جماعة ما (حضرية أو قبلية) وعلى الأعيان المحلّيين أن يوزّعوا تلك الأعباء على الأفراد، وهم المسؤولون على تقديمها لأمناء الملك، مع أنّ الرفض الجماعي من قبل أفراد القبائل خاصّة المتحصّنة في الجبال كان كثير الحدوث وفي هذه الحالة يمكن أن يتدخّل الملك[5].

ليس لدينا معلومات عن المكوس وأقساط العبور وحتّى على عائدات المزارع الكبرى (Domaines)، ويستنتج أنّ المحاجر والمناجم كانت ملْكية ملَكية[6]. ومنها منجم الرخام النوميدي الشهير في شمتو (Simitthu)، ويستفاد من الأموال الكبيرة المكتنزة في

---

1 عقون (محمد العربي)، من التاريخ الحربي في الشمال الأفريقي القديم؛حملة يوليوس قيصر على أفريقيا 47-46 ق.م.،دراسة في التاريخ السياسي والعسكري للشمال الأفريقي القديم، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة 1995-1996، ص 211 .

2 - Strabon, XVII, 3, 19.

3 الوعاء الضريبي في الاقتصاد الحديث هو مادّة محدّدة كمّا وكيفاً تشتمل على عدّة عناصر هي: 1.الأشخاص.2.المداخيل.3.الأرباح4. رأس المال 5.السلع الاستهلاكية، ويتمّ تحديد الوعاء الضريبي بعد معاينة قانونية،أنظر :علية(بشير)،مرجع سابق، ص476.

4 الحدّ الأدنى للضريبة العينية هو العدد الذي يقدّم عنه رأس واحد، ويقدّم لنا اقزال مثالا من الفترة العثمانية: عجل عن ثلاثين رأس من البقر،كبش عن مائة رأس من الغنم،أنظر:

-Gsell(S.), H.A.A.N., T. V, p. 153, note 5

5 حاول اقزال في غياب المصادر أن يستعمل المقارنات، وأشار إلى التقليد الذي كان يعمل به سلاطين المغرب وأتراك الجزائر، وهو تكليف فرق عسكرية (المحلّة) بمرافقة جباة الضرائب وهي المهمّة التي تتحوّل في بعض الأحيان إلى عمليات نهب منظّم -Gsell (S.), H.A.A.N., T. V, p. 155، والواقع أنّ مثل هذه المقاربات في البحوث التاريخية خطير ومن شأنه أن يلبس التاريخ بما ليس فيه، إذ ليس هناك دليل على وقوع مثل هذه الأعمال في ظلّ الممالك الأفريقية القديمة.

6 ذكر سترابون منجم نحاس في ماسيسيليا.Strabon, XVII,3,11- ولعلّه المنجم الذي لا يزال إلى الآن بالقرب من تنس.

الخزائن الملكية التي تحدّثت عنها المصادر أنّ مصادر الثروة الأفريقية التي كان يسيل لها لعاب الطبقة السيناتورية الرومانية المرتشية[1] كانت متعدّدة، مكّنت الملوك النوميد من تمويل حروبهم الدفاعية ضدّ جشع قرطاج وعدوان الرومان.

يتمثّل جشع الأوليغارشية التجارية القرطاجية في المبالغة في فرض ضرائب "عقابية" وخاصّة في مراحل تراجع قوّتها التجارية بظهور الخطر الروماني عليها، مثلما حدث خلال ثورة الجند المأجور المؤيَّد من الليبيين رعايا قرطاج ومن الشعب النوميدي في عموم المملكة النوميدية فقد رفعت قرطاج الضريبة على الإنتاج من ربع المحصول إلى نصفه، وضاعفت الضرائب المفروضة على المدن، مما اضطرّ النساء لبيع مصاغهنّ تضامنا مع أزواجهنّ[2].

الشكل(16) بعض عملات الملوك النوميد وعليها صورهم

عملة الملك ميكيبسا (Micipsa) (148-118ق.م) وعليها صورته: Source Mazard (J.), Corpus nummurum numidiae mauretaniaeque, éd Arts et métiers graphiques, paris 1955, N° 36	
عملة الملك يوغرطة (Jugurtha) (118-105ق.م.) وعليها صورته المصدر: قدّاش (محفوظ)، الجزائر في العصور القديمة، ترجمة صالح عبّاد، المؤسّسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1993، ص 93	
عملة الملك أدربال (Adherbal) (118-112ق.م وعليها صورته). Source: Mazard (J.), op. cit. N° 40	

1 كان ليفيوس دروسوس(Livius Drusus) تريبونوس العام91 ق.م. قد باع ذمّته للملك الموريتاني بوكوس وحاول فعل ذلك مع الملك يوغرطة،أنظر: De Viris Illustribus. 66. -

2 - Polybe, I, 72, 1-7.

	عملة يمسال الأول (Hiempsal I) (116-118ق.م.) وعليها صورته: Source: Charrier (L.), Numismatique Africaine, RSAC,XXXIII, 1899, p.441
	عملة الملك غودة (Gauda) (105- ... ؟ ق.م.) وعليها صورته Source :Idem. p.442
	عملة الملك يوبا الأول (فضّية) وعليها صورته. Source: Mazard (J.), Corpvs Nvmmvrvm Nvmidiae Mavretaniaeque, Paris 1955 N0 84, p. 50.

الباب الثاني

الاحتكارات الاقتصادية

في الشمال الأفريقي القديم

الفصل الأول / الاحتكارات القرطاجية

1. نمو قرطاج
2. التجارة القرطاجية الأفريقية عبر الصحراء

الفصل الثاني/ الاحتكارات الإغريقية

1. تأسيس مستعمرة قورين
2. العلاقة بين المستوطنين الإغريق والأهالي الليبيين
3. الصراع الإغريقي البوني في الشمال الأفريقي القديم
4. أسطورة الفيلان وترسيم الحدود بين قورين وقرطاج
5. نهاية الوجود الإغريقي في الشمال الأفريقي

الفصل الأول

الاحتكارات القرطاجية

منذ بداية الألف الأولى ق.م. كانت القوّتان البحريتان الفينيقية والإغريقية قد اقتسمتا النفوذ التجاري في البحر المتوسّط، فأسّستا عشرات المستعمرات والأساكل على امتداد السواحل المتوسّطية، وفي ما يتعلّق بالشمال الأفريقي القديم نلاحظ نزول الإغريق في منطقة قورين(Cyrenaica) وقد تحوّل الوجود الإغريقي هناك إلى استعمار استيطاني إذ لم يكتف الإغريق بتنظيم هجرات جماعية إلى المدن الخمس(Pentapolis) وأرباضها، واحتكار[1] الأنشطة التجارية والحرفية بل تجاوزوا ذلك إلى الاستيلاء على الأراضي الزراعية وإجلاء القبائل المحلّية منها بالتدريج وبذلك استولوا على مصادر الثروة في تلك المنطقة.

نزل الفينيقيون بدورهم في السواحل الأفريقية ويبدو أنّهم نالوا ثقة الملوك الليبيين فمنحوهم امتياز النزول في الشواطئ وإقامة محطّات للراحة والتبادل التجاري[2]، فقد كانت البلاد الأفريقية كما هي اليوم غنية بثرواتها، ولم يشعر السكّان هنا بالحاجة إلى المغامرة أو الإبحار إلى أوطان أخرى، وكان هذا خطأ ستترتّب عنه نتائج ليست في صالح البلاد، فسرعان ما نمت المصالح الفينيقية لتسيطر جالياتهم على جميع المنافذ البحرية من خليج السيرت الكبير إلى المحيط الأطلنطي، وكانت أوتيكا أولى مستعمراتهم بالمنطقة ولكن نافستها مدينة مجاورة لها هي قرطاج لتصبح زعيمة باقي المستعمرات الفينيقية في الحوض الغربي للمتوسّط وتحوّلت تدريجيا إلى إمبراطورية تجارية وهذا منذ القرن الخامس ق.م.[3].

---

1 الاحتكار والجمع احتكارات (Monopoles) في الاقتصاد هو وضعية السوق التي لا توجد فيها منافسة بالنسبة للعرض (البيع)،أمّا احتكار الدولة فهو انفرادها بإنتاج أو بيع موادّ معيّنة تشرّع له قوانين،أنظر:عَليّة (بشير)،مرجع سابق ص 17.

2 لم يكن للمصارف الفينيقية (Comptoirs phéniciens) على امتداد قرون أيّ نفوذ خارج المرافق المرفأية والتجارية، أيّ أنّها مصارف دون إقليم، ونرى بأنّ النفوذ البرّي لقرطاج سيكون منذ النصف الثاني للقرن الخامس ق.م. بعد أن توقفت عن دفع الإتاوة للملوك الليبيين واستقلت عن المدينة الأمّ صور، وخلال تلك القرون كان ظهيرها آهلا بالسكّان الأصليين الذين يكون قسم منهم قد عمّر قرطاج ذاتها واندمج الوافدون مع الأصليين ليتكوّن المجتمع القرطاجي البوني.

3 يرى فنطر أنّ قرطاج لم تكن إمبراطورية ذات سلطة مركزية لكنها عبارة عن فدرالية دول مدن لها استقلالها الذاتي لكنها تخضع للسلطة المرجزة بقرطاج في ما يتعلق بالسياسة الخارجية وحشد كافة القدرات في حال نشوب الحرب لحماية المصالح الاقتصادية المشتركة، أنظر:

- Decret (F.) et Fantar (M.), l'Afrique du Nord dans l'antiquité, des origines au Vème siècle, éditions Payot, Paris 1981, pp. 56-57.

أصبح اقتصاد الشمال الأفريقي القديم تحت سيطرة قرطاج البونية وقورين الإغريقية تصديراً واستيراداً، ويبدو أنّ الأهالي لم يعترضوا في البدايات على هذه "السيطرة" لحاجتهم إلى التبادل التجاري خاصّة وأنّ نشاط الجاليات البونية كان لا يخرج عن نطاق الخدمات (Services) ولكن تطوُّر الأوضاع في كلّ من قرطاج والممالك الأمازيغية والقبائل في الداخل سيؤدّي إلى الاصطدام، لأنّ القرطاجيين تحوّلوا إلى طغمة استغلالية لا تتردّد في استعمال القوّة في نهب المدن الداخلية[1] والتخلّي عن التزاماتها كما حدث في جريمة الإبادة التي ارتكبتها في حقّ جندها المأجور وكان في أغلبه من العنصر الأفريقي النوميدي على الخصوص[2].

1. نمو قرطاج

يمكن أن نتساءل عن نموّ قرطاج باتجاه البرّ، لقد كانت في البدايات مرفأ مستقبلاً جهة البحر، وليس له ظهير(Arrière pays)، إنّه عبارة عن قاعدة تجارية "مؤجَّرة" من المملكة الماسيلية فمتى أصبح لقرطاج ظهير مرتبط بها ومتى أصبح لها إقليم؟. يُستخلَص في هذا الشأن أنّ قرطاج لم تكوّن إقليمها إلاّ بعد ثلاثة قرون من تأسيسها، وهو إقليم أخذ يتوسّع تدريجيا في الحوض السهلي الذي يخترقه المجرى الأدنى لباغرادا[3]، ولم تكن له حدود ثابتة إلاّ بعد الاتفاقية الشهيرة التي رسّمت الحدود بين المملكة النوميدية والقطر القرطاجي وهي الحدود المعروفة بالخندق الملكي(Fossa regia)، ويمكن افتراض أنّ أرستقراطية قرطاج التي أثْرت من التجارة قد أخذت تتملّك الأراضي عن طريق الشراء، وتعْهد بتسييرها والعمل بها إلى عناصر من الأهالي، وفي هذا السياق يُفترَض

1 يفسّر البعض الغزو القرطاجي للمدن النوميدية بحاجتها إلى تعويض خسائرها في الحرب البونية، وقد احتفظت النصوص القديمة بغزوة القائد القرطاجي حانون (وهو اسم حمله عديد القادة البونيين) لمدينة تيفست حوالي العام247 ق.م.وهي المدينة التي يسمّيها ديودور هيكاطومبيل (Hécatompyle) وأخذ 3000 رهينة من أبنائها ولا ريب أنّ ما أخذه من أموال يماثل هذا العدد من الرهائن وأكثر من ذلك تبقى المدينة تحت القهر القرطاجي ولا تستطيع التحرّر من الشروط الثقيلة التي يكون قد أملاها، وهذه كلّها مقدّمات لتلك الهوّة العميقة- بين القرطاجيين والليبيين- التي ستزدادعمقا بعد سنوات قليلة،لأنّ الساحةالأفريقيةستشهد بعدستّ سنوات حرب فاذة قرطاج ضدّ جندهم الذي هو جند أفريقي(بربري)في أغلبه،ومع أنّ القيادة هي التي تتحمّل تبعات الهزيمة في تاريخ الحروب إلاّ أنّ "جنرالات " قرطاج تملّصوا من تحمّل المسؤولية وتخلّوا عن جيشهم في ساحة الحرب البونية الأولى في صقلية وعادوا مع القلّة البونية، وهو بما لم يحدث في التاريخ... أنظر :عقّون (محمّد العربي)،من تداعيات الحرب البونية الأولى على قرطاج: ثورة جندها المأجور، في مجلّة "علوم الإنسانية صادرة عن جامعة قسنطينة، عدد21،السنة 2004،ص ص 199- 212.

2 تناولها بوليب في الجزء الأول من كتابه وقال بأنّها الحرب التي لا تُغتفَر.Polybe, 84,85, 86 - ، أنظر أيضا : Walter (G.) - , la destruction de Carthage, Paris 1937. , pp. 237-253.

3 ستلحق قرطاج بعد ذلك المنطقة الجبلية في الغرب (خمير Kroumérie) والجنوب (الساحل Le Sahel)، أمّا المصارف القرطاجية في الساحل النوميدي والموريتاني والإمبوريا فكان لبعضها شهير حدود،أنظر: - Gsell (S.), H.A A.N., T. IV, pp. 1-2 .

أن تنمو روابط الجالية الفينيقية وتزداد وثوقا واندماجا في وطنها الجديد، لتأخذ ملامح الإقليم القرطاجي في الظهور بتشكل المجتمع الليبو - فينيقي أو البوني، ومع ذلك ظلّ هذا الإقليم شريطا ساحليا يشمل إلى جانب أملاك الطبقة الحاكمة في قرطاج أملاك العائلة الملكية الماسيلية النوميدية، ومهما كان اتّساع الأراضي التي امتلكتها الأرستقراطية التجارية القرطاجية في الوطن القبلي (Cap bon) والمجرى الأدنى للمجردة[1] فإنّ ذلك لا يخوّل لها السيادة السياسية والتحوّل من مؤجِّر إلى صاحب أرض يمارس السيادة، وأكثر من ذلك يستنكف أن يندمج في محيطه الأفريقي، وهو ما سينجرّ عنه صراع مرير استثمرته روما أحسن استثمار![2].

وجدت قرطاج في رعاياها الليبيين المرتبطين بخدمة الأرض منافع كبرى، ففي الفترة ما قبل امتداد السيادة القرطاجية برّا (قبل القرن الخامس ق.م.) كان الفلاّحون الليبيون (الأمازيغ) يشغلون كلّ الأراضي المحيطة بقرطاج وكذا شبه جزيرة رأس بونة (الكاب بون أو الوطن القبلي)، التي وصفها بوليب (القرن 2 ق.م.) بأنّها غنيّة بالخيل والأبقار والأغنام والماعز ممّا لا وجود لمثله على الأرض[3]، وهؤلاء الفلاّحون الليبيون هم الذين ظلّوا يزوّدون قرطاج على امتداد قرون بما تحتاجه من إنتاج فلاحي[4] ومن ضرائب عينية ونقدية، وتدلّ كثافة العمران (قرى ومشاتي) على نمو ديمغرافي كبير، وعلى ازدهار اقتصاد زراعي بإمكانه أن يلبّي طلبات أغنى مدينة في عصرها.

كانت قرطاج مركز تجميع وتوزيع للسلع، فقد كانت تأتيها الحلْفاء لصناعة الحبال من إسبانيا والذهب والفضّة من أفريقيا الغربية والقصدير من إسبانيا والجزر البريطانية[5] والعاج والأفيال من أفريقيا والحبوب من سردينيا، ومن أنحاء الشمال الأفريقي القديم كان يأتيها العسل والتين والرمّان وهي موادّ ذات شهرة وجودةكبيرة،

---

1 في هذا السياق يشير المؤرّخون المحدثون إلى ظهير قرطاج بعبارة ممتلكات (Possessions) ونادرا ما يستعملون عبارة إقليم أو قطر (Territoire et Contrée)، لأنه لا يمكن الحديث من وجهة النظر القانونية والجيوسياسية عن تراب وطني (Territoire national) لقرطاج .

2 أردنا هنا أن نبيّن خلفية النزاع على الحدود الذي حدث في ما بعد، بلغ أوجه في عهد ماسينيسا، مع أنّ الكلّ يعلم أنّ قرطاج هي حصيلة امتياز منحه الملك يارباس للجالية الفينيقية وأنّ إقليمها الذي أنشأته منذ القرن الخامس ق.م. اقتطعته في الواقع من تراب المملكة الماسيلية النوميدية.

3 - Polybe, I, 71, 1.
4 - Idem., XII, 3, 34.
5 - Gsell (S.), H.A.A.N., T. IV, p. 50

والأخشاب ورخام شمتو الملوّن والملح والحيوانات المتوحّشة، والأحجار الكريمة من بلاد الغرامنت[1]، والتمور من الصحراء ...[2].

حقّقت قرطاج من تجارتها أرباحا طائلة فتجمّعت الثروة في أيدي الأسر القوية وبذلك انتقلت قرطاج من الدكتاتورية الفردية إلى الدكتاتورية الأوليغارشية أي من حكم الأفراد إلى حكم القلّة الأسرية مثل عائلة ماغون[3].

2. احتكار تجارة أفريقيا الشمالية والصحراء:

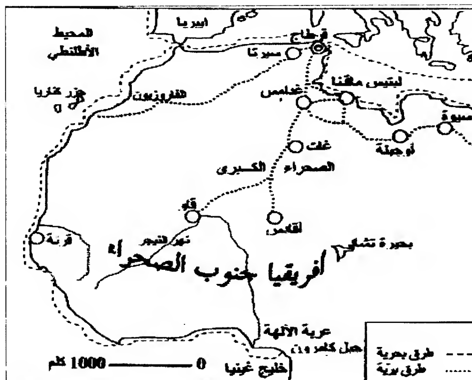
كانت السلع والمنتجات الأفريقية تنتقل إلى قرطاج وباقي المصارف البونية عن طريق القوافل التجارية، وكانت هذه القوافل تعبر الصحراء ذهابا وإيابا تحت حماية القبائل المحلّية، ويبدو أنّ البونيين لم يسافروا بأنفسهم إلى أفريقيا جنوب الصحراء (السودان) بل كان تجّار القوافل دائما من الأهالي العارفين بخفايا البلاد ومسالكها فكانت قوافل السودان الأوسط تعبر الصحراء إلى مدينة لبدة وصبراتة تحت حراسة الغرامنت وبدورها تقطع قوافل السودان الغربي المسافة إلى سيرتا تحت مراقبة الفاروزيين (Pharusienses)، ومن سيرتا ولبدة يتزوّد القرطاجيون بالبضائع القادمة من تلك البلاد البعيدة كالعاج والتبر، والحيوانات المتوحّشة كالأسود والنمور، ثمّ النعام والأفيال، ومنذ القرن الخامس ق.م. كان التجّار يأتون من قرطاج إلى هذه المدن وينزلون بها في انتظار قدوم قوافل الصحراء[4].

1 وعلى الخصوص العقيق الأحمر : Strabon, XVII, 3, 19. -

2 - Hecren, Politique et commerce des peuples de l'antiquité, trad. Française, IV, Paris S.D., PP. 174-175.

3 - Thucydide, VI, 34, 2 . ; Polybe, XVIII, 35, 9.

4 وقد تساءل اقزال عن أسباب ثراء مدن الإمبوريا مع أنّها تقع على شريط ساحلي ضيّق وفقير زراعيا، وأرجع ذلك إلى أنّ قرطاج وسّعت حدودها إلى السيرت الكبير (هيكل الفيلان) لإبعاد منافسيها الإغريق عن تجارة أفريقيا، واحتكار التجارة مع واحات الفزّان ومن ورائها أفريقيا جنوب الصحراء (السودان) وهو ما أدّى إلى ازدهار مدن الإمبوريا، أنظر:
- Gsell (S.), H.A.A.N., T. IV, pp. 135- 140.



الشكل (17) أهم محاور الطرق التجارية

من بين الطرق التجارية العابرة للصحراء التي يقدّم لنا هيرودوت وصفا دقيقا عنها هي الطريق التي تربط غرب أفريقيا بشرقها إلى مدينة طيبة (Thèbes) المصرية، بحيث أنّ الطريق التي تتجه من طرابلس نحو الجنوب عند وصولها إلى الفزّان تتفرّع منها:

أ- طريق تتّجه من مدن الإمبوريا (ما بين خليجي السيرت الكبير والصغير) إلى واحات الفزّان ومنها إلى السودان الغربي في جهات قاو(Gao) وتومبوكتو[1].

ب- طريق تتفرّع عن الأولى تتّجه شرقا نحو مدينة طيبة المصرية، وتمرّ بعد مسافة عشرين يوما بواحة أوجيلة مركز قبيلة الناسمون(Nasamons)، ومنها تمتدّ الطريق شرقا

1 قدّر هيرودوت المسافة من بلاد اللوتوفاج على خليج السيرت الصغير إلى بلاد القرامنت بثلاثين يوما وهي مدّة طويلة في رأيـــا:
- Hérodote, IV, 183.

على مسافة حوالي ثلاثمائة كلم نحو واحة سيوة (واحة الإله أمون) ومن هذه الأخيرة إلى طيبة في مسافة عشرة أيام (أنظر أعلاه، الشكل17 ص 59).

كانت التجارة الصحراوية بالنسبة لقرطاج ذات أهمّية كبيرة بحيث تنتهي كلّها في الأسواق البونية التي تغتني خزينتها من المكوس وباقي الضرائب، في تلك المنطقة التي لم يكن القرطاجيون يجدون فيها أيّ منافسة. ومع ذلك فإنّ بقاء هذه التجارة في يد القبائل المحلّية لا يضمن استمرار تدفّق سلعها على قرطاج خاصّة إذا حدث خلاف أو نزاع، ولعلّ هذا هو سبب اتّجاه القرطاجيين باعتبارهم بحارة مهَرة نحو الطريق البحرية على امتداد الساحل الأطلنطي لجلب تلك السلع بصفة مباشرة ودون وسيط من خلال الرحلة التي قام بها حانون القرطاجي[1].

منذ القرن الخامس ق.م. سكّت قرطاج عملتها التي أصبحت متداوَلة في كلّ المعاملات والمبادلات، وأصبحت الثروة الحقيقية هي الأموال، وليس السلع المخزّنة، وتحوّلت الرأسمالية التجارية في قرطاج إلى قوّة سياسية كان يمكن أن تلعب دورا هامّا لولا الأخطاء التي ارتكبتها والتي ستؤدّي بها إلى الضعف والزوال تدريجيا وأبرز أخطائها خطآن الأول اقتصادي والثاني استراتيجي[2].

أ- **الخطأ الاقتصادي**: كانت قرطاج قلّما تهتمّ بتصنيع الموادّ الأولية التي تروّج لها تجاريا، وبذلك ساهمت في تزويد الصناعة عند الإغريق وورثتهم الرومان بالموادّ الأولية، أي المساهمة في ازدهار اقتصاد منافسيها وهذا خطأ دلّ على ضيق الأفق والرغبة في الربح السريع بأقلّ تكلفة[3].

ب- **الخطأ الاستراتيجي**: وهو عدم تفكير الجالية البونية في قرطاج في الاندماج في محيطها وعمقها الأفريقي الذي سيكون الدرع الذي ستواجه به القوّة الرومانية الناشئة، وأكثر من ذلك سلكت سياسة ضرب الأفريقيين بعضهم (التحالف والتحالف المضادّ: التحالف مع ماسليا ضدّ ماسيسيليا ثمّ التحالف مع الثانية ضدّ الأولى) دون إغفال التنكيل بالجند المأجور وزعيمه ماطو (Mathos) وكانت غالبيته من أبناء البلاد[4]، فضلا

---

1 - Rousseau (M.), Hannon au Maroc, in R. AF., 1949, pp. 161-232.

2 - MOREL (Jean-Paul) . Nouvelles données sur le commerce de Carthage punique entre le VIIe siècle et le IIe siècle avant J.-C. actes de IVe congrès CTHS Strasbourg, 1988 (1990). pp. 67-100.

3 - Gsell (S.). H.A.A.N., T. IV, p. 477.

4 للتوسّع في موضوع جند قرطاج أنظر: عقون(محمّد العربي)،من تداعيات الحرب البونية الأولى ... مرجع سابق، ص207-208.

عن تنظيم حملات نهب ضدّ المدن النوميدية مثل النهب الذي تعرّضت مدينة تيفست (تبسّة)...[1]، والحال أنّ ظهور الرومان كقوّة عسكرية في البحر المتوسّط سوف يطيح بقرطاج تدريجيا نتيجة لسياستها، فقد كانت في كلّ جولة تخسر مصادر ثروتها إلى أن أصبحت تحت الحصار ولم تُفِدْها ثروتها في شيء فسقطت في أيدي الرومان (146 ق.م.).

1 - Diodore, Fragments, Livre XXIV.

الفصل الثاني

الاحتكارات الإغريقية

إذا كان الفينيقيون بما صنعوا من مراكب وسفن هم روّاد الإبحار في أعالي البحار فإنّ قوّة التوسّع الهليني ربّما كانت أكثر بأسا وإشعاعا في البلاد التي تمركز فيها الإغريق، فقد كانت المدن الإغريقية الكبرى في صقلية وجنوبي إيطاليا وقورينائية[1]...، عظيمة التطوّر، اغتنت من تجارة حرّة ومن استغلال ما حولها من أراضٍ واسعة، وأصبحت على الخصوص مراكز للفنّ والفكر ومختلف العلوم، فنشرت من حولها الحضارة الهلّينية وساهمت في إنمائها[2] وفي هذا السياق نتساءل من الذي كان سبّاقا إلى إنشاء مراكز تجارية على امتداد الساحل الأفريقي، وهل كان هناك وجود إغريقي سابق للوجود الفينيقي في أفريقيا القديمة، ومع أنّ الفكرة السائدة هي أنّ الإغريق سبقوا الفينيقيين في هذا المضمار إلاّ أنّ الغالب هو أنّ التمركز الفينيقي في السواحل الأفريقية كان مواكبا للتمركز الإغريقي أو كان متقاربا معه، ولعلّ الفينيقيين استولوا على بعض المناطق التي كانت تحت السيطرة الإغريقية، لأنّ بعض الشواهد التاريخيه تؤيّد فكرة وجود إغريقي سابق للوجود الفينيقي في الشمال الأفريقي القديم[3].

توجد في كتابات الإغريق إشارات إلى هجرات قادمة من المدن الإغريقية (مدن الجزر الإيجية) نحو بلاد البربر، فقد ذكر هيرودوت أنّ الماكسي (Maxyes)[4] يعتقدون أنّهم ينحدرون من الطروادين، أمّا ديودور الصقلّي فيشير إلى مدينة كبيرة تسمّى مسكالا أو مسخالا (Meschala) شيّدها الإغريق بعد عودتهم من حرب طروادة، ومن المحتمل أنّها تقع في بلاد البربر[5].

---

1 قورينائية (Cyrénaïque) هي إقليم في أقصى شمال شرقي الشمال الأفريقي القديم،ما بين خليج السيرت الكبير إلى الحدود المصرية وينبغي أن ينال من الدارسين والباحثين نفس العناية لأنّ الدراسات التقليدية اعتادت اعتبار الشمال الأفريقي لا يتعدّى منطقة النفوذ البوني قديما والاستعمار الفرنسي حديثا.

2 - Gsell (S.). Histoire ancienne de l'Afrique du Nord,(H.A.A.N.) T. V, édition Hachette. Paris 1961, p.460.

3 الناضوري (رشيد)، تاريخ المغرب الكبير في العصور القديمة (أسسه التاريخية والحضارية والسياسية) ج1، دار النهضة العربية بيروت1961، ص 71.

4 قبيلة ليبية كانت حسب هيرودوت بجوار نهر تريتون ، في جهات الجريد.

5 - Gsell (S.), H.A.A.N., T. V, ,. p. 344 .

أشار المؤرّخ هيكاتوس (Hecatus) إلى وجود مدينة إيونية في ليبيا تسمّى سيبوس (Seybous) بالقرب من مدينتي هيبو ريجيوس (Hippo regius) وهيبو دياريتوس (Hippo diarrytus) وفي النصوص التي نُقلت عن الملك النوميدي يوبا الثاني إشارة إلى وجود إغريق ضمن الجيش الذي تركه هرقل في ناحية طنجة، وتريد هذه الرواية التي يبدو أنّها ذات منشأ إغريقي أن تجعل بعض الإغريق أجدادا لبعض الأفريقيين (الليبيون أو البربر) خاصّة أولئك الذين يشتركون معهم في الألقاب[1].

لقد تساءل الكثير من المؤرّخين حول مدى صحّة هذه الروايات الواردة في النصوص القديمة خاصّة الإغريقية منها، لأنّ المعروف عن الإغريق أنّهم كثيرا ما يقحمون الأسطورة في التاريخ، وكثيرا ما يعتمدون على الروايات الشفوية في النصوص التاريخية، ولذلك يتساءل اسطيفان اقزال عن جدوى إدراج أبطال أسطوريين من الأرغونوط (Argonautes)[2] وحتّى من الفُرس في مسألة أصول الشعوب التي عمّرت الشمال الأفريقي القديم، ولعلّها من الأفكار التي كان الإغريق يوظّفونها لاستمالة الأفريقيين.

قام البعض بمقاربة لغوية لألقاب أفريقية، فلاحظ أنّها -احتمالا- ذات أصل إغريقي، ليقيم الدليل على وجود هجرات إغريقية من الجزر الإيجية نحو بلاد البربر خلال الألف الثانية ق.م.، ومع أنّ هذه المقاربة اللغوية لم تجد صدىً لدى علماء اللغات القديمة، إلاّ أنّ هذا لا يعني نفي احتمال وجود بعض العلاقات بين سكّان سواحل بلاد البربر وشعوب المدن والجزر الإيجية خلال عصر البرونز فيما بين الألف الثالثة والألف الثانية قبل الميلاد[3]، وما يمكن استنتاجه هو أنّه وُجدت علاقة متينة بين جزيرة كريت وساحل قورينائية في وقت مبكّر نظرا لقربها منها، ومن هناك تسرّبت الهجرات الإغريقية نحو الشمال الأفريقي القديم، خاصّة نحو ساحله الشرقي (برقة الحالية).

1 - Ibid. p. 345.

2 أرغونوط (Argonautes) أبطال إغريق ذهبوا، كما تقول الأسطورة، على متن السفينة أرغو (Argo) للحصول على شعر الذهب من إقليم كولخيد (Colchide).

3 - Gsell (S.), op. cit. , T. I, pp. 344-347.

1. تأسيس مستعمرة قورين:

كان الإغريق منافسين منذ زمن بعيد للفينيقيين في التوسّع التجاري وفي إنشاء أساكل على امتداد السواحل المتوسّطية، وقد اتجهوا بأنظارهم نحو السواحل الأفريقية الممتدّة غربي مصر. ومنذ أن اعتلى بسامتيك الأول[1] عرش مصر فتح أبوابها النفوذ الإغريقي[2]، فـ "... المستعمرات الإغريقية في قورينائية وفي مصر منذ النصف الثاني من القرن السابع والنصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد لها ميزات خاصّة مختلفة عن بعضها البعض...، فلقد ظلّت قورين مستوطنة فلاحية حسب تقاليد القرن السابع، بينما كانت المستعمرات الإغريقية في مصر ذات طابع تجاري بصورية رئيسية...، ثمّ تطعّمت بقوّة عسكرية أساسها فرق الجند المأجور[3].

بدأ الاستيطان الإغريقي في برقة منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وقد اتسمت فترة الاستيطان الباكر (775-675 ق.م.) بوصول مستوطنين فرادى بحثا عن أراضي خصبة لاستغلالها، بعد أن ضاقت بهم الأوضاع في بلادهم، أمّا الفترة ما بين 675 و 550 ق.م.، فقد ظهر فيها الاهتمام بالتجارة، وهي الفترة التي شهدت تأسيس مستعمرة قورين(637 ق.م.)[4] (أنظر خريطة المستعمرات الإغريقية الخمس الشكل 18 ص72).

تأسّست مستعمرة قورين من قِبَل جالية إغريقية قدمت من جزيرة ثيرا (THERA) التي ضاقت بأهلها بسبب الجفاف، وقد أشار هيرودوت إلى تأسيس قورين ولكن كعادته أدخل في ذلك التأسيس أحداثا ووقائع أسطورية، وممّا جاء في كتابه: ... كان غرينيوس وهو أحد الملوك الدُّوريين حاكما على جزيرة ثيرا، وعندما ذهب إلى دلف لتقديم القرابين مصطحبا معه عددا من مواطنيه - وكان من بينهم باتوس (BATUS) الذي سوف يؤسّس مستعمرة قورين - تلقّى الأمر من الإله أبولو بإنشاء مستعمرة بليبيا، ولتقدّمه في السنّ اعتذر من الإله وطلب منه أن يختار لهذه المهمّة شابّا وأشار إلى باتوس" فمن يكون هذا الرجل؟.

---

1 بسامتيك الأول (Psammétik 1er) مؤسّس الأسرة الفرعونيه تولّى الحكم ما بين 663-609 ق.م. قام بإصلاحات عسكرية كبيرة في الجيش المصري. Larousse pluridictionnaire, édition 1977, p. 1128. -

2 - Mercier (E.), Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie), depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française, Tome I, Paris 1888, p. 3.

3 - Laronde (A.), Cyrène et la Libye hellénistique. Libykai Historiai, études d'antiquités africaines. éditions du CNRS. Paris 1997. pp. 73-74.

4 - l' évêque(Pierre) , l'aventure grecque, éditions Armand Colin, Paris 1964, p. 195.

باتوس في رواية القورينيين هو ابن بوليمستوس أحد أشهر رجال ثيرا، من سلالة الأوفيموس، من أمّ كريتية تدعى فرونيمة (PHRONIME) وهي إحدى بنات ملك مدينة وكسوس (Oaxus) في جزيرة كريت، وبسبب تحرُّشات زوجة أبيها الشرسة التي عملت كلّ ما في وسعها للتخلّص من ربيبتها واتّهمتها بفساد الأخلاق، وكان ذلك كافيا لإثارة أبيها عليها، قرّر التخلّص من ابنته ولتنفيذ ما عزم عليه استضاف عنده تاجرا من ثيرا وطلب منه أن يأخذ ابنته خارج البلاد ويلقي بها في البحر، ولم يجد التاجر بدّا من تنفيذ الأمر، بعد أن أقسم للملك أن يفعل ما أمره به، ولكن في الطريق إلى ثيرا قرّر أن لا ينفّذ طلب الملك، وللبرّ بقسمه قام بربط الفتاة في حبال وألقى بها في البحر ثمّ أخرجها، وواصل بها السير نحو ثيرا، وهناك اتّخذها خليلة له فأنجبت له ولدا متلعثم اللسان فسمّاه باتوس وهذا الاسم عند هيرودوت ليس الاسم الحقيقي له ولكن الليبيون هم الذين أطلقوه عليه عندما وصل إلى ليبيا، لأنّهم يسمّون ملوكهم بهذا الاسم، وكانت آلهة دلف قد تنبّهت إلى ذلك فأمرت بأن يطلق عليه لأنّها كانت تعلم بأنّه سيصبح ملكا على ليبيا، وعندما كُبر باتوس وأصبح شابّا ذهب إلى دلف ليسأل الآلهة عن سبب تلعثمه فأخبرته بأنّ الإله أبولو يأمره بالذهاب إلى ليبيا لتأسيس مستعمرة بها، فأجاب الآلهة متضرّعا " لقد جئت أسأل عن تلعثمي وأنتم تردّون عليّ بشيء آخر مستحيل، أن أؤسّس مستعمرة بليبيا، فبأيّ موارد وبأيّة جيوش ؟ " ، ثمّ غادر دلف[1] فورا عائدا إلى ثيرا.

لم ينفّذ باتوس طلب الآلهة إليه بالذهاب إلى ليبيا لتأسيس مستعمرة بها ، فلم تمطر السماء في ثيرا سبع سنين، ويقال بأنّ الجفاف لم يُبْق فيها إلاّ شجرة واحدة، وعندئذ قرّر أهلها أن يرسلوا نوّابا عنهم ليسألوا إن كان أحد من الكريتيين يعرف الطريق إلى ليبيا، وفي جزيرة كريت عثروا على صيّاد يدعى كوروبيوس (Corobios) قادهم إلى جزيرة مقابلة للشاطئ الليبي تدعى بلاتيا[2].

إنّ هذه الرواية رغم طابعها الأسطوري إلاّ أنّها تدلّ على أنّ العلاقة بين سواحل بلاد البربر وجزيرة كريت وخاصّة قورينائية - التي لا تبعد عن كريت إلاّ بنفس المسافة التي تبعد بها هذه الأخيرة عن أثينا - كانت علاقة قويّة.

---

1 دلف (Delphes) مدينة إغريقية عند سفح جبل بارناس،شيّد بها معبد للإله أبولو،وكان هذا الإله يبلّغ نبوءاته على لسان النبية بوثيا(Pythie)، أنظر:

- Larousse pluridictionnaire, article: Delphes.

2 بلاتيا (Palatéa) مدينة وجزيرة في خليج بومبا على الساحل الليبي.

يواصل هيرودوت روايته الأسطورية، ويذكر بأنّ أهل ثيرا اتجهوا إلى ليبيا وأسّسوا مستعمرة بجزيرة بلاتيا وأقاموا بها سنتين لم ينجح لهم أيّ مشروع بها فغادروها وعرضوا أمرهم على آلهة دلف، وكان ردّ الآلهة قاسيا فأدركوا أنّها لن ترضى عنهم ما لم يؤسّسوا مستعمرة بليبيا نفسها، وعادوا إلى ليبيا وتمركزوا بمنطقة مقابل جزيرة بلاتيا تدعى أزيريس لمدّة ستّ سنوات وبحلول السنة السابعة وعدهم الليبيون بأن يرشدوهم إلى مكان أفضل، وساروا بهم إلى ذلك المكان وعندما وصلوه قالوا لهم: يا رجال الإغريق، إنّ الإقامة هنا تناسبكم وأشاروا إلى نبع بذلك المكان فسمّوه نبع الإله أبولو[1].

في هضبة مجاورة لذلك النبع، شُيِّدت قورين، في الفترة ما بين 758 و631 ق.م. أمّا هيرودوت فيحدّد تأسيس قورين بسنة 611 ق.م.، وكانت الجالية الإغريقية التي أسّستها من المزارعين الذين كان همّهم الوحيد هو امتلاك المزيد من الأراضي الفلاحية مع أنّ ذلك سيثير عليهم الليبيين، وقد أخذ الاستيطان الإغريقي يتوسّع تدريجيا وسيبلغ مداه بازدهار المدن الخمس (Pentapolis)[2].

يضمّ إقليم قورينائية عددا هامّا من القبائل الليبية ذكرها هيرودوت بشيء من التفصيل، من بينها :

أ- الأدورماخيد (Adyrmachides): وهم قبيلة منتشرة ما بين قورين والحدود المصرية[3].

ب- القيليقام (Giligammes): ويسكنون المنطقة الساحلية مقابل جزيرة أفروديوس[4].

جـ- الأسبوست (Asbystes): وقد أجلاهم الإغريق من أراضيهم التي تأسّست بها مستعمرة قورين وأبعدوهم نحو الجنوب، مع أنّ علاقتهم بالإغريق في البداية كانت حسنة[5].

---

1 - Hérodote, Histoire, Livre IV, Texte établi et traduit par Ph. E. Le Grand, éditions les belles lettres, Paris pp. 150-158 .

2 عقون (محمّد العربي)،من التاريخ الحربي في الشمال الأفريقي القديم...، مرجع سابق، ص11، هامش 1.

3 - Herolote . Histoire, IV , 168.

4 - Ibid. , IV , 169 .

5 ويذكر هيرودوت في هذا المجال أن الليبيين من قبيلة الاسبوستاي قد قاموا بتدريب الإغريق على فنون ركوب العربات التي تجرها أربعة خيول: Hérodote, IV, 120 -

أخذ عدد الإغريق في الإقليم يزداد بتزايد الاستيطان خاصّة منذ فترة حكم باتوس الثاني، كما وُجد بالإقليم عدد من اليهود جاء بهم فوليمي (Phollemee) من سوريا عندما قام بزيارتها[1].

2. العلاقة بين المستوطنين الإغريق والأهالي الليبيين:

مرّت العلاقة بين الإغريق والأهالي الليبيين بمرحلتين هما :

أ- عهد التعايش 639-575 ق.م.: لا سيّما في فترة حكم باتوس الأول (639- 599 ق.م.) وابنه أركيسلاس (599-583 ق.م.)، وكان عدد الإغريق آنذاك قليلا، ذكر هيرودوت أنّهم أبحروا على متن سفينتين بها خمسون جذافا ، ولم يقع أيّ صدام بينهم وبين الليبيين، وكان التعاون هو السمة المميّزة لعلاقتهم ببعضهم البعض[2].

ب- عهد التوتّر والاضطراب منذ 575 ق.م.: في هذه المرحلة انكشفت النوايا الحقيقية للإغريق بعد أن تزايد عددهم وتوسّعوا في الاستيطان والاستغلال، فقد أقدم باتوس الثاني على توطين هجرات إغريقية جديدة قدمت من البيلوبونيز (Péloponnèse) ومن كريت (Crète) والدوديكانس (Dudicans)، وأصبح هؤلاء يسيطرون على أخصب الأراضي التي كانت من ذي قبل ملْكا للقبائل الليبية، ويذكر هيرودوت أنّه في عهد باتوس الثاني جاءت نبوءة من دلف تدعو الإغريق للذهاب للاستيطان في ليبيا هذا نصّها: إنّ من يذهب إلى النضيرة ليبيا بعد تقسيم الأراضي سيندم[3].

نلاحظ كيف أنّ الديانة الإغريقية تساهم في دفع الإغريق إلى الاستيطان، ولا ريب أنّ كهنة المعابد وسدنة الآلهة كانوا من الدهاء إلى درجة أنّهم كانوا يدركون دور الدين في تحريك العامّة ودفْعها نحو التنفيذ دون نقاش أو تردّد. إنّها حركة استيطان تقودها الآلهة، وذلك سيؤدّي إلى المواجهة بين الإغريق والليبيين حتّى أنّ أحد ملوكهم وهو أديكران (Adicran) التجأ إلى مصر طالبا المساعدة من الفرعون الذي جمع جيشا كبيرا سيّره نحو قورين إلاّ أنّه مُني بهزيمة نكراء في موقعة إيراسا سنة 570 ق.م. ، ولم ينج

1 الأثرم (رجب)، تاريخ برقة السياسي والاقتصادي (من القرن السابع ق.م. إلى بداية العصر الروماني)، منشورات مكتبة قورينا، بنغازي ليبيا 1975، ص 92- 93.

2 - Masson (O.), Grecs et Libyens en Cyrénaïque, d'après les témoignages de l'épigraphie, in Ant. Afr. T. X, 1976, pp. 49-62.

3 - Mercier (E.), op. cit. p. 69.

إلاّ عدد قليل. وفي عهد أركيسلاس الثاني ستتجدّد الحرب بين الطرفين وسيخسر الإغريق 7000 رجل في موقعة لوكون (Laucon)، ومع ذلك فإنّ النصر الليبي لم يوقف عجلة الاستيطان والتوسّع بحيث أسّس الإغريق مستعمرات أخرى.

كان المستوطنون الإغريق في قورين يتكوّنون من ثلاث مجموعات هي:

أ- جالية ثيرا والبيرياكس.

ب- جالية البيلوبونيزيين والصقليين.

ج- جالية من باقي الجزر اليونانية.

وهذا التقسيم مطابق لتشريعات ديموناكس المخوّل من آلهة دلف، وقد نشأ في قورين نظام ملَكي تنافسه أرستقراطية من كبار ملاّك الأراضي ومربّي الأحصنة قبل أن تعصف بالمنطقة رياح الغزو الفارسي (515-510 ق.م.) الذي حوّل قورينائية إلى مرزبة (Satrapie) مع الاحتفاظ بحكم إغريقي عميل[1]، وعموما فإنّ الصراع في قورين كان محوره ملكية الأرض والتنافس على السلطة وسيؤدّي ذلك إلى استنزاف قدراتها.

3. الصراع الإغريقي البوني في الشمال الأفريقي القديم:

تتماثل الدوافع التي أدّت إلى تمركز الفينيقيين والإغريق في ساحل بلاد البربر، ولكن يميّز بعض الباحثين بين الاستيطان الفينيقي والاستيطان الإغريقي في الأهداف بحيث يستخلص هؤلاء بأنّ هدف الفينيقيين كان لا يخرج عن نطاق البحث عن أسواق، ولذلك كان السلم غالبا في علاقاتهم بالبربر، أمّا الإغريق فكانوا مستوطنين مستعمرين للأرض الفلاحية على حسَاب السكّان، ولكن عندما تحوّلت الزعامة الفينيقية في غربي المتوسّط إلى قرطاج ولا سيّما في مراحلها الأخيرة تحوّلت هي الأخرى إلى قوّة استعمارية تنظّم حملات الغزو والنهب باتجاه المناطق الداخلية ووصلت إلى جهات تبسّة وبلاد القرامنت لجلب حجر اليمان (Chalcedoine) المطلوب في صناعة المزهريات، ومن بلاد القرامنت إلى أفريقيا جنوب الصحراء كانت القوافل تعمل لحساب قرطاج وتزوّدها بالسلع النادرة، وطبيعي أن تتوتّر العلاقة بين الترّتين الاحتكاريتين المتنافستين الإغريقية والبونية، وكان مركز الثقل في الصراع بينهما هو

1 - pierre l'Evêque, op. cit. p. 207.

جزيرة صقلّية أمّا في البرّ الأفريقي فكان الصراع بين إغريق قورين وبونيي قرطاج أقلّ حدّة ولم يكن يتجاوز الخلاف على ترسيم الحدود[1].

4. أسطورة الفيلان وترسيم الحدود بين قورين وقرطاج :

يذكر المؤرّخ الروماني سالوست أنّ الإغريق والبونيين بعد أن أنهكتهما الخلافات قرّرا رسم معالم الحدود بينهما وذلك بأن ينطلق رجال من كلا الطرفين في وقت واحد من قورين وقرطاج ويكون المكان الذي يلتقون فيه هو نقطة الحدود بين الطرفين، فانطلق أخوان من قرطاج هما الفيلان (Philènes) وتقدّما بسرعة كبيرة، أمّا القورينيون فساروا ببطء وعند الوصول اتّضح بأنّ المسافة التي قطعها البونيون أطول وسيكون إقليمهم أكبر ولذلك احتجّ القورينيون واتّهموا القرطاجيين بأنّهم انطلقوا قبل الوقت المحدّد، وقدّموا اقتراحا للبونيين هو إمّا أن يتقدّموا هم أيضا بنفس المسافة أو أن يضحّي الأخوان (الفيلان) بنفسيهما في ذلك المكان لتكون الحدود الثابتة بين الطرفين فقبل الأخوان وضحّيا بنفسيهما من أجل المدّ في رقعة بلدهما قرطاج، ومنذئذ أصبح المكان يسمّى: هياكل الفيلان (Autels des Philènes)[2]، وبذلك تمّ إبعاد الإغريق عن القسم الأكبر من سواحل الشمال الأفريقي من خليج السيرت الكبير إلى أعمدة هرقل، مع أنّ اقزال يؤكّد بأنّ هذه الأسطورة إغريقية بدليل الأسماء الواردة فيها، ونتيجة لذلك ظلّ الشمال الأفريقي القديم في معظمه غير معروف فجعلت الأساطير الإغريقية منه مسرحا لبعض آلهتها وأبطالها، من ذلك أنّ أطلس (Atlas) انحاز ضدّ الآلهة فغضبت عليه وحوّله زيوس إلى جبل، وذلك هو سبب تسمية جبال بلاد البربر بجبال الأطلس، كما أنّ هرقل سجّل إحدى مآثره في بلاد البربر فبضربة من عصاه شقّ مضيق جبل طارق، وفي ملحمة الأوديسا أنّ أوليس (Ulysse) حاصره إعصار فآوته الإلهة كاليبسو (Calypsu) لمدّة سبع سنوات[3]، ومن هذه الأساطير نلمس جيّدا أسف الإغريق على عدم تمكّنهم من وضع أقدامهم بهذه المناطق التي يأتي منها الذهب والقصدير.

---

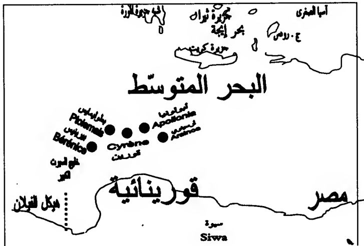
1 شامو(فرانسوا)، في تاريخ ليبيا القديم،الإغريق في برقة الأسطورة والتاريخ، تعريب محمد عبد الكريم الوافي،منشورات جامعة قاريونس، بنغازي 1990، ص30-43.

2 - Hérodote, op. cit. p. 166.

3 - Ibid. IV, 161.

5. نهاية الوجود الإغريقي في الشمال الأفريقي القديم:

احتكر إغريق قورين إنتاج وتصدير نبتة السيلفيوم (Sylvium) التي كانت سلعة استراتيجية فترة طويلة لأهمّيتها الطبّية، وكانت المنتجات الفلاحية والأنشطة التجارية تدرّ عليهم أرباحا طائلة، وكانت المدن المرفأية القورينية تستفيد من تجارة العبور باعتبارها همزة وصل بين الشرق والغرب، ولكن هبوب رياح الصراع على السلطة أخذ يقوّض الحياة السياسية، وأخذ الوضع يتدهْوَر تدريجيا فدمّرت دسائس الطبقة السياسة كلّ شيء، وكان غزو الفرس والإسكندر لمصر تباعا محسوسا في قورين لأنّها تتأثّر عبر تاريخها ولا تزال بما يحدث عند جيرانها الشرقيين، وفي هذا السياق لم تكن البلاد مهيّأة لأن تنبثق منها قوّة بديلة من داخلها لتجاوز تلك الأوضاع وبدا أنّ مستعمرا جديدا سيستلم الأمر وهو ما حدث فقد وجد الرومان فيها فرصة مناسبة للتدخّل، وأصبحت قورين تحت رقابتهم، وعندما عاد لوكولوس (Lucullus) من حربه ضدّ ميثريداتوس (Mithridatus) قرّر افتكاكها من ملكها، وحوّلها إلى مقاطعة رومانية سنة 86 ق.م. وأقرّ مجلس الشيوخ الروماني ذلك وقام بومبيوس بدمجها مع كريت في مقاطعة واحدة وهو الوضع الذي ظلّت عليه إلى عهد ديوكليتيان الذي أقرّ إصلاحات إدارية كما هو معروف[1].



الشكل (18) المستعمرات الإغريقية (المدن الخمسPentapolis) في الشمال الأفريقي القديم.

1 شامو (فرانسوا)، مرجع سابق، ص 110-113.

الباب الثالث

التحوّلات الاقتصادية خلال الفترة الرومانية

الفصل الأول / التحوّلات التي عرفها تنظيم واستغلال الأرض

الفصل الثاني / المستثمرات الفلاحية

الفصل الثالث / التوسّع الزراعي

الفصل الرابع / نظام السقي الزراعي

الفصل الأول

التحوّلات في تنظيم واستغلال الأرض

كانت الأرض قضية مركزية في الصراع بين سلطة الاحتلال الروماني والشعب الأفريقي، وكان الاستيلاء على الأرض بموجب حقّ الفتح من أبرز أهداف الاحتلال الروماني منذ البداية، لأنّ روما لا تخطو خطوة دون أن تكون مدعّمة بقوانين صادرة عن هيئتها التشريعية، أي أنّ هذا الاستيلاء شرّع له مجلس الشيوخ الروماني، وسيقوم مهندسو المساحة(Géomètres ou Arpenteurs) بتنفيذه في الميدان، فقد كان ضمن الفرق العسكرية الرومانية مهندسون في هذا المجال وهم طليعة ما يسمّى الهندسة العسكرية (Génie militaire) التي ستعمَّم في كلّ الجيوش في عصور تالية، وعندما ينهي العسكري سيطرته على الأرض يأتي دور هؤلاء المهندسين للقيام بإجراءات المسح، وإيداع ملفّاتها في مصلحة خاصّة بها للاعتماد عليها خلال توزيع الأرض على الطبقة الأرستقراطية وعلى قدماء الجند لإنشاء المستثمرات الكبرى (اللاتيفونديا والسالتوس) وكذا لإعداد الجداول الضريبية... الخ، وقد شُرع في أعمال المسح (Arpentage) في أفريقيا الرومانية (أفريكا فيتوس Africa vetus) منذ 120ق.م. إلى39 بعد الميلاد.

قامت الإدارة الرومانية بنزع الملْكية من القبائل الأفريقية ودفعت بها نحو الجبال والسهوب وفيافي الصحراء، وكانت أولى القبائل التي تعرّضت لنزع الملكية قبيلة الموسولان (Musulamii) التي كانت على حدّ تعبير بلينوس (Pline) في تعداد شعب ثمّ قبيلة نوميدة بجهات سوق أهراس، وتحوّل الكثير من أفراد تلك القبائل إلى أجراء لدى الملاّك الجدد الذين ملّكهم القانون الروماني الجائر تلك الأراضي[1].

كانت الأرض الأفريقية منذ البداية محلّ صراع بين أرستقراطية مجلس الشيوخ وحركة الشعبيين هذه الأخيرة كانت ترى في الاستيطان وتوزيع الأرض على البروليتاريا الإيطالية حلاً للمشاكل الاجتماعية المتفاقمة في روما (كان ذلك منذ حركة القراكيين إلى يوليوس قيصر) وطبيعي أن يكون النصر حليف الطبقة الأرستقراطية فجعلت بلاد البربر

1 أنظر أدناه في قسم المجتمع، ص 234 وما بعدها.

أرضا للاستغلال لا للاستيطان[1]، فالجالية الرومانية بقدر ما هي وفيرة الامتيازات كانت قليلة العدد تتكوّن من الموظّفين السامين وكبار الملاّك وتجّار الموانئ والمراكز الحضرية الكبرى وسلالة قدماء المستوطنين أمّا الباقي وهو الأغلبية الساحقة فكان من الأهالي، لأنّ روما أخضعت البلاد لسيادتها ونظّمتها إداريا وأمّنت الاستقرار والسلم ولكن العنصر الأهلي هو الذي نهض بالعمل الحقيقي[2].

1. الأرض في القانو ن الروماني:

اعتبر القانون الروماني أرض البلاد المفتوحة ملكية عمومية (Ager publicus) للشعب الروماني، وعلى هذا الأساس وُسمت الأرض الأفريقية بعبارة أركيفينالس (Arcifinales) لأنّها أُخذت من أهلها الذين هُجّروا منها بالقوّة، بهذا الاعتبار اغتصب المستعمر الروماني جميع الأراضي الخصبة على الخصوص بل وحتى الأراضي الرعوية والغابات ليقيم فيها أشكالا من المستثمرات الفلاحية الكبرى (الفندس، اللاتيفونديا، السالتوس، البرايديا...) بموجب حقّ الأوكوباتيو (Occupatio)، وقُدِّر لمقاطعة أفريقيا الرومانية التي أنشئت في القطر البوني(Contrée punique) عقب سقوط قرطاج أن تكون أوّل إقليم أفريقي تطبّق فيه روما قوانينها وسياستها المتعلّقة بالأرض وبالزراعة عموما[3]، وكان جشع الرومان للحصول على أرض أفريقيا سببا في اصطدام الأرستقراطيين بالشعبيين الذي أودى بحياة الأخوين القراكّيّيْن(تيليوس وفايوس)[4]، فقد طالب الشعبيون بتوزيع الأرض الأفريقية على البروليتاريا (7,5 هكتارات للواحد)، وانتدبوا لذلك لجانا كلّفوها بتوزيع "الغنيمة" الأفريقية على فقراء حزبهم، فاقتطع هؤلاء قسماكبيرا من الأراضي التي تملّكتها طبقة النبلاء ووزّعوها عليهم وكان ردّ النواب الأرستقراطيين في مجلس الشيوخ -وهم الأغلبية- عنيفا، وبعد مواجهات دامية استرجعوا احتكارهم للملكيات الكبيرة التي فضّلوا تشغيل فلاّحين من الأهالي فيها

---

1 في هذا السياق نرى أنّ الأغلبية السكّانية الساحقة كانت دائما من الأهالي والدليل أنّ تعاوَن الأهالي والز نف الوندالي-وهو تعاوُن أملته ظروف تاريخية خارج إرادة العنصر الأهلي-محا كلّ أثر للعنصر الروماني بينما استمرّت فرنسا رومانية لاتينية مع أنّها كانت أقلّ رومنةً من أفريقيا.

2 جوليان (شارل أندري)، تاريخ أفريقيا الشمالية، ج1، تعريب محمّد. امزالي وبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس 1969، ص 205.

3 -Hugoniot (Ch.), Rome en Afrique; de la chute de Carthage aux débuts de la conquête arabe, Manchecourt, Flammarion, 2000. Coll. Champs Université, p. 23.

4 -Carcopino (J.), L'aptitude d'assimilation des Berbères à la civilisation d'après l'histoire ancienne de l'Afrique du Nord, in VIIIe Congrès Volta, 1938, pp. 3-14.

على جلب العنصر الإيطالي[1]، ولم يبق في أيدي البروليتاريا الرومانية إلاّ الشيء القليل سيتمّ بيعه بالتدريج لكبار الملاّك، وبذلك تعود الأمور إلى سابق عهدها[2].

اقتسمت القوى النافذة في مقاطعة أفريقيا الرومانية (أفريقيا القديمة فيما بعد)- وهو الوضع الذي سيسري على عموم أفريقيا الرومانية - ملكية الأراضي وتأتي الطبقة السيناتورية بالدرجة الأولى، ثمّ العرش النوميدي الذي نال قسطه من أجود الأراضي تعبيرا من روما على إبداء النوايا الحسنة باعتبارها "الجار الجديد" للمملكة النوميدية، كما كانت للمدن الحرّة (التي وقفت مع روما ضدّ قرطاج وأوّلها أوتيكا) حصّتها، وهناك الأراضي التي تمّ تأجيرها، وفي وقت لاحق كوفئ جند ماريوس وكان فيه عدد هامّ من الجيتول الذين انضمّوا إليه في الحرب ضدّ يوغرطة، ولعلّهم كانوا أول الأفريقيين الذين ترومنوا ونالوا حقّ المواطنة الرومانية، تمّ هذا في العهد الجمهوري، أمّا في العهد الإمبراطوري فقد حلّ البيت الإمبراطوري في الدرجة الأولى من حيث الامتيازات والممتلكات العقارية، وقدِّرت مساحة الأراضي التي يمتلكها الأباطرة بأفريقيا بالسدس، وبذلك أصبحت الأرض الأفريقيّة موزَّعة كما يلي :

- **أراضي البيت الإمبراطوري**: وهي مستقلّة ومعفاة ويستفيد هو فقط من عائداتها.

- **أراضي العائلات الأرستقراطية**: وهي أيضا مستقلّة عن المدن المجاورة لها ومعفاة.

- **أراضي البلديات**: وهي ملك للأرستقراطية البلدية من الرومان والمترومنين.

- **أراضي القبائل الأهلية** : وهي غير معترف بملكيتها في القانون الروماني ولذلك يتمّ حجزها متى رأت سلطة الاحتلال حاجتها إليها[3].

---

1 وفي هذا السياق سيكون الوضع لصالح أفريقيا بحيث أنّ مقاومة الأرستقراطية الرومانية لتمليك البروليتاريا الإيطالية الأراضي الأفريقية هو الذي حدّ من الاستيطان الروماني فاحتفظ العنصر الأهلي نسبيا بأرضه ولو كأجير وظلّ الحجم الديمغرافي للعنصر الأهلي دائما هو الأكبر بكثير، أنظر: جوليان (شارل أندري)، مرجع سابق، ص 205 .

2 أورد مهندس المساحة هوجيوس معلومات قيّمة بحكم وظفته،عن وضع الأرض، أنظر :

- Hyginus Grpmaticus, Œuvre géométrique, éditions de l'Office des publications officielles des communautés européennes, Luxembourg 2000, pp. 33-39 .

3 شنيتي (بشير) ، التغيّرات ... ، مرجع سابق ص 67-68.

2. الكنترة:

جاء الاحتلال الروماني إلى أفريقيا بأنظمة مختلفة إدارية وعسكرية وجبائية، وأهمّها الكنترة-من الكلمة اللاتينية كنتوريا Centuria وتعني مساحة حقل قدرها 50 هكتار في المتوسّط- وهي عملية مسح الأراضي (Arpentage) وهي إجراءات إدارية هندسية يقوم بها مهندسو المساحة تتمثّل في تخطيط الأراضي التي يراد كنترتها بخطّين متعامدين شرق-غرب (وهو خط الديكومانوس الكبير Decumanus maximus) وشمال-جنوب (وهو خطّ الكاردو الكبيرCardo maximus) وهي قاعدة معمول بها في تخطيط المدن ومعسكرات الجند أيضا[1]، وهذان الخطّان هما بداية لخطوط موازية لهما وبذلك يتمّ الحصول على قطع رباعية، ضلع كلّ واحدة حوالي 710م، فتكون مساحة القطعة الواحدة حوالي50هكتار، وحيث أنّ الكاردو والديكومانوس هما في الأساس طريقان فإنّ تخطيط الطرق يكون مصاحبا لهذه العملية التي تنبني عليها فيما بعد الأقساط الضريبية المفروضة، ثمّ توضع علامات مرقّمة تبيّن خطوط الحدود واتجاهها[2] (أنظر أدناه الشكلان19، 20 ص 79).

3. استغلال الأرض:

تكوّنت مستثمرات كبرى (Grands domaines : Latifundia, Fundus, Saltus, Praedia) في الأراضي المملوكة للأرستقراطية الرومانية التي كان أفرادها لا يقيمون في تلك المستثمرات بل إنّ بعضهم ظلّ مقيما بروما [3]، ولذلك سيعهدون بمهمّة الإشراف على تسيير واستغلال تلك المستثمرات إلى مسيّرين يكون تحت تصرّفهم عدد هامّ من الأجراء والعبيد، وقد تكوّن في هذه المستثمرات "جهاز إنتاج" تراتبي في أعلاه المالك ثمّ المسيّر ثمّ وكلاء دونه رتبة إلى المتعهّدين والمستأجرين والعمّال، وهؤلاء الأخيرون يقيمون بالمزرعة ويتحصّلون على امتياز استغلال مساحة منها بموجب عقد مبرَم مع مالك الأرض أو وكيله ثمّ يقومون هم بدورهم بتأجير ذلك الامتياز إلى المزارعين دون أرض وبذلك يكون القانون الروماني قد أقام نظاما عبوديا هرميا في أسفله الطبقة المسحوقة التي لا تملك سوى قوّتها العضلية.

---

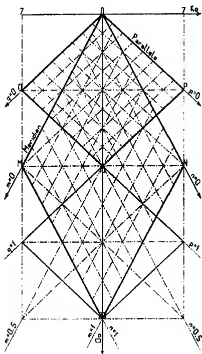
1 وهما خطّان وهميان متعامدان يلتقيان في وسط مدينة روما وبذلك فهي تترسّط العالم، ثمّ نقلت الفكرة إلى كلّ أنحاء الإمبراطورية وأصبحت الأساس في أعمال الكنترة والمساحة وتخطيط المدن.

2 - Chevalier (R.), op. cit. pp. 150-154.

3 عن هذه المزارع الكبرى يمكن الرجوع إلى:عقون(محمّد العربي)، من التاريخ البلدي للجزائر... ص 334-338.



الشكل (19) علامة كنترة تشير إلى رقمي الكاردو والديكومانوس



الشكل (20) أرض مكنترة

4. إصلاحات الإمبراطور هدريانوس 117-138 :

قام هذا الإمبراطور بزيارة إلى أفريقيا وتنقّل في مقاطعاتها، وقد شاهد تدهوُر الوضع الفلاحي عموما بسبب ظروف وعلاقات العمل التي يتمّ فيها استغلال الأرض، ورأى ضرورة تغيير تلك الظروف[1] وإدراكاً منه لأهمّية الفلاحة في اقتصاد الإمبراطورية أصدر تشريعات فلاحية هامّة لتطبيقها على أملاك الإمبراطور، وقد تمّ اكتشاف بعض نصوصه القانونية في موقع هنشير مُطّيش[2] (Henchir Mettiche) بتونس سنة 1896، وهو نصّ عقد تسيير نقتطف منه ما يلي :

1 ناقش الأستاذ شنيتي هذا الموضوع والظروف المحيطة به بتفصيل، أنظر : شنيتي (محمّد بشير)، التغيّرات... مرجع سابق، ص 73-74.

2 - Cuoq (E.), Le Colonat partiaire dans l'Afrique romaine d'après l'Inscription d'Henchir Mettiche, CRAI, XI, 1ère série, 1901, pp. 31-83.

المادّة الأولى : تتضمّن تشريعات متعلّقة بالأجانب عن الفندس[1] :

البند الأول: يُسمَح للمقيمين خارج الفندس بامتلاك الأرض البورالتي يستصلحونها.

البند الثاني: على المستفيدين من الأرض أن يدفعوا أقساط الإنتاج إلى وكلاء أو مسيّري الفندس.

البند الثالث: يقدّر وكيل الفندس كمّيات الإنتاج الواجب تسليمها من قبل المباشرين للإنتاج.

المادّة الثانية : وتخصّ الواجبات المفروضة على المزارعين (Agricola) :

البند الرابع: يقدّم المستفيدون من استغلال أرض داخل العقار، الاقساط المفروضة عليهم إلى المالك (Domini) أو وكلائه [الثلث على القمح والفول والربع على العسل والخمس على الخمر والزيت.

البند الخامس: تسليم أقساط الإنتاج من جني التين.

البند السادس: دفْع أقساط من إنتاج الأشجار المثمرة (الزيتون، الكروم...، حسب نصّ قانون مانكيانا (Lex Manciana)[2].

البند السابع: يُفرَض دفع الأقساط على التين بعد مرور5 سنوات من الإنتاج[3].

---

1 الفندس (Fundus) هو ملكية عقارية كبيرة، والمـوادّ القانونيـة المـذكورة تخـصّ فنـدس ويـلاي ماغنـاي واريانـاي · (Fundus Villae Magnae Varianae) بالمكان المسمّى اليوم هنشير مطيّش، وهو نصّ قانوني أصدره وكيل الإمبراطـور ترايانوس حوالي العام 116 أو117 م مستمدّ من قانون مانكيانا الذي ضاع، للتوسّع يمكن العودة إلى :

- Saumagne (Ch.), Sur la Législation relative aux terres incultes d'Afrique romaine, IN Revue Tunisienne, (1922), pp. 57-116. :
- Carton (P.), La Lex Hadriana et son commentaire par le procurateur Patruclus, IN R. AF, . 1893. p. 114.

2 اعتُبر هذا القانون الذي دخل حيّز التطبيق في القرن الأول الميلادي منذ عهد فيسباسيان (69-79) محرّكا للتنمية الزراعية وهـو الذي سمح بثراء مزارعي أفريقيا : Hugoniot (Ch.), op. cit. p. 103. - واعتبره البعض رخصة عمل أكثر منه قانونا :

- Peuras (Jean), La potestas occupandi dans l'Afrique romaine, in Dialogue d'Histoire Ancienne, Coll. Histoire ancienne, Vol. 25/1, Belles Lettres, Paris 1999, p. 134

وهو متعلّق بدومان واحد ولذلك لا بدّ من تشريع مكمّل له يخصّ كلّ المستـ رات الفلاحية وهو قانون هدريان :

- Lasserre (J. M.), Vbiqve Popvlus. édition CNRS, Paris 1977, p. 297.

3 كان تين أفريقيا ذا شهرة كبيرة، ولا ننسى ذلك الموقف التحريضي على احتلال أفريقيا من قبل كاتون في مجلس شيوخ رومـا وفي يده حبّات من الزيتون والتين أخذها معه من أفريقيا ليظهرها لشيوخ المجلس، وكان التين المجفّف والخمر وأنواع الخـضر جزءا هامّا من الأنونة الأفريقية،أنظر:

-Cagnat (R.), l'Annone d'Afrique, Mémoire présenté à l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres. Vol. XL., 1916, pp. 247-267.

البند الثامن: يتضمّن شروط الإعفاء المؤقّت من دفع الأقساط.

البند التاسع: يستفيد المزارع بنفس الامتياز بخصوص الزيتون، وأكثر من ذلك يسمح بغراسته خارجَ الأرض الزراعية، ويُعفى من دفع الأقساط مدّة 10 سنوات من أوّل إثمار وبعدها يدفع القسط وقدره ثلث الكمّية المنتَجة من الزيت.

البند العاشر: دفْع أقساط عن زراعة الأعلاف.

البند الحادي عشر: دفْع أقساط عن تربية الحيوانات نقدا.

البند الرابع عشر: نزع الملكية في حال التخلّي عن استغلال الأرض المستصلحة موسمين متتاليين[1].

5. أعمال السُّخرة:

فرض المشرّع الروماني على جمهور الفلاحين من المزارعين والأجراء وباقي العمّال القيام بأعمال مجّانية لصالح المالك أو وكيله، وأهمّ البنود القانونية التي أصدرها المشرّع الروماني في هذا المجال هي:

أ- **البند الأول**: إلزام المزارعين العاملين داخل الفندس بالعمل المجّاني يومين خلال الحرث ويومين خلال الحصاد ويومين في تنقية الزرع.

ب- **البند الثاني**: إلزام الغرباء (Incolae) بتسجيل أنفسهم لدى المسيّرين للقيام بالحراسة الدورية مجانا.

إنّ تشديد المشرّع الروماني على عنصر الحراسة يدلّ على أهمّية وقاية الإنتاج الزراعي من الأخطار التي تهدّده مثل عمليات النهب أو الحرق وهي أعمال انتقامية يقوم بها المجتمع احتجاجا على القهر المسلّط ولا سيّما على العنصر الأهلي الذي انتُزعت منه أمواله وأرضه وفرضت عليه حياة الذلّ والعبودية في وطنه.

نستنتج في الأخير بأنّ مجلس الشيوخ الروماني كان حريصا على توفير الأطر القانونية التي تحمي امتيازات القلّة الأرستقراطية الحاكمة التي تعود إليها أغلب الملكيات الكبرى (فندس، لاتيفونديا، سالتوس...)، وفوق ذلك منح سلطات واسعة لحكّام المقاطعات وخوّل لهم إصدار المراسيم، ومن الأمثلة في هذا السياق:

---

1 اكتفينا بهذه العيّنة،وصغناها باختصار،وعلى من يريد التوسُّع أن يعود إلى ألواح ألبيرتيني (بالفرنسية) ص99-113.

مرسوم البروكوراتور (Procurator): اكتشفه الأثري كارتون (Carton) بعين واصل (تونس) سنة1891 ويُستخلَص بأنّه حُرّر من قبل وكلاء الإمبراطور سبتيميوس سيويروس (Septimius Severus) سنة 210م وهذا المرسوم يعتمد على تشريعات هدريان[1].

وثيقة جنان الزيتونة: تتضمّن مرسوما يعود أيضا إلى الإمبراطور سبتيميوس سيويروس، وهو مماثل للمرسوم السابق[2].

مرسوم قسطنطين الكبير، ويستخلَص من نصوص العقود الوندالية التي سمّيت بألواح ألبرتيني(Tablettes d'Albertini) وهي وثائق بيع وشراء أراضي عقّار كبير في جهة تبسّة أنّ التشريعات الفلاحية الرومانية كانت راسخة في أفريقيا وأنّها ظلّت مرجعا قانونيا للأهالي في معاملاتهم[3].

والمهمّ في هذه التشريعات أنّها رسّخت القواعد القانونية التي ظلّت تنظّم الاستغلال الزراعي في عموم أفريقيا، وانتقلت إلى أبناء البلاد وظلّ التعامل بها قائما، وبذلك تكون قد رسمت الإطار القانوني لجانب كبير من النشاط الاقتصادي ومختلف المعاملات المتعلّقة به وتكون قد اندمجت في أعراف وتقاليد الأفارقة إلى عشية الفتح الإسلامي.

1 - Mespoulet (M.), l'Inscription d'Ain Ouassel, Nouv. Revue de Droit français, Mars-Avril 1892, pp. 124-177.

2 - Saumagne (C.), Inscriptions latines de Jenan ez Zaytouna (Tunisie), CRAI, 1937, pp. 293-301.

3 وهذه العقود تعود إلى ملك أفريقي في المنطقة الأوراسية، أنظر:

- Courtois (ch.) , Leschi (L.), Perrat (Ch.) et Saumagne (Ch.), Tablettes Albertini, Imprimerie nationale Alger 1952, pp. 189-197. p. 104.

الفصل الثاني

المستثمرات الفلاحية

استتبعت السيطرة الرومانية تجريد الشعب كلّه من أملاكه العقارية وانتزاع الملْكية من الجماهير في هذه البلاد التي فقدت السيادة، فقد اعتبر القانون الروماني أراضي البلاد المفتوحة ملكاً عموميا لروما (Ager publicus).

I. تقسيم الأراضي الأفريقية :

قسّم المشرّع الروماني الأراضي الأفريقية إلى مجموعات كبيرة هي :

أ- أراضي الشعب الروماني (Fundi populi romani) : ولكن الشعب الروماني في الواقع لا يملك هذه الأرض إلاّ بالاسم، وخاصّة في المقاطعات، وأصبحت منذ البدايات في يد الأعوان الإمبراطوريين، ووزّعت تلك الممتلكات على الطبقة السيناتورية وعلى البلَديات يسيّرها **البوبليكاني**(Publicani) وهؤلاء بدورهم يؤجّرونها لصغار الفلاّحين المستأجرين (Petits fermiers).

ب- **أملاك الإمبراطور** (Patrimonium Principis) وهي معفاة من الجباية.

جـ- **أراضي الجباية** (Loca fiscalia) وتضمّ أشتات الأراضي العمومية في المقاطعات الإمبراطورية وما اعتُبر أملاكا شاغرة (Bona vacantia).

في هذه الأراضي، ستقيم روما منظومة استغلالية فلاحية، طبعت أفريقيا القديمة بطابع اقتصادي رسخت تقاليده مع الزمن وظلّ قائما في جزء منه طيلة العصور القديمة، وتتكوّن هذه المنظومة من وحدات إنتاجية كبرى (مستثمرات أو دومانات (Latifundia, Salti, Praedia... Domaines مملوكة للطبقات النافذة في الدولة وهي ثلاث على الخصوص العائلة الإمبراطورية، الطبقة السيناتورية والأرستقراطية البلَدية في الأقاليم، ولها جهاز تسيير وإنتاج، ويمكن أن تكون لها على غرار المدن أسواق خاصّة، ومنذ القرن الثاني الميلادي كان الإمبراطور هو الذي يمكن أن يمنح شخصيّاً رخصة إقامة أسواق[1] وقبل ذلك كان مجلس الشيوخ هو المخوّل قانوناً، وفي أفريقيا هناك نصّان

---

1 - Pline, Epist. 5, 4.

يشيران إلى ترخيص إمبراطوري بإقامة أسواق نصف شهرية للفوندي أو السالتي، وإقامة سوق يمكن أن يتحوّل إلى فيكوس (Vicus) مركزي للمناطق المجاورة له[1].

2. اللاتيفونديا

يرتبط ظهور وتطوّر هذا الشكل من المستثمرات الفلاحية بالقوانين الزراعية (Agrariae leges) التي شُرّعت منذ العهد الجمهوري، وهذه المستثمرات هي حجر الزاوية في التاريخ الاقتصادي للشمال الأفريقي القديم في إحدى أهمّ مراحله وهي الفترة الرومانية، منذ استحداث مقاطعة أفريقيا الرومانية على أرض قرطاج، وكان اسم اللاتيفونديا قليل الاستعمال فهو ليس اصطلاحا تقنيا، لأنّ الاسم في أصله يعني الأرض المحدودة (Terre limitée) والمعتاد أنّ اللاتيفونديا تفوق الوحدة الزراعية العادية بقليل، أمّا في العهد الإمبراطوري فقد أصبحت مرادفة للسطوة الإمبراطورية والفتوحات العسكرية الكبيرة وما انجرّ عنها من مغنم كبير في الثروة والأملاك العقارية.

في البدايات لم تكن اللاتيفونديا بالاتساع الذي ستعرفه في العهد الإمبراطوري، لأنّ الاستغلال الزراعي في إيطاليا كان في أغلبه يقوم على الملكيات الصغيرة والمتوسّطة خاصّة في إقليم كمبانيا، وهي الملكيات التي وردت بشأنها إشارات في المصادر اللاتينية ويقدّم كاتون أرقاما مساحية تتراوح ما بين100 و 200 إلى 300 أربنت (Arpents) كمساحة عامّة للدومان الريفي (Domaine rural) وكان الدومان المتوسّط المساحة يشغّل ما بين 12 و18 عبداً، وتتطابق هذه المعطيات مع ما أورده هوراس (Horace) حيث كان جهاز استغلال الحقل (Agellus) يتكوّن من المالك (Villicus) وخمسة مستأجرين (Fermiers) وثمانية من العبيد ويستخلص من نصّ أثري أنّ قناة محمولة طولها 5950 قدماً تشقّ 11 ملْكية متوسّطة المساحة، والنتيجة التي يمكن الخروج بها هي أنّ هذه الملْكيات الصغيرة والمتوسّطة في إيطاليا قاومت الاحتكارات الكبرى وكانت صورة لتوزيع وسائل الإنتاج، وكانت الشكل الأعمّ في أفريقيا خلال الفترة ما قبل الاحتلال الروماني[2].

ظهرت الملكيات الكبيرة في أواخر عهد الجمهورية خلال ما يُعرَف بالحرب الأهلية وما تبعها من فتوح وانتصار القوّة العسكرية التي جنّدت العامّة وألغت الجمهورية وأقامت النظام الإمبراطوري، ويتحدّث تيت-ليف عن نشوة الانتصار العسكري وما

1 - D.A.G.R., T. III, p. 963.
2 - Carcopino (J.), Fermier général ou Sociétés publicaines, in REA, XXIV, 1922, pp. 12-36.

صاحبها من جشع متزايد في تملّك الأرض (Cupido argos continuandi) فلقد كوفئ الرأسماليون الرومان والإيطاليون عموما بتوسيع ملكياتهم بحيث وجد هؤلاء في المستعمرات أراضي في متناولهم (Fundi excepti, Loca relicta) فضلا عن مكافأة قدماء الجنْد (Veterani) والشخصيات السامية، وبذلك ظهرت الملْكيات الكبيرة (اللاتيفونديا والسالتوس والفندس والبرايديا)، وكانت للمدن أراضي كبيرة حولها تستغلّها لتوفير حاجياتها الغذائية ولكن كثيرا ما كانت عرضة لاستيلاء ذوي النفوذ عليها[1].

اللاتيفونديا هي فندس (Fundus) أو عدد من الفوندي (Fundi) والفيلاي (Villae) المملوكة للدولة (Patrimonium) أو للخواصّ، كالإمبراطور أو أعضاء الطبقة السيناتورية أو الأرستقراطية البلَدية (Aristocratie municipale)، وهي ملكيات كبيرة معزولة بحدود عن محيطها وهو الوضع الذي استمرّ وترسّخ إلى ما بعد الغزو البربري في عموم المقاطعات الرومانية، وكان الدومان يتكوّن من عدد من الفوندي، وقد يشار إليه باسم الأقير[2] (Ager) والفيلا (Villa) الدالّة على منزل السيّد المالك ثمّ الدومان كلّه مع الزمن، وتنتقل ملكية الدومان الإمبراطوري من الإمبراطور المتوفى إلى خلفه آليّاً، أمّا أملاك المحكوم عليهم فتوزَّع على الأملاك الغارمة: الفيسكاليا (Fiscalia) وعلى الباطريمونيوم (Patrimonium)، ومنذ اعتلاء العائلة اليولية الكلاودية العرش الإمبراطوري أصبح الباطريمونيوم ملكاً للعائلة الإمبراطورية، وتوارثته بعد ذلك العائلات الإمبراطورية واعتبر ملْكا للتاج الإمبراطوري ومثْله الخزينة الخاصّة، ومن حسن حظّ المستعمرات أنّ هذه المستثمرات الزراعية الكبرى كانت تشغّل عمّالا من أبناء البلاد في الغالب لأجورهم المنخفضة، وتعتمد على السخرة في أحيان كثيرة، وهي السياسة التي جعلت وجود العنصر الروماني قليلا في أرياف المقاطعات[3].

تشير النصوص إلى أنّ التشريعات القانونية تعتبر اللاتيفونديا ضمن إقليم المدينة (in territorio)، واللاتيفونديا المملوكة للإمبراطور معفاة من الأعباء البلَدية أمّا الخاصّة

1 يوجد في النصوص القانونية إشارات عن الاستيلاء على أراضي المدن، وكان الوكلاء يطالبون باستعادة هذه الأراضي.

2 وهو الاسم الذي احتفظت به الأمازيغية للدلالة على الزرع أو الحقل المزروع، مع تحريف طفيف إذ يُنطق إيقر (Aigr).

3 - Carcopino (J.),colonat partiaire, in MEFR, XXVI, 1906, 365-481.

فهي ملزَمة بنصّ القانون بدفع ما عليها من أعباء، ولكن في العهد المتأخّر ستحصل على امتيازات بهذا الشأن[1].

3. السالتوس:

السالتوس في القانون الروماني هو مِلْك عقاري للدولة وهو دومان(Domaine) إمبراطوري أو عمومي، وهذا الاسم معناه الغابة أو البراري (Silvae et pastiones) وفي مدوّنة يوستينيانوس تقابل كلمة سالتوس (Saltus)كلمة فندس (Fundus)، والسالتوس بهذا المعنى هو الأرض الجبلية وأراضي البور الصعبة الاستغلال قياسا إلى الأراضي المنزرعة، ولكن هذا الوضع سيعرف تحوّلاً بالتدريج، باستصلاح مساحات شاسعة من أراضي السالتوس التي ستنشأ فيها مستثمرات (Domaines) كبيرة[2]، ولكل سالتوس-في العهد المتأخّر (Bas-Empire)- كنيسته وكهنته وحتّى أساقفته وخاصّة في أفريقيا فقد كان للدوناتيين أساقفة في الفيلاّي (Villae) والفوندي (Fundi)[3] وهناك أسماء عديدة أشير إليها في القوائم الأسقفية في أفريقيا كمقرّات لأسقفيات هي في الواقع أسماء للسالتي والفوندي، ونستنتج من هذا أنّ جمهور العقيدة المسيحية من الشعب الأفريقي كان من الفلاّحين المسحوقين الذين حوّلهم القانون الاستعماري الروماني إلى عبيد فوق أرضهم[4].

كان تحصيص الأرض قد تمّ أوّلاً في الأرض الزراعية، وكانت أراضي السالتي دائما خارج الأملاك العقارية للمدن وهي في الغالب الأراضي الشاسعة البعيدة عن التجمّعات السكّانية القروية والحضرية ولكن لا تخلو من السكّان خاصّة مربّو الحيوانات الذين وضعهم القانون الروماني تحت سلطة مالك السالتوس، ويتكوّن السالتوس من وحدات كبيرة مساحة كلّ منها 25 وحدة مائوية (Centuries) أو 5000 يوقيرا[5] (Jugera)، ولا ريب أنّ السكّان المقيمين على أرض السالتوس هم في أغلب الأحيان من الذين تعرّضوا لنزع الملْكية، وكانت أفريقيا هي أرض السالتوس عن جدارة، فقد جاء في بلينوس أنّ ستّة من كبار الملاّك الذين انتزع منهم نيرون

---

1 - CHASTAGNOL (André), La législation des biens des villes au IVe siècle à la lumière d'une inscription d'Ephèse, Atti dell' Accad. Romanistica Costantiniana, 6° Convegno intern., Pérouse, 1986, p. 77-104.

2 - D.A.G.R., p. 958.

3 - St. Augustin , Epist. 65, 1, 2. 65, 3, 173.

4 مثل الفندس البوروني (Fundus burunitanus episcopus) - Vict. De Vita, Vandale, I.

5 المفرد:يوغيروم (Jugerum) والجمع يوغيرا(Jugera)،وحدة قياس مساحتها:28800 قدم مربّع، أنظر:

- Quicherat (L.),Dictionnaire Latin-Français, édition Hachette, Paris S.D., p. 732

الأرض كانوا يمتلكون في نهاية القرن الأول بعد الميلاد نصف أفريقيا[1]، وهناك عدد هامّ من السالتي على امتداد المقاطعات الأفريقية في حوض مجردة، بحيث يشير نصّ عين واصل إلى خمسة سالتي إمبراطوري {سالتوس بورونيتانوس Saltus Burunitanus في سوق الخميس وفندس فيلاي ماغناي Fundus villae magnae في هنشير مطيّش ومن أملاك الإمبراطور سالتوس فيلومونيانوس S. Philomunianus وسالتوس ماسيبيانوس S. Massipianus}.

السالتوس قانوناً هو خارج إقليم البلَدية، وكثيرا ما تحدث خلافات على الحدود بينهما، وهو معفى من الأعباء التي تفرضها البلَديات إلاّ أنّه يدفع الضريبة العقارية (Impôt foncier)، أمّا الدومان الخاصّ فيدفع إلى جانب الضريبة العقارية باقي الضرائب الملحقة وبالنسبة للتشريعات القانونية يدخل الدومان عموما ضمن اختصاص القانون العامّ (Droit commun)، ولكن في العهد المتأخّر نمت امتيازات الدومانات الإمبراطورية والسيناتورية مع ضعف السلطة المركزية، وخلال الفوضى العسكرية (عهد ماكسيمينوس) أصبح البروكوراتور مطلق التصرّف في الدومان حتّى في المسائل القضائية[2].

4. تسيير المستثمرات الكبرى

يقوم على تسيير هذه المستثمرات جهاز تسيير تراتبي كبير، وكانت المقاطعات الأفريقية تضمّ عددا من الدوائر العقارية والمالية أو التراكتي[3] (Tractus, Tracti) التي تتكوّن بدورها من عدد من هذه المستثمرات، فهناك تراكتوس قرطاج يسيّره وكيل اسمه الوظيفي بالكامل: (Procurator patrimonii tractus carthaginienses) وتراكتوس هدرومت وتراكتوس لبتيس مينور (Procurator patrimonii per regionem leptitanam) وفي نوميديا[4] هناك تراكتوس هيبون وتراكتوس تيفست وكان لكلّ تراكتوس بروكيراطور[5]

---

1 - Pline, Hist. Nat. 6, 35.
2 - Code Théod. 6, 26, 14.
3 في أفريقيا يتطابق إقليم التراكتوس(Tractus) مع إقليم دائرة (Diocèse) أو قسم إداري (Division) أو فرع (Subdivision).
4 هي دائرة (*Diocèse*) ضمن مقاطعة قرطاج أقيمت في إقليم كان يعرَف بأفريكا نوفا، وتسمّى أيضا نوميديا الهيبونية أو نوميديا البروقنصلية تمييزا لها عن مقاطعة نوميديا السيرتية، وكانت مقاطعة قرطاج تتكوّن من ثلاث دوائر هي قرطاج وهيبون وهدرومت وكلّ دائرة إدارية لها هيئاتها المالية والعقارية، أنظر :
- Saumagne (Ch.), Circonscriptions domaniales dans l'Afrique romaine, R. T. 1940, p. 235-238.
5 يمكن أن يسمّى برايفكتوس (Praefectus) أوكوراتور (Curator) وفي العهد المتأخّر (Bas-Empire) أشير إليه باسم: Vice-dominus، أنظر : - Cagnat (R.), Année épigraphique, 1896, N° 117.

(وكيل) من مصفّ الفرسان وقد استخرجنا من المصادر الأدبية[1] والوثائق الأثرية الوظائف التي يتكوّن منها جهاز التسيير وهي :

المكتبيون (Tabularii)، ولهم صلاحيات واسعة تمتدّ إلى السلطة القضائية.

أعوان المكتبيين (Adjucatores Tabularii).

أعوان الكومنطاريي (Adjucatores a commentariis).

محرّرون(Libra notarii) ، لتسجيل المكاييل والأوزان والكمّيات الموزونة.

منادون عموميون (Praecones) ، لإعلام عمال وسكّان اللاتيفونديا أو السالتوس.

عمّال مساحة (Chorographi) ، لتحديد الحصص الواجب زرعهاكلّ موسم.

مرافقون (Pedisqui) ، ويكونون رفقة كبار المسيّرين خلال جولاتهم.

مُدَاوُون (Medici) ، ويجمعون بين الطبّ البشري والطبّ البيطري.

يأتي بعد البروكوراطور مقتصد الريجيو{ديسبنساتورس ريجيونيس Dispensatores regionis}والريجيو (Regio) في الغالب هو قسم من التراكتوس له ميزانيته بإشراف الديسبنساتور (Dispensator) والأديوتور (Adjutor) والفيليكوس (Vilicus)، والمسيّر الأعلى للريجيو هو البروكوراطور، كما هو الحال في موريتانيا القيصرية وموريتانيا السطايفية وطرابلس (Procurator per regionem tripolitanam)، وقد يُعهَد بتسيير الدومان إلى بروكوراتور خاص[2] (Privé) يعتمده السيّد المالك وهو في الغالب من عبيده ويكون بروكوراتور السالتوس الإمبراطوري في الغالب من عتقى الإمبراطور[3]، وهو الذي يتابع العمل، يراقب المزارعين (Les Fermiers) ويسيّر الدومان بمعيّة مكتبه (Tabularium) وخاصّة منهم الفيليكوس (Vilicus) وأعوان حفظ النظام (Actores) وكلّ هؤلاء في الغالب من العبيد، وهو ما يوضّحه نصّ قالمة الأثري الذي يقدّم صورة دقيقة عن تسيير الأملاك الإمبراطورية من خلال جهاز إداري يتكوّن من وكيل ومتصرّف مالي على رأس المصالح التي تسيِّر الدومان الإمبراطوري وفي هذه المصالح جهاز مستخدمين فيه الكتبة (Scriba) والمحاسبين والمراقبين من الأحرار ومن

1 - Cic. De Orat. 1, 58.
2 - Columelle, De Re Rust. 1, 6. ; - Pline, Epist. 3, 19.
3 - Revue archéologique, 1892, XIX, p. 221.

العبيد موالي البيت الإمبراطوري ويتوارثون هذه الوظائف أباً عن جدّ[1]، وخلال العهد الإمبراطوري الأول تمّ إحداث صيغة لتسيير هذه الأملاك الكبرى (Salti et Fundi) وهي أن يعهَد بها لعائلة ريفية (Familia rustica) تقوم بالاستغلال والتسيير ويمكن أن تشغّل العبيد.

بعد الإمبراطور يأتي كبار الملاّك، وهم أعضاء السلك السيناتوري الذين يتكوّن منهم أغلب سامي موظّفي الدولة، وكانت الأرض دائما مصدر الثراء، بحيث أنّ كلمة سيناتوري (Senatori) إلى بداية العصور الوسطى ظلّت مرادفة لكلمة أثرياء (كبار ملاّك الأراضي) وحسب النصوص الأثرية كان أغلب السالتي الأفريقي مملوكا لأعضاء الطبقة السيناتورية[2] وكانت العائلات الكبيرة في العهد المتأخّر (Bas-Empire) تملك دومانات كبيرة، وهو نظام استمرّ إلى القرون الوسطى وعلى أنقاضه سينشأ النظام الإقطاعي، وكان هؤلاء الملاّك يتحصّلون على ريوع طائلة (4000 ليرة = 88,000 Solidi)، وفي العهد المتأخّر أصبح أعضاء الطبقة السيناتورية ينافسون المستأجرين (Fermiers)، ويتحصّلون على امتيازات (Baux emphytéotiques) تخوّل لهم استغلال أغلب الأراضي الإمبراطورية ويسيّرون مزارعهم مثلهم مثل البروكوراتور أو أعضاء الهيئات البلَدية.

5. التنظيم الداخلي للدومان الخاصّ والعمومي :

يضمّ الدومان قسمين هما :

أ- قصر السيّد المالك {الفيلا أو البرايطوريوم Villa ou Praetorium}: ويتكوّن من شقق للصيف وأخرى للشتاء وقاعات استحمام واسعة ذات أروقة فارهة[3]، وقد ورد في المصادر وصف لقصرين يتوفّران على هذه المرافق وأنّ فيلا أفيتاكوس تتوفّر على حمّامات وشقق للنساء وباب كبير ورواق فخم وثلاث غرف للأكل وغرفة للراحة وأمامها طريق مشجّرة طويلة، وهذا البذخ صوّرته الفسيفساء الأفريقية أحسن تصوير[4].

في أفريقيا أصبحت هذه القصور معسكرات، ويبدو أنّها كانت لفترة طويلة مكانا للراحة وقضاء فصل الصيف، لأنّ الملاّك كانوا يسكنون المدن؛ ولم تظهر الأرستقراطية

1 - Albertini (E.), Hippone et l'administration des domaines impériaux, in B.A.H. , pp. 57-62..
2 - CIL, VIII, 14151.
3 - Columelle, De Rei Rusti. I, 6.
4 - Poulle, Bains de Pompeanus, in RSAC. 1878. p. 431.

الريفية إلاّ في العهد المتأخّر، ولعلّ الريف بصفائه قد جذب هذه الطبقة التي نقلت حضارة المدينة إلى الريف وحمّامات بومبيانوس أفضل دليل على ذلك (أنظر الشكل21 ص93)، وإلى جانب سكن السيّد توجَد مرافق هامّة تشمل المخازن ومستودعات حفظ العتادالفلاحي (Pars fructuaria:Granges, Celliers, Greniers) والإسطبلات وسكن الخدم (Pars ou Villa Rustica)[1].

ب- **أكواخ و قرى عمّال الأرض** (Casae) : وهي إمّا معزولة أو متجمّعة في شكل فيكي (Vici)[2]، وقد يكون هذا التجمّع في شكل قلاع (Castella)، يكون اسمها في الغالب هو اسم السالتوس، وهذه القرى ليس لها نظام بلَدي كالفيكي التابع للمدن البلَدية، ففي الأملاك الإمبراطورية يكون لها نظام تقليدي بسيط، وقد وُجد في النصوص أنّ فلاّحي الفيكي السالتي لهم حامي وقاضي[3]، ولكن في العهد المتأخّر سيرتقي نظامها القروي وسيكون لها برايفكتي، وستتوفّر على ضروريات الحياة الحضرية : معابد، حمّامات عمومية، محلاّت وتجّار (Negotiores)[4].

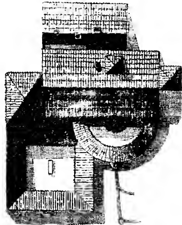
---

1 - Caton , De Re Rust., 3,5, 10, 13-15.
2 - CIL, VIII, 11470.
3 - KOLENDO (Jerzy), Les institutions autochtones dans les domaines africains, Actes de Ve Congrès CTHS, Avignon, 1990 (1992), pp. 309-314.
4 - CIL, VIII, 580.



Moulin de l'époque romaine
Trouvé à Saint Charles
(Arrondissement de Philippeville)
Phototypie G. Hemery, Constantine

الشكل (22) مطحنة من الفترة الرومانية



الشكل (21) حمّامات بومبيانوس (بالقرب من وادي عثمانية ، قسنطينة)، الشكل الذي كانت عليه حسب علماء الآثار، منظر من أعلى المصدر:

- Aıquier (J. et P.), Les Thermes romains du Val-d'Or, in RSAC Volum.59, année 1930, pp. 289- 304, H.T. pl. 2

الفصل الثالث

التوسّع الزراعي

عرفت روما القمح الأفريقي منذ فترة طويلة قبل احتلالها لقرطاج فقد كانت هناك صفقات تجارية بين روما وقرطاج[1] وبينها وبين الملوك النوميد[2]، فلمّا أصبح الإقليم البوني مقاطعة رومانية وضعت روما يدها على أراضيه الخصبة، وهي تلك الأراضي التي عرفت تهيئة فلاحية كانت محلّ إعجاب فلاّحي اللاتيوم وإغريق صقلّية[3]، وعن أصول القمح أي البلد الأصلي له قدّم المتخصّصون فرضيات عديدة، ويستفاد من بحوثهم أنّ أفريقيا الشمالية إذا لم تكن المنشأ الأول له فإنّها مركزه الثاني، وهذا لخصائص قمح الشمال الأفريقي وتعدّد سلالاته[4]، ولا يزال الفلاّحون التقليديون عندنا يحتفظون بأجود تلك السلالات مثل الهذبة والبليوني.

01- التوسّع في زراعة القمح

مكّن الاستيلاء على نوميديا وموريتانيا تباعا من حصول روما على مساحات إضافية شاسعة عريقة في إنتاج هذه المادّة الغذائية الهامّة، ولذلك سترتفع مساهمة أفريقيا

---

1 قدّمت قرطاج لروما(171ق.م.)كمّيات مساوية لما صدّره ماسينيسا لها. - Tite-Live, XLIII, 6.

2 - Idem., XXXI. 19, 4.; XXXII, 27, 2. ; XXXVI, 3, 1. et 4, 8. ; XLIII, 6.

3 خاصّة جهة الوطن القبلي(Cap Bon) إلى ميغاليبوليس (Mégalépolis) هذه الأخيرة تقع في جهة منزل بوزلفة حسب كورتيي،أنظر : - Courtier (Ch.), Ruines romaines de Cap Bon, IN Karthago, V, 1954, pp. 182-202.

وهي المنطقة التي وصفها ديودور وهو يؤرّخ لحملة أغاتوكل(317 ق.م.) على أفريقيا بأنّها " تتمتّع برفاهية كبيرة، ... وأريافها مقسّمة هندسيا إلى حدائق وبساتين ترويها عديد الينابيع عبر قنوات، وكلّ ذلك يدلّ على ثراء البلاد، ففي الأرياف مساكن أنيقة مُحْكَمة البناء، موصولة بطرقات، مزوّدة بأسباب الراحة والمتعة التي جمعها السكّان عبر سنين طويلة من السلم والاستقرار، والأرض مغروسة بالكروم والزيتون وأشجار الفواكه، وفي السهول قطعان الغنم والبقر... وفي المروج تسرح الخيول ...الخ ، أنظر: - Didore, XX, 8

4 يرى بعض هؤلاء أنّ منشأ القمح هو أفريقيا الشرقية (الحبشة) ، حيث توجد سلالة قمح حبوبه بنفسجية اللون غير معروفة في أفريقيا الشمالية، ولكن في رأينا هذا غير كاف لتقرير حكم نهائي في منشأ القمح عموما،أنظر :
- Erroux(J.), Essai d'une classification dichotomique des blés durs cultivés en Algérie, IN Bulletin de la Société d'Histoire de l'Afrique du Nord, T. 48, 1957, pp. 239-253.

في سدّ احتياجات الإمبراطورية الرومانية من هذه المادّة إلى الثلثين[1]، وهو ما جعل البعض يصف أفريقيا بأنّها أهراء روما [2].

كان القادة العسكريون ومن ورائهم مجلس الشيوخ الروماني يدركون أهمّية أفريقيا الزراعية، فقد صرّح قيصر أثناء احتفاله بالنصر الذي حقّقه في أفريقيا سنة 46 ق.م. أنّه : "... ضمّ إلى أملاك الشعب الروماني بلدا يستطيع تزويد روما بما تحتاجه من القمح"[3]. وقد ثبت ذلك لأنّ أفريقيا منذ عهد الإمبراطور نيرون ستساهم بـ3/2 احتياجات روما من القمح، أي حوالي 1200 طنّ، وهذا رقم كبير جعل شارل بيكار يقول: "... إنّ بلاد البربر التي لا تكاد اليوم تطعِم أهلها، كانت أحد مخازن العالم القديم"[4]، وكانت كمّيات القمح الأفريقي التي تصل إلى روما هي حصيلة جبائية يدفعها المنتجون والمزارعون لتموين روما {الأنّونة Annona}، ولذلك كان حرص أباطرة روما كبيرا في الحفاظ على المساحات المخصَّصة لزراعة القمح، بل وتوسيعها أيضا، وهذه السياسة الزراعية هي التي جعلت التوسّع الذي سيظهر في غراسة الأشجار المثمرة في القرن الثاني الميلادي يستبعد الأراضي المخصّصة لزراعة القموح، ويتّجه نحو السفوح والمنحدرات[5].

أقامت روما جهازا كاملا لتزويدها بالقمح الأفريقي وهو جهاز الأنّونة الذي يضمن جمع وتخزين ونقل القمح إلى روما، وكانت مجالات زراعة القمح تتركّز في المنطقة التلّية في جهات السهول الكبرى وسهول إمبوريا التي كانت في السابق محلّ نزاع

---

1 قدّرت حاجيات روما من القمح ب 4800000 قنطار، أنظر : Picard(G.Ch.). Civil..., p. 59. - أي أنّ أفريقيا تساهم بما مقداره 3200000 قنطار، وهي كمّية كبيرة بالنظر إلى إمكانيات ذلك العصر، وكان القمح الأفريقي متميّزا على قموح الجهات الأخرى على غرار كلّ المحاصيل الزراعية الأفريقية التي تتوفّر على شروط إنضاج مناخية لا توجد في غيرها

2 مع أنّ البعض الآخر يحاول التقليل من أهمّية الأرض الأفريقية، بالقول أنّ البلدان التي استعمرتها روما لم تكن خصبة كلّ الخصب... مستعصية على المحراث... الجفاف ...الخ، أنظر : جوليان (شارل أندري)، مرجع سابق، ص 205.

3 فرض يوليوس قيصرعلى مدينةهدرومت بعدانتصاره في ثابسوس دفع كمّيات كيرةمن القمح، أنظر: عقون(محمّد العربي)، من تاريخ الحربي في الشمال الأفريقي القديم...، مرجع سابق، ص21.

4 - Picard (G. Ch.), Civilisation..., op. cit. p. 59.

5 كان للعثور صدفة العام 1851 - من قبل أحد كولون ناحية شرشال (نوفي) - على ثلاث سنابل قمح في وضع جيّد إلى جانب لقى أثرية أخرى – تعود إلى الفترة الرومانية- صدى كبيرا في أوساط الأثريين وحتّى لدى الرأي العامّ، فقد كان الحدث محلّ اهتمام الصحافة خاصّة عندما تمّ استزراع حبات قمح تلك السنابل وذكرت جريدة journal le Progrès manufacturier, numéro du 9 septembre 1855 أنّها أعطت 105 سنبلة زرعت بذورها في مساحة قدرها 10 آر فأعطت 300 كيلوغرام، أنظر :

- Anonyme, Blé Antiquc de Novi, in Revuc Africaine, N° 03 1ère Année Février 1857

بين قرطاج وجيرانها النوميد، ثمّ تلال سيرتا وتاقست (Thagaste)، لأنّ القمح يتطلّب حدّا أدنى من الأمطار لا ينبغي أن يقلّ عن 400 ملم[3] في السنة.

02- الزيتون:

شجرة الزيتون قديمة في الشمال الأفريقي وليست هذه البلاد مدينة لأيٍّ كان في هذا المجال[1]، وما فعله القرطاجيون هو توسيع الاستغلال لتلبية حاجياتهم من مادّة الزيت وما كتاب ماغون في الفلاحة إلا تدوين للخبرات الزراعية لدى الشعب الأفريقي، ومن تلك الخبرات يكون قد استمدّ موادّ ذلك الكتاب الذي نأسف لعدم وصوله إلينا وما نعرفه عنه لا يتعدّى الإشارات الواردة في المصادر الرومانية[2].

تتكوّن القاعدة الغذائية لشعوب البحر المتوسّط من مادّة الزيت والحبوب، وتحفَظ مادّة الزيت في الخلّ أو في الماء المملّح (Saumure)، حسب قاعدة مفصَّلة يعدّها "مهندسو" الفلاحة (Agronomes)، والزيت هي المادّة الدهنية الأساسية المستعملة في الطبخ، كما يستعمل في الاستصباح وفي الأغراض الصحّية (يدهَن به الجسم بعد الاستحمام، وقد ازداد الإقبال على العناية الصحّية عموما بفعل الازدهار الذي عرفته المدن على الخصوص)، وأصبح الزيت سلعة تجارية هامّة تدرّ على الفلاّحين وعلى التجّار أرباحا كبيرة، وأصبح الزيتون يحتلّ مكانة هامّة بين كروم العنب والحبوب[3].

إذا كان القرن الأول في السياسة الفلاحية الرومانية في الشمال الأفريقي القديم هو قرن القمح فإنّ القرن الثاني هو قرن الزيتون وحتّى الكروم وقد رأينا في النصوص التشريعية كيف اعتنت الإمبراطورية الرومانية بهذا النشاط الزراعي بالإعفاء من الضريبة

---

1 - Camps (G.), Massinissa ..., p. 86.

2 يتضمّن هذا الكتاب خبرات ميدانية في هذا المجال،وهي خبرات الفلاّح الأفريقي دون ريب،أي أنّ ماغون دوّن الخبرات الفلاحية الأفريقية، وقد اعتبره كولومال أباً لعلم الفلاحة .Columelle, XII, 4, 2 ، وليس صدفة أن يترجمه الرومان تحت عنوان: الفلاحة الأفريقية وأوكلت مهمّة الترجمة إلى علماء في اللغة البونية، وكتاب ماغون في علمنا هو الكتاب البوني الوحيد الذي ترجمه الرومان إلى لغتهم في 28 جزءاً لأهمّيته .Pline, I, 1, 13 - ومنهم عرفنا وجود هذا الكتاب، كما ترجمه كاسيوس ديونيسوس إلى اللغة الإغريقية وأهدى ترجمته إلى البريطور سكستيليوس (88 ق.م.)، مع أنّ ترجمته ضاعت و لم يصلنا منها شيء ما عدا بعض الإشارات هنا وهناك، وهذا يعني أنّ الفلاحة الأفريقية استنادا إلى هذا الكتاب - الذي لم يتردّد بعض المتحمّسين في وصفه بالموسوعة الفلاحية- كانت قبل الفترة الرومانية وخلالها فلاحة علمية في جوانب عديدة.

3 - Précheur-Canonge (Thérèse), La Vie Rurale en AFRIQUE ROMAINE. d'après les Mosaïques. PUF, Paris sans date, pp. 48-49.

مدّة خمس سنوات بعد أوّل إنتاج، وكان ذلك الإجراء يدخل قي سياسة فسح المجال لتطوُّر المقاطعات تطوّرا حرّا[1].

تشير المعطيات الأثرية بأنّ خريطة الزيتون (أنظر أدناه الشكل 23 ص101) ليست كما هي اليوم، فلقد تمركزت غراسة الزيتون خاصّة في السهول العليا، ولا سيّما في جهات تبسّة إلى سوق أهراس وقفصة ومن سفوح الجبال الأوراسية إلى سطيف غربا في مناطق خالية من شجرة الزيتون اليوم، وعند وصول الرومان إلى المنطقة وجدوا هذه الشجرة تحتلّ المكانة الأولى في الفلاحة الأفريقية، وقد اتضح لهم من خلال المعايَنة وخاصّة من خلال التراث العلمي الأفريقي (كتاب الفلاحة لماغون) بأنّ شجرة الزيتون هي الشجرة المهمّة بامتياز في هذه البلاد، وهي متكيّفة جدّا مع مناخها وطبيعتها[2].

يُزرَع الزيتون في المناطق التي لا يزيد علوها عن 800 م، وفي مناخ معدّل أمطاره 300 ملم[3]، وتناسبه التربة الخفيفة (رملية وطينية)، وينبغي العناية بها كالسقي في حالة الجفاف الطويل وقلب الأرض كلّ سنة وإزالة الفسائل التي تنبت من الجذور في أسفل الجذع، أمّا الزيتون البرّي (Oléastre) فينمو في كلّ مكان مهما كان علوّه، وقد أظهرت الصور الجوّية انتظام الأشجار في صفوف متوازية وبين كلّ شجرة وأخرى مسافة محدّدة.

إذا كانت شجرة الزيتون لا تتطلّب نفقات كبيرة فإنّ العناية بها ضرورية، وتسميدها مرّة كلّ ثلاث سنوات، وعلى الفلاّح أن ينتظر مدّة النموّ الطويلة التي تتطلّبها الشجرة لكي تقدّم أول إثمار، والمعروف أنّ الفلاّح في جميع الأحوال لا يعتمد على نشاط فلاحي واحد بل يزرع لكلّ موسم زرعه، وأكثر من ذلك لا يستغني أبداً عن تربية الماشية، وهذا ما يجعله لا يتأثّر بمدّة انتظار الإثمار الأول التي تمتدّ على سنوات[3].

---

1 جوليان (شارل أندريه)، مرجع سابق، ص 208. ولا ندري الخلفية التي جعلت جوليان يلجأ إلى شاعر لاتيني هجّاء (جوفينال) حرفته القدح والذمّ لينتقص من شأن الزيت الأفريقي في فقرة طويلة، ومع ذلك فلتت منه عبارة... أنّ غابات الزيتون ظلّت مزدهرة إلى الفتح العربي وأنّ بربر جنوب تونس قدّموا إلى عربي نواة زيتونة على أنّها رمز الثروة ؟ !، نفسه ص 209.

2 فرض يوليوس قيصر بعد انتصاره في ثابسوس على مدينة لبتيس ماغنا (Leptis magna) غرامة قدرها 3000 ليرة زيت، وهذا دليل على أنّ صناعة الزيت قديمة ولها تقاليد راسخة في أفريقيا، أنظر: عقون (محمّد العربي)، من التاريخ الحربي... مرجع سابق، ص 211.

3 لم نجد مصداقية كبيرة في ما يسوقه بعض مؤرّخي الفترة الاستعمارية من مسوّغات مثل المدّة الطويلة بين الغرس والإثمار الأول التي لا يتحمّلها الفلاّح الأهلي وخطر البدو الجيتول أعداء الشجرة وكلّ زرع عموما، وأنّ روما وفّرت الأمن والقوانين ... لنجاح هذه الزراعة...، وهذا كلّه لإثبات أنّ زيتنة أفريقيا القديمة كانت عملية حضارية اقتصادية رومانية،لا دخل للعنصر الأهلي فيها، أنظر:

-Camps-Fabrer(H.), L'Olivier et l'Huile dans l'Afrique romaine, Imprimerie officielle. Alger 1953 p. 16-17.

ازدادت أهمّية أفريقيا في مجال الزيتون والزيت بعد أن تراجعت هذه الزراعة في إيطاليا وهو تراجُع فسّره البعض باندثار الطبقة المتوسّطة بسبب الحروب الأهلية الإيطالية ومعها اختفت الطبقة الفلاحية المتوسّطة وتحوّلت مزارع الزيتون (في إيطاليا) في الغالب إلى مراعٍ في الوقت الذي ازداد فيه الطلب على مادّة الزيت، وكانت أفريقيا هي البديل الجاهز الذي وجدته روما لتعويض ندرة هذه المادّة الأساسية في إيطاليا، بل إنّ البعض يرى في هذا الوضع التقاء مصالح الأباطرة بمصالح المزارعين الأهالي: هؤلاء لإقرار الأمن وضمان تزويد روما بالزيت وأولئك للإثراء في جوّ السلم الذي لا يمكن لغير روما أن يضمنه![1]، والحال أنّ عبارة الثراء التي فلتت من هونريات كامبس في محلّها، لأنّ كنطنة الجماعات القبلية الأفريقية أدّى - أمام ضغط الحاجة - إلى رواج الزراعة المكثّفة في المساحات المحدودة التي بقيت للأهالي، ولعلّه ليس من المبالغة القول بأنّ ما كان ينتجه المزارعون الأهالي كان أضعاف ما تنتجه الفوندي الاستعمارية الرومانية ودليلنا هو كثافة أشجار الزيتون ومعاصر الزيت في أقاليم القبائل المكنطنة مثل إقليم قبيلة الموسولام.

بلغت الزيتنة أوجها خلال فترة حكم السيويريين (les Sévères) الذين أولوا عناية خاصّة لأفريقيا باعتبارها بلدهم الأصلي، ورغم الاضطراب الذي حدث بسبب الفوضى العسكرية والضرائب المجحفة خلال القرن الثالث فإنّ زراعة الزيتون توسّعت نحو الجنوب وشملت الأودية والسهول ما بين ماسكولة وتيفست إلى مشارف الصحراء بحيث ظلّت هذه الشجرة تحتلّ الدرجة الأولى في الأشجار المثمرة في تلك الناحية[2]، كما نافست أشجار النخيل في الواحات الواقعة على أطراف الأوراس الجنوبية ولا تزال[3]،

---

1 كلام هونريات كامبس بالحرف، وتعني بالبدو : غير الخاضعين والنهابين الجيتول :

... Romains et indigènes poursuivaient désormais le même but : les uns souhaitaient maintenir la paix et développer la culture pour assurer le ravitaillement en huile de Rome; les autres souhaitaient s'enrichir dans cette paix que seuls les Romains pouvaient garantir par la force de leurs armes contre les incursions des nomades insoumis et paillards !.Camps Fabrer (H.), op. cit. p. 8-9

2 دلّت ألواح ألبيرتيني على أنّ منطقة جبل امراتا (100 كلم جنوبي تبسّة) على أنّ شجرة الزيتون هناك لا تزال في نهاية القرن الخامس تحتلّ الدرجة الأولى من خلال عقود البيوع، أنظر :

- Courtois(Ch.) , Leschi (L.), Perrat (Ch.), Tablettes ALBERTINI, Actes privés de l'époque Vandale, Paris 1952,pp.70-73.

3 للذين لا يعرفون هذه الحقيقة عليهم أن يراجعوا الدراسات المتخصّصة عن الزراعة الشجرية في إفركان ونقرين والعامرة وسيار وعموم الواحات الواقعة على ضفاف الأودية المنحدرة من السفوح الجنوبية للكتلة الأوراسية إلى الزاب الشرقي كلّه والسزاب الظهراوي، بحيث لا تزال شجرة الزيتون جنبا إلى جنب مع أشجار النخيل، ولكن ننتظر أن تتوسّع زراعتها أكثر لتسترجع مكانتها.

وهذا التوسّع في الزيتنة التي بلغت مشارف الصحراء يعود إلى أنّ الرومان وجدوا في البلاد النوميدية قاعدة اقتصادية نمت منذ عهد الملوك النوميد[1].

ويمكن إيجاز عوامل التوسُّع في غراسة شجرة الزيتون أو زيتنة الشمال الأفريقي القديم إلى جملة من العوامل أبرزها :

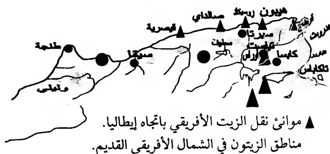
أ- زيادة الطلب على الزيت باتساع القاعدة الاستهلاكية ، وعلى الخصوص تكفُّل الدولة بإيصال مادّة الزيت إلى مدينة روما[2].

ب- توسُّع العمران والتمدُّن في أفريقيا خاصّة في عهد الأنطونيين والسيويريين (Antonins et Sévériens) مّما جعل الطلب على الزيت يزداد ، ولذلك حدث توسُّع كبير في غراسة الزيتون خاصّة في المساحات التي ليس لها مردود كبير في زراعة القمح[3].

جـ- ارتفاع عدد السكّان وتوفُّر اليد العاملة .

د- ظهور تشريعات مرِنة تشجّع على نمو هذا النشاط الفلاحي .

هـ- العامل الطبيعي المتمثّل في المناخ الملائم ، وقد أشار بلين في تاريخه الطبيعي إلى أهمّية المناخ المعتدل لهذه الزراعة الشجرية[4] ، وأكثر من ذلك تمتاز شجرة الزيتون بالإثمار الجيّد ، كما أنّها لا تتطلّب عنايةكبيرة أو تكاليف عالية.



▲ موانئ نقل الزيت الأفريقي باتجاه إيطاليا.
مناطق الزيتون في الشمال الأفريقي القديم.

الشكل (23) إنتاج الزيتون وتصدير الزيت

1 فسّر المفتتنون بحضارة روما التناقص التدريجي لزراعة الزيتون كلّما اتجهنا عربا بضعف التوغّل الروماني في موريتانيـــا، ونقـــول لهؤلاء أنّ هذا التناقص موجود في المناطق التي تمركز فيها الاحتلال لقرون، والحال أنّ التنوّع الزراعي لا ينبغي تفسيره بالتـــأثير الروماني فقط بل إنّ التقاليد الفلاحية الأهلية كان دورها دائما.

2 - Picard (G. Ch.), Civilisation... op. cit p. 74.

3 شنيتي (محمّد بشير) ، التغيّرات... مرجع سابق، ص 92.

4 - Pline, Hist. Nat. 21

لعلّ سياسة الأباطرة في هذه الزراعة الشجرية كانت تهدف إلى التوسّع في الانتفاع من أراضي ظلّت لفترة طويلة مجالات للانتجاع الرعوي ممّا يفتح باب الاستقرار أمام البدو الذين كانت حياتهم الرعوية مُضرّة بالزراعة، ويلاحَظ أنّ هذه السياسة قد نجحت إلى حدّ ما في مدّ خطّ الليمس إلى أقصى نقطة، فقد بلغ الليمس في عهد سبتيميوس سيويروس في الجنوب النوميدي إلى خطّ يمتدّ من قلعة دِمّيدي (مسعد حاليا) إلى معسكر جيميلاي[1] (Gemellae) خلف الكتلة الأوراسية جنوبا، وبذلك أحكمت إدارة الاحتلال الروماني قبضتها على معابر البدو نحو الشمال، فظهرت التجمّعات القروية الزراعية تدريجيا وتراجعت البداوة إلى ما وراء خطّ الليمس الذي أصبحت تحصيناته متحكّمة إلى حدّ كبير في حركة البدو[2]، لكن لا ينبغي تجاهل عوامل أخرى وسّعت خريطة الزراعة الشجرية مثل المناخ الملائم والكثافة السكّانية ورسوخ هذا النشاط الزراعي الذي سيصبح نشاطا تقليديا، والدليل أنّه بعد انهيار الاحتلال الروماني نزحت الزراعة الشجرية إلى مناطق جبلية أقلّ رومنةً مثل بلاد القبائل والأوراس والأطلس وهناك احتفظ المزارعون المستقرّون بتقاليد هذا النشاط الاقتصادي وظلّ الزيت مادّة أساسية في غذائهم، أمّا السهول فقد تحوّلت إلى منتجعات رعوية أين تمّ تعويض الزيت بالسمن الذي توفّره القطعان[3].

03- كروم العنب

شجرة العنب قديمة في أفريقيا، ويبدو أنّ عدم تعميم السلطة الرومانية لها في البداية يعود إلى توفير الحماية للمزارعين في إيطاليا من منافسة أفريقيّة[4]، وكذا لحماية زراعة القمح ، والحقيقة أنّ القرن الثاني سيشهد تطوُّرا في الفلاحة الأفريقية من حيث توسيع المساحة الزراعية وتنويع المحاصيل، وبذلك يمكن القول أنّ القرن الثاني المسمّى

---

1 مركز عسكري روماني ضمن سلسلة الأبراج والتحصينات المقامة على طول خطّ الليمس، وهو في موقع محاذي لقرية أورلاّل الحالية جنوب غربي بسكرة، أنظر:
- Baradez (J.), Gemellae un camp d'Hadrien et une ville des confins sahariens aujourd'hui enseveli sous les sables, in R. Af. 1949, pp. 5-24.

2 - CAMPS-FABRER(H.), l'Huile dans l'Afrique romaine, publication du Gouvernement Général de l'Algérie, Direction de l'Intérieur et des Beaux Arts, Alger 1953, pp. 30-35.

3 اعتبر البعض أنّ انهيار مظاهر الحضارة الرومانية (عمائر ومرافق وحياة حضرية...) واكبه انهيار لهذه الثروة تدريجيا على يد الوندال وأحداث الغزو البيزنطي، ولكن الضربة الكبرى ستكون خلال أحداث الفتح العربي، وخاصّة الزحفة الهلالية التي قضت على الاقتصاد الزراعي وأعادت المغرب إلى الاقتصاد الرعوي الذي عرفه خلال فجر التاريخ!.

4 ولعلّ الرومان هم من أشاع أنّ أفريقيا هي أرض الإلهة كيريس إلهة الفلاحة والقمح بالخصوص، وباستعمال الدين تضمن الانصياع التامّ لما له من أثر على النفوس.

قرن الزيتون هو قرن الزراعة الشجرية في الواقع، فازدهرت زراعة كروم العنب إلى جانب الشجرة ذات الحظّ الأوفر وهي شجرة الزيتون[1].

يمكن أن نتعرّف على أنواع كروم العنب الأفريقية من خلال المصادر الأدبية والأثرية (الفسيفساء خصوصا)، فقد أشارت المصادر إلى نوع تسمّيه ناميسيانا (Namisiana) وهو نوع ينتج عنب المائدة وعنب النبيذ، وتُظهِر لنا لوحة فسيفسائية صورة عنب من النوع الجيّد والشهي ذي حبّات مستديرة بلونٍ مذهّب يذكّر بالعنب المسكي[2]، ولعلّ هذا النوع كان يزرع بجوار المدن ليسهل تسويقه، وكانت شجرة الكرمة إلى جانب شجرة الزيتون في القطعة الواحدة لأنّ جنيهما في فصلين متتاليين الخريف وأوائل الشتاء، وتقدّم لنا العملة التي سكّها ملوك الشمال الأفريقي القديم برهانا ثمينا على أنّ كروم العنب كانت رائجة في الزراعة الأفريقية ما قبل الرومان[3]، وذكر بلين أنّ خمر أفريقيا يأتي بعد خمر كريت في الجودة[4]، وهو ما يجعله يلقى رواجا كبيرا في الأسواق، وأشارت النصوص التشريعية إلى زراعة الكروم وكشفت الأبحاث الأثرية عن وجود مزارع خاصّة بشجرة الكرمة، ولعلّ ذلك لازدياد أهمّيتها الاقتصادية والتجارية على وجه التحديد، لأنّ الخمر الأفريقي سيكون من بين أهمّ السلع المصدَّرة نحو إيطاليا وجهات البحر المتوسّط الأخرى[5].

---

1 - Leschi (L.), Etudes d'épigraphie, d'archéologie et d'Histoire africaine, publications du gouvernement général de l'Algérie, "La Vigne et le vin dans l'Afrique ancienne", 1958, pp. 80-89.

2 أو الموسكا (Muscat) كما نعرفه في الجزائر .

3 تظهر عناقيد العنب في بعض القطع النقدية التي سكّها الملوك:ماسينسا الثاني ملك نوميديا الغربية (إقليم سطيف)، والملك بوكوس الصغير (49-33 ق.م.) وعملات أخرى سكّتها المدن الأفريقية، وهذه العناقيد مُهداة إلى الإله الليبي(البربري) شدروفا (Chadrufa) المطابق للإله الإغريقي ديونيسوس.Mazard(J.)op.cit. pp. 170-195 -

4 نقتطف من بلين هذا الوصف للزراعة الأفريقية في واحات الجنوب : " هناك تحت العشرات من شجر النخيل نجد عددا مماثلا من شجر الزيتون وتحتها ينمو شجر التين وتحت شجر التين شجر الرمّان وتحت شجر الرومان تنمو كروم العنب وتحت شجر العنب يزرع القمح ثمّ الخضار أخيرا ، وكلّها في نفس السنة ، تعيش كلّ شجرة وكلّ زرعة تحت ظلّ جارتها . Pline l'Ancien, XVIII, 188 - ، ومثله سترابون الذي بالغ في القول بأنّ " عناقيد العنب في موريتانيا الطنجية كبيرة إلى حدّ أنّ الرجل الواحد لا يقوى على حمل اثنين منها: Strabon , XVII, 3, 4. -

5 - Billiard (R.), la vigne dans l'antiquité , Lyon 1913, pp. 15-17.



الشكل (24) توزيع طواحين ومعاصر الزيت في أفريقيا القديمة حسب المعطيات الأثرية (عن دراسة لهنريات كامبس)

الفصل الرابع

نظام السقي الزراعي

يتميّز المناخ في الشمال الأفريقي القديم مثلما هو الآن بالجفاف لفترة طويلة أحيانا وقد تشهد بعض المواسم الفلاحية حالة من الجفاف تمتدّ على فصل كامل لأنّ السلسلة الأطلسية تمنع توغل الأمطار نحو الداخل، وفي ما عدا الشريط الساحلي تظلّ المناطق الداخلية وهي مجالات زراعة الحبوب تعاني من الجفاف، وهذا الوضع جعل الفلاحة الأفريقية أمام تحدّي كبير منذ القديم، ولذلك فإنّ البحث عن تعويض نقص الأمطار بالري كان حلاّ هامّا اعتنى القائمون على الزراعة خلال الفترة الرومانية به وكانت إقامة منشآت الري للاستفادة من مياه الأمطار والينابيع تسير جنبا إلى جنب مع التوسّع الزراعي.

كشف الباحث جان بيريبان (Jean Birebent) في عمله الهامّ عن استغلال المياه خلال الفترة الرومانية وكذلك ضابط الطيران الفرنسي باراداز (Baradez) من خلال صوره الجوية عن وجود منظومة ريّ هامّة في أفريقيا الرومانية لا ريب أنّ الهندسة العسكرية الرومانية تكون قد ساهمت بقسط كبير في إنجازها، إلى الحدّ الذي جعل البعض يعلّق قائلا : إنّ القائمين على الزراعة في الشمال الأفريقي القديم خلال الفترة الرومانية لم يتركوا مجرى مائيا ولا نبع ماء دون استغلاله في الري فضلا عن الآبار[1].

كانت المياه موجّهة إلى مجالين هما :

الاستغلال الحضري لتلبية حاجة المدن من هذه المادّة لأغراض صحية واستهلاكية.

السقي الزراعي، خاصّة في فترات الجفاف.

ولأهمّية شبكة الري التي أقيمت في الشمال الأفريقي القديم استخلص الباحثون بأنّ البحث الأثري في هذا المجال ليس لغرض تاريخي أركيولوجي بحت بل هو عملية علمية تقدّم تجربة رائدة في إنجاح التوسّع الزراعي وضمان توفر الماء في الحواضر، وهي المعضلة التي لا تزال تواجه منطقة الشمال الأفريقي إلى الآن، ممّا جعل جان بيريبان

1 - Birebent (Jean), AQVAE ROMANAE (recherche d'hydraulique romaine dans l'Est Algérien,) Alger 1962, p. 124 .

يقول في هذا السياق " إنّ منشآت الريّ في أفريقيا القديمة تحمل رسالة من أعماق التاريخ يتعيّن العودة إليها للاستفادة منها"[1].

1. تصنيف منشآت الري:

يمكن تصنيف هذه المنشآت إلى نوعين هما:

أ- منشآت التجميع:

وهي السدود والخزّانات الريفية والآبار.

أ- 01- السدود: وهي أحواض لالتقاط وجمع وتخزين المياه السطحية (مياه الأمطار) وتقام عموما في خوانق الأودية أو في أسفل السفح الجبلي في نقطة التقاء الجبل بالسهل، وتوجد آثار هذه السدود في الكتلة الأوراسية من ناحية قفصة إلى الحضنة، وأهمّ معْلم احتفظ بوظيفته في هذا المجال سدّ غمراسن على وادي أقيل وطوله 1 كلم وله جدار يرتكز على قاعدة سمْكها ستّة أمتار[2]، وسدّ واد درب بين سبيطلة وتليبت علوّه عشرة أمتار وطوله ما بين مائة ومائة وخمسين متراً وفي أعلاه طريق عرضها 4,90 م[3]، وهذه التقنية شبيهة إلى حدّ كبير بتقنية بناء السدود الحديثة.

أ-02- الخزّانات الريفية: وتسمّى: الماجن[4] (Madjen) وهي خزّانات مفتوحة وفسيحة تتغذّى من سواقي تصلها بحواجز تقام في أسفل المنحدرات لالتقاط مياه الأمطار والسيول والينابيع الصغيرة[5].

أ-03- الآبار: أظهرت البحوث الأثرية وجود شبكة كثيفة من الآبار خاصّة في الجنوب، وأظهرت الدراسات المخصّصة أنّ المستوى التقني في إنجازها كان متقدّما ويثير الدهشة، وقد وصل الحفر إلى أعماق بعيدة في حدود 59 م، ففي منطقة زغوان القريبة من العاصمة التونسية تمّ إحصاء 110 آبار يتراوح عمقها ما بين 4 م إلى 59 م، أمّا في الأقاليم السهبية والصحراء فإنّ عدد الآبار كبير، وعلى العموم فإنّ هذه المنشآت التي

---

1 - ibid loc. cit.

2 - Gaukler (P.), Enquête sur les installations hydrauliques romaines en Tunisie, Tunis, 1897-1912. pp. 205-206.

3 حوليان (شارل أندري)، مرجع سابق، ص 211.

4 كلمة الماجن أو الماجل في بعض الجهات مشتقّة من الكلمة البربرية: ثوجنت التي تعني حوض التقاط وتخزين المياه لغرض السقي الزراعي، أنظر هذه الكلمة في:

- Laoust (E.), Mots et Choses ..., op. cit. . Mot :Tujent

5 op. cit. p. 158. - Gaukler (P.),

ذكرناها تشهد على قدرة كبيرة في مجال الانتفاع من المياه السطحية والجوفية ودلّت على القدرة على تطويع الطبيعة لصالح الإنسان[1].

ب- منشآت التوزيع :

وهي قنوات النقل (Aqueducs) والصهاريج وقنوات التوزيع.

ب-01- قنوات النقل(Aqueducs): وهي قنوات كبرى مرفوعة على أقواس عند اجتيازها للأودية والمنخفضات وقد تُشَقّ لها أنفاق إذا واجهتها تلال أو مرتفعات، لأنّ المهندس الروماني لا يستعمل التعقيف إلاّ في أنابيب الرصاص الصغيرة، ونظرا للطابع الفنّي الهندسي لهذه القنوات فإنّنا نعتقد أنّ إنجازها كان بمساهمة من الهندسة العسكرية الرومانية (Génie militaire) فضلا عن الفنّانين المعماريين (Architectes) تشهد على ذلك القناة الكبرى التي تزوّد سيرتا بمياه الشرب التي لا تزال أطلالها قائمة في ما يسمّى بالأقواس الرومانية(Arcades romaines) (أنظر أدناه الشكل25 ص108) وهذه القنوات موجّهة أساسا لتزويد الحواضر بمياه الشرب والمرافق الترفيهية والصحّية (الحمّامات) والفائض قد يوجّه للسقي الزراعي، وأكبر هذه القنوات المحمولة هي قناة شرشال وطولها 40 كلم[2].

إذا كان عرض القناة 10 سنتم فإنّ منسوبها في الثانية يكون 5 لترات، أي 423 م^3 في 24 ساعة عند توفّر المياه، وعندما تخترق قناة النقل جوف الأرض في منطقة مرتفعة تتحول القناة إلى نفق حقيقي يمكن التنقّل داخله (مثال أورده بيربيان عن قناة جوفية تعلو 1,7 م، وعرض 0,60م)، وفي هذا القسم من القناة تقام فتحات لأغراض تصليح أو حلّ الانسداد الذي قد يحدث فيها ممّا يجعلها شبيهة بالفقارات[3].

---

1 للتوسّع في وضع الريّ واستغلال المياه السطحية والجوفية ومياه الأمطار، يمكن الرجوع إلى الدراسة القيّمة التي قام بها دولابلانشار وقدّمها إلى وزير الثقافة والفنون الجميلة:

- BLANCHERE (COUDRAY, DE LA), L' Aménagement de l'eau et l'installation rurale dans l'Afrique ancienne, rapport à M. le ministre de l'Instruction publique et des beaux-arts sur des recherches poursuivies par son ordre pour déterminer le mode et les conditions de la colonisation ct de l'exploitation jusqu'à l'arrivée des Arabes,. "Nouvelles archives des missions scientifiques", T. VII,Imprimerie Officielle, Paris 1895, (108 p.)

2 جوليان (شارل أندري)، مرجع سابق، ص 212.

3 قدّم بيربيان مثالا حيّا لهذا النوع من القنوات،راجع الرسم الذي يمثّل قناة جرّ المياه من نبع عين فرحات في المنطقة الأوراسية (دوار الزرق شرقي عين البيضاء):

- Birebent (J.). op. cit. pp. 214-215.



الشكل (25) آثار القناة المحمولة (Aqueduc) التي تزوّد سيرتا بمياه الشّرب.

ب-02- الصهاريج: وهي خزّانات احتياطية تستقبل مياه القنوات الآتية من مصادر المياه، وتقام هذه الصهاريج في مشارف المدن لتوزيع مياهها على المنازل والحمّامات والعيون العمومية، وحتّى في الأماكن العالية المُطلّة على الحقول، ولذلك فهي تشبه الخزّانات المقامة حاليا لنفس الغرض[1].

ب-03- قنوات التوزيع: وهي موجَّهة لأغراض الري الزراعي، وقد عثر الأثريون على منشآت مهمّة من هذا النوع في سفوح الأطلس الصحراوي الجنوبية (شبكة الري في منطقة بادس المجاورة للسفوح الأوراسية الجنوبية، أنظر أدناه الشكل27 ص 111) ممّا يدلّ على أنّ هذه المنشآت كانت مشاريع أنجزها مهندسون متخصّصون، وهي عبارة عن شبكة قنوات سقي، تلتقط مياه الأودية من نقاط خروج الأودية من الفجاج الجبلية، كما هو واضح في الخرائط الجوية التي درسها باراداز في ناحية بادس في السهل الكبير المحاذي من جهة الجنوب للجبال الأوراسية إلى الحدود التونسية.

2. التشريعات المتعلّقة بالسقي الزراعي:

كان الماء ولا يزال مادّة ثمينة في الشمال الأفريقي، ومنذ القرن الثاني توسّع الاستغلال الزراعي وحدث نمو ديمغرافي كبير تدلّ عليه آثار القرى والبنايات المنتشرة في الأرياف، وكان لا بدّ من تنظيم توزيع هذه المادة الثمينة لأغراض السقي على الخصوص وفي هذا المجال تمّ وضع تشريعات كشفت عنها الأبحاث الأثرية وأهمّ وثيقة في هذا الشأن هي وثيقة لاماصبا[2] (Lamasba) التي هي عبارة عن نصّ تشريعي منقوش على لوح حجري (أنظر أدناه، الشكل 28 ص 112)، وأهمّ ما جاء فيها:

1 شنيتي (محمّد بشير)، التغيُّرات ... مرجع سابق، ص 109-110.

2 موقع أثري بالقرب من مروانة (في إقليم ولاية باتنة حاليا).

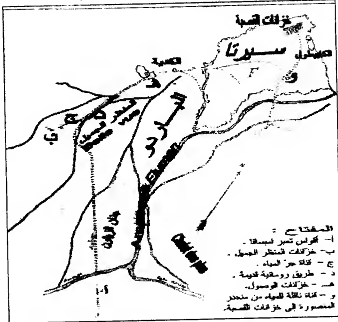
01- أسماء المزارعين المالكين للأرض.

02- عدد القطع التي يمتلكها كلّ مزارع.

03- عدد ساعات السقي التي يحقّ لكلّ واحد الانتفاع بها.

04- اليوم والشهر الذي تحدّد فيه ساعات السقي.

يكون عدد ساعات السقي حسب المساحة المسقية، وفي تقدير ساعات السقي انتبه المشرّع إلى الوضع الذي تكون عليه قوّة التدفّق وانحدار أو استواء قنوات السقي، وفي هذه الحالة ستختلف ساعات السقي ولو تساوت المساحة المزروعة[1].



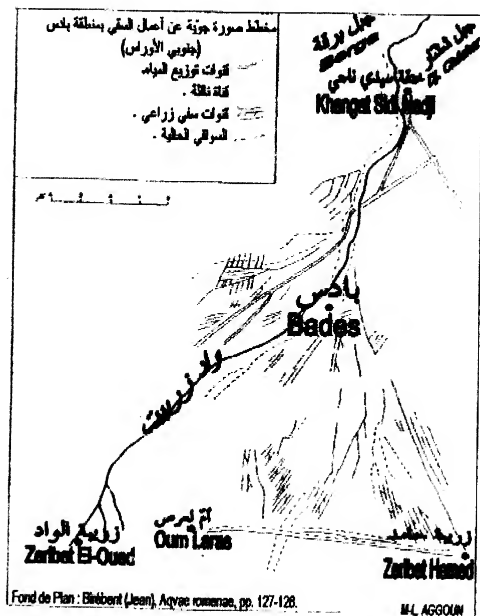
الشكل (26) مخطّط قنوات توزيع المياه الصالحة للشرب بسيرتا

1 كان إميل ماسكوري (E. Masqueray) أوّل مكتشف للنصّ الأثري المعروف بوثيقة لماصبا العام 1877، وقد نشر تقريرا أثريا عن اكتشافه هذ في نفس السنة، في المجلّة الأفريقية(Revue Africaine) العدد21 ص37-48، وجاء من بعده سطيفان اقزال (S. Gsell) فقام بالتحقيق فيه العام 1893 ونشر تحقيقه في اكتشافات أثرية بالجزائر (Explorations scientifiques en Algérie) في نفس العام (ص 83-85)، ثمّ أعقبهما دياشتار الذي قام بدراسة تحليلية للوثيقة، نشرها في كشكول المدرسة الفرنسية بروما، أنظر:

- Depachtere (F.G.), Le Règlement d'irrigation de Lamasba, Mélanges de l'école française de Rome (MEFR), N° 28, Année 1908, pp. 372-400.

وعندما جاء دور بيريان وجد أمامه قاعدة بحثية هامّة عزّزها بدراسة ميدانية ضمن أطروحة الدكتوراه التي قدّمها بجامعة الجزائر.

المصدر: عقون (محمّد العربي)، من التاريخ البلَدي للجزائر...، مرجع سابق، ص 215.



الشكل (27) مخطّط شبكة السقي بناحية بادس جنوب الأوراس

IMP CAES M AVRELIOIN
VALENTINVMQVIBVSEARESDELE
RISOLITAESVNTCONSTITITITA
ENTISQVAEPROPTEREADISTRIBVT

RÉGLEMENT D'IRRIGATION DE LAMAS

الشكل (28) نصّ لاماصبا (LAMASBA) بالقرب من مروانة (ولاية باتنة) الذي ينظّم السقْي الزراعي.

المصدر : - Birebent (Jean), AQVAE ROMANAE, p. 340

الباب الرابع

النمو الاقتصادي

في ظلّ الاستعمار الروماني

الفصل الأول/ النمو الديمغرافي والعمراني

1. النمو الديمغرافي والحضري.
2. التوسّع العمراني.
3. نموّ الثروة الأفريقية.

الفصل الثاني/ الصناعة الأفريقية خلال الفترة الرومانية

1. صناعة النسيج.
2. جرار التخزين.
3. الأواني الفخارية.
4. صناعة الزيت.
5. استخراج المعادن.

الفصل الثالث/ الطرق الأفريقية

1. الجسور.
2. المباني والمرافق الملحقة بالطريق.

الفصل الرابع/ تجارة الشمال الأفريقي

1. التجارة الداخلية.
2. التجارة الخارجية.

الفصل الخامس/ الضرائب الرومانية

1. تحصيل الضرائب.
2. إدارة تحصيل الضريبة.
3. أشكال الضرائب والإتاوات.
4. فشل الإصلاحات الضريبية.

الفصل الأول

النمو الديمغرافي والعمراني

تقدّم المؤشّرات الأثرية الدليل على ازدهار اقتصادي ونموّ سكّاني وعمراني مواكب لترقية بلدية، وتتمثّل هذه المؤشّرات في:

- توسّع المدن ونمو بعض المراكز الريفية التي أصبحت مدنا.
- تشييد المرافق العامّة [1].
- التوسّع في استغلال الأرض وتعميم نظام الدومان (Domaine) في كلّ الجهات.
- ثراء الأعيان والشخصيات الذين أصبحوا يكوّنون ما عُرف بالأرستقراطية البلدية، وكان هؤلاء متعلّقين بمدنهم وقد عبّروا عن ذلك بالتبرُّعات التي قدّموها لها خاصّة في الفترات الحرجة [2].

1. النمو الديمغرافي والحضري:

كان في أفريقيا عدد هامّ من المدن والمراكز الريفية ذات نظم موروثة عن الفترتين البونية والنوميدية وكان لها قضاتها: الماغستري (Magistri) والأشفاط (Suffètes)، وفي الفترة الرومانية نمت هذه المراكز الحضرية، وتحوّلت بعض القرى إلى مدن[3]، وبعض المزارع إلى مراكز حضرية[4]، فتمّ ترفيع بعض المراكز الريفية (Vici) والقلاع (Castella) والباغي(Pagi)[5] على التوالي إلى درجة رسبوبليكا (Respublica) ومونيكيبيوم (Municipium)، ومثال على ذلك ثبيليس (Thibilis) (سلاّوة حاليا) التي ارتقت إلى مونيكيبيوم في النصف الثاني من القرن الثالث في عهد ديوكلتيانوس، فشيِّدت بها مرافق

---

1 يكمن الإشكال في صعوبة تحديد تواريخ إنشاء هذه المرافق لأنّها لا تتوفّر على تواريخ تدشينية.

2 فضلا عن النصوص الأثرية التي خلّدت تلك الهبات، يمكن استخلاص بعض المعلومات في الموضوع من ترتوليان ومن أبوليوس.

3 يستفاد من ترتوليان أنّ الأرياف بدورها كانت آهلة بالسكّان وأنّ استغلال الأرض امتدّ إلى كلّ مكان، يقول: يزداد استغلال العالم وتعظم ثروته يوما بعد يوم، ففي كلّ مكان ديار، وفي كلّ مكان سكّان، وفي كلّ مكان بلديات، وفي كلّ مكان حياة وهذا أبلغ دليل على تزايُد الجنس البشري. إنّنا عالة على الدنيا، فالعناصر الطبيعية لا تكاد تسدّ حاجتنا وأصبحت الضرورات أشدّ تأكّداً، وأصبحتَ لا تسمع من الحناجر إلاّ صيحة واحدة: " إنّ الطبيعة سوف تضيق بنا". عن جولبان (شارل أندري)، مرجع سابق، ص 219.

4 مثل دومان أنيكيوس فاوستوس(Anicius Faustus) بروقنصل أفريقيا سنة217، الذي أصبح مركزا حضريا (Civitas).

5 مثل المراكز السيرتية (les pagi dépendant de Cirta) والمراكز القرطاجية (les pagi de la pertica de Carthage)

غاية في الفخامة مثل الفوروم والكابيطول والأقواس الفخمة، ومن الأمثلة على ارتفاع كثافة العمران في نهاية القرن الثالث أنّ المدن في ناحية الفحص لا تبعد عن بعضها أكثر من 5 إلى 10 كلم، ولعلّ سبب هذا التطوّر خاصّة في ناحية البروقنصلية يعود إلى الاستقرار الذي ساد فترة معتبرة في تلك الجهة، كما أنّ حرص الأباطرة على ترقية هذه المقاطعة التي تزوّد روما بمادّة القمح والزيت على الحصوص كان كبيرا فقد أمروا بتشييد المرافق والبنى التحتية (طرق، جسور، قنوات خزانات المياه، حمّامات...) ممّا يسمح بالاستقرار والنمو الاقتصادي والديمغرافي[1].

2. التوسّع العمراني:

أ - المدن الساحلية: وجد الرومان في أفريقيا مدنا مرفأية تتمتّع ببنية تحتية جاهزة، وفي هذا المجال لم يكونوا في حاجة إلى بذل جهد كبير، فانصرفوا إلى تحديث تلك المدن عمرانيا وخاصّة ربطها بطرق برّية توصلها بمراكز الإنتاج في المناطق الداخلية مثل روسيكاد التي تصلها بسيرتا طريق مرصوفة هي من أهمّ طرق أفريقيا في الفترة الرومانية، وكانت المدن المرفأية من أهمّ المدن الأفريقية مثل لبتيس ماغنا (Leptis Magna) (لبدة) وطنجي(Tingi) (طنجة) وهذه الأخيرة استفادت من دورها كمركز إداري إقليمي بقدر استفادتها من دورها كميناء[2].

ب - المدن الداخلية: ويعود نموّ بعضها إلى دورها التجاري على الخصوص مثل سيرتا، باجة، كابسا... أمّا البعض الآخر فكان نموّه لدوره العسكري مثل لمبيس وتيمقاد، أمّا مدينة مثل كويكول فقد أقيمت على أنقاض مركز أهلي ثمّ تحوّلت إلى مدينة مزدهرة راقية عندما أقيمت بها مستعمرة لقدماء الجند (96 أو 97 بعد الميلاد) في عهد الإمبراطور نيرفا (Nerva) وكانت تحتوي على كلّ المرافق: المسرح، الكابيطول، قوس النصر، عين عمومية، حمّامات، سوق، فوروم... وظلّت مدينة حيوية طيلة العهد الإمبراطوري الأول[3].

وفي ما يتعلّق بارتفاع الكثافة السكّانية أمكن للأثريين رسم خريطة الاستغلال الفلاحي في أفريقيا القديمة بما فيها من دومان وملْكيات صغيرة تدلّ على تمركز سكّاني كثيف، وكان الفلاّحون في ناحية شرشال يفضّلون الزيتنة على زراعة الحبوب لأنّه ضمن

1 - Dupuis (X.), « Constructions publiques et vie municipale en Afrique de 244 à 276 », MEFRA 104.1, 1992, p. 233-280.
2 - Careopino (J.), Le Maroc antique, éditions Gallimard, Paris 1948 , P. 176.
3 - Albertini (E.), L'Afrique Romaine , Presse de L'imprimerie offieielle , Alger 1955.pp. 69-88.

الاقتصاد المعاشي تسمح لهم فلاحة الزيتون بالحصول على حصّة من الزيت ومن ثمّ الحصول على كمّية المال التي تساعدهم في النفقات اليومية[1]، كما نجد في الملْكيات الكبيرة المجهّزة بوسائل الاستغلال والتحويل ملكيات صغيرة (Exploitations Microfundiaires) خاصّة بالفلاّح الصغير، ولذلك ارتفعت كثافة الاستغلال في منطقة مثل شرشال حيث نجد آثار تجمُّعات قروية ومعاصر زيت جنبا إلى جنب مع قصور (Villae) كبار المُلاّك في الريف، وفي كيليوم{(Cillium) القصرين} نجد آثار فلاحة راسخة ومزارع، ومنشآت الريّ والمعاصر يعود أغلبها إلى القرن الثاني الميلادي، وفي ناحية الكاف يمكن مشاهدة آثار التوسُّع الزراعي الذي لم يترك مكانا صالحا للزراعة إلاّ وامتدّ باتجاهه[2].

كان أباطرة روما يدركون الأهمّية الاقتصادية للمقاطعات الأفريقية، ولذلك أولوها عناية خاصّة، وقد أصبح نصف الأراضي الخصبة في البروقنصلية ملْكا لهم منذ الإمبراطور نيرون، ولا ننسى قوانين مانكيانا وقوانين هدريان التي منحت تسهيلات معتبَرة للفلاّحين أهمّها الإعفاء الضريبي لمدد تتراوح ما بين5 إلى 10 سنوات كما مرّ معنا، بل إنّ إمبراطورا مثل كاركلّة (215-216) مسح ديون الفلاّحين وأمر بوقف الأحكام التي توجب عليهم دفع الأقساط[3]، ولا ريب أنّ هذا السخاء الإمبراطوري لم يكن هبةً بل كان نظير الفوائد التي جنتها روما من استزراع الأرض الأفريقية ومن جهد الفلاّح الأفريقي.

أقام الأباطرة شبكة من الطرق التي تربط بين مناطق الإنتاج والموانئ من ذلك مثلا : جهات كامبي ماغني (Campi magni) وباجة (Vaga) وبولّة ريجيا (Bulla regia) المرتبطة بمينائي هيبو ريجيوس وتابراكا هذه الأخيرة مختصّة في تصدير رخام شمتو بعد أن أقام هدريانوس في 129 م طريقا بينهما، وقد عُثر في مقبرة المدينة على شواهد قبور لبحارة كانوا يعملون في نقل صادرات الحبوب إلى روما، كما أنّ قموح سيرتا وزيوت لمبيس وتيمقاد كانت تصدَّر عبر ميناء روسيكاد وهو أهمّ ميناء نوميدي في الفترة الرومانية، كما أنّ وتيرة تعميم النظام البلَدي ازدادت اتساعا في عهد الأنطونيين والسيويريين والأسماء تلتَيَنت، وتضاعفت مساحة الأراضي المستصلحة ما بين القرنين

---

1 - Leveau (P.). "Occupation du sol , géosystèmes et systèmes sociaux, Rome et ses ennemis des montagnes et du désert dans le Maghreb antique", in Annales: économies, sociétés, civilisations, Vol. 41ème (nov. / Déc. 1986), pp. 1355-1356.

2 - Picard (G. Ch.), La Civilisation ..., op. cit. p. 68.

3 - Hitchner (Bruce R.), The Kasserine archaeological survey, in Antiquités Africaines, éditions CNRS, Paris 1988, p. 244.

الثاني والثالث، وازداد انتفاع الأباطرة من أفريقيا اتساعا وخاصّة من استغلال الأرض لقربها من إيطاليا، وهذا نتج عنه تضاعف الإنتاج في أفريقيا بصفة عامّة.

3. نمو الثروة الأفريقية:

لقد أشار المؤرّخون إلى ثراء أفريقيا منذ الفترة البونية، وهو ثراء يتجاوز الزراعة الشجرية والمعاشية بجوار قرطاج إلى إنتاج القمح في عمق السهول الأفريقية، وكان القرطاجيون والنوميد خلال القرن الثاني ق.م. قد عرضوا مساعداتهم على روما، ممّا جعل لوبيلي يؤكّد أنّ خيرات الفلاحة الأفريقية ستكون أحد الأسباب الرئيسية للعداوة ضدّ الأفريقيين [1].

ستكون مادّة الزيت بعد القمح إحدى الثروات الأساسية في ازدهار أفريقيا، ودلّت آثار معاصر الزيت المنتشرة بكثرة على كثافة زراعة الزيتون، ففي سبيطلة Sufétula وحدها وجدت آثار لعدد هامّ من تلك المعاصر (ما بين15 و20 معصرة) تعود إلى ما بين القرنين الثاني والخامس، وقد تمّ جرد 400 معصرة في ناحية القصرين، أمّا الطواحين فهي أقلّ لأنّ استعمالها دائم، وفي ناحية صبراتة ولبتيس ماقنا وأويا (المدن الثلاث Tripolis) كشفت الآثار عن 1500 معصرة (أنظر أعلاه الشكل24 ص104)، وكان ازدهار هذه المنطقة الساحلية سابقا للفترة الرومانية ويعود بالخصوص إلى الفترة القرطاجية والنوميدية، ولكن ذلك الازدهار بُعث من جديد خلال الفترة الرومانية، وتعزّز بموجب قانون مانكيانا (Lex Manciana) الذي ينصّ على توسيع زراعة الكروم باتجاه الجنوب أي المناطق الداخلية التلّية والسهبية[2]، كما أنّ العدد القليل نسبيا لجرار الخمر دليل على الاستهلاك المحلّي الكبير في أوساط المجتمع الحضري على الخصوص وبالتالي قلّة الحاجة إلى تخزينه، فقد كان خمر أفريقيا (Passum d'Afrique) من أجود أنواع الخمور ولا يفوقه في الجودة إلاّ خمر كريت على حدّ قول بلين، وكثيرا ما تكون معاصر الزيت هي نفسها التي يتمّ استعمالها في استخلاص الخمر[3]، وعموما فإنّ هذه الثروة سمحت بقيام حياة حضرية مزدهرة، لا نزال نشاهد آثارها في العمائر الفخمة

---

1 - Callegarin (L.), Productions et exportations africaines en Méditerranée occidentale (1er siècle av. J.C. - 2ème siècle av. J. C.) l'Afrique romaine, Pallas 68, 2005, pp. 171-201.

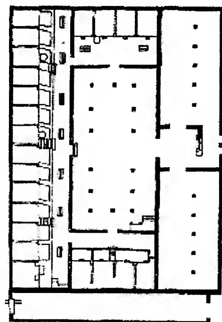
2 يتضمّن النصّ النقوشي في ضريح الفلافيين في كيليوم (Cillium) بيع قطع أرض مزروعة بالكروم في 11 ماي 494، كما أنّ نصّا آخر من بوعرادة (Bou Arada) موجّه لحماية الكروم والزياتين والحقول المزروعة حبوبا من البرد والرياح الهوجاء والجراد.

3 - Brun (J. P.), les pressoirs à vin d'Afrique et de Maurétanie à l'époque romaine, in Africa, série séances scientifiques I, 2003, pp. 7-30.

والمرافق الترفيهية (مسارح ، مدرجات ، حمامات ، وكلّها مزدانة بالتماثيل والفسيفساء التي صوّرت تلك الحياة الباذخة حتّى أضحت أفريقيا أكبر منطقة تتوفّر على اللوحات الفسيفسائية) ولم تقتصر تلك المظاهر الحضارية على المدن بل امتدّت إلى الأرياف أيضا ، حيث شيّد الأثرياء أفخم القصور وزيّنوها بأجمل التحف الفنّية وكذا بكلّ المرافق ، ولا ريب أنّ نصيب عامّة الشعب من هذه الثروة كان قليلا ، لأنّ الارستقراطية البلدية على الخصوص هي التي اغتنت من تلك الثروة فتمكّنت من العيش في رفاهية كبيرة وضمنت لأبنائها تعليما جيّداً أنتج عباقرة ، مثل أبوليوس المادوري وفرونطون السيرتي اللذين ينتميان إلى عائلتين من الأرستقراطية البلدية في كلّ من مادَوْروس وسيرتا.



الشكل (29) معصرة تقليدية من المنطقة الأوراسية (تكوت ولاية باتنة)



الشكل (30) مخطّط مبنى ورشة صناعة الزيت (خربة اعقوب ولاية سطبف)

الفصل الثاني

الصناعة الأفريقية

(الفترة الرومانية)

استنتج المتخصّصون من قلّة الجمعيات الحرفية التي ذكرتها المصادر أنّ الأنشطة الصناعية في أفريقيا في هذه الفترة كانت محدودة في بلد زراعي بالدرجة الأولى، وأهمّ هذه الصناعات في هذه الفترة هي:

1. صناعة النسيج:

امتازت المنسوجات الأفريقية بصباغتها الأرجوانية ولذلك كانت ذات شهرة في كلّ المنطقة المتوسطية، فقد تغنى الشعراء بالنسيج الأفريقي الأرجواني وكانت مدينة القلّ وجزيرة جربة مركزا لصناعة الصباغة الأرجوانية[1].

2. جرار التخزين:

صنّع الأفريقيون خلال القرن الأول نماذج إيطالية وبونية ولكن في القرن الثاني أبدعوا نماذجهم الخاصّة مثل النموذج الأفريقي 1 والأفريقي 2 (Africaine I, Africaine II.) وهما نموذجان أفريقيان أصيلان،يتميّزان عن باقي النماذج الإيطالية والبونية في الشكل والسعة،وكانت هذه النماذج تصنّع على الخصوص في مدن بيزاكينا الساحلية (هدرومت ولمطة Hadrumetum et Leptis minus)، وقد عثر على نموذج الأفريقي1 في مرتفع تستاتشيو وكان مخصّصا لخزن الزيت أمّا الأفريقي 2 فكان مخصّصا للخمر أو للمملّحات،أمّا جرار المنطقة الطرابلسية فهي مختلفة وكانت تصدّر إلى مختلف جهات البحر المتوسّط، كما لوحظ وجود جرار في مختلف جهات البحر المتوسّط مصنّعة في توبوسوكتو (Tubusuctu) في موريتانيا القيصرية كما وجدت جرار موجّهة للسوق المحلّية مصنّعة في مدن خليج الحمّامات (نابل وبوبوت Neapolis et Pupput) على الخصوص[2].

1 حارش (الهادي)، مرجع سابق، ص 123.

2 - Slim(L.), Bonifay (M.), « L'usine de salaison de Neapolis (Nabeul), premiers résultats des fouilles 1995-1998 », Africa XVII, 1999, p. 153-197.

3. الأواني الفخارية:

كانت مدينة تيدّيس بناحية سيرتا من أهمّ مراكز هذه الصناعة وقد اشتهر فخار تيدّيس في كلّ منطقة البحر المتوسّط، وكان الخزف الأفريقي مختوما (Sigillé) ويتميّز بلونه الأحمر البرتقالي (تُلَوَّن عجينته بذلك اللون أو يدهَن ويبرنَق به)، وهو ما جعل الباحثين الإنكليز يطلقون عليه عبارة: African Red Slip Ware، وكثيرا ما يكون الفخار الأفريقي مزخرَفا، ولذلك كان الطلب عليه كبيرا[1]، وقد صنّفه الباحثون إلى:

مختوم A: من القرن الأول إلى القرن الثالث.

مختوم C: وكان يصنّع في جهات القيروان(سيدي مرزوق)، مابين القرنين الثالث والرابع.

مختوم D: يصنّع في جهة قرطاج (حوض باغرادا ووذنة) ما بين القرن الرابع والسابع.

ويتميّز هذا الفخار في اللون والعجينة ونوع الدهن، ومن خلال تصنيف وتأريخ هذا الفخار يمكن أن نستنتج أنّ أفريقيا أصبحت تنتج خزفها الخاصّ منذ القرن الأول، وفي عهد الفلافيين بدأ تصدير الفخار الأفريقي نحو روما[2]، وخلال القرن الثاني أصبح الفخار الأفريقي هو الأكثر رواجا، بحيث لا نكاد نجد في المواقع الأثرية الأفريقية إلاّ القليل من الفخار الأجنبي المستورد من الشرق عن طريق روما[3].

4. صناعة الزيت:

لقد أدّى اتساع الزراعة الشجرية كما ذكرنا إلى انتشار هذه الصناعة، تدلّ على ذلك آثار العشرات من معاصر الزيت في مختلف الجهات، وكانت الزيت مادّة مهمّة كثيرا لاستعمالاتها المتعدّدة كمادّة غذائية بالإضافة إلى صناعة الصابون ولأغراض صحّية، ولقد قام الباحثون بدارسات هامّة عن صناعة الزيت الأفريقية في الفترة الرومانية، والملاحظ أنّ خريطة الزيت والزيتون في تلك الفترة لا تتطابق تماما مع خريطتها الحالية، لأنّ مركزها كان المثلّث الممتدّ من الساحل(ما بين قابس والوطن القبلي) إلى العمق النوميدي في المنطقة الأوراسية وإلى سطيف على الخصوص (أنظرأعلاه الشكل24 ص104).

1 - Zevi (F.) et Tchernia (A.). Amphores d'Afrique proconsulaire au Bas-Empire. in Ant. Afr., T. III. 1969, pp. 173-197.

2 - Guéry (R.). Révisions des marques de potiers sur terra sigillata, découvertes en Algérie. in Ant. Afr., T. VI. 1972, pp. 175-210.

3 - Picard (G. Ch.), Civilisation ..., p. 79.

سمحت دراسة النصوص القديمة وألواح الفسيفساء بتكوين صورة حقيقية عن طريقة جنْي الزيتون، ونقْله في العربات ذات العجلتين من طرف عمّال يقظين وجادّين، يقومون بإفراغه ووزنه، لتبدأ عمليّة الطحن وما يتبعها من عمليات حتّى الحصول على الزيت، وفي المادور وجد الأثريون طاحونة متميّزة وجيّدة الصنع عبارة عن حوض دائري الشكل محفور في الصخر، مزوَّد برحى مخدّدة (Meule cannelé) تدور حول عمود صغير (Columella) داخل ذلك الحوض الذي تسيل منه الزيت عبر ثلاث قنوات محفورة فيه وعموما فإنّ طواحين الزيتون التقليدية في بلاد القبائل والأوراس وتونس وشمالي مرّاكش لا تزال تحمل ملامح الطواحين القديمة .يستفاد من الفحص الذي أُجْري على مختلف مستثمرات الزيتون التي تعود إلى الفترة الرومانية أنّ معاصر الزيت أنواع ولذلك صنّفت إلى عدّة أنماط وهي:

أ- منشأة صناعية (Entreprise industrielles): نمط خربة اعْقُوب (بالقرب من عين كبيرة Satafis)، وتتكوّن من 21 مصطبة عصر (Plate-forme de pression) وكلّ مصطبة لها ثقّالتان (Contre-poids) (أنظر أعلاه الشكل30، ص119) .

ب- معاصر حضرية (Huileries urbaines): وُجدت في مناطق الإنتاج الوفير (في كلّ مدن البروقنصلية وفي كويكول والمادور ووليلي).

ج- معاصر ريفية (Installations rurales): ولا تكاد تخلو فِيلاً (Villa) من معصرة لغرض الاستهلاك العائلي والباقي يتمّ تسويقه[1].

لقد دعّمت الأبحاث الأثرية ما جاء في المصادر الأدبية عن ثراء أفريقيا بالزيت، وكانت نوعية الزيت وجودته تتبع نوع الزيتون ودرجة نضجه وكذا أدوات وطريقة عصره، لأنّ العصرة الأولى للزيتون نصف الناضج هي التي تعطي الزيت الجيّد، ولا ريب أنّ الزيت الجيّد كان للاستهلاك البشري أمّا الأقلّ جودة فيوجَّه للأغراض الصناعية والصحّية وعلى الخصوص للإضاءة.

---

1 الملاحَظ أنّ بعض أدوات المعاصر القديمة كالمدقّ (Pilon) والمفتّت (Concasseur) التي تظهر في الألواح الفسيفسائية تشبه نفس أدوات المعاصر التقليدية التي لا تزال إلى الآن في تونس وفي تكوت حسب هونريات كامبس. أنظر :
- Camps-Fabrer,(H.), Une nouvelle huilerie romaine dans la région de Périgotville, in Libyca, a/ épigraphie., V, 1957, pp.43-47.

5. استخراج المعادن:

تقدّم لنا الأبحاث الأثرية الدليل على استخراج المعادن في أفريقيا القديمة منذ عهد الملوك النوميد، وعلى الخصوص خلال الفترة الرومانية، وأهمّ المعادن المستخرجة هي الحديد والرصاص بالإضافة إلى مقالع الرخام، ومن الرصاص يستخلَص معدن الفضّة ولكن بنسب صغيرة، ومنه أيضا سُكّت بعض القطع النقدية الأفريقية، أمّا الفضّة فتصنع منها الحلي البربرية التي لا تزال تصنَع إلى اليوم من هذا المعدن، وكانت أهمّ المناجم في جهات البروقنصلية ونوميديا وكانت جبال جرجرة تسمّى جبال الحديد (Mons ferratus) إشارة إلى توفّر هذا المعدن هناك، وكان ميناء القلّ أهمّ الموانئ لتصدير معدن الرصاص الموجود في الجبال المجاورة[1].



الشكل (31) جرّة مصنوعة في توبوسوكتو (تيكلات) موريتانيا القيصرية

المصدر:

- LEQUEMENT (R.), le vin africain à l'époque impériale, IN Antiquités Africaines, T. 16, 1980, p. 189

1 - Mercier(G.). Les mines antiques de la région de Collo. in RSAC, Volume 48, 1915. pp. 37-63.



الشكل (32) مصنع زيت، الفترة الرومانية (برزقان، ناحية تبسّة)

المصدر:

Albertini(Eugène), L'AFRIQUE ROMAINE, Imprimerie Officielle, Alger 1949, p. 63



الشكل (33) معصرة زيت من الفترة الرومانية (وادي عثمانية ، قسنطينة)



الشكل (34) تقديم الزيت قربانا للإله الأفريقي ساتورن، الهلال رمز العقيدة الأفريقية (متحف شرشال)

الفصل الثالث

الطرق الأفريقية

الطرق مرفق حضاري هامّ وهو الأساس الذي تقوم عليه الحياة الاقتصادية، ولذلك يشار إليها في مصطلحات العصر الحديث بالبنية التحتية (Infrastructure)، واعتبرها البعض جزءًا من الترسانة الحربية الرومانية وأداة أساسية للسيطرة وحفظ الأمن[1]، وما يميّز الطرق الرومانية هو أنّها طرق مُعَدَّة لاستعمال العربات أي العجَلة، أي أنّ الحيوانات في هذه الطرق ستتحوّل من الحمل إلى الجرّ، ولذلك اعتبر مؤرّخو الفترة الاستعمارية الطريق -كمرفق- في أفريقيا إنجازا رومانيا[2]، والحال أنّ الرومان أنشأوا شبكة من الطرق "الحديثة" ولكن لم ينطلقوا من فراغ، فهناك دلائل على وجود طرق في إقليم قرطاج وفي المملكة النوميدية على الخصوص[3] تربط بين المصارف البونية وظهيرها، وبين المدن الرئيسية في المملكة، ولكن لم تكن في مستوى الطرق الرومانية التي تُعَدّ عملا فنّيا هندسيا بارعا، فضلا عن دورها الاجتماعي والاقتصادي.

كانت الطريق أحد أهمّ وسائل التوسّع الروماني نحو العمق النوميدي والأفريقي عموما، وكانت حيدرة مركزا أماميا وقاعدة يعسكر فيها الجيش الأغسطي الثالث (La Trisième Légion Augusta)، وكان أوكتاف أوغسطس أول من انتبه إلى أهمّية الطريق في نقل البريد فكان أول من أنشأ مصلحة البريد الرسمي(Cursus Publicus) على طول الطرق، ومنذ أواخر عهده سيتمّ الشروع في إنشاء طريق من حيدرة باتجاه جنوب -شرق نحو قفصة ينتهي في تاكابس (قابس) بطول حوالي 300 كلم، وستكتمل في عهد خليفته تيبريوس (Tiberius) على يد البروقنصل أسبريناس (Asprenas) وطريق أخرى جنوب- غرب باتجاه تيفست، وقد اقتضت أشغال المساحة والكنترة التي تصاحب مثل هذه الأعمال نزع الملكية الذي مسّ قبيلة الموسولام وأحلافها وكان ذلك أحد أسباب الحرب التي خاضتها هذه القبيلة ببسالة ضدّ التوسّع الروماني (17-24 م)، لأنّ الطريق ستأتي معها بأدوات السيطرة (الإدارة، الجيش، المعمّرون...الخ)[4].

---

1 - Salama (P.). les voies romaines de l'Afrique du Nord, Alger 1951. p. 30.

2 وهو عنوان رسالة بيار سلامة:الطرق الرومانية،الذي يعتبر "صناعة" الطريق في أفريقيا عملا رومانيا بحتا.

3 - Cat (E.), Essai sur la province romaine de la Maurétanie césarienne, Paris 1891, pp. 17-20

4 - Albertini(E.).Le réseau routier de la Numidie méridionale, CRAI, 1931, pp. 363-370.

ينبغي انتظار بداية اعتلاء العائلة الفلاوية(La Dynastie flavienne) العرش الإمبراطوري الروماني لتبدأ أعمال التوسّع في بناء شبكة الطرق الأفريقية لأنّ أباطرة العائلة اليولية التي سبقتها كانوا منشغلين بقمع مقاومة الموسولام والغرامنت التي امتدّت إلى عموم أفريقيا، وكان نقل الجيش الأوغسطي الثالث إلى تيفست (حوالي75م) بداية لأعمال واسعة في هذا المجال، فقد مُدَّت طريق قرطاج - تيلبت (Thélepte) نحو تيفست، وتمّ ربط هذه الأخيرة بالمدينة الساحلية هيبون(عنّابة) عبر المادور وتاقست، ومن تيفست أيضا ستُمدُّ الطريق غربا عبر خطّ يمرّ بيوكس (Aquae Caesaris) وعين زوي(Vazaivi) وماسكولة (Mascula) وتوشين (Lambafundi) إلى تازولت (Lambaesis) ومنها إلى مروانة (Lamasba) وزاراي (Zarai) ومنها إلى مراكز الليمس الموريتاني، وفي خطوة تالية تمّ نقل الجيش الأوغسطي الثالث إلى لمبايسيس فأصبحت هذه الأخيرة مرتبطة بقرطاج شمالا وبتاكابس (قابس Tacapes) شرقا، وفي عهد ترايانوس98-117م (Trajanus) سيتمّ تدعيم هذه الطريق بالمرافق والتحصينات[1] وخاصّة بعد إنشاء مستعمرة لقدماء الجند وهي تيمقاد.

كان إنشاء الطرق في البداية لأغراض عسكرية استراتيجية ولكن سرعان ما توسّعت مجالات الانتفاع منها لتشمل مجالات إدارية وأمنية وعلى الخصوص المجال الاقتصادي، فقد تمّ ربط مناطق الإنتاج بمراكز التخزين والتسويق وهو ما سيفعّل الحركة التجارية في بلاد ليس فيها ملاحة نهرية، أمّا كثافة الطرق فكانت مرتبطة بالكثافة الديمغرافية والعمرانية ولذلك نلاحظ انخفاض هذه الكثافة كلّما اتجهنا غربا، وتكون موريتانيا الغربية هي الأقلّ طرقا، بمحور واحد من طنجة إلى وليلي (Volubilis) يتفرّع عنه طريق نحو سلا[2].

ارتبطت المدن المرفأية (الموانئ) بطرق توصلها بمناطق الإنتاج في الداخل، وهذا وجه آخر من أوجه الاستغلال الاستعماري الذي ينتفع من خيرات البلاد كما يشاء،

---

1 اكتشف الأثريون نصّا يسجّل ترميم طريق متفرّعة عن طريق ماسكولة–لمبايسيس على بعد 5 كلم غربي توفانا (أيت فاضل)، وهذه الطريق تتّجه نحو عمق الأوراس مرورا بفجّ كرازّة،سهل يابوس ثمّ المرّ ما بين جبل عمروس وجبل بوحيرة باتجاه وضحت وإغزر أملاّل وهي ترميمات تعود إلى نهاية القرن الثالث ق.م. أنظر:

- VEL (Auguste). Quelques inscriptions. In RSAC, Vol. 43, 1909. p. 261.

2 - Carcopino (J.), Le Maroc antique, ..., op. cit. , pp. 190-197.

إذ يستقبل ميناء هيبو ريجيوس (عنّابة) قمح قالمة وزيت المادور وتيفست[1]، ويستقبل ميناء قرطاج زيوت وقموح المجردة والواد مليان، ويستقبل ميناء هدرومت زيت تيلبت وسبيطلة وقموح وزيوت الساحل، ويستقبل ميناء روسيكاد زيوت لمابيس وتيمقاد وقموح التلال القسنطينية ولمبيريدي (باتنة).

تُشحَن بضائع أفريقيا-جنوب الصحراء وهي العبيد والعاج والذهب من ميناء أويا، وعموما فإنّ بعض الطرق كان للزيت وبعضها الآخر كان للقمح أو لهما معاً، فضلا عن خشب التويا[2] (Thuya) والحيوانات المطلوبة في الألعاب، وكان الإمبراطور هدريان (129م) قد أمر بإنجاز طريق ثابراكا - شمتو، لنقل الرخام النوميدي الملوّن الأصفر والأحمر ذي الشهرة العالمية من منجمه في شمتو إلى ميناء ثابراكا ومنه إلى روما وإلى أسواق البحر المتوسّط[3]، وقد استُعمل في زخرفة وديكور عديد المعالم في روما وتيفولي (Tivoli) وأثينا (Athènes) وإزمير (Smyrne) وكذا في عديد المدن الأفريقية مثل تيمقاد وقرطاج وثيسدرا وحيدرة وتوبورسيكو نوميداروم[4].

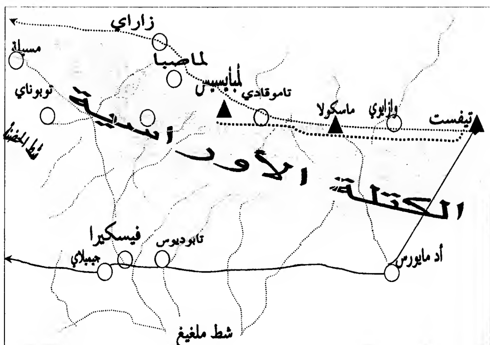
من نفطة وتوزُر سيمتدّ التوسّع الروماني غربا وسيقام مركز بسرياني (Ad Majores) الذي مُدَّت منه طريق نحو تاهودا (Thabudeos) وبذلك أحكم الرومان سيطرتهم على الجنوب النوميدي وأصبحت الكتلة الجبلية الأوراسية قلعة محاطة بطوق روماني مُحْكَم يتمثّل في خطّ الليمس الأول من تيفست إلى لمبايسيس وخطّ الليمس الثاني من بسرياني إلى معسكر جيميلاي (Gemellae) (أنظر أدناه الشكل 35 ص 130).

1 تنطلق من هيبو ريجيوس سبعة طرق مرصوفة جيّدا منها إثنان ساحلي وداحلي باتجاه قرطاج، وطريق باتجاه تاقاست ومنـــها إلى عمق البروقنصلية،وطرق باتجاه الجنوب بموازاة السيبوس إلى تيبازا النوميدية (تيفاش)، وطريق نحو سيرتا تمرّ بكالما وأكـــواي تيبيليتيناي (حمّام مسخوطين)، وأخيرا طريقان ساحلي وداخلي نحو روسيكاد ، أنظر:
- Rozet et Carette, L'Algérie, Firmin didot éditeurs, Paris 1850 p. 25.

2 لم نجداسماعربيالهذه الشجرةذات الخشب الجيّد،والواضح من صيغةاسمهاأنّه من اللغةالبربرية: ثويّا ؟.

3 - TOUBAL (Abderrahmane). - Les mines et carrières en Numidie: exploitations antiques, Actes de VIe colloque CTHS, Pau, 1993 (1995), II, Productions et exportations africaines. Actualités archéologiques, pp. 57-64.

4 هناك رخام نوميدي آخر ذو شهرة كبيرة وهو رخام سوبزوار (Svbzvar) بالقرب من عين اسمارة (قسنطينة) حيث استعمل في المباني الفخمة بسيرتا وكويكول، وفي تيفست تماثيل من رخام فيلفيلة (سكيكدة) الأبيض، أمّا أعمـــدة معـــدة فينـــوس بكويكول فقد جي بحجارتها من كافالو بالقرب من جيجل، أنظر: - Salama (P.), op. cit. p. 45.



الشكل (35) تطويق الكتلة الأوراسية بالطرق والمراكز العسكرية

حدّد القانون الذي أصدره أوكتاف أغسطس عرض الطريق بـ 12 م (40 قدما) للديكومانوس ماكسيموس، و6 م (20 قدما) للكاردو ماكسيموس و3 م (12 قدما) للديكومانوس وللكاردو الثانويين، و8 أقدام للطرق الصغيرة[1]، وصُنِّفت الطرق الرومانية إلى طرق عمومية(Viae publicae) وطرق خاصّة(Viac privatae) وطرق عسكرية (Viae militares) وطراق زراعية (Viae agraria) وطرق قروية (Viae vicinale)، وكانت عصب الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وأُدخلت في إنجازها فنون العمارة وخاصّة في بناء الجسور وجدران الارتكاز (Mur de soutènement) والطرق المحمولة (Viaducs) فضلا عن المرافق العديدة التي أنجزت على مسافات محدَّدة لأنّ الطريق الرومانية عمل هندسي وتقني وفنّي فالطريق تعبر الوديان والمستنقعات والمنحدرات الصخرية ولذلك لا بدّ من تنفيذ أعمال هندسية متينة، وكان إنجاز الطريق من اختصاص حكّام الأقاليم، وفي الطرق الاستراتيجية يتدخّل الأباطرة بأنفسهم

1 - Salama (P.), op. cit. , p. 66.

ولذلك تحمل بعض الطرق الهامّة أسماءهم وتقتطع نفقات الإنجاز من الخزينة[1]، أمّا الطرق الثانوية فكان إنشاؤها وصيانتها من اختصاص الهيئات الإدارية بالمدن البلَدية (Cités municipales).

01- الجسور:

يمكن استعراض عدد من الجسور الهامّة التي اندمجت فيها فنون العمارة بالأشغال العمومية مثل:

الطريق المحمولة (Viaduc): ما بين جزيرتي قرقنة وهي أهمّ عمل فني في طرق أفريقيا القديمة[2].

الجسر العابر لوادي باجة: في الطريق نحو عنّابة المتفرّعة عن طريق قرطاج - تيفست وقد أنجز في عهد الإمبراطور تيبريوس (أنظر أدناه الشكل 36 ص 133).

جسر شمتو - ماسكولولة: الذي بُني في عهد تراجانوس.

جسر وادي القنطرة: في الأوراس في الطريق الرابطة بين لمبايسيس ومعسكر جيميلاي وقد أُنجز في عهد الإمبراطور كاركلّة[3].

جسر جربة (Mininx): يربطها بشبه جزيرة زرزيس، وكانت الجزيرة غنية بصناعة الزيت والفخار والنسيج، وكانت صباغتها الأرجوانية ذات شهرة في كلّ جهات البحر المتوسّط وقد ساهمت هذه الطريق في تنشيط الحركة الاقتصادية بها، وعموما كانت الجسور ذات القوس الواحد هي الأكثر عددا بسبب الوضع التضاريسي.

02- المباني والمرافق الملحقة بالطريق:

في بلاد ذات مناخ جافّ وحارّ صيفا لا بدّ من توفير الماء لمستعملي الطريق من أعوان الإدارة والأمن والبريد وعمّال النقل وعموم المسافرين... ولذلك أقامت الإدارة الرومانية عددا من المباني والمرافق روعي فيها الفخامة والزخارف والديكورات التي تميّز العمارة الرومانية ومنها:

---

1 - Dictionnaire des antiquités grecques et romaines, T. V. Article Via, pp. 782-783

2 أشار إليها بلين في تاريخه الطبيعي .Pline, Hist. Nat. V, 72 -

3 Gsell (S.), Monuments , II, p. 7. ، وقد أُجريت عليه ترميمات من قبل الهندسة العسكرية الفرنسية فتوّهت أصالته:
- Salama (P.), les Voies romaines..., p. 81.

أ- عيون الماء (الينابيع والآبار): وهي مرفق ضروري، وقد أظهرت صور باراداز الجوّية عددا هامّا من محطّات التزوُّد بالماء في محور الطرق الملتفّة حول الكتلة الأوراسية[1]، وكثيرا ما كان هذا المرفق سببا في ظهور تجمّعات سكّانية حول مصدر الماء لتتحوّل في وقت لاحق إلى قرى.

ب- أبراج المراقبة: سجّلت النقوش اللاتينية وجود أبراج (Burgi) ملحقة بالطرق بعضها لأغراض أمنية وأخرى لغرض الصيانة[2]، ولعلّ هذه الأبراج تأوي عمّال وعناد الصيانة في الطابق الأرضي وأعوان الأمن[3] (Beneficiatores) في الطابق العلوي وهناك عدد هامّ من المراكز التي تحمل اسم توريّس أي برج (TURRIS i.e. Tour) ممّا يدلّ على أنّ منشأها الأول كان أبراج مراقبة قبل أن تتحوّل إلى تجمّعات سكّانية.

ج- مرافق أخرى: مثل محطّات البريد العمومي(Cursus Publicus)، وكانت المسافة بين محطّة وأخرى (محطّات المداومة الليلية Mansio) ما بين 44 إلى 60 كلم، أمّا محطّات الربط البسيطة (Mutatio) فلا تتجاوز المسافة بينها ما بين15 إلى18 كلم[4]، بالإضافة إلى مرافق أخرى لا تقلّ أهمّية مثل الإسطبلات والمخازن ومقرّ إدارة الأنونة... الخ، وقد نجد بجوار مرفق من المرافق تمثال لإمبراطور أو تعليمة حكومية، ومع تطوّر مرافق الطريق تتحدّث النصوص عن وجود خانات (Auberges et Cabarets) تقدّم خدماتها للمسافرين[5].

---

1 - Baradez (J.), Fossatum , photo C. p. 338.

2 ازداد عدد هذه الأبراج في عهد أمبراطور كومودوس (نهاية القرن الثاني) مثل برج بورقوس. سبيكولاتوريوس (Burgus Speculatorius) الذي يراقب طريق القنطرة - جيميلاي، CIL, VIII, 2495 - وأبراج في كلّ محاور الطرق الاستراتيجية في أفريقيا البروقنصلية وموريتانيا. CIL, VIII, 22629 -

3 البينيفيكياتورس هم أعوان الدرك الروماني الذين تتحدّث المصادر عن تجاوزاتهم في حقّ السكّان،أنظر:

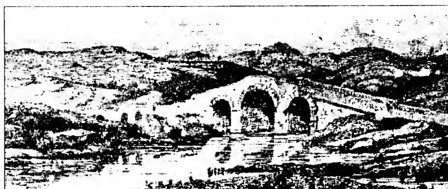
- Code théodosien, VIII, 4, 2.

4 - Dictionnaire des Antiquités Greeques et Romaines, Artiele VIA, p. 787.

5 ونظرا لمظاهر الانحراف والإسراف التي تمارس في هذه الخانات فقد شنّ رجال الدين حملة عليها مثل الذي حدث في خان فندس قيبيتانوس (Fundus Gipitanus) القريب من عنّابةوندّدبه القدّيس أوغسطين،وهو ما حمل الكنيسة تقيم بيوتا خاصّة لاستقبال مرسليها وحجيجها على طول محاور الطرق الرئيسية - St Augustin, "Lettres", LXV, I.،وقد سجّل بيار سلامة العديد من هذه الخانات التي هي في الواقع محلاّت لشرب الخمور:تافيرناي (Tavernae)،ومنها: أد روتام (Ad Rotam) ومعناها العجلة،ما بين سيرتا وتيمقاد، وأد ميدياس (Ad Medias) ومعناها في منتصف الطريق،في الطريق شرق-غرب،حنوبي الأوراس،وأد دراكونس (Ad Dracones) ومعناها التنّين في حمّام بوحجر بالقرب من وهران... الخ،أنظر: -Salama(P.), Voie.. p.p. 85-86.



الشكل (36) جسر روماني على وادي باجه المصدر: متحف علاوي (تونس)



الشكل (37) جسر روماني على وادي ميبوجة (9 كلم جنوبي عنّابة)، أزيل وأقيم مكانه جسر جديد سنة 1882 صورة مأخوذة من ألبوم الفنّان المهندس دولامار عضو بعثة الاكتشاف العلمي في الجزائر 1840-1845



الشكل (38) علامة ميلية (Borne milliaire) تشير إلى المسافات من ملتقى طرق فاتاري (Vatari) نحو كلّ من قرطاج وهيبون وسيرتا ولمبايسيس وتيفست ، ارتفاع العمود 2,33م ونقشت عليه الكتابة بعناية وهو موجود في ساحة الجنينة (Square) بمدينة عين بيضاء (أم البواقي)



الشكل (39) جسر روماني على وادي نبهانا شمالي القيروان (تونس) المصدر: متحف علاوي (تونس)



a : سرير من الرمل.................. 0,10 م

b : قاعدة من حجارة وملاط.............. 0,20 م

c : باطون من حجر مكسّر.............0,15 م

d : باطون من الحصى..................0,15 م

e : تغطية بإسمنت خشن مع حجارة مقوّية..........0,20 م

السمك الإجمالي للطريق.............0,80م

الشكل (40) مقطع في طريق رومانية شمالي الأوراس، (عن بيار سلامة : الطرق الرومانية).



الشكل (41) المراكز العمرانية والطرق الأفريقية خلال الفترة الرومانية

(عن غابريال كامبس: البربر على هامش التاريخ، ص 174)

الفصل الرابع

تجارة الشمال الأفريقي

(الفترة الرومانية)

كان الرومان منذ العهد الملَكي يتزوّدون بما يحتاجونه من سلع وخاصّة الموادّ الزراعية والحيوانية من أفريقيا وسيزداد اعتماد روما على السلع الأفريقية في العهد الجمهوري، ويبدو أنّ تهافت الرومان على بضائع أفريقيا هو الذي جعل شعراؤهم يبالغون في وصف تلك البضائع وإضفاء الطابع الأسطوري عليها[1]، ولما نمت روما وأصبح لها سفن يمكن أن تنافس مدينة قرطاج قامت هذه الأخيرة بإبرام اتفاقيات مع روما حفاظا على احتكارها للتجارة في الحوض الغربي للمتوسّط على الأقلّ وكان ذلك في مرحلة قوّتها[2].

لكن الطرف القرطاجي كانت تنقصه القوّة الحربية ليفاوض من مركز قوّة، فأخذ مُنْحنى تلك الاتفاقيات ينزل إلى حدّ قبول وجود تجّار رومان في مدينة قرطاج وفي ظهيرها وكان ذلك مؤشّرا على تغلغل الرومان في مدينة آيلة إلى الزوال وهم الذين سيزيلونها عملا بمقولة الدهاة من ساستهم: لا تفاوض خصمك حتّى تنتصر عليه في الحرب، وعندئذ ستفاوضه من موقع قوّة وستملي عليه شروطك!.

بعد سقوط قرطاج وإقامة مقاطعة رومانية على إقليمها، بدأ الإيطاليون يفدون إلى هذه المقاطعة، ووجد عدد هامّ منهم فرصته في تجارة القمح خاصّة وأنّهم أدرى بحاجة السوق الإيطالية من هذه المادّة، وتمركز هؤلاء في كلّ مدن المقاطعة[3] بل وحتّى في

---

1 ليس شعراؤهم فحسب ولكن عمّال السكّة أيضا، فقد أصدر هؤلاء قطعا نقدية نقشوا عليها صورة الإلهة أفريقيا محاطة بسنابل القمح الأفريقي، و كان ذلك خلال ما سمّي بالحرب الأفريقية بين القيصريين والبومبيين،انظر :

- Babelon (E.). Description historique et chronologique des monnaies de la république romaine, T. I. Paris 1887. pp. 476- 479.

وبذلك تقوم هذه العملة بدور دعائي وحتّى تحريضي على احتلال باقي الأرض الأفريقية [illegible] على وظيفتها الأساسية في التبادل التجاري وهو عمل غاية في الدهاء.

2 كانت المعاهدة الأولى بين الطرفين لغرض تنظيم مجال الملاحة لكلّ طرف، وكانت المعاهدة الثانية تمنع على الرومان الإبحار في ما نسمّيه اليوم المياه الإقليمية لقرطاج، أمّا المعاهدة الثالثة فتتعلّق باتخاذ موقف موحّد من حاكم إبيروس، وقد أشار إلى هذه الاتفاقيات بوليب في تاريخه، أنظر:

Polybe, III, pp. 191- 192.

3 عقون (محمّد العربي)، من التاريخ الحربي... مرجع سابق، ص 97.

مدن المملكة النوميدية ، وطبيعي أن يستقرّ أغلبهم في أوتيكا باعتبارها عاصمة المقاطعة ، وكانوا دائما في خدمة الدولة الرومانية[1]، وبعد القضاء على المملكتين النوميدية والموريتانية واستكمال التوسّع الروماني بالمنطقة التي تمثّل أضعاف مساحة إيطاليا ، وجد الرومان أنفسهم في وضع مريح للغاية بحيث أنّ كلّ ثروات البلاد في متناولهم ، وهذا الوضع يعبّر عن تغلغل انتفاعي احتكاري أكثر منه تجاري.

01- التجارة الداخلية

عزّزت الطرق التي أنشأها الرومان كما رأينا السيطرة العسكرية بالدرجة الأولى ، ولكن دورها الاقتصادي لا يقلّ أهمّية ، فقد سهّلت المبادلات بين القطاعات والأقاليم والأرياف والمدن ، وساهمت في ظهور أسواق ريفية كلّها مدينة للطريق ، وكانت ثيسدرة سوقا للزيت والحبوب والضأن، أمّا باجة وبولة ريجيا ومكثر الواقعة على أطراف السهول الكبرى فكانت أهمّ سوق للقمح ، وكانت تبورسك وثوقة بلد الزيتون بامتياز ، واحتفظت تيفست وكالما بمكانتهما كأكبر سوق للمواشي[2] ، وكانت الأسواق التي تقدّم للسكّان حاجياتهم اليومية مرفقا هامّا في كلّ مدينة ، ويبدو سوق سرتيوس بتيمقاد عيّنة نموذجية في هذا المجال ويمثّل تحفة معمارية حقيقية ، يطلّ على الديكومانوس الكبير بساحة طولها 25 م وعرضها 15 م تتوسّطها نافورة ، وتطلّ على الساحة محلاّت السوق وعددها سبع في شكل نصف دائرة تعرض سلعها على مصارف عبارة عن صفائح من الغرانيت الأزرق الصقيل قائمة على ركائز حجرية صقيلة علوها 1 م[3].

ظهرت على محاور الطرق مراكز ريفية تقام فيها أسواق نصف شهرية (نونديناي Nundinae) بترخيص إداري تستقبل الريفيين مثل سوق كازاي بيقوين (Casae Beguenses) شمال غربي سبيطلة[4] وسوق عين كرمة (Nundiniae Emadaucapenses)[5] وسوق عين امشيرة[6] وسوق فوسفوري شرقي سيقوس وسوق بني زياد (Castellum Mastarenses)[7]

---

1 عن دورهم في تأجيج العداوة بين يوغرطة وشركائه في المُلك، أنظر:
- Bertrandy(F.),la communauté gréco-latine de Cirta, pendant le 2ème s. et la première moitié du 1er S. avant J.C.,IN **LATOMUS**,44,1985, pp.157-160.

2 - Shaw (Brent D.), Rural markets in North Africa and the political economy of the Roman Empire, 17, 1981, p. 37-84.

3 جوليان (شارل أندريه)، مرجع سابق ، ص 244-245.

4 - CIL, VIII, 11451.

5 - Shaw (Brent D.), Op. Cit. loc. Cit.

6 - CIL, VIII, 8280.

7 - CIL, VIII, 6357.

وسوق تيدّيس(Castellum Tidditanorum)[1]. ولعلّ أهمّ وثيقة تاريخية أثرية تسجّل جانبا من الوضع التجاري في أفريقيا الرومانية هي نصّ زاراي[2] (Zarai) المؤرّخ بسنة 202م ، فقد سجّلت فيه السلع التي تخضع لضريبة المرور وهي السمك المصبّر(Garum) والإسفنج (أوتي به من خليج السيرت الصغير)، والثياب الصوفية (مصنوعة في جربة) والمواشي والجلود من زاراي ذاتها، والتّمْر من الواحات، وراتنج الصنوبريات من جبل أوراس والرقيق من لبدة ... الخ، والسلع التي لم يكن مصدرها من زاراي ونواحيها تكون قد وصلتها عبر طريق قابس (Tacapes) - تيفست - ماسكولة - لامبايسيس - لماصبا، لتمرّ غربا باتجاه أسواق ومدن موريتانيا الشرقية وحتّى الغربية[3]، وقد استخلص البعض من الأثاث الجنائزي الذي وُجد بضريح الأميرة التارقية تين هينان (القرن الثالث والرابع الميلادي) - وهو صناعة رومانية - على اتساع التجارة الداخلية في الشمال الأفريقي القديم ووصولها إلى أعماق الصحراء[4].

2. التجارة الخارجية :

في العهد الإمبراطوري حلّ الاحتكار الروماني محلّ الاحتكار القرطاجي في التجارة الخارجية لأفريقيا، بحيث قلّت المبادلات بين أفريقيا وباقي جهات البحر المتوسّط، وكان كلّ ما يتمّ من تبادل وتسويق يأخذ اتجاهه من الموانئ الأفريقية إلى روما تحت مراقبة الإدارة الرومانية، وكانت الصوف والخشب أهمّ الصادرات الأفريقية إلى جانب القمح والزيت، وفي هذا المجال اعتمدت الدولة الرومانية على خواصّ يمتلكون مراكب (Navicularii) من الرومان والأفريقيين، وهؤلاء انتظموا في جمعيات تضمن النقل الدائم للسلع وخاصّة موادّ الأنّونة من قمح وزيت وخمر... وكذا الموادّ المعدنية والموادّ التي تدخل في البناء والزخرفة مثل حجر القرانيت والرخام وحجر اليمان[5]، ولأهمّية هؤلاء الناقلين تحصّلوا على امتيازات خاصّة، وأصبحوا يشكّلون مرفقا هامّا يحظى برعاية برايفكتوس الأنونة مباشرةً، وكانت المراكب الأفريقية ترسو في ميناء

---

1 في حفل ديني تكريما للإلهة كايليستيس (I.L.Alg. II, 3571) أعلن عن إقامة سوق في تيدّيس من قبل الهيئة البلدية (رسبوبليكا) ينتظم تباعا في اليوم الموالي لسوق ماستار (بني زياد) وذلك بترخيص من ليغاتوس لمابيسيس (I.L.Alg. II, 3604)، انظر:

- Berthier (A.), Tiddis. cité antique de Numidie, Mémoire de l'Académie des Inscriptions et belles lettres, Nouv. Série, Tome XX , Paris 2000, p. 266.

2 بلدة على محور طريق تفاوس سطيف بالقرب من حدود نوميديا موريتانيا: -CIL, VIII. 4508، 18643.

3 - De Marcilly, Description de la voie romaine de Cirta à Rusicade,in RSAC N° 1, Année 1853, pp. 32-37.

4 - Camps (G). Le tombeau de Tin Hinan. Travaux de l'Institut de Recherches sahariennes, t. 24, 1965, pp. 65-83.

5 - Lecocq (A.), le commerce de l'Afrique romaine, in B.S.G.O., T. XII, 1932, pp. 339-343.

بوزول (Pouzzoles)، ومنذ عهد هَدَريان (Hadrien) سيتحوّل نشاطها إلى ميناء أوستيا(Ostie)[1] (أنظر أدناه الشكل42 ص141).

لقد عُثر عل عدد كبير من الجرار الأفريقية في مرتفع تستاتشيو (Monte Testacchio) وهي عبارة عن "كومة" من جرار الزيت تشكّل "هضبة" بالقرب من الرصيف (débarcadère) في روما، وتلك الهضبة تشكّلت على توالي الأيام من واردات الأنونة، وتمثّل جرار أفريقيا التي تعود إلى النصف الثاني من القرن الثاني وبداية القرن الثالث ما بين 14 إلى 15 % من مجموع ما تختزنه تلك الكومة، ولكن هذه النسبة سترتفع كثيرا بعد ذلك مما جعل المؤرّخين يستنتجون بأنّ ذلك يعود إلى ازدهار صناعة الزيت الأفريقية، وأكثر من ذلك تنوّع الجرار الأفريقية لأنّها لم تكن مخصّصة لتخزين وتصدير الزيوت فقط بل كانت تستعمَل لتخزين موادّ أخرى[2]، وكان أوغسطس أوكتافيوس قد أصدر القانون اليولي (22 ق.م.) الذي ينظّم تزويد سكّان روما بالمؤن بانتظام، بحيث تتعاقد الدولة مع جمعيات التجار ومن (الناويكولاري[3] (Navicularii)، وحسب فلافيوس يوسف (Flavius Josèphe) فإنّ أفريقيا إلى نهاية القرن الأول الميلادي كانت تزوّد روما بحاجتها من القمح ثمانية أشهر من 12، وهذا يمثّل مئات الشحنات، وكان تجّار أفريقيا يلعبون دورا هامّا في تموين روما بالقمح منذ ترايانوس، وكان تدخّل النافذين في أعلى هرم الإمبراطورية من الأفريقيين مثل فرونطون السيرتي في عهد أنطونينوس الورع وماركوس أوريليوس على الخصوص قد ساهم في جعل الأنونة بين أيدي التجّار الأفريقيين الخواص، وكانت موانئ أفريقيا مرتبطة مباشرة بميناء أوستيا[4]، ولم يتوقّف التصدير على القمح والزيوت بل إنّ الناويكولاري كانوا يحملون إلى روما مختلف السلع[5].

---

1 يقع ميناء بوزول في خليج نابولي على بعد أكثر من200 كلم عن روما،ومع ذلك ظلّ الميناء الرئيسي لروما،إلى أن أنشئ ميناء أوستيا بالقرب من روما على مصبّ التيبر،للمزيد يمكن الرجوع إلى:

-Texier (M.), Mémoire sur les ports situés l'embouchure du Tibre: le port de Trajan, in CRAI, 1857, p. 100.

2 -Ben Abed (A.), M. Bonifay, M. Griesheimer, « L'amphore maurétanienne de la station 48 de la place des Corporations, identifiée à Pupput (Hammamet, Tunisie) », Antiquités Africaines 35, 1999, p. 169-180.

3 عبارة عن مصلحة تتكوّن من موظّفين يحلّون محلّ البوبليكاني (Publicani).

4 - Gervasoni (Cabeillac), Ostie et le blé au 2ème siècle après J.C., actes du colloque sur le ravitaillement en blé de Rome et des centres urbains dés débuts de la République jusqu'au Haut-Empire, Naples-Rome, 1994, pp. 47-60.

5 -Villaverde Vega (N.), Comercio maritimo y crisis del siglo III, en el "circulo del estrecho" sus repercusiones en Mauretania Tingitana", Afrique du Nord antique et médiévale, spectacles, vie portuaire, religions (Actes du V e colloque international sur l'Histoire et l'Archéologie de l'Afrique du Nord, Avignon, 1990)Paris 1992,pp.333-347.

0 ـــــــــ 1000 كلم

الشكل (42) كلّ الطرق تؤدّي إلى روما (ثروات البحر المتوسّط تصبّ في روما)

الفصل الخامس

الضرائب الرومانية

إذا كانت معلوماتنا عن الضريبة في العهد النوميدي مستمدّة أساسا من مقاربات لعدم توفّر الوثائق، فإنّ الفترة الرومانية تركت لنا وثائق هامّة في هذا المجال بفضل المصادر المتنوّعة الأدبية والأثريه، وهي ضرائب تعكس بوضوح سياسة الجور التي انتهجها أباطرة روما ومجلس شيوخها الذين تفنّنوا في فرض الضرائب وتنويعها في شكل أموال وخدمات وسخرة و...الخ، وهذه الضرائب تشمل ضريبة التموين السنوية (Annonae) وضريبة الرأس وخدمة البريدالعمومي وخدمة النقل الحكومي وصيانة الطرق والضريبة على الإنتاج...الخ.

1. تحصيل الضرائب :

كانت تنظّم عمليات الإحصاء كلّ خمس سنوات لحصرالأموال والممتلكات وتسجيل الوضعية القانونية والاجتماعة للأفراد، وقد منح المشرّع الروماني امتياز تحصيل وجمع الجباية إلى خواصّ هم البوبليكاني (Publicani) وكان هؤلاء يتولّون جمع وتحصيل الضريبة مع ما في ذلك من عسف وجور، وأكثر من ذلك كان هؤلاء يستولون على نسبة من الأموال المحصّلة ولا يصل إلى خزينة الدولة إلاّ جزءا منها[1]، وهو الذي جعل الدولة الرومانية تلغي هذا النظام تدريجيا، وفي القرن الثاني نُقلت امتيازات تحصيل الضرائب - بموجب هذه التشريعات- إلى الهيئات البلدية التي أوكلت أمرها إلى موظّفين خاصّين، وتسمّى الضريبة المفروضة على الممتلكات العقارية باليوغوم[2] (Jugum) وكان على الفرد الواحد أن يدفع عن نفسه ضريبة الرأس[3] (Caput) وضريبة أخرى على نشاطه وأخرى على ممتلكاته، وكان مقدار الضريبة مختلفا حسب مكانة كلّ فرد الاجتماعية والمالية والقيمة الإنتاجية لممتلكاته وحتّى العمر، وكانت الضريبة تشمل

---

1 - Carcopino (J.), Decumani. Note sur l'organisation des sociétés publicaines sous la République, MEFR, XXV, 1905, pp. 401-442.

2 اليوعوم هو وحدة ضريبية على الأراضي الزراعية تقوم على أسس الإحصاء المساحي، واليوغوم قطعة أرض زراعية مساوية لفدّان(Arpent)، واليوغوم في الأصل هو المساحة التي يحرثها ثوران خلال يوم، أي حوالي 25 آرا و28 سنتيآرا [أكبر قليلا من ربع الهكتار] وهي تقريبا زوجة في تعبيرالفلاّح الجزائري. أنظر: عقون(محمّد العربي)، الاتحاد البربري، مرجع سابق،ص 102، هامش 1.

3 شنيتي (محمّد بشير) ، التغيّرات...، مرجع سابق، ص 135.

كلّ أفراد العائلة، وبذلك يعبّر القانون الروماني على أنّه شُرِّع للقهر مع أنّ فلسفة القانون تقوم على قاعدة أخلاقية، أمّا المشرّع الروماني فكان همّه الأول هو مصالح الطبقة السيناتورية والإمبراطورية أكثر من أيّ شيء آخر.

2. إدارة تحصيل الضريبة

تتكوّن من جهاز إداريٍ تتوزّع فيه المهامّ عى عدد من الموظّفين، ويرأسه على مستوى المقاطعة موظّف سامٍ بدرجة برايطور (Praetor)، وكان تحت تصرُّف هذا الموظّف معاونوه وهم:

- **المحاسبون** (Numerati) ويتمّ اختيارهم من بين أعضاء الهيئة البلدية.

- **أعوان قضائيون** (Tabulari) لأنّ جهاز الجباية قريب من جهاز القضاء ولأنّ هذا الأخير هو الذي يراقب سير تحصيل الجباية وعلى استعداد لإنزال أشدّ العقوبة على أيّ ممتنع عن دفع ما عليه[1].

يحدّد هؤلاء الأعوان قوائم الضرائب قبل موعد التحصيل بأربعة أشهر ليطّلع الغارمون على الأقساط المفروضة عليهم ويستعدّوا لأداء ما عليهم، وكان الموسم الجبائي يبدأ من أول مارس من كلّ سنة ويكون الغارمون قد سدّدوا خمس ما عليهم قبل شهر جويلية والباقي بعد ذلك[2].

3. أشكال الضرائب والإتاوات في الفترة الرومانية

كانت كلّ الأنشطة والحرف خاضعة للضريبة وهذا عدا ضريبة الرأس وباقي الإتاوات والسخرة ولم تترك إدارة الضريبة شيئا إلاّ وفرضت عليه ضريبة، وفي ما يلي قائمة الضرائب الرومانية:

ضريبة العشور (Dime) على القمح وتدفع عينا.

ضريبة على الأرض حسب خصوبتها ومساحتها.

ضريبة الخمس على الفواكه والأشجار الصمغية.

ضريبة على الخمور والزيوت.

1 - Codex théod. XI. 71. 1. ; Codex Justin X. 19, 1.
2 - Codex Théod., XI, 1, 34.

تقديم حيوانات النقل للبيت الإمبراطوري.

إتاوة على المراعي[1].

تقديم الأعلاف للإسطبل الإمبراطوري.

ضريبة على المعادن النفيسة وعلى باقي المعادن المفيده.

ضريبة العشر على فوائد المنْجَم.

ضريبة على استخراج الملح من الشطوط.

ضريبة على التزوّد بالماء من القنوات.

السخرة لإصلاح الطرقات ومحطّات البريد.

دفع العشرينية من قيمة العبد ذهبا.

الرسم عل الإرث.

الرسم عل المبيعات والعبور (جمارك).

ضريبة على الحرف والأنشطة التجارية، وحتّى الحرف المنحطّة فرضت عليها ضريبة في عهد اسكندر سيويروس[2].

4. فشل الإصلاحات الجبائية

كانت الأنونة تمثّل النصيب الأكبر من الضرائب الرومانية، وبعد أن عصفت الاضطرابات بالإمبراطورية في ما سمّي بالفوضى العسكرية، وما نتج عنها من تدهوُر اقتصادي واجتماعي جاء الإمبراطور ديوكليتيانوس بإصلاحاته العديدة ومن بينها الإصلاحات الجبائية بعد القيام بإحصاءات شاملة لكلّ الممتلكات الثابتة والمنقولة، وقد عمل هذا الإمبراطور على سنّ قوانين في عمومها تهدف إلى ضمان دخل قارّ لخزينة الدولة يجنّبها الوقوع في الأزمات، ولذلك فإنّ إصلاحاته في الواقع كانت تراعي مصلحة السلطة دون الانتباه إلى ما سينجرّ عنها من أضرار على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي.

---

1 وهده الضرائب والإتاوات والرسوم على العقار والمحاصيل الزراعية والموادّالغذائية تدخل في التموين السنوي الذي تقدّمه المقاطعات لروما،شنيتي(محمّد بشير)، التغيّرات...، مرجع سابق ص137.

2 - Lacroix (L.), Colonisation et administration romaine dans l'Afrique septentrionale, IN R. AF. Année 1863, N0 7, pp. 368-375.

من أهمّ القوانين التي ميّزت إصلاحات ديوكليتيانوس قانون الحدّ الأعلى 301 م (Limitatio)، وهو إجراء تنظيمي رائد لولا تحويله - مع الزمن - من قبل الإدارة إلى نصّ جامد، بدل تطويعه لحركة السوق، هذا القانون يربط الأجور بالأسعار[1]، لكي يثمّن العمل ويحمي العامل ويشجّعه على الإنتاج، ويتضمّن قائمة تفصيلية لحوالي ألف صنف من السلع والخدمات والأجور والمهن مرتَّبة حسب النوع والكمّ ومستوى الجودة، وكانت تلك القائمة مرجعا أساسيا ورسميا في الدولة الرومانية، يقوم عليها تحديد الأجور وأقساط الجباية والتعويضات وأثمان الشراء التي تطبّقها الدولة، وهي كلّها أرقام أصبحت مع الزمن ثابته لا تتحرّك ولا تساير حركية الأسعار التي ترتفع وقلّما تستقرّ أو تنخفض، فتضاعفت القيمة الحقيقية لأقساط الجباية، كما أنّ أسعار السلع تنخفض إلى النصف عندما يكون الطرف المشتري هيئة رسمية، لأنّ السعر تضاعف في الواقع والإدارة لا تزال متمسّكة بأسعار قديمة حدّدت أثناء سنّ القانون ولم يطرأ عليها أيّ تغيير.

ترتّب إذن عن اعتماد تلك الإصلاحات على الضريبة العينية تراجُع قيمة النقد في المعاملات، وأخذ المزارعون يهجرون أراضيهم التي لا يكاد إنتاجها يسدّ أقساط الضريبة العينية فكيف بمعاشهم، ومع أنّ بعض الأباطرة حاولوا تدارُك الوضع بسنّ بعض الإعفاءات الضريبية لصالح الأراضي الأقلّ جودةً[2]، إلاّ أنّ التدهوُر كان قد بلغ مداه، واستغلّ كبار المتنفّذين ثغرات القانون الجبائي لصالحهم، فالأرض المحجوزة يتملّكونها بالشراء والفلاّح الذي طبِّق عليه الحجز يصبح أجيرا عندهم، وبذلك وسّعوا أملاكهم وضاعفوا ثرواتهم، ومن النتائج الأخرى التي انجرّت على جمود النصوص القانونية وجشع الأثرياء تقلّص نظام المزارعة (Colonat) الذي كان يقوم على تشجيع استصلاح الأراضي والإعفاء الضريبي مدّة معتبَرة وكان ذلك وراء الازدهار الذي تحقّق في القرنين الثاني والثالث، وكذلك بداية ظهور ملامح مجتمع عبودي تسوده القنّية (Servage) حيث يفرض القانون على جميع الغارمين توارث نفس المهن والأشغال عن آبائهم

1 نصّ مثلا على تقدير الأجراليومي للعامل الزراعي بالسعر الأعلى لكلغ من لحم العجل أو لنصف كلغ من لحم الضأن أو خمس لترات من الحنطة، أنظر: إيمار(أندري)، مرجع سابق، ص 597.

2 قرار إعفاء أراضي قليلة الجودة في البروقنصلية ومزاق (Byzacène) صادر عن الإمبراطورين هونوريوس وثيودوز الثاني(20 فيفري 422 م)، أنظر: Codex theod. XI, 28, 13. -

وإلزامهم بعدم مغادرة العمل في حقل مؤجّرهم...[1] وكأنّ سجلّ الضرائب هوالذي يحدّد هوية الفردالاجتماعية والقانونية.

وفي الأخير نستخلص بأنّ إدارة الاحتلال الروماني بعد استيلائها على وسائل الإنتاج وكلّ مقوّمات الاقتصاد، شرّعت لاستغلال أكبر هو استغلال الجهد الذي يبذله الإنسان، بل وفرضت الضريبة حتّى على استنشاق الهواء وذلك حسب عدد النوافذ والأبواب، وكان النظام الجبائي ثقيلا إلى الدرجة التي جعلت عمّال المستثمرات الكبرى (الفندس واللاتيفونديا) ينزحون من الأرياف نحو المدن هربا من السخرة والإتاوة الجائرة، وكان ذلك من بين عوامل انهيار الاقتصاد الأفريقي والاقتصاد الروماني عموما، ومهّد لثورات أوّلها الثورة التي انطلقت من تيسدرة (Thysdra) وعمّت البروقنصلية وامتدّت إلى نوميديا، مع اندلاع أحداث ما يعرَف بالفوضى العسكرية[2] في القرن الثالث، ثمّ تبعتها أحداث القرن الرابع بظهور ثورة الأرياف وهي حركة احتجاجية ثورية ضدّ القهر الاستعماري سيتلقّى اقتصاد أفريقيا على يدها ضربة قوية وتأتي بعد ذلك الغارة الوندالية وغزوات الاسترداد البيزنطية لتزيده تدهوُراً.

---

1 مرسوم الإمبراطور فالنتيبيانوس الأول371م، أنظر:

- Deliage (A.), La Capitation au Bas-Empire, Paris 1945, p.179

2 مع أنّ البعض يحاول أن يقلّل من شأن أثر الفوضى العسكرية على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في أفريقيا، وعلى الخصوص إخفاء جشع الأطراف المتصارعة التي حوّلت الجباية إلى مصدر لتمويل حروبها، أنظر :

- Dupuis (X.), «À propos d'une inscription de Thugga, un témoignage sur la vitalité des cités africaines pendant la «crise» du IIIe siècle», MEFRA 105, 1993, p. 63-73.

القسم الثاني

مجتمع الشمال الأفريقي القديم

أقوال في الشعب البربري

"... وأمّا تخَلُّق البربر بالفضائل الإنسانية، وتنافُسهم في الخلال الحميدة، وما جُبلوا عليه من الخُلُق الكريم...، من عزّ الجوار، وحماية النزيل، والوفاء بالقول والعهد، والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد، ... فلهم في ذلك آثار ينقلها الخلف عن السلف... وحسبُك ما اكتسبوه من حميدها، واتّصفوا به من شريفها، أنْ قادتهم إلى مراقي العزّ، حتّى علت على الأيدي أيديهم... وما كان للبربر من آثار ما يشهد أخباره كلّها بأنّهم جيل عزيز على الأيّام، وأنّهم قوم مرهوب جانبهم، شديد بأسهم، كثير جمْعهم، مضاهون لأمم العالم وأجياله من العرب والفُرْس والروم."

ابن خلدون (العبر)

"... لهذا الشعب البربري خصائصه الجنسية... كما له عادات خاصّة به عائلية وقروية وموسمية ودينية، وله لغته البربرية المتميّزة بذاتها المعروفة من قديم... وله عقائده القديمة الوثنية، وقد تتبّع أديان الشعوب التي غزت بلاده، لكنّه استبقى في العقائد الجديدة كثيرا من عقائده وأوهامه القومية، ولم يقنع بذلك حتّى ميّز نفسه بمذهب جديد اعتنقه ليكون متميِّزا عن الشعب الفاتح المكتسح ومحافظا على خصائص قوميته بأيّ شكل من الأشكال."

عثمان الكعّاك (البربر)

الباب الأول

شعوب وقبائل

الشمال الأفريقي القديم

الفصل الأول / شعوب الشمال الأفريقي القديم

1. النوميد.
2. المور.

أ- الباوار.

ب- البقواط.

جـ- حلف القبائل الخمس.

3. الجيتول.

03-01- الجيتول الغربيون.

03-02 - الجيتول الشرقيون.

الفصل الثاني / المنظومة الاجتماعية القبيلة والعائلة

1. القبيلة.
2. حركة السكّان منذ بداية العصور التاريخية.
3. العائلة.
4. مكانة المرأة.

الفصل الثالث / جوانب من الحياة القبلية والقروية والحضرية

1. الناسامون.
2. الماكسي.
3. القرامنت.
4. لفاروزيون.
5. الموسولان.
6. الحياة القروية.
7. الحضر.

الفصل الأول

شعوب الشمال الأفريقي القديم

تحدّد الجغرافيا التاريخية الشمال الأفريقي القديم أو بلاد البربر كما يرِدُ في بعض البحوث، من حوض النيل شرقا إلى المحيط الأطلنطي غربا، ففي هذه المنطقة الجغرافية الواسعة ظهر المجتمع الأفريقي القديم واستمرّ، وينبغي أن نتساءل هنا عن خلفية الطروحات التي عندما يتعلّق الأمر بقدماء الشمال الأفريقي تطرح سؤالا نادرا ما تطرحه عندما يتعلّق الأمر بأقاليم وجهات أخرى في العالم وهو من أين قدِم قدماء الشمال الأفريقي ؟ إلى الدرجة التي جعلت البعض يعلّق على هذا السؤال بالقول " لم يترك مروّجو هذا السؤال جهة في العالم إلاّ وافترضوا أنّ قدماء البربر يكونون قد قدموا منها! " والواقع أنّ هذا السؤال الذي راج خلال الفترة الاستعمارية في دوائر استعمارية كان يريد أن يجعل من هذه المنطقة بلدا شاغرا دون شعب وأنّ الجميع فيه وافدون وبالتالي ليس من حقّ أيّ أحد أن "يزعم" بأنّه أصيل والآخرون دخلاء، ويبدو أنّ تفكيك حلقات تاريخ الشمال الأفريقي هي الخطوة الثانية في عمل هؤلاء وهي خطوة يراد منها تسهيل مهمّة التلفيق والخلط...![1].

دلّت الآثار على قدم الاستقرار البشري في شمال أفريقيا ولا ريب أنّ المجتمعات التاريخية في الشمال الأفريقي القديم هي امتداد لمجتمع الحضارة القفصية والعاترية ومجتمع حضارة الفنّ الصخري في طاسيلي ناجّر، والشعب الأفريقي (البربري) هو أحد الشعوب السبعة القديمة الوارد ذكرها في المصادر مثله كمثل المصريين والإغريق والفُرْس

1 وأكثر من ذلك تحوّل تاريخ الشمال الأفريقي إلى ورشة بحوث عنصرية، يعتبَر غوتيي رائدها، فقد أجهد نفسه في إثبات عجز الشعب الأفريقي وخرج علينا بنظرية قصور المغاربة وفي هذا السياق يقول:"... المغربي (Le Maghrébin) من بين الأعراق البيضاء المتوسّطية ويمثّل بوضوح ذلك المتخلّف عن الركب، وهو باقٍ بعيدا في الخلف، وهذا العرق ليس له أيّ خصوصية إيجابية ... .Gautier (E.F.), le Passé..., p. 5 et 25، ويضيف:... البربري عاجز عن السير وحده ويترك أمر قيادته للآخر،ويعتنق حضارة السيّد الجديد بنفس السرعة التي ينسي بها حضارة السيّد القديم، وإذا تُرك لنفسه سرعان ما يعود إلى تخلّفه .Ibid., p. 29 ، وهذا الوضع شرحه غاسطون بوتول في عبارة مختصَرة: حضارة وعبودية أو حرّية وهمجية!، ويواصل غوتيي... البربري لم يتمكّن من إحراج أيّ من القوى التي فرضت سيادتها عليه وأنّ الاستعمار يطرده دائما استعمار جديد... .Ibid., p.29، فما ذا نقول له الآن وقد طردت الشعوب "البربرية" في الجزائر وليبيا وتونس والمغرب وموريتانيا بنفسها مستعمِرها واستردّت حرّيتها واستقلالها ؟!.

وغيرهم، مع أنّ بعض الكتابات لا تريد الإقرار بذلك ولا تودّ أن تكون هناك حلقات ربط في تاريخ الشمال الأفريقي كما ذكرنا[1].

نجد في النصوص الإغريقية أسماء عدد من المجموعات القبلية في تعداد شعوب في الشمال الأفريقي القديم ما قبل الاحتلال الروماني، وتدلّ هذه الأسماء على مجموعة قبائل محكومة بروابط التقاليد والعادات وخاصّة القرابة، وقد سجّل المؤرّخون والجغرافيون القدامى أسماءومناطق هذه الشعوب، وأبرزها هي:

النوميد (Numidi) :

لا نعرف متى انقسم النوميد إلى ماسيل (Massyles) في الشرق (العائلة الملَكية الماسيلية وعاصمتها سيرتا) وماسيسيل (Masaesyles) في الغرب (العائلة الملَكية الماسيسيلية وعاصمتها سيقا Siga) لتعود إليهما الوحدة بعد كفاح وصراع مرير، وقد بدأت النصوص القديمة تذكر النوميد بهذا الاسم منذ القرن الثاني ق.م.، كشعب وكقوّة سياسة تبسط سيادتها على منطقة واسعة تمتدّ من حدود قرطاج شرقا إلى وادي مولوشا غربا، هذه القوّة السياسية هي مملكة نوميديا الموحَّدة التي امتدّت حدودها الشرقية في عهد ماسينيسا (203-148 ق.م.) إلى السيرت الكبير، ولكن حدود هذه المملكة التي كادت أن توحّد الشمال الأفريقي القديم، أخذت في التراجع بعد وفاة ميسيبسا (مكّوسن) 118 ق.م.، في أعقاب الانقسام والصراع على العرش الذي كانت روما تغذّيه لإضعاف المملكة ثمّ الانقضاض عليها في الوقت المناسب[2].

كان اسم النوميد محلّ نقاش كبير بين المؤرّخين، من خلال عديد المقاربات اللغوية، وإذا كان سترابون وسالوست[3] قد اعتبراه دون عناء مشتقّا من كلمة نوماداس (Nomadas) الإغريقية التي تعني البدو فإنّ الباحثين المحدثين اعتنوا بالموضوع أكثر وقدّموا عديدالفرضيات خاصّةوأنّ هذا الاسم لا أثر له في نصّ هيرودوت، وكيف يكون الاسم مشتقّا من نوماداس مع أنّ الذين يقصدهم هذا الاسم مستقرّون ويحترفون الزراعة منذ أمد بعيد؟، وإذا كان الاحتلال الروماني قد أزال هذا الاسم من الاستعمال -ولو لحين-لأنّه يدل على هوية شعب وأمّة فإنّ الكثير من الأشخاص ظلّوا متمسّكين

---

1 - Camps (G.), Recherches sur les relations du Capsien supérieur et de l'Ibéromaurusien dans le Constantinois, in Bulletin de la Société d'Histoire naturelle de l'Afrique du Nord, T.46, 1955, pp. 88-97.

2 عقون (محمّد العربي)، المؤرّخون القدامى: غايوس كريسبوس سالوستيوس وكتابه حرب يوغرطة، مرجع سابق، ص 46-48.

3 لا أحد من المؤرّخين المحدثين يأخذ برواية سالوست لأنّه لا يوجد في التاريخ والآثار ما يدعّمها، أنظر:
- Camps (G.), Massinissa ..., op. eit., pp. 15-17 .

بانتمائهم النوميدي وهذا ما يظهر في ألقابهم التي احتفظت بها النصوص الأثرية، كما بقي اسم نوميديا يُطلَق على قبيلة بناحية ثاقست (سوق أهراس) وعلى المدينة المركزية لتلك القبيلة وهي تبرسق النوميدية[1] (Tubursicu numidarum) وكذا على مايُعرَف بنوميديا الوسطى (Numidie centrale) ولعلّ ذلك لأنّ تلك المنطقة كانت النواة الأولى للمملكة النوميدية العريقة.

الـمور (MAURI):

استعمل الجغرافيون الإغريق هذا الاسم للدلالة على سكّان أقصى الشمال الأفريقي غربا ما بين وادي مولوشا(ملوية) والمحيط الأطلنطي، وقد أخذه عنهم الرومان واستعملوه للدلالة على مملكة بوكوس وأبنائه (التي استلمها يوبا الثاني وابنه بطليموس فيما بعد) وعلى المقاطعة التي أقاموها على أنقاض تلك المملكة بعد ضمّهم لها وقد حاول عدد من المؤرّخين البحث في أصل ومدلول هذا الاسم وأرجعه البعض إلى أصل فينيقي مشتقّ من كلمة ماهوريم (Mahurim) التي تعني في رأيهم أهل الغرب[2]، ويستنتَج من سترابون أنّ اسم ماوري (Mauri) كان مستعملا من طرف الأهالي والرومان[3] ممّا جعل البعض يقاربه بكلمة (Tamurt) التي تعني الأرض أو البلَد كما هو معروف[4]، خاصّة وأنّ المصادر ذكرت وجود قبيلة أهلية في ناحية مولوشا اسمها ماوري (Mauri)، اعتبرها بعض المؤرخين كنفدرالية قبلية انبثقت منها المملكة الموريتانية[5]، وسنرى كيف أنّ اسم المور وموريتانيا خلال الفترة الرومانية أصبح يحمل دلالة إدارية، ولكن الاسم سيعمّم خلال الفترة البيزنطية على كلّ جماعات الشعب البربري التي حافظت على أعرافها ونظمها الاجتماعية والسياسية من خليج السيرت إلى

---

1 هي أطلال اليوم في منتصف الطريق ما بين مدينتي سوق أهراس وسدراتة، تحمل اسم خميسة !.

2 إذا كان حذف حرف الحاء أو الهاء في ماحوريم أو ماهوريم يمكن تعليله على اعتبار أنّه حرف حلقي، فـإنّ حـرف التـاء في موريـ(ت)انيا جعل اللغويين يتراجعون عن اعتماد الأصل الفينيقي لصالح الأصل الليبي خاصّة وأنّ التاء في آخرالأسمـاء هـي علامة الأعلام الأمازيغية المؤنّثة.

3 Strabon , Géographie, op. cit. XVII, 3, 2.

4 هذه المقاربة مبنية على أنّ أبناء البلَد عندما يلتقون يشيرون إلى الروابط التي تجمعهم بعبارة Mi's n'tmurt التي يكون الرومان وغيرهم من شعوب المتوسّط قد تلقّفوا الكلمة الأخيرة منها، فأخذوها على أنّها علَم على البلاد، وصاغوا منها اسم موريتانيا، أمّا رسم التاء طاء في موريتانيا هكذا: موريطانيا فلأنّ البربر المستعربين يطقون الطاء تاء فيقولون عن الطاقة تاقة، أمّـا التـاء فينطقونها صافرة أي مدغمة بحرف السين، وهذه مسائل ألسُنية ولكن لا بدّ من الإشارة إليها، وللمستزيد أن يبحث.

5 بالغ عدد من مؤرّخي الفترة الاستعمارية على الخصوص في فرضياتهم إلى درجة الهذيان فهذا رينّ(L.Rinn) يحاول مقاربة اسم المور بكلمة أور (OUR) التي تعني الجبل في اللغة الإغريقية بمقاربة اسم المنطقتين الجبليتين في الأطلس الصحراوي: عمـور أو أمور وأوراس A (MOUR) et (M)AURES لاستخراج اسم مور، إلى آخر هذه الفرضيات الطريفة، على أنّ جميع هـؤلاء متفقون بخصوص إبعاد الأصل اللغوي الليبي مع الأسف، أنظر:

- Rinn(L.), les premiers royaumes Berbères. in R. AF. 1885, N° 29, pp. 172-175.

المحيط[1]، بحيث أصبح الجميع موريتانيين، وقد برزت خلال الفترة الرومانية من بين هؤلاء المور العديد من الأحلاف القبلية التي لعبت دورا وطنيا هامّا في الكفاح من أجل الحرّية والكرامة، ومن بينها :

أ - الباوار (Bavares) :

أو البابار في بعض النصوص، والصيغة ليست بعيدة عن بربر، الاسم الذي روّجت له النصوص العربية خلال القرون الوسطى، وصفتهم النقوش اللاتينية بالشعب الكبير(Gentis multus)[2]. ظهر هؤلاء الباوار على مسرح الأحداث خلال القرن الرابع الميلادي، وينقسمون إلى الباوار الغربيين (ناحية مسيردا شمالي تلمسان) والباوار الشرقيين في منطقة البابور إلى مشارف كويكول وميلة (القبائل الشرقية) وفيهم الجبليون المستقرّون والبدو الرحّل، وهو ما جعل بعض الدارسين يميل إلى أنّ الباوار الغربيين هم أجداد قبائل مسيردا، والباوار الشرقيين هم أجداد جبليي كتامة في القبائل الشرقية[3]، أمّا البعض الآخر فيرى بأنّ الباوار شرقيين وغربيين هم أجداد البدو الكبار من الزناتيين وأنّ مجالات انتجاعهم هي السهول العليا من سطيف إلى ملوية[4].

ب- البقواط (Baquates):

قبائل ذكرتها النصوص الأثرية والمصادر الأدبية، والبقواط في تعداد شعب أشارت النصوص القديمة إلى مواطنهم من وادي ملوية إلى المحيط ما بين فوليبيليس (وليلي أو آيلي) إلى الأطلس الأوسط، ولكنّهم كانوا على صلة تعاون وتحالف مع قبائل الباوار في المنطقة ما بين تلمسان ومسيردا، وقد استمرّت هذه القبيلة في إقليمها إلى

---

1 وهو اسم العلم الدالّ على الأمّة الأفريقية إلى عشية الفتح الإسلامي ولذلك ظلّ اسم مورو عند الإسبان إلى يومنا هدا يدلّ على مسلمي الأندلس والمسلمين عامّةً، لأنّ المور (البربر فيما بعد) بقيادة طارق بن زياد هم الذين حملوا الإسلام إليهم، ويشار إلى الحضارة الإسلامية في الأندلس في اللغة الإنكليزية بعبارة Morish civilization، وبعد حرب الريكونكيستا نزح عدد هامّ من الأندلسيين إلى الحواضر الشمال أفريقيّة وشكّلوا جزءا من نسيجها الحضري ولذلك تنسب إليهم جماعات الحضر في المدن العريقة (فاس، تلمسان، الجزائر...)، وفي الأخير رأينا كيف أنّ هذا الاسم عاد وأُطلق على بلد شنقيط (موريتانيا الحالية).

2 احتفظت بهذا الاسم بلدة صغيرة في إقليم النمامشة في الأوراس الشرقي، كما أنّ قنتيس هو اسم لقرية في نفس الإقليم- CIL,VIII, 2615 وفي الدريعة(سوق أهراس) احتفظت إحدى القبائل باسم بني بربار (آث بربار).

3 -Camps (G.), les Bavares, In R. AF. 1955, p. 277.

4 -Thouvenot (R.), Rome et les Barbares Africains, à propos d'une inscription de Volubilis, publication du service des Antiquités du Maroc, VII, 1945, p. 181.

والواقع أنّ الجدل الذي دار بين هؤلاء لا يتعلّق بهذه المجموعات القبلية الأهلية بقدر اهتمامه بأيّ الجماعية الأهلية أكثر خطرا على الاحتلال الروماني الجبليون أم البدو، ونرى بأنّ كامبس من أنصار فكرة الجبليين أشدّ خطرا على روما فجعل الباوار جبليين، أمّا توفنو وكاركوبينو فقد تبنّوا فكرة البدْو أكثر خطرا وجعلا الباوار بدْواً.

الفتح الإسلامي[1] وذكرتها المصادر العربية باسم برغواطة وكان لها نشاط ملحوظ في عهد الولاة، ومع أنّ كاركوبينو يقرّ ذلك إلاّ أنّ التحليل اللغوي اليوم يوجب علينا أن نبيّن العلاقة بين بقواط وبرغواطة اللذين هما في الواقع اسم واحد، ولا يخفى على المتخصّصين في الألسنية الأمازيغية أنّ حرف الراء في بعض لهجات اللغة الأمازيغية في المغرب لا ينطَق أو ثقيل نطقه كما هو الحال في اللغة الإنكليزية، أمّا الغين المشدودة في اللغة الأمازيغية فتتحوّل إلى قاف، وبذلك نرى أنّ بقواط وبرغواطة كلمة واحدة[2].

جـ- حلف القبائل الخمس[3] (Quinquegentiani) :

كما ذكرتها المصادر اللاتينية هي كنفدرالية قبائل متمركزة في المنطقة الجبلية ما بين دلّس وبجاية، وتتكوّن من القبائل التالية[4]:

- ماسينيسن (Masinissenses) وهم اليوم قبيلة مسينا أو إيمسيسن المتمركزين في الضفّة اليمنى لوادي الساحل[5].

- تيندن(Tyndenses) الذين كانوا يتمركزون في إقليم قبيلة فناية الحالية (بني وغليس وآيت عامر).

- إيسفلن (Isaflenses) (وهم فليسة اليوم).

- يوبلّن (Jubaleni) (وهم زواوة الحالية حسب كانيا R. Cagnat).

- ييسالن (Iesalenses) وكانوا متمركزين غربي زواوة[6].

تحوّل حلف القبائل الخمس والباوار(أنظر الخريطة أدناه الشكل 43) إلى قوّة ضاربة في المنطقة أُسندت قيادتها إلى رئيس إحدى قبائل الحلف اسمه فاراكسن

---

1 - Frezouls (E.), Les Baquates, et la province romaine de Tingitane, Bulletin d'Archéologie Marocaine, T. II, 1957, pp. 98-100.

2 ونلفت الانتباه إلى أنّ حرف الراء عند أشقّائنا في المغرب ثقيل نطقه حتّى بعد استعرابهم، وبقيت تلك اللكنة تميّز عربيتهم، أمّا قلب الغين قافا في حالة الشدّ فبالرجوع إلى قاموس اللغة الأمازيغية نجد أنّ الغين في كلمة آمغار (الشيخ أو الكبير في السنّ عموما تصبح قافا في كلمة آمقُران (A Moqqran) والغين في كلمة ثاموغلي (الرؤية) تصبح قافا في الفعلItsmouqqoul أي ينظر أو يرى ومنه المقلة أي العين وهي كلمة بربرية الأصل في رأي علماء الألسنية.

3 الجدير بالملاحظة أنّ هذا الاسم يمثّل الخلفية التاريخية لاسم القبائل (Kabyles) الحالي الذي يترحم الاسم القديم لا غير.

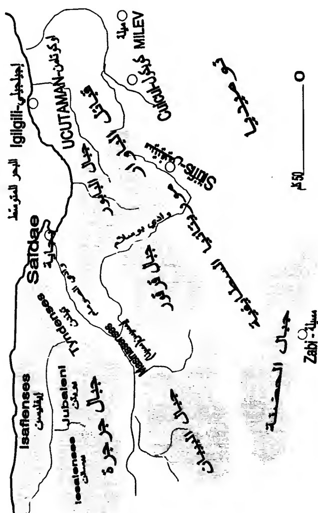
4 المصدر الأساسي للمقاومة التي شنّتها هذا القبائل هو أميان مارسيلينوس في الفصول .XXVIII, 6, 26، و .XXIX, 5, 2 و ما يليه ، ثمّ .XXX, 7, 10، وقد ذكر أربعة عشر قبيلة أهلية.

5 - Cagnat (R.), op. cit. p. 62.

6 هذا التطابق مستخلَص من مقاربات المتخصّصين، أنظر:

- Tissot(Ch.), Géog. Comparée..., I, p. 464.

(Faraxen) الذي قام بالإعداد الحربي ثمّ اكتسح المقاطعة النوميدية، وكان الباوار لقربهم من مراكز الاستعمار في جهة ميلة أوّل المهاجمين، فقد نزلوا من جبالهم مكتسحين حوض واد النجا الذي كان الاستعمار الروماني قد أقام فيه عددا هامّا من المزارع الكبرى (Latifundia)، مما جعل إدارة الاحتلال تقوم باستنفار كبير[1]، فجاءت القوّة الرومانية من لمبايسيس مركز الجيش الأغسطي الثالث يقودها الليغاتوس ماكرينيوس دكيانوس (Macrinius Decianus)، وقد تمكّن



1 - Rachet (M.), Rome et les Berbères, un problème militaire d'Auguste à Dioclétien, Collection LATOMUS, (Volu. 110), Bruxelles, 1970., p. 249

الثوّار من الاستيلاء على غنائم كبيرة ثمّ انسحبوا إلى جبالهم[1]، وإذا كان القائد الروماني غارغيليوس مارتياليس قد لاحقهم منتشيا بانتصاره فإنّه وقع في كمين قضى عليه[2]، ويعترف كانيا في هذا السياق بأنّ الثورة هذه المرّة ليست على غرار الثورات السابقة التي يكتفي فيها المور بالنهب والعودة إلى الصحراء، إنّ الثورة بعد الآن أصبحت تنطلق من الجبال التي وإن كانت غير خاضعة تماما للاحتلال الروماني إلاّ أنّها تقع وسط بلاد خاضعة تماما[3].

الجيتول (Gaetulii):

ظهر اسم الجيتول[4] منذ نهاية القرن الثاني ق.م.[5]، للدلالة على مجموعة قبلية كبيرة ولكنّها لا تمثّل عرقا متميّزا، فالجيتول نوميد في منطقة الصحراء الشرقية ومور في الجنوب الوهراني والمغربي، يعيشون حياة التنقّل والترحال وينتجعون ما بين القرامنت شرقا إلى المحيط غربا ويعبرون جبال الأطلس الصحراوي مرّتين خلال السنة، من الجنوب إلى الشمال خلال الربيع ومن الشمال إلى الجنوب خلال الخريف، ويصلون في انتجاعهم إلى السهول العليا بالقرب من سيرتا، ولعلّ حياة البداوة هي التي جعلتهم لا يقيمون دولة مع أنّهم شعب محارب ميّال إلى الحياة العسكرية[6]، وذكرت النصوص أنّ هانيبال جنّد منهم عددا هامّا[7]، ومثله فعل القائد الروماني ماريوس فقدكانوا في تعداد شعب كبير[8] ومن أقوى الشعوب الليبية[9]، وتشترك المصادر في تحديد موطنهم ما بين الأثيوبيين

---

1 -Berbrugger, op. cit. p. 212.

2 حسب النصّ الأثري (CIL, VIII, 9047) كانت وفاته في 26 مارس 260 م

3 - Cagnat (R.), op. cit. pp. 64-65.

4 أجريت العديد من المقاربات اللغوية لفهم مدلول وأصل كلمة جيتول ويرجّح غابريال كامبس أن تكون من أصل أمازيغي،ويمكن للطوبونيميا أن تفيد أحيانا في إجراء مقاربات،فكثيرا ما حملت قرية أو منطقة أو جبل... اسم القبيلة أو العشيرة التي تسكنها،وفي هذا السياق لفت انتباهنا اسم قرية في سفح أوراس الجنوبي على وادي عبدي غير بعيد عن بسكرة شمالا تحمل اسم قديلة (Guédila) في منطقة هي أحد مواطن الجيتول، وهذا ليس بعيدا عمّا يراه البعض الآخر من أنّ كلمة جيتول مشتقة احتمالامن المفرد أقاذيل وجمعه إقوذالن (Agadil pl. Igudalen) وكتبت في العربية قدّالة أو جدّالة ومنها يحي بن إبراهيم الجدّالي أحد فقهاء الحركة المرابطية ، أنظر:
- Wicichi(M.), les Gétules de Maurétanie, Bulletin de l'I.F.A.N., 1955, pp. 163-167.

5 أوّل ذكر للجيتول الذين كانوا في عداد جيش هانيبال،جاء في تيت ليف:"... وعندما وصل هانيبال غير بعيد... أرسل طليعة من الجيتول تحت قيادة ضابط اسمه إيسلكن(Isalca) لمحاولة التفاوض مع السكّان...الخ ، أنظر:
-Tite-Live, Histoire romaine, Paris 1968, XXIII, 18, 1.

6 - Salluste, B. Jug. XVII.

7 - Tite-Live, , XXIII, 18, I

8 - Gascou (J.), le cognomen Gaetulus, Gaetulicus en Afrique romaine, IN MEFR, 82, 1970, pp. 723-736.

9 - Strabon, op. cit. XVII, 19.

جنوبا والمور والنوميد شمالا ، ويستنتَج من النصوص القديمة أنّ بعض الجيتول كانوا يجمعون بين تربية الحيوان والزراعة أي من أنصاف البدو[1] لكن الأغلبية كانت من كبار البدو[2].

ذكرت المصادر وجود عدد من القبائل الجيتولية على ساحل المحيط من الرباط إلى ما يليها جنوبا نحو موقادور مثل قبيلة أوتولول (Autololes) بجوار وادي بورقرق ومدينة سلا[3]، كما أنّ بعضا منها كان ينتجع بالقربِ من مداورروش (Madauros) ولذلك خاطب أبوليوس (Lucius Apuleius) سكّان بلدته (مداورروش) بعبارة: قومي النوميد، قومي الجيتول، وهي العبارة التي أكّد الباحثون أنّها تفيد بأنّ الجيتول والنوميد شعب واحد يختلف في نمط المعيشة لا غير[4]، فالنوميدِ شعب من المزارعين المستقرّين وفيهم الحضر سكّان المدن أمّا الجيتول فهم بدو متنقلون في الغالب، ومن الصعب التمييز بينهم وبين القرامنت لتشابه البيئة ونمط المعيشة ويرى البعض أنّ هؤلاء جميعاحلوا محلّ مربّي الأبقارالذين صوّرتهم الجداريات الصخرية التي تعود إلى النيوليثي ومنهم ينحدر الجمّالة (Chameliers)[5] الذين ظهروا في وقت لاحق في الحرب ضدّ البيزنطيين بقيادة كاباوون (Cabaon)[6].

01-03 - الجيتول الغربيون:

الجيتول علم على كلّ القبائل الصحراوية، ونبدأ من الغرب حيث ينتشرون في إقليم واسع يمكن تتبّع امتداده شمالا إلى جوار المور وقد ألحّ بلينوس على قوّة قبيلتين جيتوليتين هما البانيور (Baniures) أو إبنيورن (Ibeniuren) وكانوا متمركزين بجوار وادي السبو غير بعيد عن بناسا (Banasa) التي أنشأ بها الرومان مستعمرة، والأوتولول (Autololes) أو أيث أُلول[7] وهي القبيلة الأقوى والتي تشكّل خطرا دائما على

---

1 - Ibid., op. cit. XVII, 9.

2 في محاولة لربط حلقات تاريخ الشمال الأفريقي القديم بعضها اعتبر كامبس أنّ الجيتول هم أحفاد مربّي الأبقار الذين خلّدتهم رسوم النيوليثي الصخرية وهم أسلاف الجمّالة الذين ظهروا في وقت لاحق، أنظر:شنيتي (م.بشير) ، التغيّرات...، مرجع سابق، ص167.

3 Carcopino (J.), Le Maroc antique...., op. cit., pp. 258-259. - ومن جهتنا نرى أنّ أوتولول ما هو إلاّ تحريف لآيت اولول،حاصّة وأنّ بعض القبائل لا تزال إلى اليوم تحمل هذا الاسم في صيغة إلّولا وإيلّولن (Illoula et Illoulen) .

4 - Gsell (S.), H.A.A.N., T. V. p. 110.

5 - Camps (S.), Massinissa ..., p. 157.

6 يمكن التساؤل عن عقب هؤلاء الجيتول، وهم زناتة التي تتحدّث عنها المصادر العربية، فهناك عديد المؤشّرات لا تزال تحمل دلائل انحدارها من الجيتول وعقبهم زناتة، ومن هؤلاء بدو الشعامبة والنوايل وكذلك السوافة(أهل وادي سوف)، وفي هذا السياق ينبغي الرجوع إلى== == الفهرس البربري القديم: الوشم، زخارف الزرابي، زخارف الخيام، الحلي، اللباس التقليدي للرحال والنساء، أدوات الحرث والحصاد، المعتقدات، أسماء الأماكن... لأنّ الهوية تتجاوز اللسان إلى هذه العناصر جميعا.

7 غير بعيد عن أقادير،فهل هناك علاقة بين اسم هذه القبيلة أث أُلول واسم بلدة أيث املول الحالية في إقليم أقادير.

المستعمرات الرومانية، وكانت مضارب هذه القبيلة في أوّل أمرها على ضفاف وادي بورقرق (أسيف نُسَالات، سالاثوس فلومن Salathos flumen) على حدود موريتانيا الطنجية ووصفها بلينوس بالوحشية وأنّها على استعداد دائم للنهب والقتل، بالاشتراك مع حلفائها من قبائل أقلّ قوّة منها مثل إيداراثن (Daratae) على ضفاف وادي الدراع والفاروزيون (إفاروسن Pharusii) على السفح الغربي للأطلس الأعلى وقبيلة إماساثن (Massathi) على ضفاف وادي ماسات (وادي ماسا الحالي)، ويمكن تحديد إقليم الجيتول الغربيين بمجالات انتجاعهم وترحالهم وكما رأينا فإنّ وادي بورقرق هو حدّهم الشمالي إلى وادي الدراع جنوبا أين يتعايش البربر والإثيوبيون ويدلّ اسم الميلانوجيتول (Mélano- Gétules) على تزاوج وانصهار بينهما، وقد استمر ذكر الأثولول في المصادر إلى القرن الخامس الميلادي من قبل الجغرافيين والمؤرّخين وحتّى الشعراء فهذا الكاتب المسيحي بول أوروز (Paul Orose) يسمّيهم القالول (Galaules)، وعموما فإنّ أحفاد الجيتول الغربيين استمرّوا إلى الفترة الإسلامية ليصبح اسمهم جدّالة وقزولة، وهم صنهاجة الجنوب الذين أقاموا إمبراطورية امتدّت من الإيبر (Ebre) شمالا إلى السينيغال جنوبا وهي الدولة المرابطية[1].

03-02- الجيتول الشرقيون:

هم أكثر ذكرا بحكم إقليمهم المجاورللمملكة النوميدية غير بعيد عن قرطاج وإغريق قورين والرومان في ما بعد، ينتجعون في سهوب الجزائر الشرقية وفي السهوب التوسية الوسطى والجنوبية وفي المنطقة الطرابلسية، ولكن لا نجد في هيرودوت (القرن الخامس ق.م.) ذكرا لاسم الجيتول ممّا يدلّ على ظهوره في وقت لاحق، وخاصّة في المصادر اللاتينية، وظلّت أغلبية هذا الشعب البدوي خارج السيطرة الرومانية ولكن في عهد الملوك النوميد كانوا يصلون في انتجاعهم أرض التلّ وناصروا يوغرطة في كفاحه (107 ق.م.) ومن قبله ماسينيسا (ق.م.) الذي استعان بهم لاسترجاع عرشه ومملكته، وظلّوا من وراء خطّ الليمس يشكّلون خطرا على الاستعمار الروماني وكانت الكتلة الأوراسية ما بين تبسّة والحضنة منطقة تعايش بين النوميد والجيتول لا يميّزهم عن بعضهم سوى نمط المعيشة لأنّ ليبيي الجبال (النوميد) وجيتوليي الصحراء كانوا أشدّ المقاومين لسياسة الاحتلال الروماني في توطين المزارعين الإيطاليين الذين أفلستهم الحرب الأهلية وكذا لإجراءات المساحة (الكنترة) وشقّ الطرق نحو مناطق انتجاعهم،

1 - Camps (G.), Massinissa ..., pp. 156-157.

ويمكن اعتبار المقاومة التي تلت حرب الموسولان كلّها مقاومة جيتولية من هضبة المارماريد (Marmaride) شرقي برقة إلى موريتانيا في الغرب، وقد استنكف جيتوليو الأطلس الصحراوي أن يكونوا رعايا ملك تابع (يوبا الثاني) فلم يذعنوا له وانتفضوا ضدّه[1].

1 عبدالعليم (مصطفى)، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، المكتبة الاهلية، بنغازي 1966، ص 74.

الفصل الثاني

المنظومة الاجتماعية

القبيلة والعائلة

المجتمع هو مجموعة أفراد تجمع بينهم عدّة روابط اجتماعية، وهذه الروابط هي التي تحقّق الانسجام والوفاق بين هذه المجموعة، ولقد نشأت الروابط الاجتماعية من خلال العادات والتقاليد التي تحوّلت تدريجيا إلى أعراف، ونشأت التقاليد والعادات من الاحتكاك اليومي بالبيئة الطبيعية والاجتماعية ولذلك فإنّها تختلف من منطقة إلى أخرى لأنّ تجارب الإنسان تختلف باختلاف بيئته، وتنشأ من العلاقة مع البيئة تراكمات تحتوي على خبرات وتجارب الإنسان، ففي علاقة الإنسان مع بيئته الاجتماعية أخذت تتشكّل ملامح المجتمع المنظّم الذي تتحدّد فيه الواجبات على الخصوص، من الأسرة إلى العائلة الواسعة (القرية والعشيرة والقبيلة)، وكانت الأعراف أحد الأركان الأساسية التي سينبني عليها المجتمع وتنشأ عنها النظم الاجتماعية، ويمكن أن نلجأ إلى الاستقراء من خلال بعض الشواهد التاريخية (رسوم صخرية، رماديات...) لتكوين فكرة عن ملمح مجتمع الشمال الأفريقي القديم في بداياته[1].

كان دخول منطقة الشمال الأفريقي الفترة التاريخية مواكبا لتطوّر اجتماعي (نظام اجتماعي يقوم على الأسرة والقبيلة) وعقائدي (مقابر الدولمان والبازينا) واقتصادي (الزراعة منذ نهاية النيوليثي) وفنّي (الرسوم الصخرية في جبال الطاسيلي والأطلس)، وتكون الرسوم الصخرية هذه هي التي أوصلت قدماء المغرب إلى اختراع الكتابة أي دخول الفترة التاريخية مع أنّ الجدل كبير بين المتخصّصين حول الفترة التي ظهرت فيها هذه الكتابة، ويُستخلَص من الوثائق الأثرية والتراث القديم بما فيه من تقاليد وعادات بأنّ مجتمع الشمال الأفريقي القديم ظهر في شكله القبلي منذ فجر التاريخ، والنظام القبلي هو أوّل النظم التي عرفتها مختلف الشعوب، وعندما تتحوّل القبيلة إلى قوّة

---

1 الواقع أنّ البدايات كانت من هناك أي من الهضبة الصحراوية، ولا نميل إلى فكرة أنّ تعمير أفريقيا الشمالية جاء من الحوض المتوسّطي وهي الفكرة التي روّج لها عدد كبير من الباحثين الذين لم يلتزموا بالموضوعية، وواضح من الرسوم الصخرية أنّ هضبة الصحراء الأفريقية الكبرى كانت ملتقى للأجناس الثلاثة: الأثيوبي، والزنجي والأبيض هذا الأخير هو الذي عمّر أفريقيا الشمالية بعد جفاف الصحراء، أنظر : عبد الصدوق (ص)، الفنّ الصخري في شمال أفريقيا، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1990، ص 31-32.

سياسية ستظهر الدولة[1] وكثيرا ما يكون جدّ القبيلة الذي تحمل اسمه شخصية أسطورية أو رمزية[2].

1. القبيلة

القبيلة هي مجموعة أسر متّحدة بوشائج القرابة[3]، وهي كيان اجتماعي يقوم على القرابة بالدم والمصاهرة، ويمكن لهذا الكيان أن يتعزّز بالمساكنة والمشاركة في مختلف النشاطات الاقتصادية، وهي أوّل صورة للنظام الاجتماعي الدائم[4]، والنظام القبلي في أفريقيا الشمالية قديم جدّا، وفي النصوص الكلاسيكية الإغريقية واللاتينية إشارة إلى الجماعات القبلية القديمة في هذه المنطقة، فقد سجّل هيرودوت في تاريخه عددا كبيرا من القبائل الليبية القديمة، وأشار إلى تقاليدها وأعرافها ورغم أسلوبه القائم على الإثارة والغرائبية فإنّ تاريخه يقدّم لنا صورة قلمية (Portrait) عن جوانب هامّة من واقع الحياة الاجتماعية التي كانت القبيلة إطارا لها[5]، إلى الحدّ الذي جعل باحثين من أمثال بيار بورديو وقوتيي واقزال في دراساتهم يقرّرون بأنّ البنى الاجتماعية الحالية في أفريقيا الشمالية لا تختلف كثيرا عمّا ورد في المصادر القديمة[6].

يكون الشمال الأفريقي القديم قد وصل إلى هذا الشكل من التنظيم على امتداد مراحل تاريخية طويلة، ويكون ذلك نتيجة لتراكمات اجتماعية في السلم والحرب، وتلك التراكمات من التجارب والوقائع هي التي ستعزّز روح التضامن بين أفراد القبيلة فتكوّنت الأعراف التي تنظّم الحياة الاجتماعية، ففي القبيلة يجد الفرد والجماعة معا الإطار الذي يحمي المصالح المشتركة ويصون الكرامة، وهذا هو الجانب الإيجابي ولكن

---

1 - Berque (J.), Qu'est-ce qu'une tribu nord-africaine?, IN Hommage à L. Fabvre, Paris 1951, pp. 261-271.

2 وعلى سبيل المثال، أشارت المصادر الإغريقية إلى قبيلة باسم اللوتوفاج Lotophages وهو نبات البروق Asphodèles وفي الفترة الإسلامية شاهدنا تشكّل قبائل من أتباع مرابطين وأولياء وهي كثيرة في الشمال الأفريقي تحمل اسم أود سيدي فلان، وهي قبائل تتمسّك بأنساب أسطورية رمزية وروحانية تغني الثقافة الشعبية والفلكلور ... .

3 وهي خلية اجتماعية اقتصادية سياسية تكفل التضامن وتبادل المساعدة، وتتشكّل- في المتوسّط - من 3 إلى12فرقة (Fractions) ولكل قبيلة إقليمهاومعبدهاوسوقها، وقد يتحوّل بعض هذه الأسواق إلى قرى ومدن ومثال على ذلك خميس الخشنة(بومرداس)، أربعاء ناث إيراثن (تيزي وزو)، أربعاءناث بجالد(قالمة)، وهي اليوم قرى، وكانت قبل ذلك أماكن يقام فيها السوق الأسبوعي فالخميس هو يوم السوق الأسبوعي لقبيلة الخشنة والأربعاء هو يوم السوق الأسبوعي لقبيلة آث إيراثن وقبيلة آت بجالد، وهده صورة لما كانت عليه الأوضاع في التاريخ القديم أيضا. أنظر :

- EUZENNAT (Maurice). - Les structures tribales dans l'Afrique préislamique. Un état de la question, acte de VIe colloque CTHS, Pau, 1993 (1995), I, Monuments funéraires. Institutions autochtones. pp. 247-254.

4 ول ديورانت، قصّة الحضارة، الترجمة العربية، ص 40.

5 - Hérodote. IV,

6 - Gsell (S.). H.A.A.N., T. V, p. 65.

الانزلاق الخطير يحدث في حال تحوّل الروح القبلية إلى نزعة تغذّي التناحر والصراع الذي يضعف النسيج الاجتماعي ويَحُول دون تخطّي سقف القبيلة إلى فضاء الأمّة[1].

إنّ تجاوُز سقف القبيلة إلى آفاق أوسع هي الوطن والأمّة أي الدولة هو في الواقع انتصار لإرادة الأغلبية المعبّرة عن مصالح مشتركة، وهي الأغلبية التي انتظمت في ما نسمّيه بالتحالف القبلي (كنفدرالية قبائل)، وقد عرف الشمال الأفريقي القديم نقلة سياسية هامّة مع ظهور هذا الشكل من التحالف بحيث تحوّلت القبيلة إلى قوّة سياسية انبثقت منها الدولة في شكلها الملَكي على يد كنفدراليات قبائل كبرى كلّ واحدة منها في حجم شعب وأبرزها النوميد والمور (Numides et Maures)، وتكون الزعامات القبلية قد تحوّلت مع هذه النقلة إلى أسر ملكية هي التي تسلسل منها ملوك الشمال الأفريقي القديم الذين احتفظت المصادر بأسمائهم وأعمالهم.

---

1 وقد أشار دارسو مجتمع الشمال الأفريقي عموما إلى ظاهرة الانقسام والصراع الداخلي (فكرة الصفّ التي بنى عليها ابن خلدون نظريته عن العصبية) المصاحِبة للنظم الاجتماعية الشمال أفريقيّة على مستوى الفرقة والعشيرة والقبيلة إلى مستوى أوسع هو الكنفدرالية أو الإقليم والجهة، وهي فكرة صراع وتناحر دائم، تؤدّي إلى فوضى شبه دائمةومدمّرة في كثيرمن الأحيان، وعلى الخصوص إذا استغلّها الأجنبي ووصل البعض إلى القول بأنّ كلّ الفاتحين دخلوا البلاد وتمكّنوا من السيطرة عليها من هذه البوّابة، فالقرطاجيون ضربوا الماسيل بالماسيسيل والرومان ضربوا يوغرطة ببوكوس الأول، ويوبا الأول ببوكوس الأصغر... إلى درجة أنّ هؤلاء الدارسين يؤكّدون أنّ هذه البلاد لن يسيطر عليها إلاّ من يحسن استخدام طرف (صفّ) ضدّ آخر!، وهي الظاهرة التي استخدمها الأتراك أسوأ استخدام (صفّ بن قانة ضدّصفّ بوعكّاز، وقبائل المخزن ضدّ قبائل الرعية) فدمّروا البلاد. ولهؤلاء يجدر القول أنّ التطوّر الثقافي والنضج الفكري كفيلان باستئصال هذه الظاهرة.

بنيات اجتماعية (الجزائر)	المقابل في المغرب	المقابل في المناطق المستعربة	المقابل الفرنسي
أخام Akham ريف (قبايل الحدرة) Rif	ثاقمني Thaguemni	عايلة	Grande Famille
ثاخرّوبث Takharroubt	أغس Aghess.	خرّوبة	Phalange
أذروم Adroum.	موذا Mouda.	دشرة	Sous-Fraction
ثادّارث Thaddarth.	آقوس Agous. ,	فرقة	Fraction
ثاقبيلت Thaqbilt.	ثاقبيلت Thaqbilt.	عرش	Tribu
كنفدرالية Confédération.	كنفدرالية.Confédération	بْلاد	Région

الجدول (06) بنيات اجتماعية جزائرية ومغربية[1]

Structures sociales algériennes et marocaines

2. حركة السكّان منذ بداية العصور التاريخية :

كانت القبيلة في أغلب مراحل تاريخ الشمال الأفريقي جسما متحرّكا، وبذلك نلاحظ توزُّع عشائر القبيلة الواحدة في مختلف جهات البلاد، وقد أشارت المصادر الكلاسيكية الإغريقية واللاتينية إلى هذا التوزّع ولكن المؤرّخ الكبير ابن خلدون فصّل فيه أكثر[2]، ومنه نستنتج بأنّ ذلك التوزُّع قديم ويدلّ على وشائج القربى بين شعوب الشمال الأفريقي عبر مراحل التاريخ، حيث كانت للقبيلة الواحدة امتدادات في كلّ

1 بوتفنوشت (مصطفى)،العائلة الجزائرية؛ التطوّر والخصائص الحديثة (سلسلة المجتمع)، ترجمة أحمد دمري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984، ص 45.

2 كاد للمحموعات القبلية الكبرى فروع وامتدادات في مختلف الجهات مثل كتامة التي لها فروع في المغرب الأقصى وتونس وليبياوموطنها بالأساس هوالمنطقة ما بين جيجل وسكيكدة، أمّا زناتة فقدانبثقت منهاأسرتان ملكيتان في القرون الوسطى هماالأسرةالزيانية في تلمسان والأسرة المرينية في فاس ومن صنهاجة بنو زيري ملوك تونس وبنو عمومتهم بنو حمّاد ملوك القلعة وبجاية...

الجهات والمناطق، ولقد كانت حركة القبائل أداة للدمج الاجتماعي وهو الوضع الذي كان قائما منذ البدايات الأولى لتكوّن مجتمع الشمال الأفريقي، فكانت للنوميد والجيتول والمور... امتدادات في مختلف جهات الشمال الأفريقي القديم وكانت الحدود في الشمال الأفريقي دائما حدودا سياسية ولم تكن حدودا ثقافية أو اجتماعية أو دينية بالمرّة.

كان الاحتلال الروماني بمنظومته القانونية قد استولى على الأراضي الخصبة وفرض على الأغلبية من الأهالي التراجع إلى المناطق الجبلية الفقيرة، وهذا الوضع (الذي هوعبارة عن كنطنة Cantonnement) هو الذي ساهم في ظهور الخصوصيات الإقليمية لأنّ الاستعمار يريد من ذلك تعميق التناقضات بين الجماعات السكّانية لاستعمال تلك التناقضات متى تطلّبت مصلحته ذلك[1]، ولعلّ تلك الكنطنة كانت السبب في ذلك الاختلال الديمغرافي الذي لازم أفريقيا الشمالية عبر فترات لاحقة، ويتّضح ذلك الاختلال في جبال آهلة بالسكّان وسهول شبه فارغة، مع أنّ السهل هو الوسط النموذجي للنشاط والإنتاج الاقتصادي[2].

كانت المدن الشمال أفريقية عبرالتاريخ مراكزحضارة العنصر الغالب، وهو الاستعمار في أغلب المراحل ممّا جعل العنصر الأهلي في هذه المدن ينصهر في حضارة الغالب، وهذا أدّى إلى تعميق الهوّة بين ريف أهلي متقوقع على خصوصياته البدائية ومدينة معتنقة لحضارة الوافد مستعلية على محيطها الريفي[3]، ممّا يعرقل إمكانية استفادة الأرياف من حضارة المدينة التي ينظر إليها الريفيون دائما على أنّها جسم غريب عنهم مخالف لأعرافهم وتقاليدهم، أمّا في العصر الحديث فقد شاهدنا ظاهرة ترييف المدينة عوض تمدين الريف.

3. العائلة:

العائلة الأفريقية (البربرية) هي عائلة زواجية، وتنشأ عن الرابطة الزواجية روابط القرابة (روابط الأمومة والأبوّة والبنوّة والأخوّة والمصاهرة) ويعيش أفراد العائلة مع

---

1 هذا الوضع تعزّز أكثر في الفترة العثمانية (فكرة الصفّ أي تحالف قبلي معاد لصفّ آخر، صفّ بوعكّاز في مواجهة صفّ بن قانة مثلا) وكان الاستعمار دائما يعمل على تحويل الجماعات الأهلية إلى مجموعات إثنية ثمّ إذكاء نار الكراهية بينها ... .

2 هذا الوضع أشار إليه مؤرّخو الفترة الاستعمارية على الخصوص، واستنتجوا منه شكل الخريطة الاقتصادية للشمال الأفريقي: اقتصاد زراعي (لا يتجاوز الاكتفاء الذاتي: بستنة وتربية حيوان محدودة في المناطق الجبلية) واقتصاد رعوي في السهول التي تحوّلت إلى منتجعات للبدو الرحّل، وقد أرجع هؤلاء الوضع لما سمّي بالزحفة الهلالية، لكنّنا نرى أنّ الاحتماء بالجبال واتخاذ الكتل الجبلية معاقل تعود بداياته إلى الفترة الرومانية ثمّ جاءت الزحفة الهلالية فعمّقت الوضع وأخضعت البلاد لفوضى البداوة.

3 ولعل هذاالوضع هوالذي استوحى منه ابن خلدون عبارته الشهيرة: المغلوب ولوع بتقليد الغالب.

بعضهم متضامنين يضمّهم مسكن واحد، وتحكمهم الأعراف والتقاليد والقوانين وأصول التربية، والعائلة البربرية هي عائلة أغناطية (Agnatique) أبوية (Patriarcale) (تنتمي للنسب الأبوي)[1] وممتدّة تشمل الأجيال الثلاثة الجدّ والأبناء والأحفاد، والسلطة دائما للأكبر سنّا، ولا ريب أنّ هذا النظام الأسري[2] كان الشكل "الأرقى" الذي بلغه المجتمع بعد مراحل طويلة من التطوّر الاجتماعي الداخلي، ويرى البعض أنّ شكل العائلة الأموسية (Famille Matriarcale) الذي لا تزال بعض خصائصه مستمرّة في المجتمع التارقي كان نتيجة الاحتكاك بالمجموعات الزنجية جنوب الصحراء التي كان هذا الشكل العائلي شائعا عندها[3] لأن استقرار شكل العائلة الأبوية في المناطق الأخرى (الشمالية) كان ثابتا منذ قرون طويلة.

الزواج وتكوين عائلة هو تقليد قديم في أفريقيا الشمالية، ويتمّ الزواج في سنّ مبكّرة، ويشترط على الفتاة العروس العذرية التي هي عنوان المحافظة على نقاوة النسب، والزوج هو رأس العائلة تنتقل الزوجة إلى منزل الزوج، ويلزمها العُرف بالخضوع والوفاء لزوجها[4]، وقد أشار هيرودوت إلى حفلات الزواج عند الليبيين[5]، كما وُجدت ظاهرة تعدّد الزوجات ولكن على نطاق ضيّق في أوساط القادة السياسيين في الغالب[6]، وإذا وُجدت هذه الظاهرة في الوسط الشعبي فلعلّها تعبير عن تكافل اجتماعي أكثر من كونه انحراف في الأعراف وتسيّب في التقاليد[7]، ولم يعرف المجتمع الأفريقي (البربري) طبقية مقنّنة تحصر الزواج في الطبقة أو الأسرة كما لاحظ علماء الاجتماع ميل

1 تشيرالوثائق التاريخية إلى وجودالعائلةالأبويةمنذ الألف الثانية ق.م. Gsell(S.),H.A.A.N. V, p. 42

2 اعتبر البعض التحليل اللغوي مفتاحا لفهم الأشكال الأولى لتكوّن الأسرة، واعتبر هؤلاء الأسرة عند الرومان وعموم الأوربيين كانت أموسية لأنّ كلمة Familia مشتقّة من كلمة Femme، وعندهم أنّ الأسرة في اللغة العربية تعني مجموع الأسرى الذين تملّكهم فرد منتصر، والعائلة هي مجموع من يعولهم فرد ما، ونرى أنّ هذه المقاربات اللغوية تميل إلى الطرافة أكثر من الحقيقة العلمية المنشودة.

3 استفاض الباحثون الاجتماعيون والمؤرّخون في تحليل هذه المسألة إلى حدّ المبالغة.

4 أشار البعض إلى أنّ الأعراف ذكورية بحيث تغضّ الطرف عن علاقات الرجل خارج إطار الزواج وتمنح له حقّ التطليق أيّ أنّ الوفاء أحادي الجانب والطلاق أحادي الجانب أيضا الأول يتوجّب على الزوجة والثاني من حقّ الزوج، والحال أنّ الأعراف الأمازيغية تجعل الأولوية لاستمرار الرابطة الأسرية.

5 حفل زواج علني عند كلّ من قبيلتي الناسامون والأديرماكيد Hérodote, IV, 168, 172

6 ورد في نصّ فرعوني أنّ المصريين ألقوا القبض على 12 امرأة، هنّ زوجات لزعيم قبيلة الريبو (قبيلة من الليبيين الشرقيين) كنّ معه في الحرب - Chabas , Etude..., op. cit. , p. 203

7 قرأنا أخيرا بإحدى الجرائد أنّ الجزائر سجّلت أدنى نسبة في ظاهرة تعدّد الزوجات في العالم العربي ولاريب أنّ الأعراف والتقاليد القادمة من أعماق التاريخ لعبت دورا في ذلك، فضلا عن دور التعليم.

المجتمع البربري نسبيا إلى زواج الأباعد[1]، وكان أساس الزواج دائما الاتفاق بين عائلتين ولا يمكن أن يكون اتفاقا معزولا بين رجل وامرأة[2].

ليس في المجتمع البربري ما يدلّ على شيوع ظاهرة التبنّي، والحادثة الوحيدة التي رواها التاريخ في هذا السياق هي تبنّي الملك ميكيبسا (مكّوسن) لابن أخيه يوغرطة، وهذا يعني أنّ التبنّي المقبول لا يخرج عن نطاق الأقارب الأقربين (ابن الأخ)، وهذا التبنّي كما هو معروف كان لغرض سياسي أي أنّه لم يكن لدوافع اجتماعية ولذلك نستبعد أن تكون هذه الظاهرة شائعة في المجتمع البربري، مع أنّ التقاليد إلى اليوم تعتبر أبناء الأخ كالأبناء من الصلب، ولكن مهما كانت درجة التكفّل بهم والتعاطف معهم لا تتحوّل إلى تبنّي بالمعنى القانوني المعروف أمّا تبنّي الأغراب فلا وجود لما يثبته، وأمّا الرواية التي نقلتها المصادر العربية عن تبنّي الكاهنة لعربي من جيش حسان فلا يوجد في ما كُتب عن البربر قديما وحديثا واقعة مشابهة لها، ولذلك يُستنتَج بأنّها قصّة موضوعة لا مصداقية لها[3].

4. مكانة المرأة:

ليس في المجتمع البربري القديم ما يشير إلى الانتقاص من قيمة المرأة، ولم يستنكف المجتمع البربري من قيام المرأة بدور هو حكر على الرجل لدى أمم أخرى كثيرة، مثل القيادة والمشاركة العسكرية والسياسية، وقد روى لنا ديودور الصقلّي رواية طريفة نقلها عن سابقيه وهي قصّةالنساء المحاربات (الأمازونيات Amazones)[4] في أقصى غرب ليبيا (أفريقيا الشمالية القديمة) حيث أنّ النساء هناك هنّ دون غيرهنّ، اللائي يحارين، وخلال أدائهنّ لمهامّهن الحربية يبقين عذارى، وبعد نهاية تلك المهامّ يتزوّجن

---

1 لا ينبغي أن يفهَم من هذا ما هو موجود عند بعض الشعوب التي تقرّ أعرافها زواج الأباعد (Exogamie) بل وتفرضه، وإذا لم يكن في المجتمع البربري قانون بنت العمّ لابن العمّ كما هو الحال عند بعض الشعوب، فليس المقصود بالأباعد هنا الأجانب عن البلد أو القبيلة ولكن الأباعد ضمن القبيلة الواحدة في الغالب، حتّى لا تتغرّب المرأة فالمجتمع البربري يُقرّ باستمرار حماية الأب لابنته والإخوة لأختهم من احتمال ظلم زوجها أو أهله لها، وكثيرا ما يجد الأبناء المقهورون من أبيهم أو أعمامهم النـــصرة في أحوالهم.

2 فضّلنا عدم الحوض في "الطرائف" التي اشتغل عليها بعض المؤرّخين المعتمدين على الإخباريين الذين نقلوا رواياتهم الشموية المبنية على إشباع الفضول ولو بالأوهام، وسجّلها البعض دون تمحيص أو عن قصد.

3 القصّة التي نقلتها المصادرالعربية وهي أنّ الكاهنة أبقت عندها من جيش حسان المهزوم عربيا اسمه خالدبن يزيدوآخت بينه وبين أبنائها بما قامت به من طقوس وهي عجْن دقيق الشعيربالزيت ووضْعه على ثديهاثمّ إطعامــه لهـم لتــتمّ الأخــوّة، أنظــر:
- Gsell (S.), H.A.A.N., V, p. 37, Note 4.

4 يمكن طرح السؤال عن العلاقة بين كلمة أمازون والاسم الدّالّ على الغولة في تامازيغت وهو في المفرد: ثامزا وفي الجمع ثامَزْوين بتفخيم حرف الزاي (Tamza, pl. Tamzwin)، وكما هو معروف فإنّ الغولة في الموروث الشعبي هي امــرأة مــسترجلة، خاصّة وأنّ هذا الاسم لا يشتقّ منه مذكّر، مثله مثل كلمة أمازونيات التي لا يشتقّ منها مذكّر أيضا.

لإنجاب الأطفال، ويكون الرجال في حال تبعيّة يقومون بالأعمال المنزلية أمّا الوظائف السياسية فهي من نصيب النساء، ولا ريب أنّ هذه الرواية من نسج الخيال الإغريقي![1]، وهو الخيال الذي استغلّه الفنّان الإغريقي فأبدع أجمل اللوحات الفسيفسائية (أنظر أدناه الشكلان 45، 44 ص 174).

من خلال هذه الرواية الطريفة اعتنى بعض المؤرّخين بإبراز مكانة المرأة في المجتمع البربري من خلال دور بعض النساء الشهيرات في تاريخ أفريقيا الشمالية مثل سيريا (Cyria) أخت المقاوم فيرموس من القرن الرابع الميلادي التي شاركت أخاها في أعماله الحربية ضدّ الاحتلال الروماني[2]، ووالدة يغمراسن التي ذهبت بنفسها إلى ميدان المعركة لحضور الإمضاء على اتفاقية[3]، والأميرة التارقية تين هينان، أمّا أشهرهنّ على الإطلاق فهي الكاهنة ؛ الملكة التي قادت الحرب دفاعا عن مملكتها[4].

الثابت هو أنّ المرأة البربرية محاربة، فقد روى بروكوب استمرار تقاليد اشتراك المرأة المورية في القتال وأنّها تشارك في حفر الخنادق وتقوم بنصب الخيام للجند، وتعتني بالخيل والإبل[5]، ويصف كوريبوس أسيرات جيتوليات جيء بهنّ إلى قرطاج على جمال قويّة، جباههنّ موشومةوأطفالهنّ ملتصقون بصدورهنّ[6].

يمنع العُرْف الاجتماعي اختلاط الرجال بالنساء،ولا تذهب المرأة للتسوّق، ويعني حجْب الصبيّة عدم خروجها من منزلها، وعدم ظهورها أمام الأغراب، ويبدأ مع ظهور علامات الأنوثة، ولا يرى المجتمع مانعا في منح المرأة المتقدّمة في السنّ حرّية كبيرة بل يمكن أن تمارس التجارة[7]، وللطعام معنى عظيم فهو ميثاق وعهد كبير

---

1 - Diodore de Sicile, Histoire universelle, III, 55.

2 - Ammien Marcellin, XXIX, 5, 28.

3- Ibn Khaldoun, Histoire des Berbères, trad. Par le Baron de Slane T.III, p. 346

4 واحتفظت الذاكرة الشعبية بنساء في وظائف القيادة والحكم مثل الأميرة حبثا (Hebtsa) عند بني ملول، كما أنّ بعض أسماء العائلات (الألقاب) وأسماء القبائل هي أسماء نساء مثل أولاد حليمة (سبدو) وبني عيشة في القبائل الشرقية (جيجل) وأولاد فاطمة (باتنة)، أنظر :

-Rinn(L.), Essai d'études linguistiques et ethnographiques sur les origines berbères, in R. AF. 1887, p. 147.

5 - Gautier (E.F.), le Passé de l'Afrique du Nord, , p. 197.

6 - Ibid, p. 198 .

7 ناقش اقزال هذه المسألة، وفي رأيه أنّ وجود هذه التقاليد في المدن الميزابية دليل على أن رسوخها سابق للإسلام، وليست مستوردة من الشرق لأنّ المجتمع العربي في رأيه أكثر تفتُّحا من المجتمع البربري...الخ، ولم نشأ السير معه في هذه الاستنتاجات المشبوهة، وللمريد أنظر:

-Gsell (S.), H.A.A.N., T. V, p. 50.

يستوجب الوفاء والإخلاص بحيث ينبذ المجتمع كلّ من يغدر بعائلة أكرمته بطعامها، ويسمّيه خائن الطعام والملح وليس له إلاّ الخزي والمقت[1]، وهذه تقاليد قديمة زادها الدين رسوخا [2].

---

1 عقون (محمّد العربي)،الإثنوغرافيا الاستعمارية: شارل فيرو نموذجا، في مجلّة إنسانيات، عــدد 28، أفريــل جــوان، 2005. ص 62، هامش 26.

2 إذا كان العرف الاجتماعي عند البربر يشنّع بكلّ من يستبيح حرمة عائلة أكرمته فكيف يقبل الإساءة إلى حرمتــه، وإذا كــان مؤرّخو الفترة الاستعمارية قد روّجوا لسقط المتاع وهذيان النفوس المريضة فعذرهم أنّهم ناطقون بلسان الاستعمار فكيف لمن هم من هذا الشعب أن يشوّهوه مستعملين أسلوب ناقل الكفر ليس بكافر، وقد يزداد بعضهم تبجُّحا فينسب ذلك إلى الأمانة العلمية متظاهرا بالحياد، وفي هذا السياق تساوى ذوو النزعة الغربية بذوي النزعة الشرقية، ولكن عهد المريدين ولّى، والشعب يقرأ تاريخه وسيعرف ما يحاك ضدّه.



الشكل (44) أمازونيتان (فارسة بالرمح وراجلة بالقوس) كما صوّرتهما الفسيفساء الإغريقية



الشكل (45) أمازونيات في معركة ضدّ محاربين من الرجال

الفصل الثالث

جوانب من الحياة القبلية والقروية والحضرية

لقد أورد هيرودوت في تاريخه (وهو مصدر أساسي في هذا المجال) عديد الأسماء لجماعات قبلية من الشمال الأفريقي القديم مشيرا إلى بعض التفاصيل التي تلقي الضوء على عادات ومعتقدات تلك الجماعات القبلية وعلى نظمها الاجتماعية، وعلى الخصوص قبائل القسم الشرقي من الشمال الأفريقي القديم (برقة عل الخصوص)، وفيما يلي نقدّم بعض الجوانب المتعلّقة بهؤلاء.

1. الناسامون (Nasamons):

هؤلاء الناسامون[1] رحّل يشكّلون مجموعة قبلية كبرى بجوار خليج السيرت، وهم من أكثر القبائل الليبية عددا[2]، وذكرت النصوص القديمة أنّهم حلّوا محلّ قبائل البسول (Psylles)[3] الذين يكونون قد نزحوا إلى مناطق مجاورة في ظروف غامضة، وقد توسّع هؤلاء الناسامون جنوبا وأصبحت واحة أوجيلة (Augila) أحد مراكزهم الهامّة [4].

2. الماكسي (Maxyes):

يرجّح أنّ الماكسي[5] هم المذكورون في النقوش الفرعونية باسم: المشْوَش (Mashwash) كانوا يتمركزون ما بين خليج السيرت ومدينة لبدة (Leptis magna)، وفي نصّ هيرودوت ما يشير إلى أنّهم كانوا يتمركزون إلى الغرب من تريتون (الجريد في أرجح تقدير)، وأنّهم مستقرّون ومزارعون[6]،وأجرى البعض مقاربة بين الماكسي والمازيس والمازيك أو المازيغ (Mazices, Maziques, Mazighs)، وهذا للدلالة على قدم الاسم الإثني لشعوب الشمال الأفريقي وهو إمازيغن، وهذا الاسم واسع الانتشار

---

1 - Hérodote, IV, 172, 173, 182.

2 عبدالعليم (مصطفى)، مرجع سابق، ص 81.

3 أشار هيكاتوس إلى خليج السيرت الكبير باسم خليج البسيل Golfe Psyllique، ويرى افزال هؤلاء البسيب يكون قد أُجلوا من منطقتهم بالقوّة أو أنّ بعضهم خضع للناسامون والبعض الآخر نزح إلى المناطق المحاورة إلى العرب، أنظر:
- Gsell (S.), H.A.A.N., T. V, p. 82, note 4

4 - Ibid. p. 5

5 -Gsell (S.), Hérodote IV : texte relatifs ,pp. 181-191...

6 -Camps (G.), Massinissa..., p. 19.

في عموم بلاد البربر[1]، ووُجد ضمن أسماء الأشخاص والقبائل والأماكن لدى السكّان المستقرّين والبدو الرحّل على السواء، ولذلك لم يتردّد مؤرّخو العصر الوسيط في اعتبار مازيغ جدّاً أعلى للبربر[2].

3. القرامنت (Garamantes):

كان هؤلاء القرامنت متمركزين في المنطقة الممتدّة ما بين جبل نفوسة وجهات الفزّان الحالية إلى التاسيلي، وهم على ما يبدو أحفاد الشعب المحارب الذي استعمل العربات في تنقّلاته وحروبه، ويرجّح أنّهم أيضا أسلاف المجموعة التارقية الحالية ويرى بعض اللغويين أنّ اسمهم مأخوذ من اسم البلدة في اللغة الليبية وهو إغْرم Igrem[3] حاصّة وأنّ عاصمتهم تحمل اسم غرمة أو جرمة.

4. الفاروزيون (Pharusii):

مجموعة قبلية جيتولية تنتجع على محور وادي الدراع إلى المحيط الأطلنطي في منطقة نائية ولذلك فإنّ المعلومات التي وصلتنا عنها قليلة[4]، ولقد كان ما ورد في سالوست من رواية ذات حبكة إغريقية عن أصل قدماء الشمال الأفريقي مثار جدل كبير بين المؤرّخين المحدثين، وحاول البعض تأكيد صحّة رواية سالوست باعتبار الفاروزيين هم الفرس الذين ورد اسمهم في تلك الرواية مع أنّ المسألة تكمن في التشابه بين الاسمين الذي يكون مبتكر تلك الرواية قد بنى عليه قصّته الأسطورية، والملفت للانتباه أنّ المعلومات الواردة في المصادر عن هؤلاء الفاروزيين على قلّتها ثمينة جدّا فهي تشير إلى أنّهم قاموا بحملة ضدّ المستوطنات الفينيقية على ساحل الأطلسي ودمّروها[5]، وهو أمر غير معتاد لأنّ المصادر القديمة أشاعت ميل الفينيقيين إلى السلم وحصولهم

---

1 هو اسم واحد حذره MZG أو MZQ مع تعدّد صيغه وهي Maxyes في هيرودوت. Meshwesh في النصوص الهيروغليفية. Mazices في الفترة الرومانية في النصوص اللاتينية. Imusagh في الفزّان. Imagighen في الأيير Aïr (صحراء النيجر).Imazighen: في المنطقة الأوراسية والريف والأطلس الأعلى. ومنه إيموشاغ عند التوارق وتاماشغت لهجة التوارق الأمازيغية، أنظر:

- Bates (O.), The Eastern Libyans, 1915, pp. 42-43

وقد تتبّع غابريال كامبس كلّ المصادر الأدبية والأثرية التي أشارت الى هذا الاسم مع الاختلاف في الصيغة، أنظر:

-Camps (G.), Massinissa..., pp. 26-27.

2 - Tauxier (H.), Etude sur les migrations des tribus berbères avant l'Islam., In R.AF., Année 1863 N° 7, pp. 24-35.

3 - Mercier (G.), La Langue libyenne et la toponymie antique de l'antique du Nord, IN Journal Asiatique 1924, p. 280.

4 - Strabon , XVII, 3, 7.

5 - Ibid., XVII, 3, 9.

على ثقة الأهالي ، ولذلك نعتبر هذا الموقف رفضا صريحا للسيطرة التجارية الفينيقية التي أصبحت طوقا يعزل أفريقيا عن بلدان البحر المتوسّط .

5. الموسولان (Musulamii):

اعتبر البعض الموسولان[1] قبيلة جيتولية، وقد اقترن اسمها بالمقاومة الشرسة ضدّ التوسّع الروماني نحو نوميديا الداخلية وضدّ نزع الملْكية بقيادة أحد أبنائها وهو تاكْفَارين (Tacfarin)[2]، ويمتدّ إقليمها في منطقة الأوراس من سوق أهراس إلى ما وراء النمامشة جنوبا، ولكن فقدت قسما هامّا من أراضيها، بعد حرب دامت أكثر من سبع سنوات (17-24 م) ولم يُبق لها الاحتلال الروماني إلاّ على قسم من أراضيها تمكّن الأثريون من الكشف عن معالمه المساحية (Cadastrale) ما بين ماسكولة وتيفست[3].

6. الحياة القروية :

كانت الحياة القروية أوّل شكل من أشكال التجمّع السكّاني في فترة موغلة في القِدم، يرجعها بعض الأثريين إلى أواخر النيوليثي وفجر التاريخ، والملاحَظ من خلال استنتاجات الأثريين أنّ السكّان كانوا يختارون أماكن التمركز القروي في مواقع تجمع بين وفرة الماء والحصانة الطبيعية أي بجوار الينابيع حيث يكون التزوّد بالمياه في متناولهم، وفي المكان المساعد على الدفاع في حالة الخطر حيث يأمنون على بذورهم وعلى ممتلكاتهم، وهي الشروط الأساسية لتخطيط القرى والمدن في عموم الشمال الأفريقي عبر التاريخ[4] وما يميّز القرى هو ارتباطها ليس بالزراعة فحسب ولكن بتربية الحيوان أيضا لتلبية الحاجيات الغذائية اليومية، أمّا تربية الحيوان عل نطاق واسع فهي من اختصاص كبار البدو.

---

1 موسولان (Musulanii) نرجّح أن يكون الحرف الأخير نونا، وليس ميما كما يرد في أغلب المصادر وهي لاتينية، وقد حاولنا مقاربة هذا الاسم لغويا، ورأينا بأنّ الصيغة الأقرب إلى اللغة الليبية هي : موسولان بالنون الذي هو علامة الجمع، والكلمة لبست بعيدة عن ماسيل فبحذف نون الجمع يكون جذر الاسمين واحدا وهو م س ل (M S L) ممّا يرجّح أن يكون الموسولان Musulan (I) هم أنفسهم الماسيل(Massyles) قبياة الأسرة الملكية النوميدية؟ وإذا صحّ ذلك فإنّ الموسولان هم نواة الشعب النوميدي.

2 يحتفظ اسم تاكفاريناس إذا أزلنا اللاحقة اللاتينية اس Le Suffixe Latin : AS بصيغته الليبية: تاكفارين وهذا الاسم نعتقد أنّه اسم شهرة وليس اسما شخصيا، وهو كما نلاحظ قريب من اسم أحد مشاهير المغرب الإسلامي هو: ابن تافراكين الـــذي كان وزيرا في الدولة الحفصية، ولعلّ الأول تصحيف للثاني؟.

3 - Leschi (L.), Recherches épigraphiques dans le pays des Nemencha (Commune de Tebessa), Henchir -El-Abiod, IN R.AF., N° 72, Année 1931p.291-292.

4 - Gsell(S.), H.A.A.N., T. I, p. 181-2.

ما يميّز القرية عمرانيا هو الحصن الذي يختار له أعلى مكان في القرية ليكون برج مراقبة وملجأ في حال اختراق العدو للأسوار أيضا[1]، وقد لاحظ بلينوس(القرن الأول الميلادي) أنّ القرية في أفريقيا"الشمالية"لاتختلف عن مثيلاتها في باقي بلدان البحر المتوسّط[2]، وكانت الحياة القروية هي الطابع المميّز لعموم الليبيين في القطر القرطاجي[3] وهو الطابع الذي سيعمّ نوميديا تدريجيا بفضل إصلاحات الملك ماسينيسا، وهذه القرى هي التي أشارت إليها المصادر اللاتينية -المدعّمة الآن بنتائج الحفريات الأثرية-بعبارة كاستلة(قلاع Castella)[4]، وهي نواة أغلب مدن أفريقيا الرومانية التي ظلّت تحمل أسماءها الليبية (البربرية) مثل تيفست، ثوقّة، تالة، تاكاباس، توبورسيكو، تيجيس، تبليس وتيدّيس...الخ، وفيها وقع استبدال المباني النوميديةبالمباني الرومانية ثمّ توسّعت عمرانياوأصبحت مدناكبيرة.

7. الحضر:

ظهرت المدن كما رأينا أعلاه في فترة سابقة لوصول البحّارة الفينيقيين، ويتمثّل ذلك عل الخصوص في المدن الثلاث سيرتا ودوقّة وتيفست التي هي مدن ليبية ماسيلية نوميدية في الأساس[5]، وفي هذه المدن ظهرت أشكال التمدّن الليبي (الأمازيغي) الأوّل، وفي وقت لاحق تطوّرت الحياة الحضرية بالاحتكاك بالقرطاجيين ثمّ الرومان، وكانت لا تختلف في شيء عن مثيلتها في عموم المنطقة المتوسّطية، ووُجدت في المدن الأفريقية جاليات تجارية بونية ورومانية خلال العهد النوميدي[6]، وفي الفترة الرومانية انصهرت كلّ تلك العناصر في بوتقة الحضارة الرومانية بمقدار تمثّلها لتلك الحضارة[7]، واستثنى

---

1 في القرى التي تكون قد ورثت جانبا من العمارة وأسلوب تخطيط المدن البربرية نلاحظ وجود مخزن الغلال (القلعة) في أعلى مكان في القرية الأوراسية، وفي المدينة الميزابية حلّ المسجد - الذي تعلو منارته سائر أبنية البلْدة - محلّ الحصن وبرج المراقبة، أمّا قرى القبائل الحالية فهي كلّها شبيهة بأبراج مراقبة لأنّها مشيّدة فوق قمم الجبال في الغالب.

2 Pline, Hist. Nat., V, 1. ، وقد عقد مؤلّف الحرب الإسبانية في هذا المجال مقارنة دلّت على هذا التشابه، أنظر:
- Bellum Hispaniense, VIII, 3.

3 - Gsell(S.), H.A.A.N., T. II, p. 104-5.

4 - Salluste, Jug. LIV, LXXXVII, LXXXIX. ; Pline, Hist. Nat. V. 1.

5 -Camps (G.), Massinissa ou les débuts de l'histoire ..., pp. 47-49.

6 - Bertrandy (F.), op. cit. pp. 157-158.

7 وهؤلاء الحضر المترومنون هم الذين ستسمّيهم المصادر العربية التي أرّخت لبدايات الفتح الإسلامي- الأفاريق، وقدّمتهم على أنّهم رومان، والواقع أنّهم أفارقة راسخين في الرومنة لغةً وحضارةً أمّا من حيث الأصول فهم في أغلبهم من الأهالي.

المشرّع الروماني المراكز التي لم تستوعب الحضارة الرومانية معتبرا إياها مدنا أجنبية (Cités pérégrines) حيث ظلّت في إطار نظمها وتقاليدها وأعرافها[1].

يكون حضر المدن الأفريقية قد نالوا المواطَنة الرومانية منذ وقت مبكّر خاصّة أولئك الذين لم يُبدوا أيّ مقاومة للاحتلال ومنهم ستتكوّن نواة المجتمع الحضري يُضاف إليهم العنصر الروماني وبنسبة أقلّ بعض العناصر الوافدة من مختلف المقاطعات الرومانية الأخرى للتجارة أو للعمل في الوظائف المدنية والعسكرية، ومن هذا المجتمع الحضري المنصهر برزت طبقة متميّزة هي الأرستقراطية البلَدية التي استأثرت بالسلطة والثروة، وقد صوّرت الألواح الفسيفسائية جوانب هامّة من حياة البذخ الذي كانت تنعم به هذه الطبقة التي تعيش في قصور فخمة، ولم تُغْفِلْ تلك الألواح حياة الطبقة الكادحة فصوّرت حياة البؤس التي كان يعيشها أولئك الفقراء الكادحون في خدمة الأسياد.

وعلى العموم فإنّ تقسيم الشعب الأفريقي إلى بدو وحضر وإلى مجموعات قبلية كما رأينا أو حسب نمط المعيشة (بدو ومستقرّون) أو حسب المعطيات الجغرافية (جبليون وريفيون Montagnards et Campagnards) ليس هدفه خدمة الحقيقة بقدر ما هو تعبير عن النظرة "الاستراتيجية" للآخر (الإغريقي أو الروماني)، وهي كما نرى نظرة تركّز على التجزئة والتقسيم، وتجتهد في إبراز ما يفرّق أكثر ممّا يجمع، وهذا حال الشعوب التي يكتب لها الآخرون تاريخها[2].

1 BELKAHIA (S.), DI VITA-ÉVRARD (G.). - Magistratures autochtones dans les cités pérégrines de l'Afrique proconsulaire, actes de VIe colloque CTHS, Pau, 1993 (1995), I, Monuments funéraires. Institutions autochtones. pp. 255-274.

2 ولا ننسى في هذا السياق العبارة التي تقول: من يكتب تاريخك يقدّمك إلى نفسك، وأكثر من ذلك سيقدّمك في الصورة التي يريد ولا ريب أنّه لن يتردّد في تشويهك بقدر ما يضمره من استعلاء أو حقد ...!.

الباب الثاني

أصول الشعوب الأمازيغية

بين الروايات والفرضيات

الفصل الأول / روايات المؤرّخين القدامى

1. رواية المؤرّخ الروماني سالوست.
2. أصول أسطورية.
3. رواية بروكوب والأصول الكنعانية.
4. روايات من القرون الوسطى عن أصول البربر.

الفصل الثاني / فرضيات المؤرّخين المحدثين

1. فرضية الأصول الشرقية والأصول الهندية.
2. بربر، غاليون ودولمان.
3. أصول شمالية (نوردية).
4. بربار، إيبار وسلتيبار!.

الفصل الثالث / المعطيات الأنثروبولوجية

1. الإنسان العاتري.
2. إنسان المشتى.
3. الفجر متوسطيون القفصيون.
4. الحضارة القفصية.

الفصل الرابع / الوضع اللغوي في الشمال الأفريقي القديم

1. النقوش الليبية.
2. اللغة الليبية.
3. لهجات اللغة الليبية.

الفصل الأول

روايات المؤرّخين القدامى

كان ينبغي أن تنطلق الدراسات المتعلّقة بأصول الأمازيغ (البربر) من الشعب الأمازيغي ذاته فأسلاف هذا الشعب الذين انحدروا من القفصيين هم الذين عمّروا البلاد منذ الحجري الوسيط (Mésolithique) من الألف العاشرة إلى الألف الخامسة ق.م.، واستمرّوا بعد ذلك يعْمُرون هذه البلاد، التي عرفت اجتياحات متتالية كان مصيرها الزوال تباعا، وظلّ وجود السكّان الأصليين وجودا حيّا وأصيلا، ولكن المؤرّخين - وهم أجانب - اعتمادا على روايات الأقدمين[1] ونزعات المحدثين عوض تأكيد تلك الأصالة تركوا العنان لروايات وفرضيات غايةً في الغرابة لنفي أصالة الشعب البربري على أرضه.

1. رواية المؤرّخ الروماني سالوست (القرن الأول ق.م.):

أورد هذا المؤرّخ رواية طريفة عن أصول الأمازيغ (البربر) في كتابه حرب يوغرطة جاء فيها: " الجيتول(Gaetulii) والليبو(Libyes) هم السكّان الأوائل لأفريقيا وهم عمالقة متوحّشون يتغذّون على لحوم الحيوانات الضارية أو على أعشاب المروج على شكل مجموعات، لا يحكمهم عرف ولا قانون ولا زعيم.يعيشون متجوّلين ومغامرين ومتفرّقين لا يتوقّفون إلاّ عندما يداهمهم الليل[2]، وبعد وفاة هرقل في إسبانيا - وهو رأي الأفارقة على الأقل- وكان جيشه مكوّنا من عناصر مختلفة ما إن تحرّر من قائده حتّى انساق وراء عدّة متنافسين، فقد أراد كلّ واحد من هؤلاء المتنافسين أن تكون له القيادة، وما لبث (الجيش) أن تفرّق وفي عداده ميد (Medi) وفُرْس (Persae) وأرمن (Armenii)، عبروا إلى أفريقيا في سفن واستقرّوا في المناطق المجاورة لـ"بحرنا"، أمّا الفرس فقد انسحبوا أكثر نحو المحيط، حيث أقاموا أكواخا من هياكل زوارقهم التي نقلوها معهم، لأنّهم لم يجدوا خشبا في تلك انبلاد، ولم يستطيعوا تأمين ذلك من إسبانيا

---

1 لم يجد هؤلاء سوى روايات الأقدمين: هيرودوت، ديودور، سترابون، بلين، يطليموس، وهؤلاء لم يذكروا عن أصل الشعب الليبي (البربري) شيئا، سوى أنّهم جماعات متوحّشة فنقلوا لنا أسماءها محرّفة وطرائف عن عاداتها البدائية وكثيرا من القصص الخيالية، أنظر:

- Mercier (E.), Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus reculés ..., T. I, p. XXII.

2 يرى كامبس أنّ المقصود بهذا الوصف هو عصر ما قبل التاريخ حيث كان السكّان يعيشون على القطف والقنص،أنظر:

-Camps(G.) Massinissa..., op. cit. p. 16.

بالشراء أو بالتبادل، فاتّساع البحر والجهل باللغة منع كلّ تجارة، وقد اختلط هؤلاء تدريجيا بالجيتول عن طريق المصاهرة، وكانوا يتنقّلون كثيرا في محاولة للعثور على بلد مناسب للعيش ولذلك سمّوا أنفسهم: نوماداس (Nomadas)[1] وهو الاسم الذي لا يزال إلى الآن وكان شكل مساكن هؤلاء النوميد التي تسمّى ماباليا (Mapalia) مستطيلا، وجدرانها محنية تعلوها سقوف تشبه غواطس السفن، وقد انضمّ الميد والأرمن إلى الليبيين لأنّهم يقيمون قرب البحر الأفريقي أمّا مَوَاطن الجيتول فهي أقرب إلى الشمس[2] غير بعيد عن المنطقة الحارّة، واستقرّ الميد على الأخصّ على مقربة من المدن المحصّنة التي لا يفصلها عن إسبانيا إلاّ المضيق، وأقاموا مع هذا البلد تجارة مبادلات، وشيئا فشيئا حرّف الليبيون اسم الميد، فأخذ في لغتهم البربرية صيغة: مور، أمّا الفرس فنمت قوّتهم بسرعة، وفي وقت لاحق برزت منهم جماعة من الفتية اضطرّت إلى ترك المنزل العائلي، وتملّكت البلاد المجاورة لقرطاج التي نسمّيها نوميديا بشعبها القديم والحديث، وتعاون هؤلاء فأخضعوا البلاد الأخرى المتاخمة لهم بالسلم حينا وبالترهيب أحيانا أخرى، وبذلك ضمنوا لأنفسهم الشهرة والمجد، لأنّ الليبيين كانوا أقلّ حبّا للحرب من الجيتول، فأخذوا اسم المنتصرين وفيه اندمجوا[3].

يقدّم سالوست بهذا التقسيم الكلام المعاد الذي يُخْفِي على المتعلّم البسيط القصد العميق للنصّ وهو العصور البدائية، فالليبيون والجيتول الذين ذكر نصّ سالوست أنّهم يعيشون على القنص والقطف هم دون ريب من شعوب ما قبل التاريخ الذين وضعهم سالوست أو بالأحرى يمبسال في العصور الأسطورية، وينبغي أن يُفهم من ذلك أنّ وجود هؤلاء في الشمال الأفريقي قديم جدّا، وأنّ تقسيمهم إلى ليبيين وجيتول لا يقوم على أساس عرقي وكلّ ما في الأمر أنّ التقسيم تمّ على أساس نمط المعيشة كما يتّضح من طبيعة المنطقة التي يتمركز فيها كلّ قسم، كما أجمع عليه كلّ المؤرّخين قدامى ومحدثين فالجيتول هم الرحّل الذين نجد آثارهم بيّنة من ضفاف المحيط الأطلنطي إلي خليجي

---

1 أي الرحّل ، بسبب حياتهم البدوية، وهو الرأي الذي يرجّحه سالوست، كما نرى.

2 كان الاعتقاد قديما بأنّ ارتفاع درجة الحرارة فيما نسمّيه اليوم المنطقة المدارية والمنطقة الاستوائية سببه القرب من الشمس.

3 عقــون (محمّد العربي)، المؤرّخون القدامى: غايوس كريسبوس سالوستيوس (86-35 ق.م.) وكتابه حرب يوغرطة،دار الهدى للطباعة والنشر عين مليلة 2006.ص94.

السيرت، أمّا الليبيون فهم حسب يمبسال السكّان المستقرّون وهم أسلاف الحضر بناة المدن[1].

كان تقسيم السكان إلى مستقرّين ورحّل سابقا ليمبسال وسالوست، فهيرودوت بعد أن قدّم وصفا لشعوب الشمال الأفريقي القديم وعدّد قبائله في قائمة طويلة أشار إلى: "...الليبيون الرحّل الذين ينتشرون على امتداد ساحل البحر، وخلفهم باتجاه المناطق الداخلية فيافي وقفار وهي مأوى الوحوش الضارية، ولكن إلى الغرب من بحيرة تريتونيس (احتمالا شطّ الجريد) هناك ليبيون مستقرّون لهم تقاليد أخرى، إنّهم الليبيون المزارعون الذين يسكنون بيوتا واسمهم: الماكسي (Maxyes)"[2].

ومن النصّ يمكن أن نستنتج أنّ هيرودوت يقابل ليبيا الشرقية حيث يسكن الرحّل وهي أرض منخفضة ورملية، بليبيا الواقعة غربي التريتون ويسكنها مزارعون وهي أرض جبلية وتغطّيها الغابات، وهذه العبارة الأخيرة في غاية الأهمّية لأنّ الأرض الجبلية هي بلاد الأطلس حيث السلاسل الجبلية المعروفة، والتريتون الذي هو شط الجريد إلى خليج السيرت الصغير (خليج قابس) هو الحدود الطبيعية ما بين البدو الرحّل والمزارعين المستقرّين ولا تزال الشطوط إلى الآن عند الجغرافيين هي الحدّ الطبيعي لأفريقيا المتوسّطية، وإذا لم تكن الصدفة هي التي جمعت بين هيرودوت والجغرافيين المحدثين فإنّ الطبيعة هي التي أملت على الطرفين هذا التقسيم[3].

ما دخْل الفُرس والميد في أصول النوميد والمور؟، نجد في النصوص القديمة فكرة تقليدية وهي أنّ الشرق هو الموطن الأصلي للشعوب وأنّ العنصر الشرقي تبعا لذلك هو الذي عمّر الشمال الأفريقي وقد تحوّلت هذه الفكرة إلى كلام معاد ومألوف، ولكن ما علاقة ذلك بالفرس والميد فهؤلاء يعرفهم الإغريق والرومان وليست لهم أساطيل تجوب البحر المتوسّط.

---

1 بعد تفكيك هده الرواية التي كانت محلّ تأويلات أغرب وأكثر أسطورية منها، نرى فيها عنصرا إغريقيا يتمثّل في هيراكليس الذي نسجت الأساطير الإغريقية حول رحلاته نحو الغرب قصصا كثيرة أهمّها الأسطورة التي ثبّتت اسمه على مضيق جبل طارق في الجغرافيا القديمة وعنصرا أهليا يتمثّل في الليبيين (الذين قال عنهم هيرودوت أنّهم المزارعون المستقرّون) والجيتول وهم البدو الرحّل أمّا إقحام عناصر بعيدة مثل الميد والأرمن والفُرس فهو خيال محض، أنظر:

- Gsell(S.),H.A.A.N.,T.I pp. 332-337.

2 - Hérodote, IV, 181, 186, 191.

3 - Camps (G.), Massinissa..., pp. 17-19.

لنعد إلى نصّ سالوست: "... عبروا (الميد والفرس والأرمن وكانوا في عداد جيش هرقل) إلى أفريقيا في سفن واستقرّوا في المناطق المجاورة لبحرنا، أمّا الفرس فقد انسحبوا أكثر نحو المحيط، حيث أقاموا أكواخا من هياكل زوارقهم التي نقلوها معهم، لأنّهم لم يجدوا خشبا في تلك البلاد، ولم يستطيعوا تأمين ذلك من إسبانيا بالشراء أو بالتبادل، فاتّساع البحر والجهل باللغة منع كلّ تجارة وقد اختلط هؤلاء تدريجيا بالجيتول عن طريق المصاهرة... "، هذا التمركز في جنوب موريتانيا الطنجية لهؤلاء المزعومين من الفرس يجعلنا نعود إلى المصادر الأخرى الإغريقية والرومانية وهو الموضوع الذي درسه دزانج Desanges بعناية، واستخلص بأنّ تشابه اسم قبيلة كبيرة متمركزة في المنطقة الواقعة ما بين الأطلس شمالا والدراع جنوبا وقير (Guir) شرقا وهي قبيلة الفاروزيين (Pharusiens) أو البيرورسي(Perorsi) هو الذي أوقع المؤرّخين القدامى في هذا الخلْط[1].

كثيرا ما يقع المؤرّخون في خلط في الأسماء فهذا اسم مازيس (Mazices) وهو اسم عدد من قبائل قدامى البربر، وقع فيه تصحيف وتحريف كبير مع أنّه مشتقّ من الاسم البربري مازيغ، هذا الاسم كتبه الأجانب بصيغ عديدة محرّفة لأصله[2]، وقد ربطه البعض بالميد الذين كانوا في جيش هرقل ونفس الشيء يقال عن الأرمن حيث حاول البعض ربط اسم بعض القبائل البربرية به مثل قبيلة ورمانا (Ourmana) التي ذكر ابن خلدون أنّها كانت تنتجع في المنطقة الشرقية من المغرب خلال القرن الرابع عشر[3].

2. أصول أسطورية أو شبه أسطورية:

لقد سجّل اقزال تباعا ما جاء في المصادر القديمة عن أصول الشعب الأمازيغي ونقتطف منه ذلك بإيجاز:

---

1 نلاحظ الشبه بين اسم القبيلة الذي ورد في المصادر بصيغتين هو: Pharusii, Perorsi واسم الفُرس: Persae ، وقد استنتج المؤرّخون أنّ ذلك هو الذي أوقع القدامى في خلط: ووجدوا السند في الأسطورة الإغريقية التي أوردها سالوست. وكذا بلين في تاريخه الطبيعي:
- Pline l'ancien, Hist. Nat. V, 46.

2 - Gsell (S.), H.A.A.N., T. I, p. 354.

3 جاءت في بعض المصادر .Pausinias, X, 17, 2 روايات معاكسة، تتحدّث عن الأصل الليبي لجزيرة سردينيا التي احتلّها ليبيون يقودهم أحد أبناء هرقل وهو ساردوس (Sardus)، وهناك استقرّوا واندمجوا مع السكّان الأصليين ومنحوا اسم قائدهم للجزيرة، هؤلاء الليبيون تحدّثت عنهم مصادر أخرى .Solin IV, 1 وأنّهم في شكلهم ولباسهم يشبهون أهالي أفريقيا الشمالية.

هيكاتوس(Hecatus): ذكر مدينة باسم كوبوس (Cubos) أسّسها إغريق إيونيون (Grecs Ioniens) بالقرب من إحدى الهيبونتين[1].

هيرودوت (Hérodote): الماكسي (Maxyes) وهم البربر المستقرّون الذين يحترفون زراعة الأرض هم من أصل طروادي[2].

سترابون(Strabon): "المور هم من أصل هندي جاءوا ضمن حملة هيراكليس" (Héraklès). وقد حاول بعض المؤرّخين المحْدثين إثبات هذه الرواية ببراهين علم الوراثة ولكن لم يصلوا إلى أيّ حقيقة علمية، وبعضهم تتبّع أسماء الأماكن القريبة في صيغتها أو المطابقة لاسم بربر، من الهند إلى أفريقيا الشمالية مرورا بالجنوب العربي والصومال وبلاد النوبة وأرهقوا أنفسهم دون طائل لأنّ اسم بربر في الواقع كعلَم على شعب بالمفهوم الذي نعرفه اليوم بدأ مع الفتح العربي للشمال الأفريقي[3].

بطليموس (Ptolémée): ذكر أنّ من بين سكّان موريتانيا الطنجية إغريق من الموكيني (Muceni)، وهي رواية شبيهة برواية بلوتارك[4].

فلافيوس يوسيفوس (Flavius Josephus): الذي أرجع الجيتول إلى أصول شرقية انطلاقا من سفر التكوين(Genèse Chap. X) فذكر بأنّ أحد أبناء كوش وهو إويلاس (Euilas) هو أب الإيويلايوي (Euilaioi) وهم الجيتول (Gaitouloi, Gétules)، وأنّ أوفران (Ophren) ابن إبراهيم فتح ليبيا وأنّ أبناءه هم الذين أطلقوا اسم أفريقيا على الشمال الأفريقي[5].

ديودور الصقلي(Déodore de Sieile): ذكر مدينة باسم ميشيلا أو مسكيلا (Meschela) في منطقة عنّابة أسّسها الإغريق[6].

بلوتارك (Plutarcque): اعتمادا على يوبا الثاني، ذكر أنّ هيراكليس (Héraklès) ترك قسما من الليبيين والموكينيين (Mycéniens) في شمالي موريتانيا الطنجية[7].

---

1 هيبو دياريتوس (بيزرت) وهيبو ريجيوس (عنابة) .Idcm. loc. cit -

2 - Idem. P. 344.
3 - Gsell (S.), H.A.A.N., T. I, pp. 336-337.
4 - Ptolémée, IV, 2 , 5.
5 - Idcm. pp. 337-338.
6 - Idem. loc. cit.
7 - Idcm. loc. cit.

3. رواية بروكوب والأصول الكنعانية:

في القرن السادس الميلادي، أشار بروكوب إلى أصول المور(Maures) - وهو اسم جنس (Générique) يُقصَد به جميع الأفريقيين الذين احتفظوا بهويتهم وتقاليدهم خارج السيطرة الرومانية - وحسب هذا المؤرّخ فإنّ فتح أرض الميعاد من طرف يوشع (Jousué) نتج عنه نزوح جماعي للشعوب التي كانت تسكن الساحل السوري وقد حاولت تلك الشعوب الاستقرار في مصر لكن وجدتها مكتظّة بالسكان فاتجهت غربا نحو ليبيا واستقرّت فيها من حدود مصر إلى أعمدة هرقل، وأسّست فيها عددا معتبَرا من المدن[1].

كان بروكوب قد جاء إلى أفريقيا مع الحملة البيزنطية التي قادها بيليزار (Bélisaire) وخليفته سولومون الذي قاد معارك في جهة تيجيس(قسنطينة)، ويكون قد نقل معلوماته من أهل البلاد، ومنطقة تيجيس (عين البرج) وسيقوس وسيلة هي منطقة غنية بالمعالم الليبية وفيها آثار المدافن الفجر تاريخية (المنهير والدلمان)، ولعل هذه المعالم هي مصدر رواية بروكوب التي تحتاج إلى دراسة دقيقة، ولعلّ رواية بروكوب هذه أيضا تستند على ما جاء في إحدى رسائل القدّيس أوغسطينوس: إذا سألتم أهل الريف عندنا سيجيبونكم نحن كنعانيون[2]، وكانت هذه العبارة الأوغسطينية محلّ نقاش طويل فهل كان سكّان أرياف هيبون لا يزالون يتكلّمون لهجة بونية بعد أكثر من خمسة قرون بعد سقوط قرطاج؟. وهو ما جعل البعض يستنتج بأنّها مثل كلمة عربي في أدبيات الاحتلال الفرنسي التي تعني كلّ سكّان الشمال الأفريقي أي البربر.

4. روايات من القرون الوسطى عن أصول البربر:

لقد احتفظ مؤرّخو القرون الوسطى بهذا الأسلوب في تحديد أصول الشعوب وعلى الطريقة المشرقية التي تقوم على النظام البطرياركي، وهم مبتدعو أنساب وهمية

---

1 وفوق ذلك يذكر بروكوب بأنّ أحفاد تلك الأقوام لا يزالون يتكلّمون اللغة الفينيقية،وأنّهم شيّدوا حصنا في نوميديا في الموقع الذي ستبنى فيه مدينة تيجيس (Tigisis عين البرج حاليا) ويضيف:يوجد هناك معلمان من الحجر الأبيض نقشت عليهما عبارة باللغة الفينيقية ترجمتها : نحن الذين فررنا بعيدا من وجه الشرّير يوشع ابن نافي (Josué Fils de Navé) ويوشع هو زعيم العبرانيين بعد موسى وفاتح أرض كنعان وهو من أوقف الشمس حسب التوراة حتّى يكمل انتصاره على ملك أورشليم ويروي الجزء الذي يحمل اسمه من التوراة فتح أرض كنعان واقتسامها بين قبائل إسرائيل.Procope, II, 10, 22 - .

2 . Camps (G.), Berbères aux marges ..., pp. 23-24 - ؛ وقد رسمت الكلمة في النسخة الأصلية من كتاب القدّيس هكذا: Chenani وترجمت في الفرنسية إلى : Cananéens كنعانيون، ولكن البعض ينبّه إلى التصحيف الذي وقع في الكلمة ف- Chenani ليست بالضرورة Cananaeci التي تعني كنعاني.

في بلاد لم تعرف شيئا اسمه الحالة المدنية، وأكبر أولئك المؤرّخين هو ابن خلدون الذي لم يسلم هو الآخر من هذه الطريقة، التي اتبعها مؤرّخون كثيرا ما يبتدعون لأنفسهم شجرة نسب شرقية.

البكري والمسعودي: سارا على أثر بروكوب وكرّرا روايته بأنّ البربر أجلاهم اليهود عن فلسطين.

ابن خلدون : البربر من نسل كنعان بن حام بن نوح، وبعد أن ابتدع لنفسه أصلا يمنيا حضرميا، حاول ترجيح الأصل اليمني لأعرق الاتحادات القبلية البربرية الكبرى وهما صنهاجة وكتامة.... الخ[1].

مؤرّخون آخرون : البربر من نسل جالوت (غولياث Goliath)، وحاول البعض أن يربط بين اسم جالوت(Goliath) وأقلّيد (Aguellid)، الاسم البربري الذي يعني ملك[2].

يمكن أن نستخلص من تعدّد هذه الروايات الأهمّية التي يمثّلها الشعب الأفريقي وبلاده لدى الأمم الأخرى، بحيث يحاول هؤلاء في أحسن الحالات استمالة المغاربة وربط الصلة بهم لخدمة مصالحهم، بل لنفْي الأصالة عنهم فوق أرضهم للوصول إلى محصّلة خطيرة وهي أنّ الجميع في هذه الأرض يكون قد هاجر إليها، ومن خلال ذلك تمرير فكرة حقّ الجميع في التواجد هنا، وهي فكرة روّج لها الاستعمار لتحويل الشعوب البربرية إلى جماعات تفكّر بذهنية جاليات أجنبية فوق أرضها وعندئذ يسهل اقتلاعها من جذورها؟ .

---

1 ابن خلدون، العبر ، ج 3، دار الكتاب اللبناني بيروت 1966. ص 97.

2 -Gsell (S.), H.A.A.N., T. I, pp. 326-350.

الفصل الثاني

فرضيات المؤرّخين المحدثين

انقسم المؤرّخون المحْدثون وهم أوربيون بين الروايات الأسطورية والدلائل العلمية ويمكن تصنيف أبحاثهم في الموضوع إلى نوعين هما البحوث التي تعتمد على اللغة ويمثّلها المؤرّخون الألمان ثمّ البحوث التي تعتمد على علم الآثار وعلم الإنسان ويتّضح ذلك في أعمال الفرنسيين على الخصوص.

1. فرضية الأصول الشرقية والأصول الهندية :

اعتمد المستشرقون على ما جاء في المصادر العربية، وحاولوا إثبات الأصول المشرقية للبربر أمّا اللغويون فقد اعتمدوا على ما جاء في المصادر الإغريقية واللاتينية : فالمؤرخ موفرز (Movers) حاول إثبات صحّة ما جاء في سالوست وبروكوب، وفي تقديره أنّ الكنعانيين الفارّين عبروا إلى أفريقيا في سفن الفينيقيين واختلطوا بالليبيين الأولين، واحترفوا الزراعة وهم الذين عرفوا بالليبوفينيقيين (Libyphéniciens) الذين ذكرتهم عديد النصوص القديمة [1]، وهو ما كان قد أشار إليه دي فيتا (A. di vitta) الذي يرى بأنّ هذه الرواية الكنعانية تحتفظ بذكرى التوسّع الفينيقي السابق لتأسيس قرطاج. كما أنّ تطوّر علم المصريات يدعّم فرضية الأصول الشرقية لأنّ البعض يعتقد بأنّ الهكسوس (Hyksos) وهم من سوريا وآسيا الصغرى أُجْلوا عن مصر فلجأوا إلى أفريقيا وامتزجوا بالليبيين. وقد حاول آخرون إثبات الأصل الهندي للبربر ووجدوا في رواية سترابون ما يدعّم آراءهم، وأنّ اسم بربر قريب من اسم شعب كان في هضبة الدكن اسمه واروارا (Warwara) وهو مطابق لاسم مدينة بربرة في الساحل الصومالي ولاسم البرابرة (Barabera) الذين ينتجعون ما بين الشلاّل الأول والرابع للنيل[2]...

دافع برثولون **(Bertholon)** في مطلع القرن العشرين عن فرضية الأصول الإغريقية الإيجية للشعب الأمازيغي، وقد أحصى عددا من المفردات والأسماء البربرية التي يرى أنّها من أصل إغريقي سابق للعصر الهليني، وأنجز عملا هامّا بعنوان أبحاث أنثروبولوجية في

---

1 - Movers (F.), die phönizer, II, Berlin 1856, pp. 413-435.

2 وهو ما اعتبره امحمّد فنطر هذيانا، أنظر: - decret(F.) et Fantar (M.), op. cit. pp. 26-27.

البربرية الشرقية (Recherches Anthropologiques dans la Berbérie orientale, 1913)، حيث دعّم آراءه بأدلّة أنثروبولوجية وإثنولوجية[1] ومن النتائج التي توصّل إليها :

يعود الفخار البدائي في تونس الشرقية إلى عصر الدلمان وهوخاصّ بقبائل إغريقية إيجية.

يذكّر الفخار المصنوع باليد في تونس بالفخار الإيجي.

فخار جربة ونابل مستوحى من نماذج قبرصية.

وهكذا نرى كيف بالغت هذه البحوث في فرضياتها إلى حدّ الهذيان على حدّ تعبير فنطر.

2. بربر، غاليون ودولمان (Berbères, Gaulois et Dolmens) :

اتّجه البعض إلى الأبحاث الأثرية، وعلى الخصوص الحفريات التي أجريت في المقابر الميغاليثية وهي عديدة وخاصّة في الشرق الجزائري وتونس الوسطى، وقد وجد هؤلاء المجال واسعا لإطلاق أحكامهم المسبّقة، وخاصة الأحكام ذات النزعة العرقية، فقد انجذب عدد من الباحثين إلى المدافن الميغاليثية (الدولمان) وأوّلهم شو (Shaw) في منتصف القرن الثامن عشر الذي أشار إلى مدافن بني مسُّوس[2] وفي 1883 كتب النقيب روزي (Rozet) وصفا لها وأطلق عليها اسم: المعالم الدرويدية[3] المجاورة لسيدي فرج، أمّا الطبيب الجرّاح قيون (Guyon) فكان أوّل من قام بحفرية (1846) وجاء في تقريره الأثري الذي قدّمه إلى أكاديمية النقوش والآداب الرفيعة (Académie des Inscriptions et Belles Lettres) أنّها مطابقة تماما للنصب الدرويدية التي شاهدها في سومور (Saumur) وجهات أخرى من فرنسا، ممّا جعل بعض الأثريين ينسبون هذه المعالم إلى الغاليين الذين كانوا يعملون في الفيالق الرومانية ولم يتردّد البعض الآخر في نسبها إلى الوندال أيضا[4].

---

1 برثولون من أشهر الباحثين في حقل الأنثروبولوجيا، نشر عديد البحوث الجريئة المتعلّقة بأصول قدماء الشمال الأفريقي يمكن الرجوع إلى بعض بحوثه:

- Bertholon, les premiers colons de la souche européenne dans l'Afrique du Nord, in Revue Tunisiennc, 1897-1899, IV-VI. ; Ibid. Bullctin de la géographie historique, 1891, pp. 440-451.; Id. XVII, 1910, p. 57.

2 - Shaw, Voyages dans plusieurs provinces de la Barbarie (traduction française), de 1743, I, p. 150

3 درويد كلمة سلتية تعني كاهن، وإلى هذه الكلمة نسبت المعتقدات والطقوس التي نشأت حول القبور الميغاليثية(الدلمان والمنهير)، أنظر: Larousse Encyclopédique , éditions Laroussc, Paris 19709, p. 455 - وقد بالغ الباحثون الفرنسيون على الخصوص في تأكيد سلتية كلّ الدلمانات بما في ذلك دلمان أفريقيا الشمالية.

4 - DR Guyon, CRAI, XXXIII, 1851, pp. 42-43.

كان البحث عن أثريات متطابقة في البلاد المطلّة على البحر المتوسّط بدافع إثبات وجود "سلتي" قديم يبرّر وجودا فرنسيا حديثا في الجزائر، وكان المستشرق فيرو (1860) (Ch. Féraud) من أبرز المروّجين لهذه الفكرة، فبالتعاون مع الإنكليزي كريستي (Chresty) قام بأبحاث أثرية امتدّت على ثلاث سنوات في منطقة راس العين-بومرزوق، جنوبي قسنطينة، ليراهن على صحّة ادّعائه بأنّ الدولمان هي قبور للغالو- رومان (Gallo-romains) الذين كانوا مستقرّين بأفريقيا.

في ذلك العصر البطولي للبحث عن آثار ما قبل التاريخ، تبارى الجميع لإثبات الأصل السلتي أي الفرنسي لدولمان الجزائر، وصدرت في ذلك أبحاث ودراسات ومنها دراسة طريفة تنسب دولمان بني مسّوس إلى فيلق من منطقة الأرموريكان الفرنسية، وبلغ الحماس بهؤلاء حدّ التلفيق فقد جعلوا من تريبونوس اسمه غارغيليوس (Gargilius)كان قائدا لفرق مساعدة أهلية (Troupes auxiliaires) قائدا لكتيبة فرسان بروطونية (Bretonne) أيضا في حين أن غارغيليوس هذا كان قائد فرسان في بريطانيا (إنكلترا) قبل مجيئه إلى أفريقيا أين قُتل من طرف الثائرين الباوار في ناحية ميلة.

3. أصول شمالية (نوردية)

ظهرت فكرة أخرى وهي أنّ قبور الدولمان في الشمال الأفريقي تعود إلى فترة سابقة للسلتيين والغاليين، وقد استمرّ هؤلاء في اعتبار الدولمان نتاج حضاري أوربي فإن لم يكن من فرنسا فهو من شمال أوربا، وبلغ الأمر بأحدهم وهو أ. برتراند أن ابتدع فكرة شعب الدولمان الذي نزح على مراحل من آسيا، إلى أوربا الشمالية، إلى الجزر البريطانية فبلاد الغال وإسبانيا لينتهي به المطاف في الشمال الأفريقي، ووجد آخر هو هـ. مارتان (Martin) في تطوّر علم المصريات ضالّته ليستنتج بأنّ الآثار المصرية تفيد بأنّ الليبيين التمحو(les Libyens Temehu)[1] الذين غزوا مصر في عهد مينبتاح ورمسيس الثالث من الجنس الأشقر فاخترع فكرة عبور الغاليين لجبال البيريني وانتشارهم في أفريقيا الشمالية حيث أقاموا بها حضارة الدولمان قبل هجومهم على مصر؟.

انتقل هؤلاء بعد ذلك إلى معطيات الدراسات العروقية (études ethnologiques) ووجدوا في المميّزات الفيزيولوجية السند الذي لا يقبل حسبهم أيّ نقض، وهو تميُّز أفراد بعض القبائل باللون الأشقر والعين الزرقاء، وهؤلاء يتمركزون خاصّة في المناطق

1- وتعني في اللغة الفرعونية: الشقر، أنظر: Mercier(E.),Histoire de l'Afrique septentrionale ...,p.XXIII. -

الجبلية (السلسلة القبائلية والكتلة الأوراسية) ضمن الجماعات التي تتكلّم لهجات من اللغة البربرية أي أنّها امتداد حيّ لقدماء الشمال الأفريقي، ومن هنا تبدأ أسطورة الأصل الأوربي للشعب البربري، وانقسم القائلون بهذه الفرضية إلى أنصار فكرة الأصل الغالي وأنصار فكرة الأصل النوردي، فالأولون ينسبون الدولمان إلى فرق مساعدة غالية في الجيش القرطاجي وحتّى إلى قراصنة أوربيين كانوا ينشطون في مضيق أعمدة هرقل... الخ. والأخيرون ينسبونها إلى النورديين ولم يتردّد هؤلاء لإثبات مقولاتهم الطريفة في القول بأنّ اسم جرمان الذي هو اسم لعدّة أماكن وحتّى لعائلات وعشائر هو دليل على الأصل الجرماني النوردي الذي احتفظ به بعض السكّان إلى آخر هذه الطرائف [1].

4. بربار، إيبار وسلتيبار (Berbères, Ibères et Celtibères !):

تحتلّ شبه الجزيرة الإيبرية مكانة خاصّة عند دعاة الأصول الأوربية للبربر، وقد حاول هؤلاء إثبات فرضياتهم بكلّ الوسائل، بدْءاً من مقاربات لغوية ما بين أسماء الأعلام الجغرافية في الضفّتين، وقد قدّم دزانج (J. Desanges) أخيرا جردا هامّا في هذا المجال، خاصّة ما يتعلّق بلغة انباسك القريبة من اللغة البربرية[2]، وخرج هؤلاء بنتيجة طريفة مفادها أنّ إيبار (Ibères) ما هو إلاّ تصغير واختصار لبربار (Berbères = Ber(i)bères)، وإذا كان لهؤلاء الإيبار أسلاف بنفس الاسم في القوقاز لماذا لا يكون السومريون هم أسلاف البربر إلى آخر هذه الخزعبلات، بحيث افترض هؤلاء أصولا غريبة للأمازيغ فمن الميد إلى الفرس إلى سوريا وأرض كنعان واليمن وحتّى الهند. ومن تراقيا، والجزر الإيجية وآسيا الصغرى إلى أوربا الشمالية وشبه الجزيرة الإيبرية، وجزر المتوسّط الغربي وشبه الجزيرة الإيطالية... إلى درجة جعلتنا لا نكاد نجد بلدا لم يفترض هؤلاء أنّ أسلاف البربر لم يأتوا منه؟، والأمازيغ - في بعض المصادر الأدبية - التي تجنح إلى الخيال وتجد لكلّ إشكال حلاّ يسيرا- هم آخر الأطلنط

1 وُجد اسم جرمان وجرمون في الأسماء والألقاب، وكذلك في أسماء الأماكن (Tizi N'Germaine) والعشائر: (Ath Germaine)، والحال أنّ الخلط في الأسماء كان دائما المنفذ الذي يدخل منه أصحاب هذه الفرضيات دون الرجوع إلى لغة البلاد بلهجاتها المتعدّدة.

2 - Desanges (J.), The Proto-Berbers, in general history of Africa, édité par G. Molhtar, Paris Unesco, pp. 236-245.

(Atlantes) فقارّة الأطلانتيد كانت بالقرب من الساحل الليبي وما جزر الكناري إلاّ شظايا منها والغانش وهم سكّانها ألم تكن لغتهم بربرية قبل أن يتأسبنوا ؟[1].

لقد ظلّ الإشكال مطروحا بين الباحثين الذين تناولوا الموضوع، ولا يريد هؤلاء الإشارة إلى الأمازيغ بعبارة شعب، بل في أحسن الحالات يشار إليهم بعبارة سكّان (Populations)، أمّا البعض الآخر فيستنكف حتّى من ذكر اسمهم فيشير إليهم بعبارة المحلّيين، وإذا دخلت الأنثروبولوجيا من هذه الأبواب فلن تكون موضوعية أو حيادية بقدر ما تكون بحثا عن مسوّغات لهذه الرؤى التي تطرح الموضوع طرحا غير سليم، فلقد كانت كلّ النظريات والفرضيات قائمة عل أساس الغزو والنزوح والفتوحات والاحتلالات، فماذا يقول هؤلاء لو ثبت أنّ الأمازيغ هم امتداد حيّ للإنسان الأطلسي الموريتاني (إنسان المشتى وإنسان جبل ارحود ...) وأنّهم لم يأتوا من أيّ مكان من الأماكن التي افترضوها؟، بل هم امتداد لإنسان الهضبة "الصحراوية" صاحب الرسومات الصخرية في تاسيلي ناجّر (Tassili n'Ajjer) الذي نزح شمالا بعد جفاف الصحراء![2]. والحال أنّه خلافا لما تدّعيه هذه الطروحات لا بوجد أيّ دليل موضوعي يؤيّد الأصول الخارجية (الشرقية أو الشمالية) للبربر ولغتهم وعلى الأخصّ منذ بداية النيوليثي وهذه الطروحات لا تستند على أيّ أساس موضوعي قارّ ألسني أو أركيولوجي خاصّة وأنّ جلّ المؤرّخين والباحثين لا يأخذون في الاعتبار معطيات اللغة البربرية والآثار وإن حدث وأشار بعضهم إليها فباقتضاب لا يفي الموضوع حقّه.

---

1 - Camps (G.), L'origine des Berbères, in : Islam et société : anthropologie du Maghreb. Paris, CNRS, 1981, pp. 9-33.

2 شفيق (م.)، ثلاثة وثلاثون قرنا من تاريخ الأمازيغيين، نشر مؤسّسة توالت، المغرب 2003، ص 19-21.

الفصل الثالث

المعطيات الأنثروبولوجية

في هذا المنحى يقترح البعض الانطلاق في دراسة الموضوع من الأمازيغ ذاتهم منذ بداية المرحلة التاريخية تباعا، على الأقلّ، وربْط الموضوع بالمعطيات الأثرية، أي استغلال عنصرين أساسيين في البحث وهما الأنثروبولوجي واللغوي.

1. الإنسان العاتري:

ينبغي نزول سلّم الزمن بآلاف السنين لنفهم كيف تمّ تعمير هذه البلاد الشاسعة، الممتدّة ما بين رمال الصحراء وعباب البحر المتوسّط، ولنضع أنفسنا في العصر الذي يسمّيه المتخصّصون الباليوليثي الأعلى (Paléolithique supérieur) ففي تلك الفترة كان يعيش في أفريقيا المتوسّطية إنسان من "جنسنا" هو الإنسان العاقل العاقل (Homo Sapiens Sapiens) وهو صاحب الثقافة العاترية المشتقّة من الموستيرية (Moustérien) هذا الإنسان العاتري اكتُشف في موقع دار السلطان وهو منحدر من الإنسان الموستيري الذي عثر عليه في جبل ارحود (Irhoud)، ومن هذا الإنسان العاتري يكون قد انحدر الإنسان المشتوي[1].

2. إنسان المشتى:

هو إنسان كرومانيوني، ويحمل أهمّ خصائصه الجسمية: الطول (1,74م في المتوسّط للرجال، السعة الكبيرة للجمجمة 16,50 سنتم[3]، الرأس طويلة أو متوسّطة الطول)، وهو صانع الأدوات المسمّاة: إيبيروموريه (Ibéromaurusien) التي وجدت بقاياها في كلّ المنطقة الساحلية والتلّية، وهو معاصر للماغداليني (Magdalénien) والأزيلي (Azilien) الأوربيين وهذه الأدوات ذات ملامح إيبيالْيوليثية (épipaliolithique) لصغر حجمها[2]، وقد حاول الباحثون الأوربيون أن يجدوا لإنسان المشتى أصلا خارجيا أي أوربيًّا كرومانيونيا للشبه الكبير بينهما وأنّه يكون قد عبر إسبانيا

1 - Camps (G.), Nouvelles remarques sur l'âge de l'Atérien, Bulletin de la Société préhistorique française, t. 71, 1974, pp. 163-164.

2 - Camps (G.), L'Homme de Mechta el-Arbi et sa civilisation : contribution à l'étude des origines guanches, in: Simposio internacional conmemorativo del centenario del descubrimiento del primer hombre de Cro-Magnon, Madrid / Las Palmas, Patronato de la Casa de Colón, 1969, pp. 257-272.

ومضيق جبل طارق وانتشر في أفريقيا الأطلسية وجزر الكناري، واعتقد آخرون أنّ إنسان المشتى ينحدر من الإنسان العاقل (Homo sapiens) الذي ظهر في الشرق (Palestine)، ويضيف هؤلاء أنّ من ذلك المنشأ الأول تنحدر سلالتان: إنسان كرومانيون (Cro-magnon) الذي عمّر أوربا وإنسان المشتى الذي عمّر أفريقيا الشمالية[1]، وكأنّ هذا البحث العلمي يقتفي هو الآخر أثر الروايات الأسطورية والكلاسيكية عن الأصل الأوربي والأصل الشرقي لقدماء البربر، ولذلك يقع في تناقضات، حيث أنّه لم يثبت وجود قواسم مشتركة بين الناطوفي (شرقي فجر متوسّطي Natoufien proto méditerranéen) والمشتوي (Mechtoïde)، ولو كان هذا الأخير من أصول ناطوفية فكيف لا يترك أثرا أنثروبولوجيا ولو قليلا هناك؟.

تبقى في الأخير فرضية الأصل المحلّي وهي الفرضية التي يؤيّدها المنطق على الأقلّ، فمنذ اكتشاف العاتري تقبّل المتخصّصون اليوم (فيريمباخ وشاملا Ferembach et M.C. Chamla على الخصوص)[2] فكرة وجود سلالة مباشرة مستمرّة منذ النياندرتاليين الشمال أفريقيين (إنسان جبل ارحود) إلى الكرومانيونيين (Cromagnoïde) ويكون الإنسان العاتري الذي اكتسب خصائص الإنسان العاقل العاقل هو حلقة الوصل بينهما[3].

3. الفجر متوسطيون القفصيون:

يتحدّث المتخصّصون عن جنس"متوسّطي" متميّز قليلا عن الإنسان المشتوي، يكون قد ظهر منذ بداية الألف الثامنة ق.م.، وهو جنس لا تزال جماعات عديدة من شعوب البحر المتوسّط تحمل ملامحه (متوسّط القامة 1,75 م للرجال و1,62م للنساء، تناسق في أقسام الوجه، محجران رباعيان، أنف مستقيم ...)، وهذا الجنس أطلق عليه المتخصّصون اسم الفجر متوسّطي (Proto méditerranéen) الذي يوجد في مختلف بلاد البحر المتوسّط، وهناك مساجلات بين الباحثين في أصله أهو شرقي أم أوربي، وإذا كان

---

1 بالو (Balout) هو صاحب فكرة انقراض القفصيين وأنّ أفريقيا الشمالية شهدت موجة بشرية جديدة عمّرتها وقد ارتكز في فرضيته هذه على "اختلاف" مزعوم بين بقايا حضارة القفصيين وطقوس وتقاليد قدماء البربر وهذا "الاختلاف" ينبغي أن يكون محلّ بحوث ذات مصداقية لإثبات ما افترضه بالو، أنظر: -cf Lacoste Yves et autres, op. cit. pp. 66-67.

2 -Ferembach (D.), On the origin of the Iberomaurusians (Upper palaeolothic:North Africa) a new hypothesis, J. Hum, Evolu. 14, pp. 393-397.

3 لقد اعتنى المتخصّصون بتصنيف خصائص وملامح المشتوي، من خلال دراسة الجماجم التي تعود إلى فجر التاريخ وحتّى الفترة البونية والرومانية إلى الوقت الراهن وتوصّلوا إلى بعض النتائج غير النهائية والطريفة أحيانا، ومنها أنّ هذا الإنسان ظلّ في تناقص مستمرّ فاسحا المجال لسلالة أخرى دون تقديم الأسباب ...

الباحثون وهم أوربيون قد تخلّوا الآن عن فرضية الأصل الشرقي[1] فإنّ فرضية الأصل الأفريقي المشتوي تنتظر من يهتمّ بها، ومن جهتنا نعتبر هذا الجنس امتدادا للمشتوي وأحد سلالاته.

4. الحضارة القفصية :

هي حضارة قبل تاريخية أخذت اسمها من اسم قفصة القديم (Capsa) وتمتدّ في الزمان ما بين الألف الثامنة والألف الخامسة قبل الميلاد، وقد تمكّن الباحثون من الكشف عن عناصر هذه الحضارة من خلال مواقع رماديات الحلزون (Escargotières) انطلاقا من منطقة واسعة في التراب التونسي والجزائري مركزها قفصة وهي حضارة متميّزة بأدواتها الحجرية الصقيلة ممّا جعل كامبس يستنتج بأنّها أصل الفنّ البربري ويقول بوجود شيء من القرابة بين الزخرف القفصي النيوليثي والزخرف البربري في الوشم والنسيج والفخار وهو زخرف يحتفظ دائما بالشكل الهندسي الذي هو ميزة الفنون البربرية منذ فجرالتاريخ إلى الفترة الحديثة، ولقد أهمل الأثريون بقايا الهياكل العظمية التي عثر عليها في الرماديات ظنّا منهم أنّها لأشخاص دفنوا حديثا، وقد تكون هذه التعلاّت مقصودة، والحال أنّ القفصيين الفجر متوسّطين هم أسلاف المغاربة الحاليين، ولا يتردّد غابريال كامبس في اعتبارهم رأس السلالة البربرية وهذا منذ 9000 سنة، وفي اعتقادنا لا شيء يمنع من اعتبار من يسمّيهم المتخصّصون بالمتوسّطين نتاجا للمشتويين بفعل تطوّر داخلي[2]، مع ما في الموضوع من جدل بين الباحثين.

يحمل المغاربة الحاليون خصائص الجنس المتوسّطي الذي وُجد في الشمال الأفريقي منذ العصر النيوليثي، وبعض هؤلاء المتوسّطين يمتاز بالنحافة والبعض الآخر ذو بنية قوية (Robuste)، وهذان النوعان لا يزالان إلى اليوم وهما منتشران في كلّ جهات الشمال الأفريقي، يتوزّع النوع النحيف في المنطقة التلّية الساحلية بينما ينتشر النوع القوي في المناطق الداخلية والصحراوية وعند بدو البربر الرحّل، والخلاصة أنّ شعوب الشمال الأفريقي لا تزال تحمل ملامح قدامى البربر(Paléoberbères)، وقد قاومت كلّ

---

1 لا يزال الموضوع غير نهائي لأنّه مرتبط بالدراسات والأبحاث الأثرية المستجدّة، أنظر:
- Camps (G.), Berbères: Mémoire et Identité, éditions Barzakh 2007, pp. 331-332.

2 يرى غابريال كامبس أنّ المشتوي يمتاز بالنحافة بينما يمتاز الفجر المتوسّطيون بأجسام قوية...

الأحداث التاريخية واحتفظت عبر أجيالها المتعاقبة بأصالتها وإذا استعرب لسانها اليوم فإنّ أعرافها وتقاليدها ظلّت أمازيغية[1].

1 - Coudray (C.) et autres, Diversité génétique (Allotypie GM et STRs) des populations Berbères et peuplement du Nord de l'Afrique, Actes de Colloque du groupement des Anthropologistes de langue française, in Anthropologie, Paris 2006, p. 81.

الفصل الرابع

الوضع اللغوي

في الشمال الأفريقي القديم

كان الشمال الأفريقي القديم متفتّحا على لغات وثقافات البلدان المطلّة على البحر المتوسّط، فقد تمركزت اللغة الإغريقية في قورين والفينيقية في قرطاج لتخلُفَهما اللاتينية التي هيمنت على البلاد فترة طويلة، وهذه اللغات الوافدة كانت مستعمَلة من قبل النخب الثقافية وفي بعض الأنشطة التجارية في الموانئ على الخصوص، أمّا لغة الشعب عبر العصور فهي اللغة الليبية التي تنحدر منها لهجات اللغة التي نسمّيها اليوم الأمازيغية، وقد ظلّت هذه اللغة تصارع تقلّبات الزمن، فتحوّلت إلى لغة شفوية بعد أن فقد الشمال الأفريقي القديم سيادته، واستمرّت كذلك عبر فترات التاريخ اللاحقة، وهي الآن عبارة عن لهجات تفتقر إلى مرجعية توحّدها، وإذا لم تستفد من الخدمات الإعلامية والمدرسية فإنّ مصير ما بقي منها هو الانقراض.

اللغة كما هو معروف هي أهمّ عنصر لدراسة الشعوب[1]، وذكر حسن الوزّان أنّ البربر لهم لغة واحدة يسمّونها: **أوال امازيغ** (Awal amàzigh) أي اللغة النبيلة، والدليل على قدم اللغة الأمازيغية وتعايشها مع لغات أخرى هو احتواؤها اليوم على عدد من المفردات من عدد من اللغات اللاتينية والإغريقية وخاصّة العربية، غير أنّ هذا لا يمكن أن يُفهَم منه فقر هذه اللغة في المفردات أو في التعبير الدقيق ولكن السبب يعود إلى الطابع الشفوي الذي لازمها قرونا طويلة[2]، ومثلما رأينا في فرضيات الأصل العرقي للسكّان كانت اللغة البربرية محلّ فرضيات عديدة من حيث أصلها واشتقاقها وانتماؤها، وقد أرجعها برتولون (Bertholon) إلى أصول إغريقية وأنّها لهجة هلّينية

---

1 يبدو أنّ اعتبار البربر هم الناطقون باللغة البربرية فقط هي مقولة قائمه على الجهل عند البعض وعلى مغالطة مقصودة عند البعض الآخر، وهذا البعض المغالط ما هو إلاّ أسير لحساباته الأيديولوجية التي يغذّي بها أوهامه، والحال أنّ هذا الشعب البربري مثلما رأيناه يخصّ نفسه بلغة فينيقية تحمل خصوصيته هي البوني الجديد (Néo-punique) قديما، صنع لنفسه حديثا من اللغة العربية لغة خاصّة به هي عربية أفريقيا الشمالية (العامّية أو الدارجة)، ولذلك فإنّ الكلام عن البربر والشعب البربري هنا هو كلام عن كلّ الشعب المغاربي.

2 - Chaker (S.), Résistance et ouverture à l'autre: Le Berbère, une langue vivante à la croisée des échanges méditerranéennes, un parcours lexicologique, IN Aete du colloque : L'Interpénétration des cultures dans le bassin occidental de la Méditerranée (Paris , Sorbonne, 14/11/2001), Paris Mémoire de la Méditerranée 2003, pp. 131-154.

ورأى آخرون أنّها من أصل سومري، وجعلها البعض الآخر من نفس العائلة اللغوية للغة الباسكية...الخ، وللردّ على هذه الطروحات يحاول الباحثون في اللغة والألسنية الأمازيغية (Berbérisants) إثبات أصالتها وأنّها منحدرة من اللغة الليبية (Le Libyque) وأنّ اللغة المكتوبة بالحرف الليبي في النصب الجنائزية هي الشكل القديم للهجات اللغة الأمازيغية الحالية، وهذا ما يظهر في أعمال أندري باسي (A. Basset) وليونال غالان (Lionel Galand) وغيرهما من المتخصّصين.

1. النقوش الليبية:

وهي في أغلبها كتابات على النصب الجنائزية، وتعود إلى فترة تمتدّ من القرن الخامس ق.م. إلى الفترة الرومانية، وقد تمّ جمعها وتدوينها وكانت محلّ أبحاث ودراسات، ورغم مرور أكثر من قرن من الجهود المتواصلة فإنّها في أغلبها غير مقروءة، رغم وجود وسائل هامّة بين أيدي الباحثين مثل النصوص المزدوجة (ليبية-بونية وليبية-لاتينية) ومعرفة الشكل الحالي للّغة، لأنّه ينبغي التقدّم في البحث لإثبات الصلة الموجودة بين اللغة الليبية واللغة الأمازيغية خاصّة وأنّ كلّ المعطيات التاريخية تشير إلى وجود تلك الصلة: أسماء الأعلام، أسماء الأماكن، المخزون المعجمي، المصادر الأدبية، وإذا لم يكن الليبي هو الشكل القديم للأمازيغي فكيف تكوّنت اللغة الأمازيغية؟، والحال أنّ سبب التأخّر في هذا المجال يعود إلى أنّ البربريين (الباحثون في اللغة البربرية) قليلون، والمهتمّون المختصّون بجمع وتدوين مفردات اللغة الأمازيغية الحالية قليلون أيضا خاصّة وأنّ الموضوع كان من المحرّمات السياسية، أمّا الهواة والجامعيون فليس لهم في الغالب الكفاءات الضرورية لخوض هذا الموضوع، خاصّة وأنّ الأبجدية الليبية تتكوّن من الحروف المتحرّكة (Consonantique) وهو ما يزيد في تعقيد قراءتها، وكان شامبوليون الذي فكّ رموز الكتابة الفرعونية قد اطّلع على أقدم قاموس حديث للغة البربرية لمؤلّفه فونتور دو بارادي (Venture de Paradis) واستنتج منه وجود قرابة بين اللغتين البربرية والمصرية القديمة أمّا المتخصّصون في اللغات السامية فقد اجتهدوا كثيرا لإثبات أصلها السامي وصنّفوها في عائلة اللغات الحامية السامية (Chamito-sémitique).[1]

---

1 شنيتي (بشير)، إضاءة على شواهد، في **دراسات في آثار العالم العربي**، كتاب الملتقى الثالث لجمعية الأثاريين، ج1، القاهرة نوفمبر 2000، ص 407.

لم يكن التاريخ في صالح اللغة الليبية، فقد فُرض عليها الدخول في منافسة صعبة مع لغات قوية كاللغة الإغريقية التي تمركزت في وقت مبكّر في المنطقة الشرقية من الشمال الأفريقي القديم(قورينائية Cyrénaïque)واللغة الفينيقية التي تمركزت في قرطاج والمستعمرات التابعة لها[1]، وفي الفترة الرومانية زادت عزلة اللغة الليبية، وعموما فإنّ اللغة عبر العصور تظلّ قوية بقدر ما يتوفّر لها من سند ثقافي وسياسي وديني ، ولا يمكن لأيّة لغة أن تستمر دون هذا السند.

كان الشمال الأفريقي القديم كما ذكرنا متفتّحا على لغات وثقافات البحر المتوسّط، فقد صنع لنفسه من اللغة الفينيقية لغة خاصّة به هي اللغة البونية لغة الحواضر الأفريقية والنخب السياسية والمعاملات التجارية، وستشهد هذه البونية نقلة أفريقية أخرى بظهور اللهجة والكتابة البونية الجديدة (Néopunique)، وهما آخر شكل لساني وكتابي للفينيقية الأفريقية قبل انقراضها، ولعلّ بعض مفرداتها لا تزال في لهجات اللغة الأمازيغية إلى اليوم[2]، ولم تكن اللغة الإغريقية أقلّ حظّا فقد ظلّت لغة النخبة المثقّفة في قورين، هذا الأخيرة ظلّت إغريقية حتّى في الفترة الرومانية واعتُبرت ضمن القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية الذي ظلّ إغريقيّاً قبل وبعد انقسام الدولة الرومانية[3].

تعود بدايات الهلّيَنة (انتشار الثقافة والحضارة الإغريقية) في المملكة النوميدية إلى فترة حكم ماسينيسا، وتذكر المصادر في هذا السياق أنّ بلاطه كان حافلا بالموسيقيين والأدباء والفنّانين الإغريق، وأنّه أنشأ أبناءه الثلاثة الذين أوصى لهم بالحكم من بعده وهم مكوسن وقولوسن ومسطان تنشئة إغريقية، وهذا يعني تعايُش ثلاث لغات في البلاط النوميدي: الليبية لغة البلاد والبونية والإغريقية، وكما هو معروف فإنّ هذه الأخيرة كانت آنذاك لغة عالمية لكلّ العلوم والفنون[4]، وستبلغ الهلّيَنة في أفريقيا أوجها

1 الأثر الذي أحدثه الأمازيغ في اللغة الفينيقية هو إخضاعها لنطقهم وهو ما أدّى إلى ميلاد لغة جديدة متكوّنة من اندماج اللسان الفينيقي باللسان الليبي وهذه اللغة الجديدة هي اللغة البونية، ثم اللغة والكتابة البونية الجديدة (Néo-punique) التي ظهرت بعد سقوط قرطاج.

2 نقصد بالفينيقية الأفريقية اللغة البونية الحديدة، ولعلّ الموضوع سيكون أكثر وضوحا لو استمرّت أمازيغية تونس (الورغمّة على الخصوص) فلاريب أنّ احتكاك اللغتين البونية والليبية ببعضهما في ضواحي قرطاج سيسهّل عبورالمفردات في الاتجاهين من البونية إلى الليبية والعكس.

3 ازدهرت الثقافة الإغريقية في قورين التي أصبحت مركزا لمدرسة فلسفية متميّزة أسّسها أريستيب 435- 455 ق.م. وهو تلميد سقراط وخصم أفلاطون تأثّر بالسفسطائيين، تقوم فلسفته على أنّ جوهر السعادة يكمن في اللذّة الحسّية، تأثّر به أبيقور الذي أقام فلسفته على هذا الأساس.

4 شيتي (محمّد بشير)، لمحة عن التفاعل الثقافي في الجزائر القديمة،في محلّة الإنسان، صادرة عن مركز البحوث في الأنثروبولوجيا وما قبل التاريخ والإثنوغرافيا، عدد 2 الجزائر1983، ص 18-19.

على يد الملك يوبا الثاني ولكن الزحف الإمبراطوري الروماني أوقفها في كلّ العالم القديم لتحلّ محلّها الرومنة.

دامت الفترة الرومانية في الشمال الأفريقي القديم ما يربو على خمسة قرون (146ق.م.—439 بعد الميلاد)، وتركت بصمات واضحة في مختلف مناحي الحياة[1]، ومنذ القرن الثاني الميلادي ظهرت نتائج الرومنة في شكلها الثقافي متمثّلة في الكتّاب والأدباء الأفريقيين (أبوليوس وأولو جال وفرونطون السيرتي) ومن الفترة المسيحية: ترتوليانوس والقدّيس أوغسطين على الخصوص، وقد كان ظهور هذه النخبة وامتلاكها لناصية اللغة والثقافة اللاتينية السند الذي ارتكز عليه القائلون بأنّ البربر يحقّقون ذاتهم في ثقافة الآخر.

2. اللغة الليبية:

اللغة هي الأصوات المنطوقة التي تكوّن كلمات وجملا، وهي أداة تواصُل وتعبير عن المشاعر والأحاسيس والأفكار، واللغة هي **منظومة نحوية صرفية** قبل كلّ شيء، لأنّ المفردات تظهر وتزول من عصر إلى آخر أمّا المنظومة النحوية الصرفية (الإعراب، الضمائر، أزمنة الأفعال...) فهي التي تبقى دائما، وتنقسم اللغات إلى أسر حسب اشتقاقها أو تفرّعها من بعضها، ويستنتَج هذا التفرّع من التقارب في منظومة النحو والصرف، وتنتمي اللغة الليبية حسب المتخصّصين في فقه اللغة إلى **مجموعة اللغات** الحامية (Chamitique) التي منها **اللغة الفرعونية**[2].

اللغة الليبية هي أمّ اللهجات البربرية الحالية، وحيث أنّ التراث الذي يكون قد كُتب بها اندثرعبرالعصور ولم يبق منه إلاّ بعض النصوص الأثرية ذات المحتوى الجنائزي في الغالب[3] فإنّ اللهجات البربرية اليوم. لم تتمكّن من الاحتفاظ بالشكل المطابق بدقّةلماكانت عليه أمّهااللیبية بسبب العزلة وكذا الوضع الشفوي الذي لازمها قرونا

---

1 لا يزال العديد من المفردات اللاتينية في اللهجات العامّية في أفريقيا الشمالية إلى اليوم مثل: دي (de) ومنها اشتُقّت ديال (della)، والروضة (rota) (العجلة) والريبا (ripa) (المنحدر) ...الخ.

2 كثيرا ما يقع الخلط في موضوع اللغة واللهجة ولذلك أردنا أن نوضّح هذه المسألة فاللهجة هي الطريقة التي تنطق بها لغة ما في إقليم أو مدينة أو مجتمع محلّي، واللهجة في الواقع مشتقّة من اللغة ولكن لا تتقيّد بقواعد النحو والصرف وفيها تصحيف الكلمات وقلب الحروف... ولذلك نجد عدّة لهجات في اللغة الواحدة كاللغة العربية التي تختلف لهجاتها من بلد إلى آخر، والحال أنّ أيّة لغة كانت في البداية لهجة.

3 اعتنى بجمعها ودراستها كلّ من جوداس **Judas** والدكتور روبو **Reboud(DR)** والضابط فيدارب **Faidherbe** على الخصوص.

متوالية، والشيء الذي يوحّد هذه اللهجات إلى اليوم هوعلى الخصوص قواعد النحو والصرف والمخزون المعجمي إلى حدّ ما، إذا كان اختراع الكتابة هوالذي نقل الشعوب من ما قبل التاريخ إلى الفترة التاريخية فإنّ الشمال الأفريقي القديم لم يكن استثناء فقدكان ابتكار الكتابة الليبية مؤشّرا على دخوله التاريخ[1] مع أنّ بعض الدارسين يحاولون إحاطة هذاالموضوع بالغموض لزرع بعض الطروحات التي تدعّم نظرية "القصورالحضاري للمغاربة"[2].

إنّ اللغة الليبية من أقدم اللغات فقد كانت معاصرة للغات قوية مثل الفرعونية واللاتينية اللتين كانتا تتمتّعان بالحماية في كنف القوّة السياسية ومع ذلك اندثرتا اليوم، بينما "نجت" اللغة الليبية التي فقدت السند السياسي منذ زوال المملكة النوميدية، وفي هذا المجال استخلص الدارسون أنّ لهجات اللغة الليبية المستمرّة إلى الآن وجدت سندها في العائلة والتضاريس الجغرافية ولذلك استمرّت على الخصوص في المناطق الجبلية[3].

3. لهجات اللغة الليبية :

كما أشرنا سابقا تسبّبت العزلة واتساع الرقعة الجغرافية في ظهور لهجات لها خصوصياتها ولكن تنحدر جميعها من اللغة الليبية[4]، وليست لدينا مؤشّرات عن بدايات هذه اللهجات أهي قديمة منذ الفترة الرومانية أم هي أحدث، وعلى العموم فإنّ أهمّ هذه اللهجات المستمرّة إلى الآن هي :

- السيوية : وهي لهجة واحات سيوة المصرية قرب الحدود المصرية الليبية، وهذه الواحات كانت دائما بوابة بلاد البربر في الجهة الشرقية [5].

---

1 حاول البعض بخلفية إيدبولوجية وأحكام مسبّقة الطعن في أصالة الكتابة الليبية واعتبارها بمجرّد محاكاة لكتابات أخرى وأجهدوا أنفسهم في هذا المجال بحثا لها عن أصول فينيقية أو متوسّطية عموما وحتّى يمنية... مع أنّ خطّ تسلسل تطوّر التعبير الكتابي في الشمال الأفريقي القديم واضح جدّا، فمن الرسوم الصخرية بالطاسيلي إلى ما يُعرَف بالحجارة المكتوبة كمرحلة انتقالية إلى الألفباء الليبية أخيرا، أنظر:

- Breui! (abbé H.), les roches peintes du Tassili n'ajjer, Actes de 2ème congrès panafricain de Préhistoire, Alger 1952, pp. 69-219. ; -Soulignac (M.), les pierres écrites, de la Berbérie Orientale (Est Constantinois et Tunisie) Tunis 1928, fig. 28.

2 النظرية التي وضعها وروّج لها إميل قوتيي وهي أنّ الأفريقيين عاجزون عن أيّ إبداع حضاري وأنّهم على الدوام يـــدعون في ثقافات الآخرين، وهي النظرية التي وضع على أساسها كتابه: ماضي شمال أفريقيا ..

3 عرف مجتمع الشمال الأفريقي انقلابا لغويا جذريا منذ الفتح الإسلامي حيث أنّ اعتناق الإسلام كان في نفس الوقت اعتناقا للغة العربية التي تكلّمها المغاربة بالشكل الذي نعرفه اليوم وهو: العربية كما تكلّمها البربر، أي عامّية شمال أفريقيا.

4 تحصر العامّة ومن ورائها بعض المتثاقفين الانتماء الأمازيغي في استعمال أو عدم استعمال هذه اللهجات في التخاطب.

5 يمكن الرجوع في موضوع أمازيغية سيوة إلى دراسة لاوست القيّمة:

- Laoust (E.), Siwa: son parler, éd. Leroux, Paris 1939

- **النفوسية** : وهي لهجة جبل نفوسة ومدينة زوارة الليبية وجزيرة جربةبتونس.

- **ورغمّة** : لهجة أمازيغية في عديد الجهات التونسية، وتكاد أن تنقرض اليوم.

- **الزناتية** : وتنتمي إليها لهجة الظهرة من تيبازة إلى مستغانم، والشاوية[1] في الشرق الجزائري، والميزابية في واحات غرداية وورقلة، والزناتية في الورشنيس (Ouarsenis) وقلعة السنَد (تونس) وواحات تيميمون وقورارة، وكذا لهجة ناحية تلمسان(بني سنوس والغزوات أمّا مُسيردا فهي آيلة إلى الاستعراب النهائي).

- **لهجة كتامة** أو قبايل الحدرة : في المنطقة الساحلية ما بين سكيكدة وجيجل وتمتاز عن بقية اللهجات البربرية الأخرى بقلب الظاء طاء وتكاد أن تندثر اليوم في هذه المنطقة الآيلة إلى الاستعراب النهائي لغويا[2].

- **الصنهاجية** : ومنهالهجة زواوةفي قبائل جرجرة، وكذا لهجة التوارق في الجنوب.

- **المصمودية** : في المغرب الأقصى ومنها الشلحية... إلخ[3].

في دراسة مقارنة لاحظ المتخصّصون أنّ هيمنة اللغات القوية جعل اللغة الليبية واللهجات المنحدرة منها تدمج مفردات هذه اللغات ضمن مفرداتها وتخضعها لقواعد النحو والصرف الليبي لتركيب لغة عملية تساير الواقع، ومع أنّ هذا الوضع يؤدّي إلى الانقراض التدريجي بالنسبة لِلُغَةٍ فُرِضت عليها حالة الشفوية، إلاّ أنّ مقتضيات الحياة الاجتماعية تفرض ذلك[4]، ولا ريب أنّ هذا الوضع جعل بعض المفردات البونية

---

1 الملاحظ حسب اللغويين المتخصّصين أن أمازيغية جبل أوراس قريبة من أمازيغية جرجرة خاصة في نطق الخاء الألمانية أما أمازيغية أث سلطان وأث فاظمة على الخصوص فهي قريبة من لهجة كتامة في نطق الظاء طاء أما أث بوسليمان فينطقون القاف المعقودة (G) ياء وهو ما نلاحظه في لهجة قبايل الحدرة حتى بعد استعرابهم.

2 هذا التميّز استمرّ كما هومعروف حتّى بعد استعراب هذه المجموعة السكّانية (الظهر يُنطَق الطهر والضرب يُنطَق الطرب... الخ)، والحال أنّ الاستعراب الذي شمل قبائل كتامة وقبائل مسيردا وهما أحدث الجماعات البربرية استعرابا يتعلّق باللسان أمّا نمط الحياة فلايزال أمازيغيا، وحتّى استعراب اللسان لم يكتمل بعد ولذلك نراه لا يزال يتفاعل مع التحوّلات الجديدة التي جاءت بها المدرسة والإعلام بعد الاستقلال،ويبدو لنا أنّ البحث عن بقايا لهجة كتامة يمكن أن يوصل المهتمّين إلى استرجاعها لأنّ هذه اللهجة – حسب قراءاتنا المتواضعة في هذا المجال – لا تزال مستمرّة عند بعض المجموعات القبلية ومنها جعافرة في البيبان وأولاد سلاّم في السهول العليا الشرقية وغيرهما.

3 Gsell (S.), H.A.A.N., T. 1, p. 309. - ؛ ومن الخطأ اعتبار هذه اللهجات لغات قائمة بذاتها،بل هي لهجات للغة واحدة في منظومتها النحوية والصرفية،بحيث أنّ السنوسي (المنتمي إلى قبيلة آث سنوس:بني سنوس) الذي ينتقل إلى زواوةلن يجدلغة أخرى ولكن سيجدبعض المفردات والصيغ غيرالمألوفة لديه في لهجته السنوسيةفيكتسبهابسرعة وبذلك يكون قد أثرى قاموسه اللغوي لأنّ الاختلاف يكمن في تصحيف الكلمات وقلب الحروف وليس في جوهراللغة.

4 وقد ورثت عربية أفريقيا الشمالية (وهي كما أشرنا سابقا العربية كما تكلّمها البربر) هذه الخاصية، ولذلك نرى يوميا قدرة هذه اللغة الدارجة في التكيّف مع مقتضيات الحياة اليومية من خلال التراكيب اللغوية الجديدة المستحدثة، وقديما قال نحاة العرب خطأ شائع أفضل من الصحيح المهجور، مع أنّ أهل النقاوة في اللغة (Puristes) يعترضون على هذا الوضع.

وخاصّة اللاتينية تتسرّب إلى اللغة الليبية وتندمج فيها[1]، ومع ذلك فإنّ المفردات الليبية تسرّبت بدورها إلى اللغات القديمة، فقد نقل الكتّاب القدامى عددا من المفردات التي أخذوها من الليبيين وأخضعوها لقواعد إعراب اللغات التي كتبوا بها إغريقية ولاتينية عدّ منها اقزال حوالي الخمسة عشر كلمة[2] وبعد إسهابه في الموضوع خلص إلى أنّ استئناس الباحثين المتخصّصين بلهجات اللغة الأمازيغية في غاية الأهمّية لأنّه سيمكّنهم من اكتشاف معاني الكثير من الأعلام الجغرافية والشخصية الأفريقية[3].

---

1 أمّا المفردات العربية في اللهجات الأمازيغية الحالية وكذا المفردات الأمازيغية في عربية أفريقيا الشمالية فهي كثيرة بحكم التعايش بين اللغتين الذي امتدّ على 14 قرنا ويزيد.

2 أنظر هذه الكلمات والتعليق المستفيض عليها في الجزء الأول من التاريخ القديم لأفريقيا الشمالية لسطيفان اقزال، ص 312-313 (بالفرنسية).

3 - Gsell (S.) , H.A.A.N., T, I. p. 316.

ألفباء ليبية أفقية من اليمين إلى اليسار	المقابل اللاتيني	ألفباء ليبية عمودية من أسفل إلى أعلى	المقابل اللاتيني
	A		A
	b		b
	g		g
	d		d
	w		w
	z		z
	z		z
	z		ṭ
	ṭ		i
	i		k
	k		l
	l		m
	m		n
	n		ṣ
	ṣ		f
	s		ç ou ṣ
	f		r
	ç ou ṣ		š
	q		t
	r		signe de gutturale ou de voyelle
	š		signes non identifiés.
	t		
	t²		
	signe de gutturale ou de voyelle		
	non identifié		

Alphabet libyque (J.B. Chabot)

الشكل (46) الألفباء الليبية نقلا عن شابو

الباب الثالث

المعتقدات الدينية الأفريقية

الفصل الأول/ الآلهة الكبرى: عبادة الخصوبة عنصر الحياة

1. تانيت.
2. أمون ومكانته ضمن البانثيئون الأفريقي.
3. الآلهة الماورية وتقديس الأرواح.
4. غيث السماء، نسغ الأرض.
5. الإنسان، مرتكز المقدّس.

الفصل الثاني/طائفة صغار الآلهة

1. فئة أخرى من الآلهة.
2. نصوص إهدائية للآلهة المورية.
3. شواهد من تأليه الملوك.
4. أسماء الآلهة عند البربر.

الفصل الثالث/تقديس المكان والحيوان

1.الجبال والمغاور والصخور المقدّسة.
2. الحيوانات والمقدّس.
2. 01- الكبش.
2. 02- العجل.
2. 03- الحيّة.
2. 04- الأسد.

الفصل الرابع/ الاحتفاء بالآلهة

1. المعابد وتجسيد الآلهة
2. الطقوس الجنائزية، زخارف "الحوانيت"
3. البازينة والتيملوس المقبّبة.
4. الفخار الجنائزي المرسوم في قسطل وتيدّيس.

الفصل الأول

الآلهة الكبرى

عبادة الخصوبة عنصر الحياة

إنّ موضوع المعتقدات الدينية موضوع واسع وغزير، فهو يعكس مختلف الأوهام والأفكار التي تنشأ من علاقة المجتمعات ببيئتها الطبيعية عموما، وخاصّة مختلف الظواهر الطبيعية التي كانت غرابتها وغموضها وجبروتها تثير في الإنسان عديد المشاعر التي تتراوح بين الرجاء والخوف والتفاؤل والتشاؤم، وهو ما يغني خيال الإنسان الذي تدفعه أوهامه إلى مبادلة الظواهر الطبيعية بمشاعر وإيماءات ومناجاة... تنشأ عنها المعتقدات والأديان وعلى الخصوص في عصور الوثنية.

كانت البيئة الأفريقية (بلاد البربرLA BERBERIE) المتنوّعة في تضاريسها ومناخها قد أوحت للإنسان الأفريقي القديم كغيره في بيئات أخرى بالكثير من الأوهام التي بنى عليها معتقداته وصاغ منها طقوسا وشعائر رافقت حياته أجيالا طويلة، وهو في هذا المجال ليس استثناء ومثله مثل الإنسان في باقي الشعوب كانت هذه الأوهام والعقائد هي التي تزوّده بالأمل والقوّة لينتصر على مصاعب الحياة وعلى طوارئ الزمن[1].

نحاول في هذا الباب تتبّع مختلف جوانب الحياة الدينية في أفريقيا القديمة بالتركيز على خصوصيتها وحتّى على صمودها في وجه المؤثّرات الدينية الوافدة، ولا ريب أنّ دراسة المعتقدات هي من الأهمّية إلى حدّ أنّه لا يمكن التأريخ لذهنيات الشعوب دون الغوص في موروثها العقائدي الذي مهما كان بعيدا في الزمان سيظلّ عنصر تأثير في حياتها الدينية والاجتماعية، ولعلّ الكثير من "الطقوس" التي لا تزال إلى اليوم في عديد المناسبات الاجتماعية على امتداد الشمال الأفريقي تعود إلى أصول قديمة وظلّت تحمل خصوصيات هذه المنطقة ممّا يدلّ على أنّ جذوة التاريخ ظلّت دائما متّقدة تعبّر عن حيويّة هذه الأمّة.

1 - Camps (G.), La naissance du sentiment religieux durant les temps préhistoriques et les premiers pélerinages, in: Histoire des pèlerinages non chrétiens : entre magique et sacré, le chemin des dieux, Branthomme H., Chélini J. (Dir.), Paris, Hachette, 1987, pp. 25-34.

يمكن تناول موضوع المعتقدات الإلهية عند قدماء البربر بعناصره الرئيسية السابقة لانتشار المسيحية، بحيث أنّ ديانة قدماء الأفريقيين تتجلّى في مظاهر غاية في التنوّع ولعلّ هذا التنوّع يعكس الوضع البيئي والاجتماعي الذي انبثقت منه هذه المعتقدات والشعائر المرتبطة بمجموعات قبلية وبمستويات ثقافية مختلفة.

لقد أدمج المؤرّخون المعتقدات الأفريقية في المعتقدات الفينيقية ومارسوا طمسا حقيقيا للمعتقدات الأفريقية، مع أنّ البيئة الاجتماعية مختلفة وبالتالي المعتقدات، فالفينيقيون يسيطر عليهم هاجسان: الملاحة والتجارة، ولم يتخلّصوا من طقس تقليدي سامي قديم حتّى وهُم في بيئة جديدة وبعيدة عن الوطن السامي وهو تقديم القرابين الآدمية من الأطفال، وطبيعي أن يكون هذا الطقس الغريب والبشع سببا في النفور من العقائد الفينيقية والسامية عموما، وعلى العكس من ذلك أنجبت المخيّلة الأفريقية إلهان مهيمنان على النزعة الروحية في الشمال الأفريقي القديم وهما تانيت إلهة الأمومة والطفولة والخصب وآمون إله الخير وخلود الروح، وهما إلهان سماويان[1]، والماء مثل الحياة جاء من السماء، وفي السماء مقرّ الآلهة العليا للأفريقيين القدامى، والأدلّة على هذا الاعتقاد قديمة وأكيدة، يقول هيرودوت: تقدّم القرابين للشمس والقمر[2] من قبل جميع الليبيين ما عدا المقيمين منهم في جوار بحيرة تريتونيس[3] ويؤكّد كلّ من بلين الكبير[4] وديودور[5] هذا القول.

يكرّر ابن خلدون القول بوجود عبدة الشمس والقمر بين البربر خلال الفتح الإسلامي، ولكن النصّ الأوضح في هذا الباب هو نصّ شيشرون الذي يخبرنا بأنّ ماسينيسا مع أنّه كان متأثّرا كثيرا بالثقافة البونية إلاّ أنّه عند استقباله سيبيون الإيميلي لم يتضرّع إلى آلهة قرطاج، وجاء في سياق دعائه: "أتوجّه إليكِ أيّتها الشمس العالية وإليكِ يا آلهة السماء جميعاً بأن تجعليني - قبل أن أغادر هذه الدنيا - أرى في بيتي وفي مملكتي

---

1 يقول ترتوليان (مسيحي أفريقي من القرن الثاني الميلادي) أنّ الوثنيين (ويقصد الأفريقيين) يتوجّهون بالدعاء إلى الآلهة السماوية التي تعدهم بالمطر Virgo caelestis pluviarum pullicitatrix، أنظر :

- Tertullien, Apologie, 23

2 في كلّ لهجات اللغة البربرية اسم الشمس هو: ثافوكث (Tafukt) وينبغي أن تنطق الكاف كالخاء الألمانية،وهو اسم مؤنّث كما نرى،وهو ما يعني أنّ قدماء البربر عبدوا الشمس في صورة إلهة،أمّا القمر فاسمه: يور وهو اسم مذكّر أي أنّ قدماء البربر عبدوه على أنّه إله، وهذا التأنيث والتذكير مطابق للغات الشرقية ومنها العربية، غير أنّ اسم الشمس في لهجة القبائل في الغالب هو: إطّيج Ittij وهو اسم مذكّر ويعني قرص الشمس، أنظر: .Basset, ... p. 305 -.

3 - Hérodote, 37.

4 Pline l'ancien, II, 103.

5 Diodore de Sicile, III, 57.-

كورنيليوس سيبيون...[1]" ولا ريب أنّ بلاغة شيشرون قدأدخلت تعديلا على نصّ الدعاء ولكن مضمونه يبقى حقيقيا.

إنّ آثار هذه العبادة الفلكية (Culte Astral) نادرة، ما عدا أشكال الشمس والقمر التي تظهر في موكب ساتورن على عدّة نصب من الفترة الرومانية وفي بعض الحالات يكون القمر والشمس متلازمين كما يظهر في عدّة تماثيل لأنّ لهما ميزة فلكية معروفة، ومن المهمّ هنا التذكير بصور قرص الشمس[2] أو النجمة التي تزيّن عديد المدافن تحت الأرض[حوانيت Hypogées] في المغارات الجنائزية وعلى بلاطات الدولمان، واسم الإله يرو (Ieru) هو الوحيد الذي ذكرته النصوص الإهدائية بصيغته البربرية وهي صيغة المفرد المذكّر: يور Iour = القمر، ويظهر في النقوش لوحده دون كواكب أخرى معه.

1. تانيت

هي إلهة أفريقيّة من بيئة أفريقيّة (أنظر أعلاه الشكلين 8 و 9 ص37) ، وطبيعي أن تُعبَد في قرطاج حتّى أصبحت في القرون الثلاثة الأخيرة سيّدة المدينة الأولى، وتقاسمت العرش الإلهي مع إله أفريقي آخر هو آمون (بعل آمون أو هامون)، والدليل على أفريقيتهما أنّه لا أثر لعبادتهما في فينيقيا[3]، بل إنّ تانيت غير معروفة هناك تماما رغم تجنّد كلّ مؤرّخي الساميات تقريبا لإثبات فينيقينها، وحتّى الاكتشافات الأثرية لم تثبت أيّ شيء في هذا المجال، ولا أثر لتانيت[4] في بانثيئون رأس شمرا أو أيٍّ من المدن الفينيقية، وكذلك لا أثر للإله إيل (El) في بانثيئون قرطاج، هذا الأخير يختلف اختلافا جذريا عن نظيره في رأس شمرا، مع أنّ البعض حاول أن يستخلص من مقاربات تلفيقية بعض ما يشبع نزعاته في هذا المجال.

على امتداد القرون الثلاثة الأخيرة في حياة قرطاج،أصبحت كلّ المؤشّرات تدلّ على أنّ تانيت هي المعبودة الأولى في البانثيئون القرطاجي،وهو ما اعتبره بيكار "ثورة

1 - Cicéron, De Respublica, IV, 4.

2 من الطقوس التي بقيت إلى يومنا من عبادة الشمس القديمة هو أنّ الطفل عند نزع أسنان الحليب يقوم برمي سنّته إلى الشمس ويقول لها ما معناه: يا أميّ الشمس أعطني بدلها أسنانا فضّية!، وهذا الطقس وجدناه عند جميع البربر محافظين ومستعربين.

3 عن ليبية تانيت يُراجَع:

-Hands(A.R.),"The consolidation of Carthagian, Power in the fifth Century ", Africa in Classical Antiquity, Edited L.A. Thompson & J.Fergason ,Ebadan Univ Press (1969) P. 86.

4 في معبد الحفرة كتب اسم تانيت بهذه الصيغة (TYNT)، ويرى بيكار أنّ هذا "التحريف" يعود إلى التغيُّر الذي طرأ على اللغة البونية منذ سقوط قرطاج ونشأ عنه البوني الجديد -Picard (G. Ch.), les Religions ..., p. 59.، ومع أنّ مؤرّخي الساميات تباروا بحماس لإثبات الأصل الفينيقي لتانيت إلاّ أنّهم لم يجدوا شيئا يثبت افتراضاتهم، وأنّ ليبيتها لا تحتاج إلى دليل.

روحية حقيقية" وكان ذلك انتصارا للواقع الأفريقي- الذي فرض نفسه- على النزعة المحافظة على الموروث الفينيقي الشرقي الذي لم يصمد أمام عقيدة تحترم الإنسان ولا تسفك دمه تقرّباً لإله لا يشبع جشعه إلاّ سفك دم طفل![1]، وحتّى الأثاث الجنائزي خلال هذه الفترة أصبح أفريقيّا بسيطا واختفى الأثاث الفاخر الذي كان يجلَب من فينيقيا ومصر أو بلاد الإغريق، وقلّت التعاويذ التي كانت تستورَد من مصر وحلّ محلّها فأل الخير (Porte bonheur) المجرّد من الصبغة الدينية.

تُطابق صلاحيات تانيت نظيراتها في الديانات المجاورة مثل هيرا (Héra) وديانا- أرتيميس (Diana-Arthémis) المعبودتين في المستعمرات الإغريقية في جنوبي إيطاليا ولكن تتميّز عنهما بأنّها سماوية وسيّدة القمر، وهي رمز الخصب والسلام والرخاء (نخلة، حمامة، رمّانة وهي الرموز التي توجد في عديد النصب إلى جانبها) ويشير إهداءان من قرطاج إليها بعبارة الأمّ،وفي بعض النصب تبدو وهي تحمل طفلا، وتظهرها نصب أخرى بجسد لبؤة (في موقع تينيسوت Thinissut) وهو شكل استمر إلى الفترة الرومانية وأُشيرَ إليه بعبارة مغذّية ساتورن Nutrix saturni.

يُرمَز لتانيت بمثلّث أو شبه منحرف يعلوه خطّ نهايتاه معقوفتان إلى أعلى وفوقه قرص والمجموع يمثّل صورة إنسان رافعا يديه، وقد فسّر هذا الرمز تفسيرا متنوّعا، ولكن بيكار بعد أن استعرض كلّ تلك التفسيرات خلُص إلى أنّه لا حاجة إلى تفكيك الرمز إلى أجزائه لأنّه رمز يمثّل التضرّع إلى السماء، وكثيرا ما تكون صورة تانيت الضارعة بيديها محاطة بحمامة وأزهار ورمز الطبّ (Caducée) ويعلوها هلال غير بعيد عن القرص الذي يمثّل الرأس، وهو هلال مقلوب إلى أسفل فسّره اقزال بأنّه يمثّل رمز النور الفاتر[2].

ولأنّ بيكار اعتبر كغيره تانيت إلهة فينيقية فإنّه لم يبحث في إثنوغرافيا الشعب البربري ولو فعل ذلك لاكتشف بأنّ هذه الإلهة لا يزال لها وجود إلى يومنا هذا، فهي مجسّدة في الإبزيم الفضّي الذي تمسك به المرأة لباسها وفي الوشم الذي يكون في جبهة المرأة على الخصوص، كما أنّ اسم تانيت اشتُقّت منه الكلمة التي تعني في اللغة

---

1 كان هذا الطقس الفظيع سببا في إرسال مجلس الشيوخ الروماني وفدا إلى قرطاج يطلب منها أنّ تكفّ عن هذا الطقس المتوحّش.

2 - cité par Picard (G. Ch.) . Religions de l' Afrique antique..., p. 78-79.

البربرية: الوحم[1]، وهذا الأمر على جانب كبير من الأهمّية لأنّ المعتقد يجعل من تانيت الحامية والمرافقة للمرأة الحامل.

2. أمون ومكانته ضمن البانثيئون الأفريقي:

وضع الأفريقيون على رأس حشد من صغار الآلهة والأرواح إلها أعلى، يكون صغار الآلهة أعوانا له - هو أمون الذي تجاوزت قداسته بلاد البربر، وتطوّرت عبادته في مصر الفرعونية حيث اقترن هناك بالشمس[2] -؟ وهو الإله الذي أدمج في قرطاج بالإله الفينيقي بعل وتحوّل إلى بعل أمون وفي العهد الروماني اقتضى التعبير باللاتينية إلى ترجمة اسمه إلى ساتورن الذي هيمن بحقّ على أفريقيا أكثر من هيمنة الإمبراطور على العالم الروماني، وقد ظلّ الأفريقيون يتعبّدون لهذا الإله الذي تتغيّر أسماؤه دون أن يتغيّر في ذاته فمن أمون إلى بعل أمون إلى ساتورن الذي يحتلّ مكانة سامية جدّا بحضوره تحت أشكال متعدّدة في كلّ المقاطعات الأفريقية ممّا يجعلنا نستنتج بأنّه كان سيّد هذه الأرض وهذا الشعب حقيقة، وظلّ هذا المعبود هو نفسه بل إنّ قدسيته قد تجاوزت العالم البربري إلى حضارات مجاورة، ويؤكّد الباحثون الموضوعيون ذلك مبيّنين بأنّ هذا الإله الأهلي أمون (Ammon) هو الذي أصبح شهيرا في العالم الإغريقي منذ القرن VI من خلال هاتفه (Oracle) بواحة سيوة[3] (أنظر أدناه الشكل 47 ص 217).

قد تبدو المسألة معقّدة لأنّ الإله أمون أصبح تدريجيا متطابقا مع الإله أمون - رع المصري وبعل - همون البوني وزوس (Zeus) الإغريقي ثمّ يوبيتر (Jupiter) الروماني وفي مطلع القرن العشرين كان الاعتقاد السائد هو أنّ مصر أمّ الحضارات زرعت آلهتها في عموم أفريقيا ومنها الكباش ذات غطاء الرأس المكوّر في رسوم الأطلس الصخرية المماثل لإله طيبة (Thèbes)، ولكن هذه الرسوم تدلّ على أنّ عبادة أمّون قديمة في

---

1 الوحم في تّامازيغت هو: آنيثي (Aniti)، ومنه عبارة: ثامطّوث ثّينيث (Tamettut t'tinit) أي المرأة تتــوحّم، وطبيعــي أن تستنجد المعتقدات القديمة بالآلهة في مثل هذه الحالات التي تنتاب المرأة الحامل ولا يجد لها القدامى تفسيرا.

2 أمون - رع، ولكن هذا الاسم الذي يحمل صيغة المذكّر في اللغة البربرية لم نجد لدى الباحثين اهتماما بمدلوله في هذه اللغة، ولو أمعنّا النظر لوجدنا أنّ جذر كلمة أمون وهو AMN أو IMN يمكن أن نستخرج منه كلمة: أمان Amèn وهو الماء كما هو معروف، وإيمان Imèn وهي الروح، وفي لغة الغوانش (Guanches) تعني كلمة أمان Amèn: الشمس: وهذه الأسماء الثلاثة هي أسماء لمقدّسات فالماء والروح والشمس مجتمعة في الجذر: أ م ن، ونرى أنّ هذه المقاربة اللغوية جديرة بالاهتمام.

3 - Gsell (S.), H.A.A.N., T, I, p. 251.

أفريقيا الشمالية واستمرّت بعد مجيء الفينيقيين، كما أنّ أمون طيبة في مصر هو إله أجنبي جاء من الغرب[1].

لاحظ ر.باسيه (R. Basset) أنّ الاسم: أمان (Aman) عند الغانش (Guanches) يعني: السيّد (Seigneur) ويطلق على الشمس، وحتّى أمون، الإله - الكبش أصبح إلها شمسيا باندماجه في رع وهيمن تدريجيا على البانثيئون البربري في غربي أفريقيا، ولم يبق من أمون سيوة وهو إله له وسيط أو هاتف (Oracle) سوى نسخة من إله طيبة في حين أنّ الأفريقيين في مستوى بدائي كانوا يعبدون أمون في شكله الحيواني[2].

إنّ الفرضية بسيطة للغاية، فقد رأينا أنّ الكبش ذا غطاء الرأس المكوّر غَيْر الحيوان أمون-رع، لأنّه أقدم منه بكثير فرسوم التاسيلي تعود إلى النيوليثي القديم أمّا عن أصل أمون سيوة فهناك رأيان متعارضان منذ مدّة هما:

- الرأي الأول يقول بمطابقته لأمون طيبة ويكون قد هيمن على واحة سيوة قبل القرن VI ق.م.وهي الفترة التي تحدّثت فيها المصادر الإغريقية عنه[3].

- الرأي الثاني يبدو معقّدا قدّمه بيتس (Bates) يقول بأنّ الإله المصري أدمج في الإله المحلّي الذي يبلّغ أوامره عن طريق وسيط (Oracle) وهذا يوحي بأنّه ينتمي إلى عبادة الموتى[4].

---

1 وفي تعليق سرفيوس عن الإنياذة أنّ اسم أمون مشتقّ من اللغة الليبية (Libyes ammonem appelat) ويعني الكبش، أنظر:
- Gsell(S.),H.A.A.N.,T, I, p. 252, note: 2

2 - Gsell (S.), H.A.A.N., T, I, p. 249.

3 ومصدر هذا الرأي هو الأساطير الإغريقية التي تعرف كيف تركب أسماء محلّية ليبية ثمّ تجعل منها أبطالا أسطوريين،من ذلك ما ورد في سانت هيبولبت أنّ: الليبيين يقولون أنّ أوّل مخلوق آدمي هو يارباس الذي انبثق من سهل جافّ وقطف ثمار زوس اللذيذة... الخ، أنظر:
-Fragments de st Hippolyte: Philosophumena, V, 7.

4 - Camps (G.), Berbères aux marges de l' Histoire, éditions des hespérides, 1980, pp. 215-217.





الشكل (47) الإله الليبي أمون وهو معبود الليبيين والجالية الإغريقية في قورين على السواء

الشكل (48): نصب مُهدى إلى ساتورن في سيلاق [بني فودة ، سطيف] يبدو الإله جالسا على أسد وحيوانه التابع هو الحيّة رمز الموت والخصوبة.

مهما تكن الأصول الحقيقية لأمون سيوة يجب الإقرار بأنّ هاتفه كان ذا شهرة عالمية تجاوزت بكثير الإطار الجغرافي الليبي بواسطة الإغريق في قورينائية وقد تأنّست صورته واسمه وشهرته تماما بتأثير هلّيني وصل إلى كلّ البحر المتوسّط، وأصبح أمون يسمّى زوس-أمون ويظهر في التماثيل في شكل شخص ملتحٍ بملامح سمحة ، وليس فيه من الكبش الطيبي (Bélier Thébain) إلاّ القرنان المختفيان وسط خصلات الشعر المسترسلة ، وقد احتلّت هذه الصورة المحتفظة بالقرنين مكانة هامّة في العالم الهلّينيستي وخاصّة بعد زيارة الاسكندر لواحة أمون حيث أعلن نسبه الإلهي.

اعتقد بعض الكتّاب أنّ الحظوة التي يتمتّع بها أمون لدى الليبيين تفسّر تفوّق بعل-أمون في الإقليم البوني لأنّه يطابق تماما الوسيط الإلهي بسيوة، ودون الذهاب بعيدا يعتبر السيّد لوغلي (Le Glay) بأنّ بعل-أمون البوني-البربري استعار منه الإله الليبي - المصري قرون الكبش وجزءاً من شخصه ليصبح الإله - الشمس[1].

حقّق أمون في شكله الإغريقي ثمّ اللاتيني في قورين وطرابلس نجاحا مستمرّا تدلّ عليه وفرة الكتابات النقوشية وأسماء الأماكن أي وجود إله خادم لأمون في غولاس (بونجمGolas)، أمّا المقاطعات الواقعة إلى الغرب من السيرت الصغير فهي فقيرة في الشواهد الدالّة على عبادة أمون، وليس هناك أكثر من نصّين إهدائيين، واحد في رطاج إلى يوبيتر-أمون والآخر في أوزيا، ولم تذكر النقوش أكثر من خمسة أسماء تدلّ على الاحتماء بهذا الإله بصيغة أمونوس، أمونيوس (Ammonus, Ammonius) وهي نادرة قياسا مع إله يراد له أن يكون على رأس مجمع الآلهة الأفريقية ماقبل الرومان.

في الأخير، يبدو أنّ إله سيوة لعب دورا صغيرا في ديانة الأفريقيين الذين يسكنون غربي السيرت الصغير، أمّا تانيت فقد خلفتها في الفترة الرومانية الإلهة السماوية كايليستيس (Caelestis) المطابقة دائما لجونو (Juno) الرومانية وهي الإلهة الأنثى الرئيسية في البانثيون الأفريقي والقرطاجي حيث اكتسبت المكانة الأولى وهي مطابقة للإلهة - الأمّ هيرا في جنوبي إيطاليا[2].

في العهد الروماني، أصبحت كيلستيس (Caelestis) بالنسبة لساتورن مثل تانيت بالنسبة لبعل - أمون، وقد كانت عبادة كايلستيس واسعة الانتشار في أفريقيا الرومانية - وخاصّة في البروقنصلية ونوميديا - أكثر من موريتانيا ومع أنّ اسمها ذو صيغة بربرية كما هو الحال في صيغة التأنيث البربرية يبدأ وينتهي بحرف التاء إلاّ أنّ دوسان G. Dossin يقترح دلالة أخرى هي: الجديدة أو الخطيبة[3]؟ ولعلّ فكرة عذرية كيلستيس التي أكّدها

---

1 - cité par Camps (G.), Berbères aux marges..., p. 217.

2 - Benseddik (N.), Un nouveau témoignage uu culte de Tanit-Caelestis à Cherchel, in Ant. Afr. T. XX, 1984, pp. 175-182.

3 نريد لفت الانتباه هنا إلى أنّ استبعاد اللغة الليبية من المقاربات اللغوية في البحث التاريخي والأثري يجعل جلّ المقاربات محض تأويلات لا عبر، وفي هذا السياق نلاحظ أنّ لهجات البربر وهي منحدرة من اللغة الليبية القديمة احتفظت بكلمة تانيت لتؤدّي معنى: الوحم، وكما هو معروف فإنّ الوحم حالة تنتاب المرأة الحامل وتشتدّ في فترة معيّنة من الحمل، وخلال ذلك يتمّ القيام بالتقرّب والدعاء إلى هذه الإلهة لحماية الأمّ الحامل وحماية جنينها... وكان يفترض على الباحثين في الأنثروبولوجيا على الخصوص دراسة مختلف العادات والطقوس المرتبطة بحالة الوحم هذه في المجتمعات الأماريغية (البربرية) ففيها رواسب من المعتقدات القديمة.

ترتوليان تأتي من هذه الدلالة[1]؟ التي نصّت عليها النقوش أيضا (نقوش ألبولاي بتموشنت : Dea Magna Virgocaelestis).

توجد إلهة غامضة هي ديا ماورا (Dea Maura) تحظى بعبادة رسمية ولها معبد في ألبولاي ولا نعرف إن كانت هي المقصودة في نقيشة صالداي (Gens Maura) أو أنّه ينبغي اعتبار أنّها المقصودة في عبارة: ديانا العظيمة الماورية (Diana Augusta Maurorum) في نقيشة ثاناراموزا (Thanaramusa) وهي برواقية الحالية، ويميل بعض الباحثين إلى مطابقة هذه الإلهة بكايلستيس وهو ممكن مع أنّه في حدود علمنا أنّ صفة ماورا لم تطلق على كايلستيس إطلاقا وحتّى في ألبولاي التي يوجد بها معبد لديا ماورا، فإنّ هذا المعبد مكرّس لكايلستيس الإلهة الكبرى العذراء (Dea Magna Virgo Caelestis) في حين يرى آخرون بأنّ المقاربة تبقى ممكنة ويمكن مطابقتها بالإلهة الغامضة وارسوتينا (Varsutina) التي وصفها ترتوليان بأنّها الإلهة المميّزة للموريين تماما مثل كايلستيس عند الأفري (Les Afri) وأتاغارتيس (Atagartis) عند السوريين[2].

3. غاية الدين: تكريم الإنسان

يبدو أنّ الإنسان ذاته عند القدامى هو أساس المقدّس بل إنّه الصورة الحيّة (Simulcare) للألوهية، وقد أحاط قدماء البربر ملوكهم بهالة من القدسية، ولكن ليس إلى درجة تأليههم كما توحي بذلك بعض كتابات المؤلّفين المسيحيين (الأفريقيين) فقد كتب فليكس مونيكيوس أنّ "الملوك المور يصبحون آلهة بعد وفاتهم... لكم أن تتخيّلوا أنّ ملكا مثل يوبا جعلته إرادة المور إلها"[3]، وقال ترتوليان هو الآخر"... مثلما أن لكلّ مقاطعة ومدينة إلهها: سوريا لها أستارتي وأفريقيا لها كايلستيس، فإنّ موريتانيا لها ملوكها"[4]. ويضيف القدّيس كيبريانوس: " أنّ المور يعبدون ملوكهم في العلن ولا يخفون ذلك "، ويعيد علينا لاكتانس (Lactance) في نظمه الإلهية " أنّ المور يخلّدون ملوكهم وأنّهم كانوا يعبدون يوبا "[5]، وبالمقابل لا نجد أيّ نصّ أدبي يشير إلى أنّ النوميد عبدوا أيّا من ماسينيسا أو يوبا الأول.

---

1 - Tertullien, Apologétique, 23. (Virgo Caelestis).
2 - Camps (G.), Berbères aux marges ..., p 220.
3 - Municius (Felix), Octavius, 21, 9.
4 - Tertullien, Apologeticus, 24.
5 - Lactance, I, 15, 6.

هل يمكن أن تقدّم لنا الوثائق النقوشية (Epigraphique) شيئا من الدقّة في هذا الموضوع، يمكن أن نجمع هذه الوثائق في سلسلتين هما:

النقائش البونية المعاصرة للملوك الماسيل.

النقائش اللاتينية التي جاءت بعدهم.

من الوثائق البونية الأكثر شهرة نصّ دقّة الإهدائي في معبد شيّد لماسينيسا في السنة العاشرة من حكم ابنه ميسيبسا وقد وُصِف الملك ماسينيسا في النصّ بأنّه أمير[1] (HMMLKT) أمّا نصّ شرشال المكتوب بالبوني- الجديد Néopunique وهو نصّ جنائزي مُهْدَى إلى المعبد الجنائزي للحيّ الخالد ملك الماسيل ميسيبسا فيحمل دلالات أوضح، وفيه يقول المُهْدي عن نفسه أنّه خادم الله، وقد وهب له تمثالا ومعْلَماً جنائزيا وكلّ ما تحتاجه طقوس العبادة، وهذا النصّ يحمل الدليل على وجود شعائر جنائزية تجاه الملوك النوميد ولكن لا يوجد ما يدلّ على أنّ هؤلاء الملوك أُلّهوا في شخصهم.

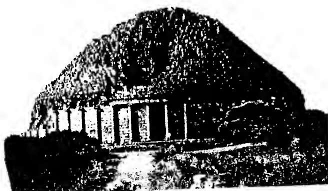
تتوجّه النصوص النقوشية المكتشفة على الخصوص إلى بطليموس (Ptolémée) آخر ملوك موريتانيا وأيضا إلى أحد أبناء ماسينيسا وهو غولوسا (Gulussa) [نقيشة قادوفلّة Gadiaufala، الصبيحي حاليا] وللملك يمسال [نقيشة ثوبورسيكو، خميسة حاليا] والواقع أنّ "الإجلال" الذي يحظى به الملك يمسال في هذه المدينة يُفسّر بالرغبة خاصّة في التذكير بالأصول النوميدية للمدينة التي احتفت أيضا بأرواح قبيلة نوميدة (Genius gentis Numidiae) هذه العبادة الموجّهة لإحياء الماضي تفسّر بدورها الاحتفاء بذكرى الملك غولوسا في مدينة مجاورة [قاد أو فلّة]، إنّها "الوطنيّة" تدقّ أجراسها لإثارة النوميد في هاتين المدينتين ليحتفوا بذكرى أميرين لم يتركا سوى مآثر محدودة!.

في ما يتعلّق بيوبا الثاني - الذي ذكر الكتّاب المسيحيون أنّه كان إله المور المعبود- توجد نقيشة واحدة اكتشفت في ناحية برج بوعريريج تتحدث عن معرض سنوي تحت حماية آلهة معيّنة، منها: يوبيتر ويوبا وأرواح المكان وآلهة إنقيرو زوق لزيم:

---

1 إذا صحّت قراءة هذه الكلمة: هامملكت HMMLKT، في نقيشة دقّة فالمفروض ألاّ تُستبعد اللغة الليبية، حتّى وإن كانت الكلمة من أصل بوني[ملك أو مملكة] فإنّها صيغت على وزن المفرد المؤنّث في اللغة الليبية بحيث أنّ البادئة Préfixe = وهي ها، بادئة ليبية [بربرية كما يُقال اليوم]وهي == في لهجة مناصر [ولاية تيبازا] كالبادئة تا في لهجة القبائل، أمّا اللاحقة ت Suffixe T، فهي علامة التأنيث في كلّ لهجات البربر،تراجع في هذا السياق أعمال هنري باسيه لأنّ مجالنا هنا ليس اللغة مع أنّها[اللغة] أحد مفاتيح الكثير من الإشكاليات التاريخية.

Dii Ingirozoglezim[1]، وفي هذا السياق لا نميل إلى استنتاج أنّ يوبا الملك إله بل إنّ يوبا اسم لإله حمل الملكان يوبا الأول والثاني اسمه لا غير أمّا الاسم اللصيق به فلم يصلنا عنه شيء.



الشكل (49): قبر الرومية، ضريح ملكي موريتاني محيط قاعدته 62 م.



الشكل (50) ضريح الخروب (صورة التقطها المؤلّف 2003).

1 حاولنا مقاربة هده الكلمة الطويلة بلهجات اللغة البربرية اعتمادا على أعمال لاووست وباسي وتوصّلنا إلى تركيب جملة هـي: انقيرو سو قليز (م) = Ingiro) N'Giru - (zo) su - (glez(im) glezim)، ولكن تبيّن لنا أن لا معنى لها ؟، فهل هناك كلمة سابقة لحرف الجرّ الذي يفيد التملّك وهو النون، وما مدلول الكلمة المجرورة قيرو ... وما بعدها!.

الفصل الثاني

طائفة صغار الآلهة الأفريقية

يكون المقدّس الإلهي المنتشر في الطبيعة مشخّصا يحمل اسما نجد التنويه به في النصوص الإهدائية التي سجّلها أشخاص في الطور الأعلى من التديّن الشديد، ومن بين الآلهة الثانوية نجد تلك التي احتفظت بأسمائها الأفريقية وكأنّها ترفض الاندماج في بانثيئون الآلهة الإغريقية - الرومانية، مثل : الآلهة التي وردت في كتابات باجة (Inscription de Vaga) وكتابات ماغيفا(Magifa قصر البوم قرب تبسّة) الدالّة على وجود "بانثيئون" آلهة حقيقي ذي طابع محلّي، مع أنّها لا تكاد تختلف عن الأرواح (Génies) المحلّية البسيطة إلاّ بالاسم الذي مُنح لها لا غير[1].

1. الآلهة الماورية وتقديس الأرواح

يوجد لدى قدماء البربر حشد من صغار الآلهة والأرواح، يتمتّع بقدسية أكبر من المساحة التي يمتدّ عليها تأثيرها، وإذا كان عدد النقوش التي تخلّد هذه الآلهة صغيرا فلأنّ العدد الكبير من المؤمنين بها لا يأبهون بترْك شواهد كتابية عن إجلالهم لها، والحال أنّ الرومان والأفريقيين المترومنين الراغبين في الاحتفاظ بميّزاتهم أو على الأقلّ ضمان حيادهم كانت طقوسهم بسيطة وفعّالة في نفس الوقت وهي مناجاة الأرواح جميعها لإبعاد الأخطار التي يمكن أن تحدث بتناسي هذه الآلهة أو تلك والتي لا نعرفها جيّدا وهي الآلهة المسمّاة: الآلهة الماورية (Dii Mauri)[2].

إنّ قلّة الشواهد أو بالأحرى غموضها في ما يتعلّق بالآلهة السفلية والمائية والسماوية يثبّط أيّ محاولة لتحديد المعتقدات الأساسية لقدماء البربر، مع أنّ هذا الخلل في الشواهد لا يفترض بالضرورة فقرا في المعتقدات فليس لنا الحقّ في التأكيد - كما يفعل البعض - بأنّ البربر ليست لهم ديانة بدائية ليقرّروا بعد ذلك أنّ لديهم - على غرار مجالات أخرى- قصور ميتافيزيقي.

يظلّ المقدّس - في الواقع- موزّعا في الطبيعة على نطاق واسع وإلى حدّ الآن هناك الاعتقاد في عديد الأرواح (Génies) التي تسكن الصخور والمغاور والأشجار

1 - Gsell (S.), H.A.A.N., T. VI, p. 137.
2 - Camps (G.), Qui sont les Dii Mauri ?, in Ant. Afr. T. XXVI, 1990, pp. 131-154.

والينابيع... خاصّة وأنّ الإسلام لا ينفي وجود الجنّ ، وهو ما سمح باستمرار الاعتقاد في الأرواح الخفية - وخاصّة الضارّ منها- وما يرتبط بها من طقوس وشعائر تعود في الواقع إلى العصور القديمة، وليس صدفة أن يجد عالم الآثار في المدافن الفجر - تاريخية آنية خزفية نذرية صغيرة تطابق بكلّ وضوح الآنية التي تقدّم فيها القرابين اليوم في أماكن بسيطة مخصّصة لهذه الأرواح[1].

سنقتصر في هذا الموضوع على المعتقدات الشعبية التي تستجيب لانشغالات وآمال الأفريقيين خارج أيّ تأثير كلاسيكي، وهذا بإلقاء الضوء على المعتقدات البربرية التي كانت تتخفّى تحت غطاء الديانة الرسمية الرومانية، وهذا المسعى ليس سهلا لأنّ جوهره يتجاوزنا إلى طابعه الشعبي الذي لا يدوّن ولا تقام له مرافق كالديانة الرسمية، إنّها معبودات الطبقات الشعبية البسيطة، أرواح (Génies) بسيطة وكيانات إلهية ذات قوّة صغيرة وتأثير محدود لا يتجاوز المجال القبلي فكيف يمكن حفظ ذكرى هذه الآلهة عبر القرون إذا كان المؤمنون بها لا يعبّرون عن طقوسهم بالكتابة[2]!.

يمكن أن نجد في النصوص الأدبية القديمة بعض الإشارات والنتف، خاصّة لدى الكتّاب المسيحيين الأفريقيين وهم مؤهّلون أكثر من غيرهم لنقل هذه المعتقدات إلينا، مع أنّنا لا نطلب من أسقف أو أب في كنيسة أن يكون مؤرّخا أو عالما في الإثنولوجيا، بل إنّ ما نستنتجه ممّا تركه هؤلاء هو بعض الإشارات إلى العقائد الوثنية تظهر في سياق موعظة (Sermon) أو في إدانة ممارسات مستمدّة من الوثنية المحلّية أو الإشارة إلى زيف تلك الآلهة الوثنية التي يجسّدها أهلها في أرواح (Démons) أو تماثيل(Simulacres) من خشب أو من حجارة![3] والحال أنّ مجموع الإشارات الأدبية والنقوشية (Epigraphiques) تبقى قليلة وغير كافية ولا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن نستخرج منها أدلّة كبيرة في سياق المقاومة الأفريقية للاحتلال الروماني[4].

1 - Camps (G.), Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites ..., op. cit. pp. 280-282.

2 - Lancel (Serge), «Rites et monuments funéraires : exposé introductif», Monuments funéraires et institutions autochtones. Actes du VIe colloque international sur l'Histoire et l'Archéologie de l'Afrique du Nord (Pau, 1993). Paris. CTHS, 1995, p. 9-16.

3 - Tertullien , Ad Nationes , I., 36.; II. 8.

4 لا يوجد في القصص الشعبية البربرية إشارة إلى عبادة الحجارة حسب ماسكوري، أنظر:

- Masqueray (E.), Note , in Bulletin de correspondances africaines, III, 1885, p. 101 .

2. نصوص إهدائية للآلهة المورية:

تمّ التعرّف إلى حدّ الآن بآلهة ماورية من خلال 18 نصّ إهدائي، يضاف إليها نصّان موجّهان إلى كيانين أفريقيين غامضين هما الآلهة الجيتولية والماورية (Dii Gaetulorum et Nomen Maurorum)، ويبدو من النصوص النقوشية أنّ هذه الآلهة الماورية غير مندمجة في الآلهة الكبرى، إذ تقدّم لنا نقيشة هنشير رمضان أسماء ثلاثة آلهة هي فودينا (Fudina) وماقورتوم (Macurtum) وورسيس (Varsis)، وقد ذكرت نقيشة باجة اثنين من هذه الآلهة الثلاثة بصيغة ماقورتام وورسيسيما (Macurtam et Varsissima)،كما ورد اسم هذا الأخير في نقش ناتئ (Bas-relief) لإلهين فارسين (Deux Dieux Cavaliers) هما ماقورتام ويونام (Macurtam et Iunam) اللذين يمكن مقارنتهما بالإلهين الرومانيين ديوسكورس وكاستورس (Dioscures et Castores)، لأنّنا نجد نصّا إهدائيا من موستي (Musti) يعود إلى القرن الثالث موجّه إلى آلهة الكستور الماورية (Mauris Castoribus) وهذا التوافق بقدر ما هو غير قارّ مع البوكّور والفارسوتينا (Buccures et Varsutina) الموصوفة بأنّها آلهة ماورية من قبل الكتّاب، فإنّه لا يكون إلاّ باستحضار الإلهين بونشور ووارسيسيما.

إنّ التحقّق بمقارنة المعلومات يؤكّد أنّ الآلهة الماورية التي يتمّ التضرّع غليها جماعيا هي مجموع الآلهة الأفريقية التي نجد أسماء البعض منها في النقوش ن وعليه فإنّ من المفيد مقارنة سلسلتين من النصوص الإهدائية احتفظت بهذه الأسماء وهما سلسلة أسماء الآلهة المحلّية وسلسلة الآلهة الماورية[1].

ليس في النعوت التي وصفت بها الآلهة المحلّية عناصر يمكن أن تقدّم لنا معرفة أكثر بشخصها سوى أنّها تحظى بالإجلال من قبل العامّة، فقد وصفتها النقوش بأنّها: عظيمة وقدسية و"وطنية" (Augustus, Sanctus, Patrius) ممّا يدلّ على طابعها المحلّي ما عدا إله واحد هو أوليسوا (Auiisva)، ويُتوجّه في أحيان كثيرة إلى الآلهة الماورية بهذه الصفة وأنّها عظيمة ومقدّسة وخالدة، ثمّ تضاف إليها قائمة من نعوت تلحّ على طابع الحماية والخير الذي تتمتّع به: .Salutares, Conservatores, Prosperi, Hospites ولكن توصف أيضا بالبارباري Barbari أي أنّها أجنبيّة، وكأنّ الذين كتبوا نصّ الإهداء إليها ليسوا من محيطها الثقافي.

1 - Mercier (G.), les DIVINITES LIBYQUES, in PSAC. Vol. XXXIV, 1900, pp.177193.

يوحي الاختلاف في النعوت التي وصفت بها الآلهة المحلّية والآلهة الماورية ليس فقط بالاختلاف في طبيعة المجموعتين الإلهيتين ولكن في مضمون الأدعية التي يتوجّه بها أصحاب النصوص الإهدائية إلى هذه الآلهة أيضا، فالآلهة المحلّية يُتوجّه إليها فرديا أمّا الآلهة الماورية فيقع دمجها في الدعاء الواحد مع أنّ عبّادها متنوّعون، وهو ما جعلنا نقوم بجمْع معلومات عن أوضاع أصحاب النصوص الإهدائية وقد بدا لنا أنّ عبادة الآلهة المحلّية أكثر شعبية من الآلهة الماورية ويوحي تفحّص بسيط بأنّ عبادة الآلهة المحلّية يقوم بها على الخصوص مدنيون (de civils) (74%) أمّا الأدعية الموجّهة إلى الآلهة الماورية فيقوم بها على الخصوص عسكريون (73%)، وإذا كان البعض يرى في عبادة الآلهة الماورية مظهرا للوطنية الماورية فإنّنا نرجّح أن تكون في جوهرها ذات طابع رسمي عسكري متعلّق خاصّة بالحرب ضدّ القبائل المتمرّدة[1].

رغم أنّ هذه الآلهة تسمّى ماورية إلاّ أنّنا نجد أثر عبادتها خارج إقليم موريتانيا ففي لمبايسيس (تازولت) على الخصوص وهي مقرّ القيادة العسكرية وجدت ستّة هياكل (Autels) مخصّصة للآلهة الماورية من واحد وعشرين هيكلا كما وجدت هياكل خاصّة بها في مدن أخرى، واحدة في نوميديا (خنشلة Mascula) وخمس في البروقنصلية هي: ثيفست، المادور، باجة، هنشير رمضان وموستي. أمّا في أقصى غرب موريتانيا القيصرية فنجد هياكلها في آلتاوا (Altava) وإلى حدّ الآن لم يعثر على أيّ إهداء للآلهة الماورية في موريتانيا الطنجية مع أنّها ماورية أكثر من غيرها لأنّها اصل الماور.

نستخلص بأنّ اسم ماوري (Mauri) لا يعبّر بالضرورة عن التقطيع الإداري لأفريقيا الرومانية فقد رأينا بأنّ كلمة ماور في أفريقيا الرومانية تعني الأهلي غير المندمج او بالأحرى غير القابل للإدماج، خاصّة وأنّ الآلهة الماورية توصف أحيانا بأنّها باربارية (Barbari) ولعلّها متعلّقة بقبائل ظلّت غريبة عن الحضارة الرومانية وخارج الرومنة مع أنّها داخل أفريقيا الرومانية والدليل على ذلك الآلهة والأرواح المحلّية وهي من المعتقدات الماورية التي لم تجد مكانا لها ضمن البانثيون اللاتيني، ويمكن أن تمثّل هذه المجموعة من الآلهة -بإضافة قوى ثانوية- قوّة لا يمكن تجاهلها، ولعلّ الرومان الذين أداروا الحرب ضدّ القبائل الماورية أدركوا أهمّية العقيدة وأرادوا التصالح معها فأطلقوا عليها اسم الآلهة الماورية لأنّ عبادة الآلهة الماورية كانت على الخصوص عبادة عسكرية.

---

1 - Camps (G.), Qui sont les Dii Mauri ..., op. cit. pp. loc. cit.

أصبحنا نعرف الآلهة الماورية والآلهة التي أسميناها محلّية بأسمائها، ويتمّ التوجُّه إلى الأولى جميعها في دعاء واحد وعلى الخصوص من قبل العسكريين وموظّفي الإمبراطورية في حين يُحتفَى بالأخرى محلّيا من قبل البسطاء والقضاة البلديين، فالآلهة هي ذاتها وأصحاب النصوص الإهدائية هم الذين يتغيّرون، وهذا دليل قاطع على أنّ الإدارة والجيش في أغلبه كان من العنصر الأهلي لأنّ العنصر الروماني لا يمكن أن يتخلّى عن معبوداته ويتعبّد لآلهة أفريقية.

يوجد من بين الآلهة عدة فئات يمكن الكشف عنها، وفي البداية يمكن أن نستخرج مجموعات الآلهة التي يتكوّن كلّ منها من سبعة أو خمسة أوثلاثة تكوّن مَجْمع آلهة محلية (بانثيئون)[1]، مثل آلهة باجة وهنشير رمضان التي تتقارب نصوصها الإهدائية، وهي موجّهة خاصّة إلى إلهين مشتركين هما حسبما يبدو: وارسيسيما (وارسيس) وماقورتوم، ويبدو أنّ أحد آلهة ماغيفا وهو **ثيليلوَا** يحمل نفس الاسم بصيغة المذكّر في المادور: ليلو، ونستخلص من نقيشة هنشير رمضان أنّ أغلب هذه الآلهة تسمّى كلّها أحيانا الآلهة المورية (Dii Mauri)[2].

3. فئة أخرى من صغار الآلهة:

وهي لا تنفصل عن السابقة وتسمح بإجراء مقاربات عديدة، وفيها آلهة وإلهات تحمل أسماء يحملها البشر أيضا، ومنه نستنتج أنّها من البشر المؤلّهين أو أنّ البشر والآلهة يشتركون في حمل نفس الأسماء ويدخل في هذه الفئة من الآلهة أسماء عديدة نذكر منها: باكاكس (Baccax)، يمسال (Iemsal)، يوبا(Juba)، ماقورتوم (Macurtum)، ماسقاو(ا) (Masgav(a) ومونا (Monna).

تكون الأسماء الإلهية في بعض الحالات مضافة إلى الاسم المعتاد لأحد آلهة المجمع اللاتيني مثل: مارتي كانافاري (Marti Canapphari)، تيلوري غيلفاي (Telluri Gilvae)، هركولي إرسيتي (Herculi Irsiti) وبلوتو واريكّالا (Pluto Variccala) وفي أحيان أخرى تندمج الآلهة الأفريقية في آلهة رومانية، ولكي تحتفظ بشخصيتها تُدمَج كما يلي:

---

1 بانثيئون (Panthéon)، كلمة إغريقية تتكوّن من مقطعين هما PAN وتعني:جميع أو كلّ، و Theos وتعني الله، والمعنى هـو كلّ الآلهة، وهو عند الإغريق والرومان معبد فيه تماثيل وهياكل جميع آلهتهم، ويترجم في العربية بمَجْمع الآلهة وأصبح يطلق على مجموع آلهة شعب أو بلد ما.

2 - Camps (G.),Berbère aux marges ..., p. 210.

- يوبا يُدمج في يوبيتر.

- موتمانيوس (Motmanius) يُدمج في مركور.

- سيساس (Sesase) وهو من الأرواح(Génies) يوضع على قدم المساواة مع مركور وبنثي (Penthée)[1].

إنّ أغلبية هذه الآلهة التي احتفظت بها النقوش ليس لدينا معلومات عنها سوى أسمائها وحتّى بعض هذه الأسماء مختصر إلى حروفه الأولى (مثل الاختصار G.D.A.S. في جبل شطّابة قرب قسنطينة)[2]، ولا تتعدّى قدسية هذه الآلهة إقليما محدودا، ولا تكاد تختلف كثيرا عن الأرواح المحلّية، والواقع أنّ القائمة الطويلة للآلهة المحلّية ينبغي أن تكمّل بقائمة نموذجية (Topique) للأرواح (Génies) التي كثيراً ما يُخفي الاسم الرسمي الذي مُنح لها في العبادة البلدية (Culte Municipal) طابعها الأهلي، مثل:

- جنيوس سوبتابارتي (Genius Subtabarti) في العلمة.

- جنيوس أوسوم (Genius Ausum) في سادوني.

- جنيوس أوبوروتنسيوم (Genius Auburutensium) في قطّار العيش.

- جينيوس ثيسيكتي (Genius Thesecti) في هنشير بوسكيكين.

وهناك آلهة أخرى ما هي إلاّ مجرّدات صغيرة مرتبطة بتجمّعات سكّانية، وأخرى هي سيّدة القمم الجبلية مثل:

- مونتيس (Genius Montis) في شمتو.

- مونتيس روفيناي (Genius Montis Rufinae) في خنشلة.

1 ونشير إلى أنّ بعض الآلهة الأكثر أهمّية وذات الشهرة الكبيرة ذكرها الكتّاب المسيحيون كآلهة خاصّة بالمور مثل: تيسيانس (Tisianes).بوكورس ماوري (Buccures Mauri).وارسوتينا ماوروروم (Varsutina Maurorum). كما وجّهت إهداءات إلى :ديانا ماوروروم (Diana Maurorum).ديا ماورا (Dea Maura). نومن موروروم (Numen Maurorum) .نومن ماوريتانياي (Numen Mauretaniae). أنظر : كامبس (غابريال)، المرجع نفسه، ص211.

2 - Alquier (P.et J.), Le Chettabah, imprimerie Paulette et ses fils, 1929, p. 169-180.

- سومّوس ثاسوني (Genius Summus Thasuni) في آفلو ، وهناك أرواح أخرى هي أرواح الأنهار(Génies des fleuves)[1].

4. أسماء الآلهة البربرية

تمكّن الأثريون من معرفة أسماء اثنين وخمسين من هذه الآلهة مستخرجة في أغلبها من النصوص النقوشية ، وتصنّف بعض الأسماء في الآلهة والإلهات من الدرجة العليا دون ريب فقد ذكرها كتّاب مسيحيون بأسماء أفريقيّة ، فهل يمكن استخراج معنى بعضها مثل: وارسيسيما Varsissima أحد آلهة مجْمع باجة ، باستعمال مقاربات من البربري الحديث[2]. ويضاف إليه إلهان آخران يبدأ اسم كلّ منهما ببادئة نفي بربرية (Préfixe négatif): وار Var هما: واريكّالا ووارسونيتا Variccala et Varsunita ، وهناك بادئة أخرى بالحروف M K R التي تعني الكبير (ومنه الاسم البربري مقراني أو أمقران) مندمجة في الاسم: ماقورغوم (Macurgum) أو ماقورتام (Macurtam)، أمّا الاسم ليليو (Lilleo) في نقيشة المادور والاسم ثيليلوا (Thililua) في نقيشة ماغيفا (Inscription de Magifa) فلعلّهما مشتقّان من الجذر ليلو (Lilu) الذي يعني ماء المطر ، وقد رأينا أعلاه أنّ الاسم ييرو Ieru يدلّ على إله قمري فالقمر في البربرية اسمه : يور Iour وفي غولاس(Golas) (بونجم في ليبيا) وُجد اسم وَانامون[3](Vanamon) الذي لا نجد عناء كبيرا لنفهم أنّه يعني :الذي لأمون ، والمقصود هو إله من الدرجة الثانية تابع للإله الليبي (البربري) الكبير أمون ، وهناك آلهة أخرى تحمل أسماء لا تزال موجودة كأسماء أماكن (Toponymie) مثل :

غيلفا (Gilva) المندمجة في الإلهة الرومانية تلّوس (Tellus) في نصّ إهدائي بكلمة (قالمة) ونفس الاسم تحمله بلدة في موريتانيا القيصرية.

---

1 الأسماء في الواقع هي أسماء لأماكن ، والاسم اللاتيني جينيوس مونتيس (Genius montis) مثلا يعني جنّ أو أرواح الجبل، وهو الجبل المجاور لمدينة شمتو حيث يذهب سكّان هذه المدينة لممارسة طقوس التعبّد لهذه الأرواح لحمايتهم من الأذى كما يعتقدون، وهذا الاعتقاد في الأرواح وفي أماكن معيَّنة في الجبال والوديان لا يزال قائما إلى الآن في كثير من الجهات:
- Gsell (S.), H.A.A.N., T. VI, P. 138, note : 6 .

2 حاول كامبس استخراج معناه من البربري الحديث وهو : الذي ليس اسم، ولكن لا يمكن أن نجاريه في هذه المقاربة لأنّ كلمة اسم دخيلة من العربية، وعبادة هذا الإله سابقة لدخول العربية إلى شمال أفريقيا، أنظر :
- Camps (G.),Berbère aux marges ..., p. 208.

3 عند مطابقته بالبربري الحديث وبعد تحليل العبارة نستخرج: وا Va وتعني: هذا، الذي. والنون 'N وهوحرف جرّ للتملّك ثم في الأخيرأمون: Va n' amon ومعنى العبارة هو: الذي لأمون؟.

ماسيديتشي (Masidicce): إله من ماغيفا (Magifa) (وهي النقيشة الوحيدة المعروفة التي احتفظت بهذا الاسم) .

أوزيوس Auzius : وهو الإله المعبود في أوزيا (سور الغزلان) .

سوڤن Suggen : إله آخر من آلهة ماغيفا احتفظت باسمه قمّة جبل الدكّان (تبسّة) وقد حرّف في خرائط القرن XIX ليصبح سوقان (Souggan).

أبادير Abadir : يبدو أنّه إله ليبي – بوني من تركيب اسمه لغويا.

بونشور Bonchor : ولعلّه اختصار عبد ملقرت[1].

باليدير Baliddir : أي بعل الحيّ، وهو دليل على أفرقة الإله الفينيقي بعل بإضافة عبارة إدّير أي حيّ إليه[2].

ماتيلام Matilam : ولا ريب أنّ تعايش اللغتين الليبية والبونية خلق تقاربا بينهما سمح بدمج المفردات والأسماء من اللغتين ببعضهما .

لن نلحّ كثيرا على الطابع الإلهي لكثير من الأسماء الليبية ، وخاصّة أسماء الملوك وحتّى رعاياهم من البسطاء الذين يحملون أسماء آلهة دون أن تكون أسماء ببادئة أو باسم لصيق وحتّى عندما يتعلّق الأمر بإله فنيقي فإنّ البربر لا يبقون إلاّ على اسم الإله[3] مثل ما هو الحال في النقيشتين المزدوجتين في دقّة ، في اسم عبد اشمون(Abdeschmoun) يبقى منه شمون لا غير، ومن هنا يمكن فهم أنّ الأسماء الإلهية البربرية لا تميّز بين اسم الإله واسم الشخص مثل ما جاء في النصّ النذري في هنشير بلدة (Henchir Belda) إلى ماسقاوا (Masgava) فهو لا يتوجّه إلى أحد أبناء ماسينيسا المجهولين الذي نعرف اسمه

---

1 استنتج كامبس أنّ بونشور هي تصحيف لمولكور أي ملكرت Ibid. p. 210 - ، ولكن لو قمنا بمقاربة لغوية انطلاقا من لهجات اللغة الأمازيغية قد نصل إلى استنتاج آخر، وهو أنّ كلمة بونشور مركّبة من ثلاث مفردات هي بو BO، ونرى بأنها اختصار لكلمة مجهولة، والنون 'N وهوحرف جرّ يفيد التملّك ثمّ كلمة شور CHOR، ومن هنا نرى أنّ كلمة بونشور بعيدة عن كلمةمولكور ولذلك يبغي البحث عن مدلولها في لهجات اللغةالبربرية التي هي بقايااللغة الليبية.

2 وقد قام فوسطاف مرسيي وهو الضليع في لهجات اللغة البربرية بتحليل هامّ لاسم بال إدير، واستخلص بأنّه يعني في كلّ هذه اللهجات الإله الحيّ (بعل الحيّ)، وقد استنتج في دراسته أنّ هذا الإله كان يحظى بتقديس كبير من خلال التمثال الفخم الذي أقيم له في بلدة سيقوس، كما أنّ النصّ هدائي وصفه بإله الوطن الأعظم والأقدس (DEO PATRIO BALIDDIRI AVG. SACRVM) أنظر:

- Mercier (G), les divinités..., pp.184-188.

3 لم يتغيّر الوضع إلى الآن فلا يزال البربر إلى اليوم يحذفون الاسم اللصيق: عبد ويبقون على الاسم الذي بعده فعبد المجيد يصبح في الواقع اليومي: مجيد، عكس المشارقة الذين يحذفون الاسم الثاني ويبقون على كلمة عبد مسندة إلى ضمير المفرد المذكّر الغائب.

بفضل تيت-ليف ولكن إلى إله يحمل هذا الأمير اسمه ويتكرّر نفس الشيء بالنسبة لإله اسمه امسال (Emsal) [Hiempsal] المحتفى به في تيكلات (Tiklat) [ولاية بجاية حاليا] وهي خارج إقليم مملكة يمبسال الثاني وهذا دليل على أنّ استعمال هذه الأسماء الإلهية لا يميّز بين الأشخاص والآلهة، ويمكن استخلاص الدليل من مقارنة الجملة الواردة في أميان مارسيلينوس بنقيشة ماغيفا التي عثر عليها بالقرب من تبسّة ذكر فيها سبعة آلهة[1]، أحد هذه الآلهة هو سوقّن (Suggen) وهو الذي لا يزال اسمه يطلق على قمّة جبل في المنطقة، ويذكر أميان أيضا أحدَ حلفاء فيرموس (Firmus) وهو من الأمراء المازيس (Mazices) اسمه سوقّن (Suggen)[2] كما أنّ زعيم موري من منطقة الشلف (Castellum Tigitanum) من القرن الرابع حمل اسم إله بربري كان يعبد في ماغيفا على بعد حوالي 500 كلم إلى الشرق من الشلف.

ليست أسماء الآلهة أسماء أشخاص فقط بل إنّ نصّ أميان مارسلينوس[3] يذكر قبيلة اسمها يوباليني (Jubaleni) كانت مستقرّة في منطقة البيبان الجبلية بالقرب من برج بوعريريج كما وجدت بالقرب من هذه الجبال نقيشة تذكر الإله يوبا ممّا يسمح بالقول بأنّ الملك يوبا حمل هو الآخرَ مثل ماسقاوا ويمبسال وسيفاكس إسما إلهيا وملكيا مثل يوبا الثاني، ترك ذكرى ليس بين رعاياه فحسب ولكن لدى العلماء، وليس من المستبعد أن يكون الكتّاب المسيحيون الأفريقيون وهم يعرفون الإله الأهلي يوبا ويعرفون أنّ الملوك القدامى يحظون بعبادة جنائزية ولكنّهم يخلطون بين الإله يوبا والملك يوبا ولعلّ ذلك يعود إلى ما لاحظوه من احتفاظ البربر بذكرى ملوكهم في شبه تعبّد طيلة ثلاثة إلى أربعة قرون من وفاتهم وهم حكّام تميّزوا بالهدوء والرصانة بعيدا عن صورة الملك المحارب[4].

إنّ الدليل على الاحتفاء الجنائزي بالملوك الأهالي هو ما نجده على الخصوص لدى النوميد الماسيل (ضريح ومعبد ماسينيسا بدقّة، ضريح لخروب، مدغاسن، نقيشة ميسيبسا) والماسيسيل وعند الملوك المور (تملوس بورنان، قبر الرومية).

---

1 وفكرة السبعة هذه في معتقدات البربر لا تزال قائمة إلى اليوم في كثير من الجهات بعد أن ألبست بلبوس الإسلام، وهي المعبّر عنها بالسبع رقود، ويكون مقرّ هؤلاء عادةً في مغارة جبلية يطلق عليها اسم معمّرة أي التي تعْمُرُها الأرواح، وهذه الأماكن هي محجّ موسمي للكثير.

2 - Ammien Marcellin, XXIV, 5, 21

3 - Ibid. XXXIX, 5, 44.

4 - Camps (G.), Les noms divins et les noms théophores chez les anciens africains, Bulletin archéologique du Comite des Travaux historiques et scientifiques (n.s.) - B : Afrique, t. 25, 1998, pp. 138-140.

الفصل الثالث

تقديس الطبيعة والحيوان

نجد في التصوّرات السحرية والدينية للأفريقيين القدامى خليطا غير متجانس من الظواهر الطبيعية المقدّسة وأرواح (Génies) لا أسماء لها وكيانات تدخل ضمن الآلهة المتفرّدة وهذه التصوّرات هي وليدة حالات من التبصّر (Circonspection) والخشية والتوقير الذي يؤدّي إلى عبادة أقلّ ما يقال عنها أنّها عبادة منظّمة، فقد كان للأفريقيين في مراحل ما - مثل جميع الشعوب البدائية- وعي بقوّة موزّعة في الطبيعة يمكنها أن تُظهر نفسها في أيّ وقت، في حادثة طبيعية أو في ظاهرة غير مألوفة، ولكن المقدّس (le Sacré) يمكن أن يشمل حتّى الحيوان دون أن يصبح [هذا الحيوان] معبودا جديدا بالضرورة، كما يمكن أن يظهر المقدّس في شخص دون حاجة إلى وسيط عن طريق الوهم، الرؤيا أو الوحي بدرجات متفاوتة[1].

1. الجبال والمغارات والصخور المقدّسة:

إنّ مظاهر المقدّس الأكثر محسوسية والأكثر انتشارا في العالم هي التي احتُفظ بذكراها وهو ما يمكن تسميته بالحدث الطبوغرافي (Topographique) وأوّلها الجبل وحتّى الصخر فهل شكل الجبل هو الذي يضفي عليه صفة القداسة أم أنّ علوّه الذي يقرّبه من السماء -مكان الآلهة الكبرى- هو الذي يسوّغ توقيره؟. إنّ استمداد القداسة من الأرض [العالم السفلي(Chtonien)] ومن السماء [العالم العلوي(Ouranien)] يبدو متعارضا فكيف يسبغ الارتباط بالأرض والعلو في السماء صفة القداسة علىالجبل مع أنّه وضع متعارض.

من أماكن العبادة الكبرى نكتفي بذكر المعابد ذات التقاليد البونية مثل معبد ساتورن (البلكاراني Balcaranensis) في أعلى جبل بوقرنين (Bouguernine) الذي يطلّ على خليج قرطاج ويغطّيه بظلّه المتميّز! ممّا يؤدّي إلى التفكير بأنّ هذه المعابد (Sanctuaires) المكرّسة لآمون أو ساتورن والمقامة في الأعالي ذات تقليد بربري قديم وراسخ وتجسّد مكانة الجبل في حياة البربر قديما وحديثا وتعاقب التمنوس[2] (Téménos)

---

1 - Camps (G.), Berbères aux marges..., pp. 194-195.

2 التمنوس هو في الأساس جبل بجوار سيراكوزا، أقيم فيه معبد للإله الإغريقي أبولون، ثمّ أطلق الاسم على التعبّد في الجبال.

في الهواء الطلق أحيانا دليل على رسوخ هذا المعتقد، ففي المكان الواحد مورست الطقوس منذ الفترات البونية والرومانية والمسيحية القديمة إلى طقوس المرابطين (Marabouts) حاليا ممّا يوحي بالإجلال العميق للجبل الذي امتدّ في الزمان إلى الآن[1].

توجد عدّة معالم أخرى قديمة بالتأكيد، تدلّ على الطابع الأهلي الذي يميّز تقديس الأماكن العالية مثل الرسوم الصخرية ذات الدلالات الدينية، كرسوم جبال الأطلس الأعلى المغربي، وقد أصبحت هذه الرسوم معروفة الآن جيّدا وتعود بالتأكيد إلى النيوليثي، ولكن أغلبها يعود إلى العهد البرونزي وبداية عصر الحديد، ولا تزال تقام لها إلى الآن زيارات - اكتست طابعا إسلاميا- ممّا يدلّ على أنّها لا تزال تحافظ على عمقها الديني في ذاكرة الشعب.

يقول بلين الكبير عن هذا الأطلس أنّه يضيء ليلا بألف مشعل وتخرج منه أصوات اللهو مدوّية لآلهة تعزف على شبّابة (Flûte) وتدقّ الطبول[2]، فكيف لا يستولي الخوف على كلّ من يهمّ بالاقتراب منها، وذكر ماكسيم الصوري أنّ الأطلس هو إله ومعبد في نفس الوقت[3]، كما أنّ القدّيس أوغسطين وجّه اللوم إلى رعيّته (Ouailles) لعدم تخلّصهم من التقاليد الراسخة في أذهانهم عن الجبال وأنّها قريبة من الله[4].

إنّ القوانش (Guanches) وهم بربرجزركناريا، لم يتمسّحوا ولم يصلهم الإسلام لذلك احتفظوا بالمعتقدات الأصلية للأفريقيين القدامى ومن تلك المعتقدات تكوّنت لديهم ديانة أصيلة أعطت اسما لإله نقله الإسباني غاليندو (Galindo) دون تمحيص بهذه الصيغة: آت قوايش أفونت امان [Atguaychafuntaman][5].

---

1 تقديس قمم الجبال ظاهرة متأصّلة في المعتقدات الأمازيغية لأنّها نقطة التقاء السماء بالأرض ويلاحَظ ذلك اللقاء خلال تشكّل الضباب وهي بمثابة الزقورة التي أقامها قدماء العراق في بيئة ليس فيها جبال، واستمرّت قدسيتها في ظلّ الإسلام وأصبحت مسكن الأولياء، ويمكن أن نقدّم بعض الأمثلة في هذا السياق وهي كثيرة: فالجبل المطلّ على قرارم وسدّ بني هارون هو مسيد (مسجد) عيشة (امرأة صالحة؟)، والجبل المطلّ على القلّ هو سيدي عاشور، والجبل المطلّ على أمّ بواقي هو سيدي رغيس، أمّا الجبلان المطلّان على باتنة فهما: إيشّ علي (قمّة الولي علي) وإيشّ لعْلى(قمّة الولي الأعلى) ولا يتّسع المجال هنا لتسجيل أسطورية هؤلاء الأولياء.

2 المقصود هما الإلهان Egipans et Satyres وهي كائنات خرافية إغريقية يمكن أن نقول بأنّ بلين أحرى مقاربة مع آلهة محلّية شبيهة لها، وأطلق التسمية الإغريقية دون أن يتمكّن من تقديم التسمية المحلّية، أنظر: Pline, Hist. Nat. V, 1-7 -

3 - Maxime de Tyr. VIII, 7.

4 - St. Augustin . Sermones. XLV. 7.

5 حسب هذا الإسباني يعني الاسم: رافع السماء؟ وهو نفس الاسم الذي تحمله قمّة تينيريف (Ténérife) في كناريا الكبرى، ولكن لا بدّ من إجراء مقاربة لغوية بين هذه اللفظة المحرّفة وبقايا لهجات اللغة الليبية لاستخراج مدلوله الحقيقي.

توجد في كناريا الكبرى في منطقتين صخرتان مقدّستان هما: تيسمار (Tismar) وفيمِنيا (Vimenya) وهما محلّ زيارات تعبّدية، يتمّ خلالها صبّ الحليب والزبدة على الصخرتين مصحوب بأغانٍ حزينة، وبعدها يذهب الزُّوّار إلى حافة البحر ويقومون بضرب الماء بالقضبان وهم يصيحون بصوت أجشّ، والهدف من هذه الطقوس هو استنزال الغيث[1].

يبقى الجبل إلى الآن مكانا لعقائدمبهمة، ولا يزال الاعتقاد بأنّ بعض الجبال مسكونة بالأرواح (لَجْنُون Djennoun) ولا يمكن للبشراتّخاذها سكنا، وهذا الاعتقاد لا يزال راسخا عند التوارق على الخصوص (قرعة [2]لجنون Garaet ledjnoun) وكذلك في الأيير (Aïr) وعليه ألانجدفي هذه الجبال صدى لماروواه بلين في موضوع الأطلس ولا ننسى أنّ عبادة الجبال أو التعبّد في الجبال [لأنّه مرتكز المقدّس] مع التوقير الدائم للمغاور هو اعتقاد ظلّ سائدا عند البربر على مرّ العصور.

إنّ انغراز المغارة في جوف الأرض يسمح بالاتصال بآلهة العالم السفلي وحتّى مع آلهة العالم العلوي لأنّ بعض معاصري القدّيس أوغسطين يعتقدون بقربهم من الإله عند توغّلهم في أماكن تحت الأرض كالسراديب والمغارا...[3].

عبد الأفريقيون القدامى آلهة مقرّها المغارات، ولا نعرف من أسماء هذه الآلهة سوى اسم إله واحد هو باكاكس (Baccax) في جبل طاية قرب عنّونة (Thibilis)، ففي سفح جبل تنفتح مغارة تسمّى محلّيا: غار الجماعة[4] وكان الماغستري-باغي (Magistri-Pagi) وهما قاضيان بلديان يذهبان إلى المغارة للقيام بزيارة تعبّدية في فصل الربيع من كلّ سنة وبعد تقديمهما القربان يقومان بنقش نصّ إهدائي إلى الإله باكاكس العظيم (Baccax Auguste) وقد وجدت آثار عبادة مشابهة في مغارة صخرية بجبل

1 - Camps (G.). Berbères aux marges..., p. 196.

2 القرعة بقاف بدوية مفتوحة،في لغة أرياف السهول العليا الشرقية هي السبخة أو البحيرة المالحة، وقد ينطق العين حاءً في بعض الجهات.

3 - St. Augustin, Sermones, XLV., 7.

4 ترجم غابريال كامبس عبارة غارالجماعة بعبارة: Groutte de l'église وكأنّه يريد ربط التسمية بالفترة المسيحية في أفريقيا الشمالية القديمة، مع أنّ الطقوس التي احتفظت هذه المغارة بنقوشها تعود إلى فترة سابقة للمسيحية، وكان المفروض ربط التسمية بالفترة التي مورست فيها طقوس تقديس المغاور أي بالموروث الديني العقائدي المحلّي البحث دون سواه تماشيا مع السياق ذاته.

شطّابة بالقرب من قلعة فوّة (Castellum Fuensieum) كانت مقرّ إله، نقشت له عدّة نصوص إهدائية، يشار إليه في بدايتها بعبارات مختصرة أولها: G. D. A. S. ؟[1].

لا تزال الشعائر المرتبطة بملامح تضاريس الطبيعة شائعة وحيّة في أرياف أفريقيا الشمالية، وقليلة هي الأغوار أو السراديب التي لم تتحوّل إلى أماكن عبادة ولو متواضعة [مزارة، حويطة ...] توضع فيها النذور والقرابين في: آنية فخارية، مصابيح، صُرر (Nouets)، الحصى الأملس (Galets) أو القلل (Boulets) لأنّ هذه الأغوار تمرّ عبرها الأرواح (Djinn) أو الأرواح الحارسة التي ينبغي نيل عطفها أو على الأقلّ تحييدها[2].

2. غيث السماء، نسغ الأرض:

يشغل مشكل الماء على الدوام -في بلاد مناخها شبه جافّ ما عدا في الشريط الساحلي الضيّق- تفكير جماعات الفلاّحين ومربّي الحيوانات ، وكانت آلهة الينابيع وحوريات البحر (Nymphes) في العهد الروماني على الخصوص محلّ تعظيم ، ونلاحظ أنّ التماثيل التي أقيمت لهذه الحوريات أو النتفيات (Nymphées) في غاية الفخامة أحيانا ، وأعظمها معبد الماء (Temple des eaux) في زغوان حيث يجلب الماء عبر قنوات كبيرة لتموين عاصمة المقاطعة قرطاج ، وكانت مياه الاستشفاء محلّ إجلال وأهمّها: مياه سبتيما السعيدة (Aqua Septimiana Felix) في تيمقاد، وفي نصّ إهدائي يعود إلى 213 م. نجد الإشارة إلى تشييد أروقة (Portiques) مزيّنة بالصوَر وهيكل أمامي (Pronaos) تحيط ببستان وتغلق على النبع بدرابزين (Balustrade) من البرونز، وكذلك الشأن بالنسبة للآبار التي كان بعضها محلّ إجلال في قلعة ديّميدي (مسعد) أو بير باروتة بالقيروان.

يقوم الأفريقيون مثل أحفادهم المغاربة اليوم - خارج العبادات الرسمية[3]- بالإكثار من الشعائر السحرية للحصول على الغيث، مثل الطقس الذي لا يزال يمارس إلى اليوم وهو الطواف بعروس المطر (Fiancée de pluie) وهي ملعقة كبيرة مصنوعة من الخشب

---

1 كانت هذه الحروف التي تختصر عبارات طقوسية محلّ مقاربات لغوية دون الوصول إلى فكّها نهائيا، أنظر:
- Alquier (P. et J.), le Chettabah ..., op. cit. pp. 129-170 .

2 أشار كامبس إلى هذه الأرواح الحارسة بالعبارة العامّية: عسّاس Assès ثم ترجمها بعبارة: Gardiens، والمقصود الأرواح التي تحرس وتحمي المتقرّب إليها، أنظر:
- Camps (G.), Berbères aux marges..., p. 197.

3 وهو نفس ما يحدث اليوم فالريفيون لا يجدون حرجا في حضورصلاة الاستسقاء في المسجد ثم القيام بطقس "بوعنجة" المشار إليه.

تلبس بقطع من القماش مختلفة الألوان، وهو طقس يعبّر عن قدرة هذا الرمز على إنزال المطر (أنْزار)[1].

هناك طقس آخر مرتبط بالمطر هو أخذ حمّامات التبرّك بمياه المطر التي تسقط في الاعتدال الخريفي[2] وهو طقس واسع الانتشار خاصّة في تونس، وقد عاتب القدّيس أوغسطين معاصريه على الاستحمام عراة يوم الانقلاب الصيفي لإشعال شهوة المتفرّجين ولا ريب أنّ هذه الطقوس المرتبطة بماء المطر وماء الينابيع وماء البحر معاً هو التضرّع إلى السماء لتلبّي الدعاء، أمّا تعرّي النساء الهيبونيات (للتبلّل بمطر أوَسّو) فهدفه دعوة الخصوبة إلى الأرض الجافّة.



الشكل (51): تاغنجة أو بوغنجة، دمية مكوّنة من ملاعق تلبس ثوبا يتمّ الطواف بها للحصول عل المطر [الصورة من تابلبالة ناحية بشار، الجزائر].

إنّ هذه الشعائر في الواقع تشترك على نطاق ضيّق مع الرمزية الجنسية عن طريق التقليد السحري فالمطر وخصوبة الأرض وخصوبة القطعان هي سلسلة مترابطة، ومن خلال الفعل الجنسي يُعتقد في القدرة على جلبها، وهذا الترابط تقبله كلّ الديانات

---

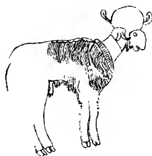
1 Taslit N'ou anzar عروس المطر (Fiancée de pluie) والعروس هنا ليست بوغنجة الذي يُحمل في شبه راية ولكن هي قوس قزح، تلك الظاهرة الطبيعية التي فتنت القدامى وجعلتهم يتوهّمون أنّها العروس التي تتزيّن بألوانها لإله المطر: آنزار، ومن هنا لا يمكن أن نوافق بأنّ الرمز ساذج على حدّ تعبير الأستاذ كامبس بل إنّه عميق الدلالة.

2 من الشائع والمستمرّ إلى الآن في الأرياف هو خروج الأطفال وهم يردّدون أغاني لها صلة بهذه الظاهرة، لاستقبال أوّل مطر الاعتدال الخريفي Equinoxe d'automne حتّى يبتلّوا بماء مطر أوسّو تبرّكا به وتفاؤلا بعام فلاحي وفير الإنتاج.

القديمة سواء في بساطته أو بإضفاء غطاء شفّاف من الأساطير عليه، ويعتقد كاركوبينو (Carcopino J.) أنّ هذه المعتقدات عند النوميد تفسّر بدقّة بقاء عمق طبيعي (Naturiste) قديم مصدره حضارة البحر المتوسّط القديمة، وهي معتقدات هيلّينية موغلة في القدم بأسرارها الجنسية واتّحادها مع القوى التي تخصب الطبيعة مثل عبادة تلّوس وكوري (Tellus et Coré) [كيريريس les Cerères] التي تقترب من الانشغالات السحرية للفلاّح الأفريقي ومثل أعياد ديمتر التي هي في اليونان ذات طابع رمزي[1].

3. الحيوان والمقدّس:

هل كانت لدى الأفريقيين القدامى عبادة الحيوان (Zoolâtrie)؟، إنّ الكتّاب القدامى يجيبون عموما بالتأكيد الإيجابي مع أنّ الوثائق الأدبية أو الأثرية التي تعود إلى العهد الروماني قليلة وغير مقنعة كثيرا، وبعيدا عن ربط الأحداث بتاريخها نركّز على ديمومة المعتقدات، وهذا يرتبط بالضرورة بالرسوم الصخرية وخاصّة فنّ التصوير، وتبقى هذه العبادة عند قدماء الأفريقيين وعلى الأقلّ خلال القرون العتيقة (Antiquité) غير أكيدة، فقد ارتبطت عدّة حيوانات لأسباب عديدة بالمقدّس وتحظى بالإجلال مثل الحيّات وبعض الطيور...، أمّا بعض الحيوانات فتقدّم عادةً كنُذُر وقرابين ولذلك فهي ذات علاقة وطيدة بالآلهة (الكباش مثلا) وأخرى - مثل العجل بالنسبة للإله قورزيل والأسد بالنسبة للشمس أو ساتورن - هي صور حيّة للآلهة، ولكن كلّ هذا غير كافٍ لنقول بأنّ الأفريقيين القدماء عبدوا الحيوان.



الشكل (52): رسم صخري من النيوليثي يمثّل كبشا

[كروي غطاء الرأسSphéroïde] بموقع بوعلام، الجزائر

---

1 - Carcopino (J.), Salluste, le culte des « Cereres » et les Numides L213]. RH, CLXVIII, 1928,pp. 1-18.

توجد في أفريقيا الشمالية حيوانات مقدّسة أو على الأقلّ محلّ توقير وإجلال ولكن ليس هناك آلهة-حيوان(Dieux-Animaux) وقد أكّد القدّيس أوغسطين بأنّ المصريين هم وحدهم الذين يعبدون الحيوان[1] ولو كان في أفريقيا عبادة حيوان لما حصرها في المصريين وإذا كانت الرسوم الصخرية غنية بصور الحيوانات المنحوتة في الصخر الصلب: كباش، عجول وغزلان، فإنّها تفتقر إلى الدلالة الدينية، وللتذكير فإنّ هذه الصور سابقة بكثير للعهد الروماني ولا يمكن أن تكون مستعملة للغرض الديني خلاله، ومن الواضح أنّ بعض العقائد الوثنية التي تحترم وتجلّ بعض الحيوانات كانت معروفة لدى رحّل الصحراء أسلاف التوارق، فهؤلاء لا يزالون يتسمّون بأسماء حيوانات مثل: أماياس (Amayas) [الفهد] وإيلو (Ilou) [الفيل] وأبقّي (Abeggi) [ابن آوى]، كما توجد عشائر في كال غلّة (Kel R'ela) يحمل أسلافها أسماء حيوانات مثل الغزالة والعكرشة[Hase]، وفي الشمال رأينا انتشار اسم أوشّن المترجم في العربية إلى دياب وهناك عشائر باسم آيث وُشّن وأولاد دياب.

أ - **الكبش:** هناك عدد كبير من صور كباش تبدو رؤوسها مغطّاة بشكل كروي مزيّن بالريش والأغصان، وهذه الصور منتشرة في الأطلس الصحراوي وتغذّي خيالا أدبيا واسعا خاصّة في الربط بينها وبين صورة الإله المصري أمون -رع (Amon-Râ) في مسألة مطابقة الغطاء كروي الشكل الشبيه بقرص الشمس المصري ، والواقع أنّ التقدّم الحاصل في كرونولوجيا ما قبل- تاريخ الشمال الأفريقي (Préhistoire nord-africaine) يجعلنا اليوم نبعد نهائيا هذا التفسير لأنّ هذه الرسوم تعود إلى مرحلة سابقة للنيوليثي السابق بدوره بكثير للرسوم المصرية المنبثقة من دمج الإله أمون بالشمس في طيبة[2] (Thèbes).

وردت إشارة وحيدة عن عبادة الكبش في أفريقيا الشمالية في البكري تخصّ قبيلة جبلية في الجنوب المغربي وهي إشارة مختصرة جدّا، لا تعرّفنا جيّدا بحقيقة هذه العبادة التي أدانها المصدر المذكور واعتبرها استثنائية وشائنة عند هراطقة يخفون ديانتهم في حال تنقّلهم إلى أوساط قبلية أخرى[3].

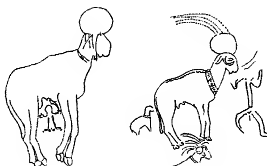
---

1 - St. Augustin, Sermones, CXCVIII, I.

2 - Camps (G.), Amon-Râ et les béliers à sphéroïde de l'Atlas, in: Hommages à Jean Leclant, Le Caire, Institut français d'Archéologie orientale, 1994, pp. 29-44.

3 يقول البكري: أنّ هذه العبادة مستمرّة إلى عصره في مكان اسمه قرزة تتجمّع فيها قبائل الجهة لإقامة طقوس تلك العبادة، وقد شكّك اقرال في هذه الرواية: Gsell (S.), H.A.A.N., T. VI, p. 138, note: 6. - ويبدو أنّ البكري يكون قد تلقّى هذه الرواية من الإخباريين المتعلّقين بالعرائبية والإثارة، ولم يعاين بذاته هذه الطقوس التي سجّلها.

لا يسمح تحليل المشاهد التي يظهر فيها الكبش كروي غطاء الرأس بتأكيد أنّ هذه الحيوانات كانت آلهة في جميع الأحوال فهي تبدو في الرسوم تتبع شخصا كأنّه يؤدّي الصلاة، ويدير ظهره للكبش ممّا يجعلنا نفكّر في أنّ الصلاة موجّهة إلى كيان إلهي آخر وأنّ الكبش الذي يظهر مزيّنا بغطاء رأس كروي ويعقد مَجْدُول أحيانا هو ببساطة القربان المقدّم للإله، وهذا الطقس استمرّ عبر التاريخ وخاصّة عند الساميين[1].



الشكل (53): كباش [كروية غطاء الرأس] من موقع حجرة سيدي بوبكر وقندوز الابيض، الجزائر.

ب - العجل: إلى جانب الكبش هناك منافسه العجل وهو أضحية مرموقة أيضا في عدد كبير من نصب ساتورن ويخبرنا نصّ نقاوس الشهير (القرن الثالث) بأنّ الأفريقيين استمرّوا وقتا طويلا أوفياء للقرابين خاصّة البواكير منها، قبل أن يستبدلوها بالخروف نفساً بنفس ودماً بدم وحياة بحياة للولد البكر المطلوب من الإله.

أصبح العجل هو الآخر مقدّسا وأصبح أضحية ذات اعتبار تقدّم لساتورن ويوبيتر، وذكر كوريبوس (Corippus) من القرن الرابع عقيدة خاصّة لقبيلة كبرى من منطقة سيرت هي لغواتن[2] (Laguaten) "تقذف عدوّها بعجل يمثّل إلهها قرزيل (Gurzil) المولود من زواج أمون ببقرة، ولهؤلاء (لغواتن) أصنام خشبية ومعدنية تمثّل قرزيل"[3]، وهذا هو النصّ الوحيد الذي يتحدّث عن عبادة العجل، والحقيقة أنّنا لا نرى

1 - Camps (G.), Un thème religieux dans l'art rupestre nord-africain: le bélier à sphéroïde, in: Studi di paletnologia in onore di Salvatore M. Puglisi, Liverani M., Palmieri A., Peroni R. (Dir.), Roma, Università La Sapienza, 1985, pp. 345-357.

2 أصل قبيلة لغواط التي استمرّ اسمها في المدينة التي تحمل هذا الاسم.

3 - Corippus, V. 22-26.

في الحيوان سوى صورة الإله ولا شيء في هذه الشعيرة ممّا يذكّر بتوقير المصريين مثلا للعجل أبيس (Apis).

د - **الحيّة**: هي مصدر رعب وتوقير معاً، وهي موضوع عبادة، ويستفاد من عدّة نصوص إهدائية مثل نصّ تيغنيكا (Tighnica) ونصّ نوملولي (Numluli) التقارب مع الأسطورة التي تروي لنا أنّ جند ريغولوس (Regulus) قاتلوا حيّة عملاقة[1]، ومن ناحية مجردة امتدّت عبادة الحيّة (Draco) إلى جهات نوميديا وموريتانيا ففي فسيفساء من هنشير الحمّام (Aquae Flaviae)(بالقرب من خنشلة) تختلط الحيّة بحوريات البحر (Nymphes) وفي تيبازة الموريتانية عرفت القدّيسة سالسا (Sainte Salsa) من آلامها وجود صنم يمثّل حيّة من البرونز رأسها مرصّع بالذهب.

هـ - **الأسد**: وجد تمثال من الطين المشوي يمثّل إلهة برأس أسد في معبد بوني-جديد (Sanctuaire Néopunique) في ثينيسّوت (Thinissut) وهي نفس الصورة التي تظهر في عملة متلوس سيبيون (Metellus Scipion) وبجوارها حروف: .G. T. A التي تقرأ عادة: Genius Terrae Africae، (جنّ الأرض الأفريقية)، والحال أنّ الأسد كان على الدوام محلّ توقير ويمكن أن نشبّه عفّارته (Crinière) المتموّجة مثل منمنمة مشعّة بالشمس، مع أنّ للأسد دلالات أخرى فهو حاضر في الزخارف المنحوتة في عديد المعالم الجنائزية، وينبغي ألاّ نغفل وجود الأسد إلى جانب ساتورن في النصب المهداة إلى الإله الأفريقي الكبير، وهو الحضور الذي يجعل ملك الحيوانات يحتلّ أحيانا مكان الإله ما بين الأرض والقمر، وفي نصّ أرنوب[2] (Arnobe) تأكيد الارتباط ما بين ساتورن والأسد، أي أنّ صورتهما المندمجة التي تظهر في الزخارف الجنائزية هي صورة لإله واحد يضيء القبر ويمجّد الميّت ويجعله تحت حماية الإله الأعظم سيد الزمن والحياة والموت.

---

1 - Pline , VIII, 37.

2 - Arnobe, Adversus nationes, éd. Rief. Atrschied, (Corpus de Vienne), 1875. IV, 10.



الشكل (**54**): نصب ليبي من الفترة الرومانية (كتابة مزدوجة لاتينية- ليبية)

تظهر في أعلاه أشياء نذرية

[مقبرة بني فرج ، ناحية القالة ، الجزائر]



الشكل (55): تمثال من الطين المشوي بقامة آدمية لإلهة برأس أسد من موقع ثينيسوت [بير بوركبة تونس].

الفصل الرابع

الاحتفاء بالآلهة

تُعرِّفُنا النقوش فضلا عن النصوص المنافحة عن المسيحية، ولو جزئيا، بالحياة الدينية للأفريقيين القدماء، والواضح أنّنا لا نكاد نصل من خلال الصيغ النمطية للنصوص الإهدائية إلى جوهر الحياة الدينية الذي هو عمق الإيمان وطبيعة العلاقات بين المؤمن وربّه إلاّ أنّ ضعف التوثيق لا ينبغي أن يثبّطنا عن البحث والتأمّل، فالآلهة التي استمرّ التضرّع إليها وتقديم القرابين وتشييد الهياكل والمعابد لها ليست - رغم قلّة انتشارها - أرواحا بسيطة وبالتأكيد فإنّها آلهة مثل الإله باكاكس[1] (Baccax) الذي كانت عبادته رسمية ويقوم بها قضاة بلَديون عبر تنظيم حجّ سنوي إليه وكذلك الشأن بالنسبة لبعل إدير (Bal Iddir) في سيقوس الذي أقيم له نصب في فوروم المدينة .

لا نعرف جيّدا نوع القرابين التي تقدّم لهذه الآلهة ولكن لا نعتقد انّها تختلف كثيرا عمّا كان يقدّم إلى الآلهة البونية أو الرومانية فالكبش الذي يظهر مرارا في النصب المقامة لساتورن كان الحيوان المفضّل الذي يقدّم لها كقربان، وليس مهمّا أن يكون ظاهرا في المشهد الوحيد للقربان المصوّر في نصّ إهدائي للآلهة الأفريقية ، فنقش (Bas-relief) باجة فيه أبقار، حمام، أطعمة، حلوى، أكاليل، زهور ونخيل وكلّها حاضرة في النذور المقدّمة للآلهة[2].

لا تستجيب هذه الآلهة للأدعية الموجّهة إليها فحسب بل تكافئ على تقديم النذور بالعرفان ويمكن أن تظهر عفويا للمؤمنين بها من خلال التخيّل أو بواسطة حادث غير متوقّع، ولذلك ينبغي أن ندرك أهمّية النذور - في بلاد ظواهر السراب فيها مألوفة والأرواح فيها دائما صاخبة[3] - وكذا أهمّية الاحتفالات الدينية كما هو الحال في المثال الذي يقدّمه هيرودوت، يقول: يحتفل الماشليون والأوسيون (Machlyes et Auses) بجوار بحيرة تريتونيس (احتمالا شطّ الجريد) بعيد أثينة (احتمالا تانيت أو إلهة ليبية مطابقة لهذه الإلهة) بأن تبدأ فتيات من القبيلتين بتمثيل معركة والغرض هو إثبات الطهر

---

1 عقون (محمّد العربي)، من التاريخ البلَدي ...، مرجع سابق، ص 390-391.

2 - Gsell (S.). H.A.A.N., T. IV, p. 167.

3 المقصود هنا أنّ الظواهر الطبيعية المألوفة في أفريقيا مثل السراب والرياح العاتية التي يمكن أن تعزّز لدى المتعبّدين الشعور بتخيّل الآلهة أو سماع أصواتها، فيقدّمون لها النذر (Ex voto).

والعفاف فالتي تصاب من الفتيات - عَرَضاً- تعتبر عذراء زائفة، والحال أنّه لا تصاب أيّ منهنّ لأنهنّ في حماية أثينة، وعندما ينتهي تمثيل المعركة على كلّ طرف أن يختار أجمل فتاة لتمثّل الإلهة وتزفّ عروسا في نزهة على متن عربة وهي مدجّجة بالسلاح[1]، ومثل هذا التمثيل استمرّ على الأقلّ في شكله الطقوسي إلى سنة 1950 في واحات فزّان (عيد الملح في غات)[2]، ولا يتمّ التعبّد وتكريم الآلهة في الطبيعة فحسب بل تستدعي الاحتفالات الطقوسية بناء معابد مثل المعبد الذي أقيم لآلهة ماقيفا (Magifa)، وتمثال هرقل إرسيتي (Hercule Irsiti) المهدَى للآلهة الماورية في تيفست وقد بقيت هذه الآلهة المقتدرة خالدة في فكرة "لَجْنون" ولا تزال هذه الأرواح (Génies) أصيلة ونشطة في كلّ الأرياف الأفريقية تحتفظ بمكانة هامّة خاصّة في معتقدات المرأة.

1. المعابد وتجسيد الآلهة:

أقام قدماء البربر هياكل لآلهتهم وشيّدوا لها أحيانا معابد، يعتبر بعضها من العمارة الفخمة مثل المعبد النوميدي الكبير في شمتو المتأثّر بفنّ العمارة البوني الهلّينيستي، ومثل معبدالإلهة الماورية في ألبولاي (Dea Mauria 'Albulae) الذي أعيد بناؤه في299م. ومعبدشيّدته حاميةقولاس (بونجم)لمارس كانافاري (Mars Canapphari) في 225 أمّا المعابد الأخرى فلا تعدو أن تكون أماكن عبادة متواضعة مثل المعبد الذي شيّده ق. بوليتيكوس (Q. Politicus) لآلهة ماغيفا وكلّف بناء هذا المعْلم وخمسة تماثيل للآلهة كلّف 8000 سسترس والمعبد الذي شُيِّد لبلوتون واريكّالا (Pluton Variccala) من طرف كاهن (Sacerdos) بسيط دون وظيفة بلدية في تابراكا (Tabraca) فهي معابد متواضعة أهمّها المعبد الذي شُيّد للآلهة الماورية (Dii Mauri) في ناحية ماسكولة (Mascula) من طرف جابي ضرائب (Exactor)[3].

إنّ المعبد الذي قام المدعو سالوستيوس ساتورنينوس (Sallustius Saturninus) بالإنفاق على تزيينه في ساتافيس (Satafis) كان مُهْدى إلى الآلهة الماورية، وكذلك إلى أرواح البلدية، وفي نفس المدينة أهدى يوليوس نُويلوس (Julius Novellus) معبدا

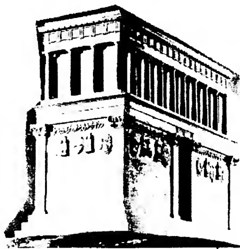
---

1 Herodote, IV, 180 - تميل روايات هيرودوت كثيرا إلى الإثارة وإلى العجائبية، وإذا استمرّ تمثيل المعارك في بعض الجهات فإنّ الأمر لم يصل إلى حدّ القتل بالشكل الذي يرويه هيرودوت.

2 -Brulard (M.), Tfaska n'tisent : La fête du sel à Ghat, le 27 Ramdhan, Bull. de liaison saharienne n° 25, mars 1957, pp. 12-17.

3 - Camps (G.), Berbères aux marges..., pp. 226- 228.

لآلهة ماورية (Numen Maurorum) وتكفّل بتبييضه ومن هنا جاءت عادة تبييض الأماكن المقدّسة المتواترة في بلاد البربر: صخور، جذوع أشجار الزيتون الخاوية...[1].



الشكل (56): معبد شمتو (تونس) وهو معبد نوميدي معاصر للملك يوبا الأول، تصميم ف. راكوب.

إنّ تجسيد الآلهة الصغيرة المحلّية أو الجهوية نادر، ونعرف أنّ بعل إدّير (بعل الحيّ) في سيقوس كانت له عدّة تماثيل ونصب من البرونز، منها تمثال بقاعدته كلّف 4000 سسترس، كما أقيمت تماثيل لآلهة ماقيفا الخمسة في معبد صغير خصّص لها[2].

في باجة جسّدت الآلهة السبعة المشكّلة للبانثيئون الجهوي في نقش غائر (Bas-relief) هو العمل الفنّي الوحيد في مضمونه أي الذي يمثّل آلهة أهلية من العهد الروماني، وإذا كانت تقاسيم الوجه قد حُطّمت فقد أمكن استخلاص صلاحيات كلّ إله:

- **ماكورتوم** (Macurtum) يحمل فانوسا وأمامه فرس{الشكل 59 رقم (1) في الشكل}.

1 - Ibid.., p. 226.
2 - Mercier (), divinités libyennes..., p. 185.

- ماكورغوم (Macurgum): يمسك في يده اليمنى حلقة وحيّة ملتوية على عصاه التي يمسكها بيده اليسرى، ولا ندري ما مغزى ظهور هذه الحيّة إلى جانب هذا الطبيب الربّاني! {الشكل 59 رقم (2) في الشكل}.

- ويهينام (Vihinam): مغطّى بغفّارة (Chape) أو بريش يمسك في يده ملقط جنين(Forceps) وبجوار قدميه طفل،ولعلّه معبود يحمي حالات الولادة {الشكل 59 رقم (3) في الشكل}.

- بونشور(Bonchor): هو شخصية مركزية وربّما يكون هو سيّد البانثيئون، يمسك بيده قضيبا أو دبّوسا(Massue) {الشكل 59 رقم (4) في الشكل}.

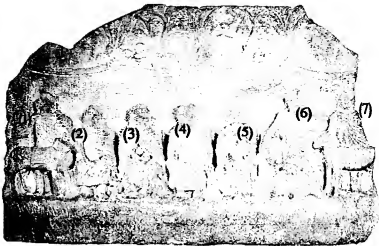
- وارسيسيما (Varsissima) : يرتدي نفس الغطاء الذي يتوشّح به ويهينام (Vihinam) ولكن لا يظهر في التمثال ما يدلّ على صلاحياته {الشكل59 رقم (5) في الشكل}.

ماتيلام(Matilam): يبدو واقفا يرأس طقس التضحية بالكبش،في يده اليسرى مجمرة البخور(Cassolette) ويتقدّم بيمناه فوق الهيكل{الشكل59 رقم(6) في الشكل}.

يونام (Iunam) وهو إله فروسية، تظهر أمامه فرس، و يمكن مطابقته بآلهة موستي الماورية (Castores Mauri de Musti). {الشكل 59 رقم (7) في الشكل} .

وضعت تماثيل هذه الآلهة في الطبيعة (أنظر الشكل 57 ص 249) وليس داخل معبد، ووضعت خلفها ركيزة بسيطة تفصلها عن بستان أين توجد أشجار نخيل وأشجار أخرى بأغصان مائلة من ثقل الثمار التي تحملها، ووضعت في مقابل السجف (Tenture) رماح تحدّد الدفاتر التي يجد فيها كلّ إله مكانه، ورغم الارتباك الظاهر في تنفيذ العمل وخاصّة في الأبعاد والقامة ما بين ماكورتوم و يونام وحيوانات الركوب التي تبدو أصغر فإنّ هذا النقش (Bas-relief) لا يخلو من جمالية، ورغم التمثيل السطحي فقد نفّذت صور الآلهة بعناية بعيدا عن الرتابة وبرودة الإحساس، ونُفّذ السجف بانسياب وتموُّج يدلّ على فكرة غنية ودقيقة عبّر عنها الفنّان في هذا العمل[1].

1 - Camps (G.). Berbères aux marges ...., pp. 227-230.



الشكل (57) : نقش (Bas-relief) مُهْدى إلى آلهة باجة السبعة [باجة ، تونس]

هناك أعمال فيها بصمات هلّينية واضحة ولكن لا ينبغي أن نستنتج هنا بأنّ الأفريقيين في باجة استعاروا آلهة إغريقية ، وإذا كانت الإلهة أفريكا استثناء فلأنّها تعود إلى نهاية الطور الهلينيستي أمّا ما عدا ذلك فلا أثر لهذه الإلهة الهلينستية فيه مع أنّ يوبا الأول والثاني رسما صورتها على عملتيهما ، وهناك إله آخر لا يُعرف اسمه ، أقيم له نصب في بانازا (Banasa) في موريتانيا الطنجية ، هذا الإله مزوّد بقرون مستقيمة لا يمكن مطابقته بأمون (Ammon) ومن المغامرة التفكير في مقاربته بالإله قورزيل (Gurzil) الإله-العجل ، ويبدو أنّ تمثال هذا الإله الأفريقي الخالص هو الوحيد في هذه المقاطعة ، الذي لا يقدّم لنا أيّ نصّ إهدائي إلى هذه المعبودات ولا للآلهة الماورية .

قام الأفريقيون في العهد الروماني بتمثيل آلهتهم على جوانب الصخور منقادين إلى تقليد قديم يعود إلى ما قبل التاريخ ، وقد وجدنا اثنين من النقوش على الصخر يمثّلان آلهة ومعهما نصّ إهدائي إلى هركول - إرسيتي (Hercule-Irsiti) بعين رقادة ، وإلى ييرو بقشقاش(Ieru à Guechguech) ، ولا يُعرف بالضبط إلى أيّ عهد يعود الارتباط بنصب أخرى غاية في الغرابة ، ولكنّها ذات طابع أفريقي واضح مثل نصب الفارس الذي وُجِد مرسوما في حوالي ستّة نقوش بجهة القبائل الكبرى وأجملها هو نصب أبيزار (Abizar) وهو يبرز شخصا ملتحيا يبدو دون لباس يمتطي فرسا دون سرج، في عنقه نوط مفصّص (Pendeloque Bilobée) وتنحدر لحيته الملسّنة إلى صدره ،تبدو قسمات وجهه ذات تخطيط بسيط ومن غير فم ، يرفع بيده اليسرى ثلاث

حراب (Javelines) ودرع دائري بأومبو (Umbo) واسع شبيه بالدرع الذي يزيّن ضريح لخروب والنصب الليبية في ناحية برج القصر والنصب البونية في وليلي (Volubilis)[1].

يمسك هذا الفارس (أنظر أدناه الشكل 58 ص 252) في يده اليمنى أداة دائرية ربّما هي رمز السيطرة، وتحتلّ الكتابة الليبية باقي المجال إلى اليسار، كما يبدو شخص صغير كأنّه من صغار الأرواح أو كأنّه خادم يتموقع قبالة جنب الفارس ما بين ذراعه الأيمن وكفل الحصان، وتحت رأس الحصان -الذي يتقدّمه كلب- طير شبيه بالحبارى (Outarde) أو بنعامة ذات حجم صغير، وكلّ أجزاء هذا النصب ذات نقش خفيف على سطح الصخر حسب تقنية الحفر على الصخر عند الفنّانين البربر على وجه الخصوص، ومع أنّ تحديد الفترة التي تعود إليها هذه النصب القبائلية صعب مثله مثل تحديد فترة الكتابة الليبية فإنّنا نقدّر أنّها سابقة للفترة الرومانية فالأسلحة تختلف عن أسلحة العهد الإمبراطوري وتطابق أسلحة المور والنوميد في القرون الأخيرة قبل الميلاد [2].

عثر في جهة سيلة (Sila) جنوبي قسنطينة على أنصاب كبرى تجسّد شخوصا يبدو أنّها لآلهة منها نُصْب برج القصر وهو لشخص يعلو رأسه درع شبيه بدرع أبيزار، ولكن هذا الأخير يمكن تشبيهه بالشمس، وأمامه عجلان بحجم صغير جدّا، ويبدو من إيمائه بيده اليسرى أنّه يحميهما، في حين يمسك باليمنى شيئا مستديرا وفي باقي الجهة اليسرى من النصب تبدو كتابة ليبية، وفي نصبين آخرين يجسّدان نفس الأشكال بنفس الموقع، نلاحظ أنّ تقنية الإنجاز هي نفسها وهي طريقة النقش على سطح الصخرة ولكن النصّ الكتابي الليبي مختلف.

في نفس هذه المنطقة الغنية على الخصوص بالمعالم النوميدية وفي الضفّة اليمنى لوادي خنقة (Oued-Khanga) في المكان المسمّى : بوشان (Bou Chène) يضطجع منهير (Menhir) منحوت من حجر كلسي صدفي بطول أكثر من 4 م وفي أحد جوانبه نُحت شخص عملاق يفوق الإنسان الطبيعي (طوله 2,14م) يرتدي سترة تنزل إلى ركبتيه ويمسك في يده اليمنى حربة أقصر منه، ويضمّ باليد اليسرى سيفا -على ما يبدو- إلى صدره وتظهر هذه التفاصيل بوضوح أكثر في نصب آخر أكبر ولكنّه مهشّم، اكتشف على بعد 500م من الأول وفيه كتابة ليبية في سطرين عموديين في جهة والشخص

---

1 - Camps (G.). Deux nouvelles stèles kabyles au cavalier, Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques(n.s.)-B:Afrique,t25,1998,pp.19-32.

2 -Camps (G.), Abizar in: Encyclopédie berbère 1, Aix-en-Provence, Edisud, 1984.

المنحوت في الجهة الأخرى وهذا الموضوع مثير فهو يُظْهِر واجهة (Fronton) ترتكز على جذوع أشجار غير معرّاة تُرى من جهة موصولة بدوائر متلامسة في القسم الأعلى من النصب، وهذا التفصيل "المعماري" استثنائي في فنون النوميد، كما أنّ قامة الشخوص الطويلة تسمح بالتفكير بأنّها تمثّل إلها أو على الأقلّ أميرا يرقى إلى مصاف الأبطال.

يمكن العودة إلى الفترة البيزنطية إلى وضع الإله غرزيل المعبود من طرف اللغواتيين (Laguaten) في إقليم طرابلس[1]، هذا الإله مولود من أمون ومن بقرة يُرمَز إليه بعجل وجسّده اللغواتيون في تماثيل من خشب ومن معدن[2] ولسنا في هذه العجالة بصدد إحصاء مجموع صور وتماثيل الآلهة الأهلية في الفترة الرومانية ولا بصدد إعداد كشف لكلّ النصوص المتعلّقة بالشعائر الدينية للأفريقيين، ونعترف بقلّة الوثائق في هذا الموضوع والعدد المحدود لمعالمه، لأنّ أغلب الآلهة الأفريقية مثل: "لَجْنُون" عند المجتمعات الأمازيغية الحالية لم تكن في حاجة إلى صور وتماثيل ولا إلى معابد وكهنة.



الشكل (58): نصب أبيزار [جهة القبائل الكبرى، الجزائر]

1 - Corippus, II, 110-1.
2 - Gsell (S.), H.A.A.N., T. V, p. 249.

2. الطقوس الجنائزية :

كان للبربر القدامى طقوس جنائزية حقيقية نعرف العديد منها بفضل المعالم العديدة المزوّدة بتنظيمات خاصّة موجّهة للاحتفاء بالموتى من خلال زخارف بعض القبور والأثاث المودع في المدافن وأقدم هذه المدافن هي النواويس المكعّبة (Hypogées Cubiques) المحفورة في جوانب الجروف أو في الصخور المعزولة التي تسمّى محلّيا "الحوانيت" ويوجد منها في شمالي تونس عدد هامّ يتميّز بصور زخرفية شبيهة بصور القبور البئرية البونية، وهذه الصور لوّنت بالمغرة واعتمد في رسمها على التشكيل الهندسي البسيط وأهمّ الصوَر حيوانات نذرية وقائية كما يوجد في أعلى مدخل أحد "الحوانيت" نقش لرمز تانيت وفي نفس المدفن يوجد اسفنجان (2 Sphynges) منقوشان في جانبي مدخل أحد النواويس وهذا كأنّه يؤكّد بيئة بونية مع أنّه لا يمكن اعتبار كلّ المضمون الثقافي والديني بونيا خالصا كما هو الحال في الأشكال الأولية لعجل مرسومة على جانبي قبرين بحيث عمد منفّذ الرسم إلى جعل قرن العجل في شكل كوّة تعبّدية، وهو مضمون ذو قيمة دينية[1].

يبدو أنّ جدارية كاف بليدة الشهيرة ذات علاقة حميمية بالعالم المتوسّطي غير الفنيقي ومضمونها عبارة عن سفينة من بين شخوصها رجل يرفع فأسا مجنّحة (Bipenne) ويحتمي بدرع دائرية مزيّنة بالشكل V بنمط ما قبل القرن VI الذي كان منتشرا من كريت إلى إسبانيا، والمضمون الجنائزي والديني لهذه الديكورات واضح كثيرا، بحيث يبدو أنّ رسم السلّم في السفينة يرمز إلى السماح للروح بالسفر إلى العالم الآخر، أمّا الثمانية شخوص المسلّحون الذين يشغلون السفينة فهم أرواح (Génies) حارسة ترافق النفس وتحميها خلال سفرها، ويمكن اعتبار الشخص الملتحي المسلّح الذي يلوّح بالفأس المجنّحة إلها أعلى ربّما يكون بعل أمون الذي سيصبح في وقت لاحق ساتورن الأفريقي، ويمكن اعتبار الشخص الغامض - الذي يبدو أمامه محلّقا - روحا

1 الكوّة (Niche) هي حفرة في الجدار بغرض وضع قرابين من أطعمة أو بخور... فيها، ومنفّذ الرسم هنا قام بحصر في الجدار الصخري حيث مكان قرن العجل، فما دلالة القرن في التفكير الديني عند هؤلاء القدامى وما علاقته بالطقوس والقرابين؟، وعن عرف الدفن المحفورة في الصخر أنظر تفاصيلها في:

-Camps (G.). Aux origines de la Berbérie, monuments et rites funéraires protohistoriques, éd. Arts et métiers graphiques, Paris 1961., pp. 91- 201.

مطرودة أو قتلها الإله ذو السلاح المجنّح وهذا ما يستنتج من حركات الشخوص وأدوات الحرب[1].

وللإشارة فإنّ "الحوانيت" هي أنواع من المدافن المنتشرة في شمالي أفريقيا قبل عصر الحديد وقد استمرّت في الوجود خلال العهد البوني ثمّ الروماني، كما استمرّت بعض أشكالها المعقّدة ولو شرفيا إلى القرون الأخيرة للإمبراطورية عند يهود ومسيحيي أفريقيا.

3. البازينة والتيملوس المقبّبة:

هناك معالم أخرى ذات خصوصية بربرية مثل البازينة[2] التي تقام بجانبها أحيانا هياكل دائرية (Autels circulaires) بسيطة بعلو 0,80 إلى1م، موجّهة لإقامة الطقوس الجنائزية، تكون قبالة البازينة من الجهة الشرقية وعددها غير محدّد، والملاحَظ أنّ التملوس والبازينة البسيطة هما أكثرعددا من المعالم ذات القباب، وهما معاً المدفن الأكثر تميُّزاً عند قدماء البربر (Paléoberbères).

نجد نفس الاتجاه نحوالشرق في دعامات سور البازينة في شكل كوّة وأحيانا كوّتين أماميتين بتوابع ممتدّة ومتعبّة، وقد تكوّن هذه التوابع في مقدّمة المدفن ذي الزوايا الأربع "أريا" (Area) تغطّيها أحيانا بقايا النذور، وهذه المعالم بتوابعها عديدة في المناطق الصحراوية على الخصوص حيث يلتصق المعْلم ذو التخطيط مربّع الزوايا [تاوز في تافلالت] ببناء أمامي (Avant-corps) ويكفي أن تجتاز الزاوية اليمنى باتجاه مداخل الأريا لتجد نفسك في غرفة حقيقية، وإذا كانت مغطّاة فهي لصيقة تماما بالمعْلم، وتتحوّل إلى قبّة يمكن اعتبارها أيضا كوّة أعمق وأكبر موجّهة للقيام بطقوس العبادة، وتنتشر التملوس المقبّبة في شمال موريتانيا، الساقية الحمراء، جهات تافيلالت والجنوب الوهراني إلى السفوح الأوراسية شرقاً، وتوجد معالم مماثلة لها في الجلفة تربط الشرق بالغرب وهذه التملوس تقدّم لنا بصمات طقوس جنائزية أكثر أهمية فالقباب (Chapelles) في موريتانيا والصحراء الغربية هي غرف بسيطة مستطيلة، وهو نفس

---

1 - Camps (G.). Berbères aux marges..., pp 234-235.

2 هي قبور دائرية كانت في البداية في غاية البساطة ولكن مع تطوّر فنّ العمارة الجنائزية النوميدية أعطى لنا هذا الشكل الـدائري معالم فحمة يمثل ضريح المدغاسن وضريح تيبازا المسمّى قبر الرومية خير مثال لها.

الوضع الذي نجده في معالم جرف التربة (قرب بشار) ولكن تخطيطها في غالب الأحيان معقّد[1].

توجد في جهات نقرين قباب نفلية الزخارف بأعمدة وقاعة مماثلة ممتدّة ذات كوّة وتبدو القباب في تافيلالت وتاوز كما هي في بوية Bouïa محاطة بعديد "الأنابيب" تَسَعُ شخصا في حال التمدّد أو الجلوس، وقد وجد في هذه القباب أثاث ولكن لا دلالة له، وفي موقع مرايتي Mreïti في موريتانيا وُجدت حوالي مائة من ألواح جيرية مزيّنة بأشكال هندسية وصور حيوانات ملوّنة بالمغرة أو مخطّطة بالفحم، كما وُجدت في جرف التربة، ألواح كبيرة مثبّتة ومزيّنة بالمغرة وبعضها منقوش.

يتمثّل مضمون الصور والنقوش في هذه المعالم كلّها في:

- صفوف شخوص في تمام أبّهتهم، مهور يهاجمها فهد، خنازير، أحصنة ومشاهد حلْب.

- الأحصنة هي الأكثر عددا وتبدو ذيولها ذات خصوصية كأنّها أجنحة طير، وهذا التصوير وحيد النمط يوحي ربّما بأنّ يداً واحدة هي التي أنجزت هذه الرسوم.

- وجود الظباء بعدد هامّ (مع عدم وجود الجمل) في ألواح مرايتي.

- في قباب فجّ الكوشة ووادي جارش (ناحية نقرين)، تجسّد نقوش الجدران المرسومة بالمغرة أحصنة بعضها براكب.

- وُجود كتابات بالحرف الليبي في كلّ من جرف التربة وفجّ الكوشة تؤكّد أنّها أحدث من هذه المدافن.

- وجود آثار لرماد ومواقد وأحيانا عظام حيوانات، وفي بوية وُجد مذود (Auge) مخصّص للقرابين أو لإراقة المشروبات يدلّ على أهمّية هذه القباب في الطقوس الجنائزية.

تسمح لنا هذه الدلائل بالتفكير في أنّ هذه المعالم ذات علاقة مباشرة بطقس احتضان الأرواح للإنسان الذي وصفه هيرودوت عند الناسامون (Nasamons) والذي

1 - Camps (G.), Les tumulus à chapelle du Sahara protohistorique : tombes-sanctuaires des Gétules, in: Eléments de pré et protohistoire européenne : hommages à Jacques-Pierre Millotte, Paris, Les Belles Lettres, 1984, pp. 561-571 (Annales littéraires de l'Université de Besançon : 299).

لا يزال إلى اليوم عند التوارق، ويمكننا أن نفسّر وجود البلاطات المزيّنة بأنها مكان إيداع النذور من قبل الأشخاص الذين يتردّدون على هذه القباب[1].

4. الفخار الجنائزي في قسطل وتيدّيس:

كانت قسطل في جبل الدير شمالي تبسّة بلدة لأحد فروع قبيلة الموسولان الكبرى، وهؤلاء الموسولان لم يكونوا كلّهم رحّلا، و يشبه فخارهم ذو القاعدة المستوية فخار فلاّحي الوقت الحاضر، فهو ليس مجرّد آنية لسكّان الخيام بل إنّ بعضه يمثّل نسخة من الفخار البوني أو الإغريقي، وأهمّ ما يلفت الانتباه هو أنّ هذه الآنية الفخارية عليها صور وبعضها ذو زخارف متعدّدة الألوان أحمر وأسود بسيط، تمتاز رسومها بمشابك منحنية منقّطة، وأهمّ العناصر التصويرية فيها هي أشرطة وزهور ونخيل وفي بعضها صور طيور، وتعود الآنية المزخرفة بالصور التي عثر عليها في تيدّيس في بازينة - احتمالا - إلى 250-110 ق.م. وتحمل أحدها حروفا ليبية رُسمت على الجانب برشاقة، وزخرف الباقي بأشكال هندسية مثلّثية مطابقة للرسوم التي لا نزال نشاهدها إلى يومنا هذا في الفخار المسمّى بالقبائلي، وهو ما يميّز عموما كلّ الفنّ الزخرفي البربري[2].

يمتاز زخرف هذه القبور بالدقّة وتحتلّ المثلّثات ذات الأشكال الرباعية داخلها مكانة أساسية، وليست خالية جميعها من مواضيع تصويرية بل فيها صور نباتات، طيور، أشخاص، والشمس على الخصوص، ورغم التنميط الكبير فإنّ زخارف الأواني في تيدّيس ذات دلالة واضحة،ففي جميع هذه الآنية نلمس رغبة في إظهار وتمثيل الطبيعة بعناصرها المختلفة مثل المجالات ما بين المثلّثات أين نلحظ مرّات عديدة صورة الشمس والطيور المحلّقة كما نلحظ أيضا في نقطة التقاء قاعدة المثلّثات فسائل النخيل أو نبات منمنم.

للمثلّثات في هذه الآنية دلالة خاصّة على الأقلّ، ولعلّها ترمز إلى الجبال وبمعنى أدقّ الأرض ترتكز قاعدتها على شريط من الدعامات أو على معيّنات (Losanges) ممتدّة يمكن أن نجد فيها عنصرا آخر مثل المياه المنسابة ويستخلص في الحدّ المتوسّط من فخاريات تيدّيس التركيب الدقيق لعناصر الطبيعة الأربعة: الماء، التربة، النار والهواء،

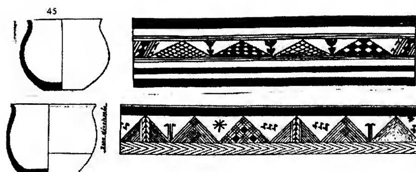
1 - Camps (G.), Berbères aux marges..., pp. 236-237.

2 - Camps (G.),La céramique des sépultures berbères de Tiddis, Libyca : Anthropologie Préhistoire Ethnographie, t. 4, 1956, pp. 155-203.

ثمّ الحيوان والنبات اللذين يشغلانها، والحال أنّ هذا التمثيل ليس ذا قيمة شكلية فقط بل إنّ هذه الآنية لها وظيفة جنائزية ولا ينفصل زخرفها عن هذا الاتجاه، وكأنّ البربر القدامى يريدون أن يوفّروا للميّت صورة العالم الذي غادره.

يسمح لنا وجود صور للطيور وهي رمز التنقّل المريح والحرّية، بتقديرات أخرى أليس القصد هنا هو تصوير روح الميّت؟ خاصّة وأنّ في يد المتوفّى فسائل النخيل -التي تظهر في زخرف الآنية البربرية- وهو يلوّح بها، وفي فخارية أخرى مزخرفة نلاحظ كتابة ليبية لعلّها تسجّل اسم كائن داخل القبر كرّست له تلك الصور، أمّا الآنية الكبيرة الأكثر زخرفة فتشتمل على فخاريات نذرية صغيرة ومجموعة عظام: عظام السلاميات، عظام الرسغ، عظام مشط اليد، فقرات... وأحيانا قِطع من قاعدة الجمجمة وأضراس وفي بعض الحالات الفكّ الأسفل كلّه، ولعلّ وجود هذه العظام بهذا الشكل يدلّ على نقلها مجرّدة من اللحم إلى المدفن ووضعها في سرداب الدفن (Caveau) في البازينة وهو مستودعها النهائي ويستنتَج في هذا السياق أنّ نوميد تيدّيس يضعون في فتحة السرداب الجماجم أمّا العظام الطويلة فيجمعونها ويودعونها في عمق السرداب ويجعلنا وضع هذه العظام فوق بعضها نفكّر في أنّ نقلها كان بعد تجميعها في حفل طقوسي، لعلّه هو الذي رُمز إليه بطواف الراقصات المخطّط على إحدى الآنية.

توحي هذه الأمثلة المقتطفة من زخرف بعض الحوانيت ومن نذور التملوس المقبّبة ومن الآنية المزيّنة من البازينات بتعقّد الطقوس الجنائزية لقدماء الأفريقيين سواء عند الليبو-فنيقيين في شمالي تونس خلال العهد البوني أو عند نوميد تيدّيس المعاصرين لماسينيسا أو عند الجيتول في الجهات السهبية في العهد الروماني، فقد عرف قدماء البربر (Paléoberbères) دائما وفي جميع الجهات طقوسا جنائزية دفعتهم إلى إنشاء هذه المعالم الجنائزية، وقد هيّأهم إجلالهم لموتاهم وحرصهم على الدفن بجوار المدافن الرئيسية إلى عبادة القبور التي شهدت في الفترة المسيحية انتشارا واسعا، ولعلّ ما نراه اليوم من تقديسٍ لأضرحة الأولياء الصالحين ما هو إلاّ امتداد لذلك.



الشكل (59): مضامين زخرفية مأخوذة من نمط تيدّيس.



الشكل(60): آنية مزخرفة من إحدى بازينات تيدّيس [ناحية قسنطينة].

الباب الرابع
أثر الاستعمار الروماني
في المجتمع الأفريقي ونتائج ذلك

الفصل الأول/ تطوّر الحياة الحضرية

1. المدرّجات
2. المسارح
3. الألعاب المسرحية
4. الحمّامات

الفصل الثاني/اللغة والأحوال الشخصية والاجتماعية

1. الأثر اللغوي
2. المواطَنة وروَمنة الأسماء
3. الطبقية

الفصل الثالث/الكنطنة

1. إجراءات نزع الملكية
2. القانون الخاصّ بالقبيلة

الفصل الرابع/ الدوناتية والثورة الريفية إلى نهاية التاريخ القديم

1. الانقسام
2. الثورة الريفية
3. انهيار الاستعمار الروماني ونهاية التاريخ القديم

الفصل الأول

تطوّر الحياة الحضرية

ورث الرومان عن البلاد التي فتحوها وخاصّة اليونان حضارة راقية - وما الحضارة الرومانية إلاّ امتداد للهلّينة والحضارة الإغريقية عموما - وقد شغفوا بفنّ العمارة وأبدعوا في تشييد العمائر في كلّ المقاطعات وخاصّة في أفريقيا التي كانت أهمّ مقاطعة لثرائها وقربها من روما، ويعكس توفّر المرافق ازدهارا كبيرا في الحياة الحضرية، فقد كانت المدن الأفريقية مثل قرطاج، ثيسدرة، قيصرية ولبتيس ماغنا مزوّدة بمرافق غاية في الإبداع والفخامة، فهي تتوفر على مدرّجات ومسارح لا تقلّ عن غيرها من مدن الإمبراطورية وكانت أهمّ المدن التي استفادت من ثروتها الفلاحية (الزيتون) هي مدينة ثيسدروس، فمنذ عهد هادريان شهدت بناء العمائر الفخمة، وعلى الخصوص مدرّجها الشهير وهو الثاني بعد مدرّج روما، وكانت هذه المدينة منطلق الثورة التي حملت إلى عرش روما إمبراطورا أفريقيًّا هو قورديان الأول، وعلى العموم فإنّ وصول أفريقيين (السيويريين والقورديين) إلى العرش الإمبراطوري الروماني انعكس على أفريقيا بالكثير من المنجزات العمرانية الهامّة، ولعبت الهيئات البلَدية دورا هامّا في ترقية المدن وتزويدها بالمرافق وهذا في عموم أفريقيا ؛ في نوميديا وفي موريتانيا القيصرية[1].

لم يعثر الأثريون بعد على ما يثبت وجود المدرّجات والمسارح في المدن الأفريقية قبل الاحتلال الروماني، ولا ريب أنّ الإغريق في أقصى شرق المغرب القديم قد نقلوا إلى تلك المنطقة التي أسسوا بها المدن الخمس (Pentapolis) مظاهر الحضارة الإغريقية وأولها المسرح، ولعلّ الملك ماسينيسا الذي تفتّح على الحضارة الإغريقية وتحدّثت المصادر عن استقدامه للفنّانين الإغريق يكون قد شيّد مثل هذه المرافق بعواصم المملكة وخاصّة سيرتا، وعلى العموم فإنّ المدن الأفريقية خلال الفترة الرومانية كانت تتمتّع بمرافق ترفيهية هامّة تدلّ على رقي اجتماعي وعلى حياة حضرية زاخرة بالفنون ومختلف الألعاب التي كان يتبرّع بتنظيمها أعيان تلك المدن بمناسبة اعتلائهم وظائف القضاء البلدي على الخصوص، وأبرز هذه المرافق الترفيهية:

---

1 - Mansouri (Kh.), « Édifices publics et évergétisme en Maurétanie césarienne sous le Haut-Empire : témoignages épigraphiques », Afr.Rom. 15, 2004, p. 1385-1414.

01- المدرّجات :

المسرح المدرّج (Amphithéâtre) كما هو في كلّ المدن ذات العمارة الرومانية هو مبنى فخم يتكوّن من قاعدة بيضوية الشكل وقمّة مخروطية وله جداران خارجي وداخلي يبعدان عن بعضهما بحوالي 4,30 م[1]، وأهمّ مدرّج أفريقي لا تزال آثاره تدلّ على الفخامة والأبّهة هو مدرّج ثيسدرة (بالقرب من مدينة الجمّ الحديثة)، وهو أفخم مدرّج في عموم أفريقيا شُيِّد في عهد الإمبراطور الأفريقي قورديان في مدينة صغيرة ولكنّها ثرية بفضل إنتاجها الكبير من الزيت، وتدلّ سعته على أنّه أقيم ليباهي به أبناء المدينة بل والمقاطعة سائر البلاد في الإمبراطورية وكذا لتنظيم مهرجانات وألعاب يفد إليها كلّ أبناء المقاطعة الأفريقية، أمّا مدرّج سيرتا فلم يبق منه شيء ويُحتمَل أنّه كان يتّسع لحوالي ثلاثين ألفا إلى أربعين ألف متفرّج، إلى جانب الشرفات المخصّصة لسامي الموظّفين وعائلاتهم،ويفصل المدرّجات عن الحلبة حاجز جداري يحمي المتفرّجين من خطر الحيوانات الضارية وحيوانات السباق المستعملة في مختلف الألعاب كما تنقسم الحلبة إلى قسمين يفصل بينهما جدار[2] (أنظر أدناه الشكل61 ص 263).

02- المسارح :

المسرح (Théâtre) هو أهمّ مرفق ثقافي ترفيهي في المدينة، ويمتاز بالفخامة والأبّهة ،وتناسق الأشكال الهندسية،وبقدر ما هو المكان الأنسب لتقديم أرقى الأعمال الأدبية تمثيلا وغناءً بقدر ما هو منصّة للتعبير الحرّ وتثقيف الشعب، وتذكرالنصوص الأثرية الأفريقية مرارا تنظيم ألعاب مسرحية في مناسبات عديدة أهمّها مناسبات إهداء النصب والتماثيل والمعابد والهياكل المقامة إجلالا للآلهة وأخرى احتفاءً بالشخصيات النافذة مدنيةً ودينيةً (أنظرأدناه الشكل 63 ص 269).

يوضع تمثال الإله المحتفى به خلال عرض الألعاب على شرفه في إحدى جهات المنصّة مقابل تمثالي ليبر وباخوس (Liber et Bacchus) اللذين يوضعان في المنصّة دائما ليباركا الألعاب وينشرا،كان التقليد الروماني ينصّ على أن تنظّم الألعاب المسرحية -في حال برمجتها لتكون جزءا من الاحتفال الرسمي بأحد الآلهة- من قبل إيديلين في الخدمة بعد موافقة الأوردو البلدي الذي يمكن أن يقدّم دعمًا ماليا مع أنّ أغلب الألعاب المنظّمة

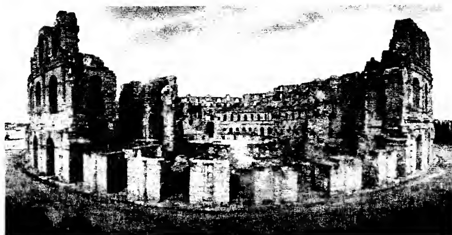
1 - Brunon(Col nel),Note sur les vestiges d'un monument découvert à Constantine, dans RSAC, XVII, 1875, p. 64.

2 - Vars (Ch.), Recherches archéologiques sur constantine. dans RSAC, XXIX, 1894, pp. 427-428.

تكون بموجب وفاء بنذر أو وعد بهبة من قبل مرشّح نجح في اعتلاء أحد مناصب القضاء البلدي[1].

المدينة	ملعب (Cirque) يتّسع لـ	مدرّج (Amphithéâtre) يتّسع لـ
قرطاج	60 إلى 75000 متفرّج	41500
ثيسدرة	50 إلى 55000 متفرّج	36000
لبتيس ماغنا	20 إلى 25000 متفرّج	30000
قيصرية	20 إلى 22000 متفرّج	14000

الجدول (7) سعة بعض المسارح والمدرّجات في أفريقيا القديمة



الشكل (61) المسرح المدرج بالجمّ (ثيسدرة)

3. **الألعاب المسرحية:**

يتوافد الناس على المسرح المكوّن من مدرّجات الجلوس ومنصّة التمثيل ومخادع الشخصيات الرسمية يوم الإعلان على تنظيم ألعاب وتمثيليات مسرحية ويبدأ الحضور

---

1 -KOLENDO(JERZY), Les lieux de spectacles en Afrique romaine et les études démographiques, dans Actes du Ve **colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord,** Afrique du Nord Antique et médiévale. Spectacles, vie portuaire, religions, Avignon, Paris 1992, pp.29-35.

في أخذ أماكنهم[1]، ويُعلِن منادون عموميون (Hérault) عن بداية الألعاب العمومية بإطلاق عبارات الفرح والإشادة بسخاء عضو الأوردو المتبرّع بنفقات تنظيم الألعاب، ثمّ يبرز هذا العضو ذاته ويعلن للأوردو وسامي شخصيات الديكوريون والجمهور بأنّه يتشرّف بالتكفّل المادّي الضروري للاحتفال، وتمتلئ السلالم التي تتوسّط المدرّجات، كلٌّ يبحث عن مكان مناسب له وفي يده تذكرة المسرح (Tessera theatralis) وهي عبارة عن قرص صغير نُقش فيه رقمًا مكان وصفّ الجلوس (Cuneus) يعاينه عون مكلّفٌ (Dissignator) يرشد كلَّ من يصل، إلى موقع مكانه واحترام تطابق رقم التذكرة مع رقم المكان والصفّ وهي أرقام مسجّلة في المدرّجات.

تخصّص المدرّجات العليا لجلوس النساء وهنّ يرتدين لباسا محتشما (calyptra) يغطّي أعلى الجسم[الصدر والظهر]وفستانا فضفاضا (Palla) بأكمام تجعل اليد حرّة الحركة وإذا كان الفصل حارّا تُستعمَل المراوح (Flabella) من ورق اللوتس (Lotus) أو من ريش الحمام ويصطفّ الرجال في المدرّجات السفلى وأغلبهم يرتدي التوجة (Toge) يكون شكلها حسب مقام صاحبها ومركزه الاجتماعي.

يقام لأعضاء الديكوريون مجلس، ما بين الخشبة (Scène) والأوركسترا (Orchestra) يتقدّمهم أعضاء الهيئة التنفيذية [أعضاء الحكم الثلاثي (IIIvirs) والإيديلان (2 édiles) الكستور والكهنة وسامي شخصيات المدينة] ويتوسّط الجميع في هذا المجلس منظّم الألعاب الذي يخصّص له كرسي عاجي فخم، وإلى جانبه توضع الرخامية التي ستُنصَب في الفوروم في ما بعد وقد نقش فيها بعناية النصّ المخلّد لمساره المهني المشرّف (Cursus honorum).

بعد الصخب وامتزاج الأصوات يسود فجأةً صمتٌ مُطْبقٌ يبدأ بإزاحة الستار ويدخل المشخِّصون على أبواب ثلاثة حسب أهمّية دور كلّ واحد منهم حيث يدخل من الباب الأوسط وهو أعلى وأكثر زخرفة البطل الأول في المسرحية ويدخل باقي المشخصين من البابين الآخرين وتظهر لوحة رخامية (Album) مقابل الجمهور على

---

1 أردنا هنا من خلال عرض هذه "اللوحة" أن نقدّم صورة قلمية عن الألعاب المسرحية التي كثيرا ما ذكرها النصوص الأثرية الأفريقية وكان الإنفاق على تنظيمها مجالا للتنافس بين أعضاء الهيئات البلدية.

الجهة اليمنى للبروسكنيوم[1] (Proscenium) تحمل عنوان المسرحية بحروف كبيرة، ولْتكن إحدى المسرحيات الكوميدية الشهيرة لبلوتس[2] (Plaute) هي التي ستمثَّل.

يبدأ العرض بدخول فتاة حسناء من الباب الأوسط، وهي إذن بطلة المسرحية ترتدي فستانا (Palla) أنيقا، وهي تبكي لأنّ عجوزا آثما أسرها وترثي مصيرها البائس الذي ينتظرها بعبارات فيها حزن مؤلم وبراءة، ثمّ يظهر مختطفها وهو عجوزشنيع وقوّاد وقِح، يرتدي لباسا رثّا غايةً في القذارة وعلى وجهه قناع غاية في البشاعة يثيراشمئزاز المتفرّجين، وتنطلق مشاهدوتفاصيل المسرحية بفصولها الدرامية والكوميدية تتخلّلها مغامرات وفضائح يؤدّيها القوّاد الوقح المُخادع، وكيف أنّ الطبيعة انتقمت منه وهو في طريقه إلى صقلّية لبيع أسيرته حيث تحاصره عاصفةهوجاء تحطّم سفينته، فتتمكّن الفتاة من الإفلات منه وتلتقي بشيخ يحنو عليها، ويتبيّن أنّه أبوها فيسود الرضا والفرح ويصفّق الجمهور بحرارة[3].

يتخلّل العرض المسرحي فاصل ترفيهي تقدّم فيه مشاهد ضحك قصيرة: حركات إيمائية، أقنعة مكشّرة، تهريج... ممّا يجعل الجميع في انشراح ينسي حتّى كبار شخصيات المدينة وقارهم وفي الأخير يُسدَل الستار ليتمّ الإعداد لنشاط آخر ومع مشخِّصين آخرين والجمهور في غاية الترقّب واللهفة لمتابعة العروض القادمة، وفجأة يُرفَع الستار ويظهر المشخِّصون وهم يرفلون في لباس فضفاض من أجود الأقمشة الشرقية، ثمّ تندفع فتاة غاية في الجمال إلى وسط المنصّة وهي ترتدي لباسا شفّافا ينزل على تفاصيل جسمها بشكل أخّاذ، إنّها أشهر غانية (Diva) جلبتها المدينة من روما وسرعان ما يلحق بها فريق من الصبايا يرتدين ألبسة مثلها غايةً في الجمال والتناسق، إنّها حفلة غناء راقص على

---

1 المعنى الحرفي المقابل للاصطلاح اللاتيني هو: سطح أو شرفة: Quicherat (L.), Op. Cit. p. 1112 -

2 هو ماكوس أو ماكيوس بلاوتوس (Maccus ou Maccius Plautus) شاعر هزلي لاتيني أصله من أفريقيا "الشمالية"[سارسينا،أومبريا 254-روما 184ق.م.] لا يُعرَف عن حياته الكثير، سوى أنّه كان منظّم ألعاب أو متعهّد حفلات،كرّس حياته لتأليف المسرحيات التي ظلّ يتهافت عليها منظّمو الألعاب المسرحية في عموم الإمبراطورية الرومانية، وصلتنا منه 21 مسرحية مع أنّه تنسب له 130،وأهمّ هذه المسرحيات:أمفيتريو،الحمير،جرّة الذهب،الأحتان التوأم باكحيس، الأسرى كاسينا الخادمة، علبة المجوهرات، كوركوليو، إبيديكوس، الأخوان التوأم ميناخموس، التاجر، الجندي الجعجاع،بيت الأشباح، الفارس، القرطاجي الصغير،بسيدولوس، الحبْل، ستيخوس، ثلاث قطع من العملة، الفظّ تروكوليتوس، السلّة أو الحقيبة. للمزيد أنظر: عتمان (أحمد)،الأدب اللاتيني ودوره الحضاري في سلسلة عالم المعرفة رقم141 الكويت 1989، ص 41-66.

3 هذه مقاطع من مسرحية الحبل (le câble) للمسرحي الكبير بلاوتوس، تجري أحداثها في الساحل الصخري بقورينة في ليبيا الحالية بالقرب من معبد فينوس وتصوّر قصّة مواطن أثيني هو دايمونيس الذي احتطفت منه ابنته بالايسترا وهي في سنّ الطفولة من قبل أحد النخّاسين ويدعى لابراكس، وللمزيد عن بلوتوس وأعماله المسرحية، أنظر :

- Paridolfi (Vito), Histoire du théâtre , trad. De l'Italien par Marie-Claude Coulon, éditions Marabout université,Paris 1968, pp. 208-230.

أنغام الافتتاح العذبة (Maelena) ترسلها أوركسترا تتّخذ مكانها في الجزء الخلفي من منصّة التمثيل ثمّ تبدأ الأنغام الخليعة ويظهر صفّ الراقصات وهنّ يتمايلن فيتمايل معهنّ المسرح كلّه وهنا يقوم منظّم الألعاب بنثر النقود على جمهور الشعب (Missilia) ويدعو أعضاء المجلس الديكوريوني إلى وليمة في قاعة الإيبولوم (Epulum) بعد نهاية العرض، ويُعلَن عن نهاية الألعاب[1].

04- الحمّامات:

لا أحد ينكر بأنّ الحمّامات إبداع روماني محض، وتتكوّن الحمّامات في المدن ذات العِمارة الرومانية من عدّة قاعات، غايةً في الجمال بهندستها المعمارية المتناسقة ومنحوتاتها وزخارفها ولوحاتها الفسيفسائية، ومثال على ذلك قاعة الحمّام البارد (Frigidarium) في روسيكاد (سكيكدة) المزيّنة بلوحة فسيفسائية رائعة تصوّر أربعة كائنات بحرية خرافية (Néréides) تمتطي حيوانات خرافية[2]، وهو منظر كلاسيكي يتكرّر في زخرفة الحمّامات ذات الطابع الروماني، فضلا عن المنحوتات الجميلة وألواح الفسيفساء التي تبلّط أرضية القاعات والألواح الرخامية التي تغلّف جدرانها وتتخلّلها جداريات غاية في الإبداع والجمال وتحتلّ هذه المرافق مساحات معتبَرة[3] مثل حمّامات لبتيس ماقنا التي أنشئت في عهد هدريان بقاعتها الوسطى (cella media) ذات الثمانية أعمدة كورنثية رخامية (cipollin) تعلوها ثلاثة عقود ولها مسبح (natatio) في الهواء الطلق بجانبه ميدان فسيح لممارسة التمارين الرياضية ينتهي بمنصّتين على غرار حمّامات تراجان بروما[4].

كان الإيديليس[5] هو الذي يشرف على السير الحسن لهذه المرافق وعلى صونها، وهو دليل على حرص الهيئة الديكوريونية على توفير شروط الرقي الاجتماعي والحضاري لمواطنيها في روسيكاد بل إنّ البعض من الأعيان كثيراً ما ينفقون من أموالهم

---

1 عن فار بإيجاز: .Vars (Ch.), Cirta ..., pp. 363-368 -

2 الحيوانات الخرافية هي: التنّين والسمك الخرافي(Chimères) وحصان البحر والليقورن (Licorne)، أنظر :
- Bertrand (L.), Catalogue ..., pp. 12-15.

3 تمتدّ حمّامات حيملة على 2600 م، وحمّامات لمباز على 3000م، أمّا لبدة فتمتدّ على ثلاثة هكتارات، أنظر : جوليان (شارل أندري)، مرجع سابق، ص 244.

4 وقد كتبت فيها عبارة تذكارية جاء فيها: الإمبراطور هدريان ضمن خلود الماء وسرويليوس كانديدوس نقلها على حسابه، أنظر: - Picard (G. Ch.), la Civilisation ..., p. 208.

5 هو منتخب وعضو الهيئة البلدية وتشمل صلاحياته مراقبة الأسواق والعمران ومختلف المرافق، للمزيد أنظر:عقون(محمّد العربي)،من التاريخ البلّدي للجزائر... مرجع سابق، ص124-126.

لترميم وتزيين المرافق العمومية والعناية بها، لأنّ المجتمع الحضري كان شديد التعلُّق بهذه المرافق[1].

كان الاستحمام في الحياة الحضرية "طقسا" يوميا، وكان يوم المواطن الحضَري ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الصباح للعمل والمساء للتسلية والترفيه، وباقي اليوم للنوم، وكانت الحمّامات هي مكان الأنشطة الترفيهية فضلا عن دورها الصحّي، فبعد عمل متعِب يبدأ مع بدايات النهار الأولى تكون العودة إلى المنزل لتناول الغداء، وبعد الزوال يتوجّه الجميع نحو الحمّامات لقضاء وقت يستمرّ إلى آخر النهار (موعد تناول العشاء Cena).

تتوفّر الحمّامات على قاعات عديدة، لكلٍّ منها وظيفتها، ويبدأ المستحمّ من القاعة الأولى إلى الأخيرة، وبذلك يكون قد مرّ على جميع مراحل هذا النشاط الصحّي، وهذه القاعات هي:

- قاعة خلع الملابس (Apodyterium).
- قاعة الاستحمام بالفاتر (Tepiderium).
- قاعة التعريق (Laconicum).
- قاعة الاستحمام بالحارّ (Caldarium).
- قاعة الاستحمام بالبارد (Frigidarium): وهي القاعة الأكثر بذخا، وتكون مسبوقة في كثير من الأحيان بقاعة الحركات الرياضية (Palaestrum).
- قاعة الدلك بالزيت (Elaeothesium).

يخضع الاغتسال للمراحل الآتية :

- الدخول إلى قاعة ذات حرارة مرتفعة جدّا ليتعرّق الجسم كفايةً.
- الدخول بعد ذلك إلى قاعة استحمام بالماء الحارّ جدّا لإزالة العرق.
- الدخول بعد ذلك إلى قاعة استحمام بالماء البارد لشدّ العضلات وتقويتها.

1 والدليل على ذلك التعلّق هذاالمثل الروماني:الحمّامات والخمر والنساء هي التي تصنع الحيـاة، ولكـن أفسـدت أجسـامنا!:
Balenia, vina, venus corumpunt corpora nostra , sed vitam aciune!

- الانتقال أخيرا إلى قاعة التدليك، وكثيرا ما يكون بزيت الزيتون لغرض جمالي صحّي معاً.

بعد الانتهاء من الاغتسال والتدليك يتوجّه المستحمّ حسب هوايته إلى متابعة النشاط الترفيهي الذي يميل إليه كالمطالعة أو الاستماع إلى أحد الخطباء أو حضور نقاش في السياسة أو الفلسفة أو التمتّع بمشاهدة التحف الفنّية، وحتّى لإتمام إجراءات الخطوبة... وهي الأنشطة التي خُصّصت لها قاعات أخرى تتوفّر على كلّ أسباب الراحة[1].

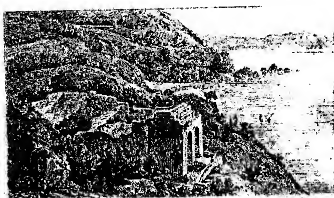
لقد أردنا من خلال هذا الصورة القلمية الموجزة عن الأنشطة التي تتمّ في هذا المرفق الهامّ أن نبيّن على غرار ما أوردناه بالنسبة للألعاب التي تقام في المسارح، دور هذه المرافق وعلى الخصوص دور الهيئة البلدية من خلال منتخبيها (الأوردو) ومفوّضيها (البرايفكتي)، وأعوانهم في إنعاش الحياة الحضرية، وهو مثال لما كان يتمّ في جميع المدن الأفريقية وفوق ذلك فإنّ الأثرياء نقلوا الرفاهية إلى قصورهم الريفية وأقاموا بها مرافق تضاهي مرافق المدينة مثل بومبيانوس (Pompeianus) الذي أقام حمّامات رائعة بفسيفسائها وبذخها بجوار قصره (غير بعيد عن بلدة وادي عثمانية الحالية باتجاه الجنوب الغربي)[2].

إنّ ثراء المدن الأفريقية بهذه المرافق دليل على أنّ الحضر بلغوا درجة عالية من الرفاهية التي كانت ترعاها الهيئات البلَدية على امتداد قرون وقد استطاعت هذه الهيئات أن تجعل من تلك المدن تحفا فنّية جميلة - بمسارحها وساحاتها وباقي مرافقها- ومراكز اقتصادية مزدهرة بأسواقها، ولا ريب أنّ توالي الأجيال قد فسح المجال لتلاقح الحضارات والأفكار في هذه المدن وأنّ الحضر من أهلها قد اندمجوا بنسبة كبيرة في الحضارة الرومانية التي أصبحت واقعا مُعاشا.

1 - D.A.G.R., T. V, 1ère partie , mot: Therma.
2 - Alquier(J.et P.),les thermes romains de Val d'or, RSAC LIX,1928-1929, pp. 289-304.



الشكل (62) مسرح لبتيس ماقنا



الشكل (63) روسيكاد، فيلّة من الفترة الرومانية مزوّدة بحمّامات

حفيده يوغرطة يقف إلى جانب الرومان في حرب نومنتيا، وألقى آدربال خطابا في مجلس الشيوخ الروماني نقله إلينا سالوست، ورافع يوبا الأول في مجلس الشيوخ الروماني، ولم تحدّثنا المصادر عن وجود مترجمين لهؤلاء، وكان في المدن النوميدية جاليات رومانية من التجار خاصّة في سيرتا، وفي فرق الجند المأجور في الجيش النوميدي أفراد من جنسيات مختلفة ولا ريب أنّ الرومان من بين تلك الجنسيات...، ولكن خلال الاحتلال كان الوضع اللغوي أعمق بكثير، فقد جاء الرومان بنظمهم الإدارية والاقتصادية وبقوانينهم التي تجعل من بين شروط الحصول على المواطَنة تمثُّل الثقافة اللاتينية واللغة مفتاح تلك الثقافة وبعد مرور أكثر من قرن ستظهر نتائج الرومنة اللغوية تدريجيا[1]، وكانت المدرسة أهمّ أداة لرومنة المجتمع[2]، وكانت مناهج التعليم فيها تركّز على القراءة والكتابة والحساب ثمّ النحو وكان على التلاميذ أن يحفظوا بعض أمّهات الكتب في التعليم الأُولي وفي المراحل اللاحقة تمتدّ الدراسة إلى الفنون والعلوم الأخرى (الشعر والموسيقى والفلسفة والرياضيات...) وطبيعي أن يكون المجتمع الحضري على الخصوص أوّل المتأثّرين بالرومنة اللغوية[3]، وقد أصبحت قرطاج عاصمة الثقافة اللاتينية في أفريقيا بمدارسها وطلاّبها وأساتذنها، يقول أبوليوس المادوري: " إنّك لا ترى في قرطاج إلاّ نخبة المثقّفين الضليعين في مختلف العلوم؛ تلاميذ يدرسون، شباب يتباهون بعلومهم وشيوخ يدرّسون. إنّ قرطاج مدرسة معتبرة في منطقتنا. إنّها هديّة السماء للأفريقيين[4]، ومنذئذ سنرى ظاهرة سوسيوثقافية في الشمال الأفريقي جديرة بالدراسة وهي مدن ناطقة بلغة الغالب وأرياف محافظة على لغة البلاد.

1 في مقارنة الفرنسة بالرومنة لاحظنا أنّ انحسار الثقافة التقليدية (العمائم القديمة Vieux Turbans) بدأ مع نهاية القرن XIX، ليظهر مع بدايات القرن XX أول جيل تشرّب اللغة والثقافة الفرنسية على أنقاض الجيل الذي قاوم الاستعمار... وفي الشمال الأفريقي القديم كان لا بدّ من فترة أطول بكثير ليظهر أوّل جيل أفريقي مرومن (أبوليوس المادوري كمثال) بسبب التفاوُت في الإمكانيات، ونستحضر هنا مقولة القدّيس أوغسطين: إنّ الدولة الرومانية التي تعرف كيف تحكم الشعوب لم تفرض على المغلوبة منها سيطرتها السياسية فحسب بل لغتها أيضا، عن جوليان (شارل أندري)، مرجع سابق، ص 248.

2 ومن الملفت للانتباه أنّ اسم المدرسة والمعلّم لا يزال إلى الآن في المدن الشاوية: عين البيضاء، خنشلة وتبسّة وربّما في جهات أخرى بصيغته اللاتينية فالمدرسة اسمها شكولا من الكلمة اللاتينية: Scola، والمعلّم اسمه: الميسترو من الكلمة اللاتينية Magister.

3 وكانت المدرسة في أفريقيا لا تختلف عن مثيلتها في روما بل فاقتها، فهذا يوفينال وهو شاعر لاتيني هجّاء له ديوان شعر هاجم فيه سلبيات عصره، ينصح طالبا رومانيا بالذهاب إلى الضفّة الأخرى للمتوسّط قائلا له: إنّ أفريقيا هي الأرض التي أنبتت المحامين والفصحاء مثل ستيميوس سيويروس وفلوروس، أنظر : عقون (محمّد العربي)، الاتحاد السيرتي، مرجع سابق ص 348.

4 ...Karthago provinciae nostrae magistra venerabilis, Karthago africae musa caelistis, Flor. 18.

02- المواطَنة ورومنة الأسماء

لعلّ مجلس الشيوخ الروماني والأباطرة الرومان كانوا يدركون أنّ دوام سيطرة الإمبراطورية في مختلف أقاليمها يكون من خلال استقطاب عناصر أهلية ذات ولاء راسخ وأنّ رسوخ ذلك الولاء لا يكون إلاّ عن طريق الدمج في الثقافة والحضارة الرومانية، ولذلك ستكون المواطَنة خير أداة لتحقيق مرامي الدولة الرومانية وترسيخ وجودها، فالمواطَنة ترقية اجتماعية سياسية للأفراد والجماعات وترسيخ للولاء لروما، وقد أشاد البعض بهذا الأسلوب بقوله أنّ روما سخّرت قوتها العمومية لفرض قانونها الخاصّ لتتقاسم سيادتها مع البلاد المفتوحة أي تقاسم سيادتها وحياتها من خلال القوانين التي سنّتها[1].

مثلما يوجد الروماني بالولادة هناك الروماني بالتجنّس ولا فرق بينهما في تحمّل أعباء المواطَنة وهي واجب الخدمة العسكرية وواجب دفع القسط العشريني من التركة، وإذا كان الواجب الأوّل قد أصبح مع الزمن اختياريا فإنّ الثاني ظلّ إلزاميا، كما تسري باقي القوانين الرومانية على الجميع مواطنين بالأصل أو بالتجنّس على السواء، بحيث تخضع ممتلكاتهم لقواعد المِلْكية الرومانية ويخضع الزواج لقانون الزواج الروماني (Cannubium).

إنّ الوضع القانوني الجديد بعد الحصول على حقّ المدينة يمكّن الفرد من عديد المكاسب التي كان القانون قد أقصاه منها باعتباره أجنبيا ويزيل من أمامه العراقيل الثقيلة والدائمة، وأهمّ هذه المكاسب:

اتّخاذ الاسم الثلاثي الروماني (Tria Numina) المنصوص عليه في قانون "الحالة المدنية الرومانية" للاندماج نهائيا في الشعب الروماني بل قد يصل التحوّل إلى حدّ فرض تغيير الملابس التي يعتبرها القانون الروماني أجنبية عن الزيّ الروماني، بحيث أنّ المتجنّس أي الحاصل على حقّ المدينة [المواطنة الرومانية] ظلّ إلى القرن الثاني الميلادي لا يمكنه الخروج إلى الحياة العامّة في غير اللباس الروماني وعلى الخصوص التُّوجَة (Toge !).

1 - Carcopino (J.), Du droit de cité accordé par les romains aux peuples conquis, extrait des Annales Universitaires de l'Algérie, Mars 1915. Typographie adolfe jourdan, Imprimeur Libraire de l'Université , Alger1915,pp.2-5.

اكتساب المشروعية الزوجية بحيث يصبح اقترانه بزوجته شرعيا تعترف به القوانين الرومانية التي دُونها كان زواجه يعتبر اقترانا غير قانوني وغير مشروع ولا يُعْتَرف بما يترتّب عنه من أبوّة وأمومة وقرابة.

اكتساب كيان وسط المواطنين الرومان من خلال الاسم الثلاثي الذي هو عنوان لدرجة رفيعة[1].

حقّ المِلْكية لا ريب أنّ المشرّع الروماني وهو يمنح المواطنة هذا الوزن كان حريصا على عدم منحها لأيّ كان، إلى حدّ أنّ كلوديوس منع عن الأشخاص الأجانب (Pérégrins) اتّخاذ أسماء رومانية، واعتبر من استعملها - دون أن يكون مواطنا- مغتصبا، لأنّها عنوان شرف[2]، أمّا الذي يرتدي التوجة من غير المواطنين الرومان مثل الأجانب والعبيد والمحكوم عليهم في قضايا سياسية وفي قضايا الحقّ العامّ فيغرّمون[3]، ومن هنا كانت المواطنة ارتقاء كبيراً وتحرّرا من نفي الوجود الذي كرّسه المشرّع الروماني إزاء الشعوب المغلوبة، وهذا الوضع هو أهمّ العوامل إن لم يكن الوحيد الذي يكون قد دفع سكّان المدن على الخصوص إلى السعْي للحصول على المواطنة والاندماج القانوني الكلّي، للحصول على المساواة أو على الأقلّ لرفع المظالم التي كانت تُرتكب في حقهم، لأنّ أهل المدن تحت سمع وبصر الهيئات الرسمية على الدوام، والسلطة الرسمية محسوسة في الحواضر دائما أكثر من الأرياف، وفي حال سيرتا وكبريات المدن النوميدية والموريتانية[4] نميل كما أشرنا أعلاه إلى أنّ سكّانها يكونون قد التمسوا الحصول على حقّ المدينة منذ الوهلة الأولى كشرط لخضوع مدينتهم الذي لا مفرّ منه لروما[5].

---

1 إنّ مسألة الأسماء في غاية الأهمّية فقد حمل الأهالي- الذين تحصّلوا على المواطَنة- في أغلب الحالات أسماء وألقــاب العــائلات الرومانية الأرستقراطية التي اتّخذوا مشاهيرها حماةً لهم، وهو تقليد معمول به فالمدينة لها حامٍ والعائلة لها حامٍ... ومــن هنــا يصعب تمييز الروماني بالأصل من الروماني بحقّ المدينة، ونادرا ما نجد فردا احتفظ بلقبه الأصلي، ومن الخطأ اعتبار كلّ الأسماء التي خلّدتها النقوش هي أسماء لرومان بالأصل، ولكن لا نملك أدلّة إثبات كافية، مع أنّ توتان وبفلوم حاولا دراسة هذه الأسماء واستخلاص بعض النتائج من التي تكون قد ترجمت أي التي تحمل معاني أسماء أفريقيّة نوميدية وكانت متداولة في أفريقيا ما قبل الرومان، أنظر:

-Pflaum (H.G.), Remarques sur l'onomastique de castellum celtianum, dans carnuntina, Vorträge biem Internationalen Kongress des Altertumforscher, graz- kölen, 1956, pp. 126-151.

2 - Suetonius, Claudi, 25.

3 - Mommsen (Th.), Droit public..., 6.2, p. 250.

4 مثل يول (شرشال) التي ترومنت حضاريا وهي تحت حكم يوبا الثاني، وما قامت به التشريعات الرومانية في وقت لاحق ما هو إلاّ تسوية وضعية لا غير.

5 لا نجد في المصادر أدبيةً وأثريةً ما يشير إلى مصير سكّان سيرتا بعد فرض الاحتلال على مدينتهم، ولكن تمتّع المدينة بالسلم طيلة العهد الكنفدرالي يمكن أن نستنتج منه بحذر حال "الوفاق" الذي يمكن أن يكون قد ساد بسبب مراعاة الطرف الروماني لبنود الاتفاقية التي تكون قد أُبرمت بين أهالي المدينة والإمبراطور الروماني أغسطس خلال إنشاء مستعمرة يولية بها 27 ق.م. .

بدأت سياسة الدمج الرومانية بفرض نصوص القانون المدني والأعباء (Munera) على الأحرار من أفراد الشعب المغلوب وإذا كانت المواطنة الرومانية في العهد الجمهوري تمرّ بمراحل التدرّج من الحقّ اللاتيني إلى الحقّ الإيطالي للوصول أخيرا إلى المواطنة الرومانية الكاملة فإنّنا نميل إلى الاعتقاد -في حال بعض المدن الأفريقية التي عبّرت عن ولائها لروما- بأنّ "نخب" بعض المدن تكون قد نالت المواطنة الرومانية لحاجة الرومان إلى سند داخل الأقاليم المفتوحة يواجهون به أيّ تمرّد أو ثورة محتملة ضدّهم من الأغلبية المقهورة.

إنّ السعي إلى الحصول على حقّ المدينة سينمو تدريجيا حتّى يصل مداه بدستور كاركلّة الذي عمّم المواطنة الرومانية على جميع أحرار الإمبراطورية الرومانية في فترة لا يزال فيها الاتحاد السيرتي قائما، ومع أنّ الأرياف السيرتية ظلّت خارج هذه المواطنة مثل قبيلة الناتابوت التي لم تتحصّل على المواطنة إلاّ في القرن IV[1] وهو ما يدعّم قولنا بأنّ ما يسمّى بتعميم المواطنة الرومانية لم يكن تعميما في الأرياف مركز الثقل الديمغرافي ومعقل القبائل المناوئة للاحتلال، بل كان موجّها بالدرجة الأولى إلى سكّان الحواضر الذين يكونون قد استوعبوا الحضارة الرومانيةوأصبح دمجهم عبارة عن تسوية قانونيةلوضع قائم لا أكثر[2].

إنّ ما يمكن أن نعبّر عنه بالرومنة القانونية (Romanisation Juridique) هو الوصف الواقعي لما ترتّب عن التطبيق الرسمي للقانون الروماني، وحتّى أفراد نخب المدن الذين نالوا المواطنة ونالوا حظّا من الثقافة اللاتينية كانوا في أحسن الحالات يشعرون بأنّهم رعايا لروما أكثر من إحساسهم بأنّهم رومان، وإذا كانت النخبة الأهلية النافذة التي تعايشت مع الرومان وتقاسمت معهم الثروة والسلطة واندمجت في الثقافة اللاتينية قد اتخذت أسماء رومانية[3] واستوعبت آداب وفنون روما فإنّها لم تفقد الشعور

---

1. Carcopino (J.), Op. Cit. pp.5-9 -؛ ونلمح في عبارات كاركوبينو تحميل دستور كاركلّة مسؤولية انهيار الإمبراطورية الرومانية فقد بربر كاركلّة — على حدّ تعبيره- الإمبراطورية، وفي إشارة منه إلى تمثال كاركلّة وصف هذا الإمبراطور ذا الأصل الأفريقي بأنّه ذو نظرة ماكرة ووحشية وهو رمز حيّ على الدوام للإمبراطورية المبربرة، وكأنّ كاركوبينو يشير من طرف خفي إلى الاستعمار الفرنسي بأنّه إن سار على خطى كاركلّة ومنح الجنسية الفرنسية لسكّان المستعمرات (والقصد هنا سكّان الجزائر) فإنّ فرنسا ستلقى نفس المصير!.

2 للتوسّع في الموضوع يمكن الرجوع إلى أطروحتنا لنيل الدكتوراه بعنوان: من التاريخ البلَدي للجزائر القديمة: الاتحاد السيرتي، دراسة في تاريخ وآثار ونظم سيرتا العتيقة، جامعة قسنطينة 2005، ص 350-357.

3 - Lassert (Jean-Marie), Onomastica africana, in Ant. Afr., T. XIII, 1979, pp. 227-234.

بجذورها[1]، ونوافق غاسكو في استنتاجه بأنّ الرومنة لم تتجاوز في الواقع المدن الكبيرة التي تغلغل فيها التأثير الروماني[2]، ذلك التأثير المعبَّر عنه بحضارة أفريقيا الرومانية لأنّ الأرياف وهي مركز الثقل السكّاني على الدوام ظلّت أفريقيّةً محضة ويستخلص من دراسة أسماء الأعلام في سلتيانا[3] أنّ رومنة أرياف الاتحاد السيرتي كانت نسبية وضعيفة رغم انتشار الأسماء والألقاب الرومانية، ومع أنّ الاحتلال الروماني للإقليم السيرتي جاء بعد إقليم قرطاج أي منذ نهاية العهد الجمهوري إلاّ أنّ الرومنة لم تصل كلّ الشرائح المجتمعية في الإقليم[4].

لقد كان أسلوب إدارة المدن بعناصر أهلية مترومنة (وهو ما نسمّيه اليوم الإدارة غير المباشرة)[5] أحد الأركان التي قامت عليها سياسة الرومنة، ولعلّ ما وجدته روما في هذه العناصر-التي أصبحت تشكل "أرستقراطية بلدية"- من سند هو أحد أدوات الدمج الانتقائي، وفي تقديرنا أنّ هذه الأرستقراطية البلدية سينمو لديها تدريجيا -بحكم المصالح المشتركة وحتّى الاستعلاء- الشعور بالانتماء إلى روما بالقدر الذي تفقد فيه شعورها بالروابط التي يُفترَض أن تكون موصولة بينها وبين الجماهير الأهلية.

لا نختم هذا الفصل دون التذكير بدور اللغة اللاتينية، التي وجدت في المدن الأفريقية بيئة خصبة للانتشار والرسوخ، وهذا في ظلّ خلو الساحة من منافسة لغوية حقيقية كما حدث في بلاد الإغريق وانكفأت البونية والليبية على نفسيهما وارتبطتا بالجانب الطقوسي الجنائزي وأخذت الأولى تضمحلّ تدريجيا حتّى زالت نهائيا مع نهاية

---

1 لنا في أبوليوس المادوري خير مثال فقد خاطب أهل بلدته مساداوروس بعبارة أهلي النوميد، أهلي الجيتول...:
- Apulée, Apologie, trad. Par de violette, collection Budé, Paris 1954. XXV, 3.
كما أنّ فرونطون السيرتي كان لا يتردّد في الجهر بنسبه النوميدي الليبي، أنظر:عقون (محمّد العربي)، من التاريخ البلَدي... مرجع سابق ص 348.

2 - Gascou (J.) , la Politique ... p. 46.

3 موقع أثري هامّ في المكان المسمّى حاليا المرابع (بلدية بني ولبان ولاية سكيكدة)، ولكن امتدّ إليه البناء الفوضوي، بحيث لم نجد منه شيئا أثناء زيارتنا له.

4 يستخلص فلوم أنّ سكّان سلتيانا حسب تعبيره: بقوا " بربراً " كما كانوا في السابق... أنظر:
- Pflaum(H.G.), Remarques sur l'onomastique de Castellum Celtianum..., p. 126

5 وفي هذا السياق يشير شارل أندري جوليان بأنّ روما لم تعتمد الإدارة المباشرة لتسيير شوون الأهالي وأنّها " ... تركت للأنظمة البلدية التي بقيت إطاراتها بربرية كلّها مجالا واسعا لروح المبادرة حتّى في الميدان المالي والقانوني، فكان لكلّ مدينة كيانها الذاتي بإشراف حكّام منتخَبين، وإذا كان الأباطرة في روما يضيّقون على جميع مظاهر الحياة العامّة فإنّ المنتخَبين في المدن كانوا يشجّعون تلك الأنشطة التي من شأنها أن تعجّل بإدماج مدنهم في الحظيرة الرومانية، فتكوّنت في المدن طبقة برجوازية توارثت شؤون الحكم وتضامنت مصالحها مع مصالح الرومان ممّا ضمن ولاءها لروما ...". أنظر: جوليان(شارل أندري)، مرجع سابق، ص203.

العهد الإمبراطوري الأول في أوسع تقدير، أمّا الثانية فقد أصبحت أداة مشافهة معزولة في الجبال والأرياف النائية وتحوّلت تدريجيا إلى لهجات تفتقر إلى مرجعية توحّدها!.

3. الوضع الطبقي

ليس لدينا ما يدلّ على وجود الطبقية في المرحلة الليبية - النوميدية، فالمجتمع في أغلبه كان قبَليا، واقتصاد القبيلة لا يسمح بتراكم الثروة ونمو الفوارق الطبقية، لأنّه اقتصاد ذو صبغة عائلية، وفي القبيلة كان المجتمع باطرياركيا، وكان الجاه والنفوذ لا يخرج عن إطار الأبوة فليس هناك أرباب عمل ونظم استغلالية، ولكن هناك أعيان وزعماء سلّمهم أبناء القبيلة الأمر، ولم يتسلّطوا بثرواتهم وأملاكهم، هذا التسلّط المبني على الثروة والأملاك سيعمّ الشمال الأفريقي القديم طيلة الفترة الرومانية، فقد تأسّس الاستعمار الروماني على قاعدة غالب ومغلوب، ومن الطبيعي أن يشرّع للفوراق الاجتماعية، ونتج عن ذلك ظهور الطبقات الآتية ضمن المجتمع الأهلي الأفريقي:

أ - **كبار الملاّك**: وهم من بين أولئك الذين نالوا الحظوة مع بداية الفتح لتعاونهم مع الاحتلال، وانضمّ إليهم في ما بعد المندمجون الجدد من المجنّدين وكبار الموظّفين الذين خدموا الإمبراطورية بإخلاص فكافأتهم، فقد ارتفع عدد الأفريقيين في هياكل الدولة الرومانية إلى درجة أنّ نسبتهم في مجلس الشيوخ الروماني في القرن الثالث بلغت الثلث، وتوّجت هذه السياسة باعتلاء أعضاء من العائلة السيويرية الأفريقية العرش الإمبراطوري الروماني تباعا ولكن هذه النخبة كانت قلّة قليلة قياسا مع جماهير الشعب الأفريقي[1].

ب- **البرجوازية البلدية**: وقد شكّلت الحواضر الأفريقية بيئة انصهار حقيقي بين الأفريقيين والرومان الذين تجمعهم المواطَنة، فظهر مجتمع جديد في تلك الحواضر، يدين بالولاء لروما وثقافتها، ولذلك لا نستغرب أن يكون القدّيس أوغسطين أكبر منافح عن روما لأنّه من عائلة أفريقية تنتمي إلى هذه الطبقة[2].

جـ - **الأحرار** : وهؤلاء يمثّلون جمهور الشعب الأهلي ليس لهم إلاّ سواعدهم وحرّيتهم، ويعتبرهم القانون أجانب (Pérégrins)، وقد جرّدوا من أملاكهم أوّل

---

1 مستخلص من عاجي في الفصل المتعلّق بازدهار المستثمرات الفلاحية (الدومان)، أنظر:
- Gagé (J.), op. cit. . pp. 390-398.

2 - Ibid. pp. 153-182.

الفتح، وتمّ تنزيلهم إلى أدنى الدرجات الاجتماعية، فتحوّلوا إلى يد عاملة لدى كبار الملاّك، وسيتدهور وضعهم تدريجيا ويصبحون قوّة نضالية ضدّ الاستعمار الروماني، ولا يكاد يتميّز هؤلاء الأحرار عن العبيد في شيء، بل قد يأمل العبد في تحرير نفسه والحصول على المواطَنة بمساعدة سيّده أمّا الحرّ فهو محلّ استياء دائما من قبل الأسياد الذين يشتغل في أملاكهم[1].

د - **العبيد:** وهم الذين فقدوا حرّيتهم لوقوفهم ضدّ الاحتلال، يتوزّعون على مختلف الأنشطة، فمنهم عبيد الأرض الذين عهد إليهم كبار الملاّك بجانب كبير من العمل تحت تسيير العتقاء منهم، ومنهم عبيد الخدمة في قصور الأسياد، وقد جيء بهؤلاء الأخيرين في الغالب من شرقي المتوسّط ومن بلاد الإغريق من بيئة أكثر تحضّرا أو على الأصح لها تقاليد في هذا الشأن[2]، أمّا الأفريقي عموما فلا ريب أنّه يستنكف من خدمة البيوت، ويراها تمسّ بكرامته التي لم يبق له غيرها ولذلك سيُستغلّ للعمل في المزارع.

---

1 شنيتي (بشير)، التغيُّرات...، مرجع سابق، ص 250.

2 - Lassert (J-M.) , op. Cit., pp. 430-431.

الفصل الثالث

الكنطنة

إذا كان سكّان المدن وخاصّة منهم الذين لم يقاوموا الاحتلال قد نالوا المواطَنة الرومانية واندمجوا في الوضع الجديد لنيل صفة المواطن الجيّد (Le Bon citoyen) فما هو الوضع الذي ستخضع له الجماهير في الأرياف من المزارعين والبدو وأنصاف البدو؟، في هذا المجال لن يعدم المشرّع الروماني الإجراءات التي ستمكّنه من ترسيخ الاستعمار والاستيلاء على مصادر الثروة، وهي الكنطنة (Cantonnement)، وهذه الكنطنة هي عزل[1] قبيلة وحشدها داخل إقليم محدود بموجب تشريعات قانونية وبناء على إجراءات مَساحية قانونية (Cadastrale et Juridique) ويكون هذا بعد تجريد القبيلة من أراضيها الخصبة أو ترحيلها إلى أراضي جبلية أو شبه صحراوية أي أنّ إجراءات الكنطنة لا تبقي للقبيلة إلاّ خطّ الانتجاع والأراضي الأقلّ خصوبة، وهو الإجراء الذي قاومته قبيلة الموسولام طيلة أكثر من سبع سنوات من الحرب (أنظر الجدول 8 ص 283).

1. إجراءات نزع الملكية

تقوم مصالح المساحة بدراسة شاملة لإقليم القبيلة التي ستُطَبّق عليها إجراءات الكنطنة من حيث الخصائص الطبيعية: الأراضي الخصبة، الينابيع، مناطق الانتجاع، المراعي... وبذلك تحقّق الإدارة الرومانية نظرية السيطرة المزدوجة على الأرض والإنسان[2]، وتقوم إجراءات المسح هذه على أساس أنّ الأرض ملكية عمومية للشعب الروماني، وهي تعتبر أنّ كنطنة القبيلة هو تنازل لها على منطقة تعيش فيها، ولذلك فإنّ ما تعتبره القبيلة نزعا للملكية يراه القانون الروماني أمرا مشروعا.

تُضَمّ الأراضي المنزوعة من أصحابها إمّا إلى أراضي مستعمرة مجاورة أو إلى أملاك الإمبراطور أو إلى كبار المُلاّك، ففي أراضي قبيلة الموسولام وجد الأثريون هذه الحالات الثلاثة: أراضي ضُمّت إلى مستعمرة حيدرة (Colonia Ammaedara)

---

1 يبدو لنا أنّ فكرة الكنطنة والعزل هذه قد رسخت في ذهنية الشعب وإلاّ كيف نفسّر كلمة لَعْزَل في العهد التركي الـتي تعـني مزارع البايلك ومع أنّ هذه المزارع تتكوّن من أجود الأراضي إلاّ أنّها تتضمّن معنى الكنطة ولو أنّها كنطة "المرفّهين": المخزن وأعوانه!.

2 - ...Dominum in solo provinciali. Teney (Frank), In JRS, 1927, pp. 141-165.

وأراضي ضُمَّت إلى الدومان الإمبراطوري (Domaine de l'Empereur) وأخرى ضُمَّت إلى سالتوس ميسيبيانوس (Saltus Missipianus) وهو لأحد كبار المُلاَّك[1]، ولاستغلال هذه الأراضي المنزوعة من أصحابها ينبغي الإبقاء على قسم من السكّان الأهالي كيد عاملة وهو الإجراء الذي سيؤثّر على المدى البعيد في هؤلاء الأهالي الذين سيزداد احتكاكهم بالرومان أمّا الذين يبقون داخل الحدود التي رسمتها الكنطنة فإنّهم ملزَمون بنصّ القانون بعدم تجاوز الحدود (Limitatio)، وعليهم البقاء داخل منطقة العزل وهناك تعيش القبيلة محتفظة بالاستقلال الذاتي في إطار أعرافها وتقاليدها، ولو أنّها ستجد نفسها دون موارد كافية بعد تجريدها من أراضيها الخصبة[2] (أنظر أدناه الشكل 66 ص 284).

لقد أصبحت إجراءات نزع الملكية والكنطنة واضحة الآن بفضل ما قدّمته الأبحاث الأثرية في هذا المجال، فبعد نهاية حرب الموسولام قام البروقنصل ويبوس مارسوس (Vibus Marsus) 30 م، بكنطنة قبيلة نوبقني (Nybgenii) الواقعة إلى الجنوب الشرقي من قبيلة الموسولام وإجراء عمليات المسح والكنترة (Centuriation) في إقليم القبيلة ما بين تاكاب {قابس Tacape} إلى شطّ الفجاج[3]، وهو الوضع الذي ستعرفه قبيلتا الزبربر (Suburbures)، ونقاوة (Nicives) في ناحية تيجيس (عين البرج) بتثبيت الحدود ما بين الأملاك السيرتية وكانطون القبيلتين[4].

2. القانون الخاصّ بالقبيلة

بعد إنهاء عمليات الكنترة والمسح والكنطنة تتلقّى القبيلة قانونها الخاص (Statut) بحيث تصبح كيانا له وضعه القانوني والديني ولها مجلسها البلَدي ويمكن أن يكون لها حماة وتحتفظ بنظامها القبَلي التقليدي مثل قبيلة ميسيكير (Misicir) التي هي في الواقع عبارة عن اتحاد قبَلي وكانت مكنطنة في القسم الذي بقي لها من أراضيها في المنطقة الجبَلية الغابية ما بين مجردة وبونامومسة إلى الجبل الكبير أي منطقة الشافية التي ظلّت محتفظة بخصوصيتها الأهلية[5].

---

1 وفي وقت لاحق ستضمّ أراضي أخرى منزوعة من هذه القبيلة إلى سالتوس بيغانسيس (Saltus Beguensis) وكانت إلى سنة 138م ضمن أملاك القبيلة، CIL, VIII, 11451, 23246.

2 - Carton (L.).Une inscription relative au territoire des Musulamii, CRAI, 1923, p. 71-73.

3 - CIL, VIII, 22786.

4 قام بتثبيت الحدودالليغاتوس توليوس بومبيانوس كايطوموفَداً من قبل الإمبراطورفسباسيان، أنظر:
- Berthier (A.), Nicibes et Suburbures, Nomades ou sédentaires , B.A.A., T. III, 1968, pp. 293-300.

5 ومن هذه الكنفدرالية تنحدر عشائر هذه المنطقة الجبلية المستعربة الآن، وفي إقليمها عُثر على أكبر عدد من النصب الليبيـــة (62 نصّا)، أنظر : - Camps (G.), Massinissa..., pp. 284-250.

لم تكن التشريعات الرومانية تعتبر الأرض التي تحتفظ بها القبيلة بموجب إجراءات الكنطنة ملكا لها، فالقانون لا يكفل لها إلاّ حقّ الاستعمال (Droit d'Usus)[1]، ويبدو كذلك أنّ القانون الخاصّ يصنّف القبيلة المكنطنة في درجة بلدة غارمة (Civitas stipendiaria) وهو ما يمكّنها من إقامة مركز عمراني قد يتوسّع إلى بلدة وهو وضع قبيلة الناتابوت على سبيل المثال [2].

المكان	الإجراء	المسؤول المكلّف	التاريخ	المصدر
الأملاك التيفستية (ما بين تيفست وأمايدارا)	رسم نهائي لحدود الموسولام	موناتيويس غالوس (ليغاتوس بروبرايطور)	103/100 م.	CIL, VIII, 10667 16692. I.L. Alg. 2939.
قرب مداوروش	رسم الحدود ما بين مداوروش والموسولام	مينيكيوس ناتاليس (ليغاتوس أوغوستي بروبرايطور)	105/104م.	CIL, VIII, 28073 I.L.Alg., 2828.
قرب قصر البوم(ماقيفا)	رسم الحدود ما بين الموسولام وتيبينان	؟	؟	I.L.Alg. 2978. A.E., 1907, 21

1 هو وضع قبيلة زمتزر في المنطقة ما بين القلّ وجيجل كما جاء في النصّ الأثري:
Ut sciant zimize non plus usum se labere quam, CIL, VIII, 8369 ولا ندري ما مدى صحّة الاستنتاج الذي خرج به مارسال بينابو وهو أنّ إجراءات الكنطنة في موريتانيا القيصرية مختلفة عن مثيلتها في أفريقيا ونوميديا، فقد استنتج من النصّ الأثري أنّ قبيلة زمتزر (وكانت متمركزة ما بين جيجل إلى واد زهور، على ضفّتي مصبّ أمبساقا) لم تطبّق عليها إجراءات كنطنة شبيهة بما جرى به العمل في نوميديا، وكلّ ما في الأمر هو تقليص حدودها العربية بـ 500 قدم عن قلعة الانتصار (Kastellum Victoriae) التي بنيت على أرض تابعة لمستعمرة إيجيلجيلي، أنظر :
- Bénabou (M.), La Résistance africaine à la romanisation, éditions Maspéro, Paris 1976, p. 439

2 عقون (محمّد العربي)، من التاريخ البلدي للجزائر القديمة... مرجع سابق، ص 373-374.

عين كملال (ما بين تيفست وماسكولا)	رسم الحدود ما بين الدومان الأوغسطي والموسولام	؟	105/104م.	I.L.Alg. 2988. AE. 1907, 19
قلعة سنان	رسم الحدود ما بين الموسولام وفاليريام أتيكيلام	؟	؟	I.L.T., 1653. AE. 1923, 26
قرب مداوروش	رسم الحدود ما بين الموسولام ومداوروش	أكيلوس سترابو كلوديوس (ليغاتوس أوغوسطي)	116م.	CIL,VIII, 28073 B. I.L.Alg.,2829

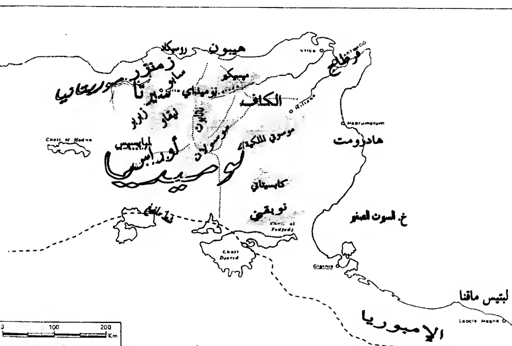
الجدول (08) بعض إجراءات كنطنة (حشد) قبيلة الموسولان



الشكل (64) بداية أعمال المسح باستعمال القروما (Groma)



الشكل (65) القروما (Groma) وهي أداة تتكوّن من أربعة أضلاع ومزوّدة بخيط معدني يمكّن من شقّ خطوط عمودية بدءاً من نقطة مركزية، وهي مناسبة لتخطيط محاور الطرق والمسح العامّ للأرض.



الشكل (66) بعض القبائل المكنطنة التي أشارت إليها النصوص الأثرية والأدبية في نوميديا القديمة

الفصل الرابع

الدوناتية والثورة الريفية إلى نهاية التاريخ القديم

لقد ظهرت مؤشّرات جديدة على الساحة الأفريقية لم تعهدها البلاد في السابق، فقد كانت المقاومة في القرون الأولى تقوم على التضامن القبلي والإقليمي، ولكن ظهر عامل جديد يدعّم ذلك التضامن التقليدي وهو اعتناق العقيدة المسيحية وانتشارها في عموم أفريقيا، هذه العقيدة الجديدة أخذت تسري تدريجيا في ثنايا المجتمع الأفريقي وخاصّة في أوساط الطبقة المسحوقة من الكادحين والمستضعَفين وتحوّلت إلى عامل تضامن وأداة نضال ضدّ السلطة الرومانية وحلفائها من كبار المُلاّك والمرابين والموظّفين المدنيين والدينيين.

كانت كنيسة أفريقيا منذ ظهورها قد احتضنت الشعب واقتربت من معاناته، ولا ندري إن كانت الكنيسة الأفريقية بنتا لكنيسة روما أم أنّها تأسّست مباشرة على يد رسل المسيح فابن خلدون يذكر بأنّ التبشير بالنصرانية في بلاد البربر كان على يد بعض أولئك الرسل امتثالا لطلب المسيح الذي قال فيه: **اذهبوا وتلمذوا سائر الأمم...**[1].

إذا تمكّنت المسيحية الأفريقية من الانتشار في عموم البلاد بانتشار الكنائس في مختلف المدن والقرى والتجمُّعات السكانية فإنّ ذلك بقدر ما كان دليلا على قوّتها بقدر ما كان عاملا لظهور الانقسامات (Schismes) في صفوف أتباعها لأنّ الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي غير متساوٍ بين هؤلاء الأتباع ولذلك فإنّ المجتمع البربري

---

1 جاء في تاريخ ابن خلدون :"... وعند علماء النصارى أنّ الذي بُعث من الحواريين إلى روما بطرس ومعه بولس من الأتباع و لم يكن حواريا، وإلى السودان والحبشة متّى العشّار وأندراوس، وإلى أرض بابل والشرق توماس،وإلى أرض أفريقيا فليـبّس، وإلى أفسس قرية أصحاب الكهف يوحنّا، وإلى أورشليم وهي بيت المقدس يوحنّا وإلى أرض العرب والحجاز برتلوماوس، وإلى أرض برقة والبربر يشمعون القناني" (ابن خلدون،العبر، حII، دار الكتاب اللبناني بيروت 1966، ص 294.) أي أنّ أفريقيا حلّ بها إثنان من الحواريين، وأرى هنا أنّ كنيسة أفريقيا تكون قد انشقّت ليس لعوامل الاجتماعية والاقتصادية فقط بل يمكن أن نضيف إلى ذلك ثنائية المنشأ فإلى جانب الجماعة المسيحية التي تكون قد نشأت بفعل النشاط التبشيري لكنيسة روما، هناك دون ريب الجماعة المسيحية الأولى التي نشأت بفعل البشارة التي حملها الحواريان فلُبّس ويشمعون، والجماعة الأخيرة هي أمّ الكنيسة الدوناتية.

تعرَّض لعدد من التيارات الدينية التي لم تكن مطابقة لنظرة الكنيسة الرسمية (الكاثوليكية).

لقد عصفت الاضطرابات بأفريقيا وكانت في هذه المرّة ذات صبغة دينية بقدر ما هي تعبيرعن رفض القهر الاستعماري الذي سلّطته روما على الأفريقيين طيلة قرون، فإلى جانب تيار الكثلكة الذي نعتبره خلفا لديانة عبادة الإمبراطور في أداء ذات الدور السياسي[1] ظهر تيار مجدّد تسنده جماهير عريضة هو الحركة الدوناتية[2] التي جنّدت الطبقة الكادحة ودفعت بها إلى الثورة ضدّ الغاصب الروماني وحلفائه الطبيعيين من الرومان وأهل البلاد المترومنين كذلك.

1- الانقسام:

وجد الإمبراطور ديوكليتيانوس (Diocletianus) وهو يحاول تخطّي الأوضاع المترتّبة عن الفوضى العسكرية أنّه أمام وضع آخر وهو تغلغل الديانة المسيحية في الأوساط الجماهيرية وهذه الأخيرة أضحت منقادة لكهنتها وأساقفتها بقدر إعراضها عن القوانين الإمبراطورية ووصل بها الأمر إلى حدّ التخلّي عن الأوامر الإدارية والعسكرية وحتّى الامتناع عن الانخراط في الجيش، وأخذ المجنّدون يتخلّون عن استعمال السلاح ومغادرة صفوف وحداتهم العسكرية وهو ما عبّر عنه أحد المجنّدين من الأهالي قائلا : **" لا يمكن أن أخدم الجندية، لا يمكن أن أعمل شرّا، إنّني مسيحي "** [3] وكان وراء هذه المواقف الجماهيرية خطاب ديني راديكالي يأمر بالتخلّي عن السلاح واعتماد التسامح قاعدة في المعاملات بين الناس وبقدر ما كانت هذه التعاليم مستمدّة من المسيحية بقدر ما كانت تهدّد الإمبراطورية في هيبتها وكيانها.

---

1 كانت الديانة الرسمية في الإمبراطورية الرومانية قبل تنصّرها هي ديانة تقديس الإمبراطور وعبادته،واعتبر المؤرّخون المعجَبون بإنجازات روما، أنّ تلك العبادة بجهازها الكهنوتي في عموم الإمبراطورية كانت أداة لدعم تعلّق الرعية بالإمبراطور.

2 استمدّت اسمها من اسم زعيمها الأسقف دوناتوس (Donatus) ولكن المصادر تتحدّث عن شخصين بهذا الاسم،الأول هو دوناتوس أسقف كازاي نيقراي(Casae Nigrae) وكانت بلدة صغيرة تقع شمالي لمبايسيس(Lambaesis)، والثاني هو دوناتوس المسمّى القرطاجي (حوالي 270-355) خلف الأول وأكمل عمله التنظيمي، وخاصّة تحالفه مع الثائرين وفتح الكنيسة الدوناتية لهم واحتضانهم، ويبدو لنا أنّ عدم التفرقة بين "الإثنين" في نصوص المجادلين الكاثوليك يدعّم رأينا في أنّ دوناتوس هو شخص واحد وأنّ تسمية القرطاجي لا تعبّر عن شخص ثانٍ بقدر ما تعبّر عن مرحلة في حياة دوناتوس النضالية في قرطاج خاصّة وأنّه مثّل الحركة والكنيسة الدوناتية في مجامع عصره في روما وآرل وميلانو،للمزيد يُراجَع مونصو:
- Monceaux (P.). Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne éd. Leroux, paris 1901-1923 T.V, pp. 100-105.

3 عن جوليان (ش. أندري)، مرجع سابق، ص 287.

اعتقد الإمبراطور ديوكليتيان أنّ الأمر يمكن تداركه، باعتماد سياسة صارمة للرجوع بالجماهير إلى ديانة الإمبراطورية وهي عبادة الإمبراطور المؤلّه الذي حلّت فيه روح الله، فأعلن "الحرب" على الديانات الأخرى كالمانوية وخاصّة المسيحية التي بدأت الاضطهادات ضدّ معتنقيها تأخذ أشكال القتل والتنكيل، وأمر بتصفية الإدارة والجيش من معتنقي المسيحية، وأصدر مراسيم تنفيذية هي :

- منع الاجتماعات والتجمّعات المسيحية، بما في ذلك الفداديس والمواعظ التي هي شعائر مسيحية أساسية.

- هدم الكنائس ومنع بنائها أو تحويل أيّ مبنى إلى كنيسة.

- مصادرة النصوص والوثائق الكنسية وإتلاف الكتب المقدّسة.

- فرض احترام وأداء الشعائر الدينية الرومانية وخاصّة أعياد الإمبراطور[1].

وعزّز هذه المراسيم بالأمر بتسليط أقسى العقوبات وأكبرها الإعدام حرقاً في حقّ كلّ مخالف للأوامر الإمبراطورية، ممّا أثار الهلع في نفوس جماهير المسيحيين وإذا كان الحماس الديني قد جعل الكثير لا يعبأ بهذه القرارات رغم قسوتها فإنّ البعض قد ارتدّ أو على الأصحّ تظاهر بالارتداد حفاظا على حياته، وخاصّة في أفريقيا التي وجدت فيها الإدارة الرومانية ذريعة للتنكيل بالأحرار أو بكلّ رافض للقهر الاستعماري.

كانت قضيّة المرتدّين (Lapsi)[2] هي نقطة البداية في الخلاف الذي سيتّسع في ما بعد فقد كانت فترة حكم ديوكليتيانوس فترة اضطهاد فظيع، سلّطت فيها أقسى العقوبات على معتنقي المسيحية[3] وهو ما أدّى تحت طائلة الترهيب والتعذيب إلى ارتداد عدد كبير من المؤمنين، وانقسمت الكنيسة الأفريقية إلى كنيسة موالية للإمبراطور والإدارة الاستعمارية الرومانية (الكنيسة الكاثوليكية) وكنيسة موالية للجماهير فاحتضنها الشعب

---

1 إيمار (أندري)، تاريخ الحضارات العامّ (روما وإمبراطوريتها)، تعريب داغر (أسعد و فريد)، منشورات دار عويدات، بيروت لبنان 1964، ص 560.

2 خلال فترة الاضطهادات تعرّض الكثيرون من معتنقي الديانة الجديدة (المسيحية) للتعذيب والقتل وحقنا للدماء ارتدّ البعض لضمان نجاتهم من تلك العقوبات الفظيعة ولعلّ ذلك الارتداد كان تقيّة وتظاهرًا لا أكثر، غير أنّ هذه المسألة كانت حسّاسة للغاية فقد اعتبرها الدوناتيون خيانة للشهداء وللمسيحية.

3 كانت فترة حكم ديوكلينيانوس (284-305) من أصعب المراحل التي مرّت بها المسيحية في عموم الإمبراطورية، فقد وقع التنكيل بالمسيحيين وينقل إلينا ترتوليانوس صورا من ذلك التنكيل البشع يقول بأنّ الوثنيين رفعوا شعار:"ألقوا" بالمسيحيين للأسود Christinos ad leonem ورفضوا دفنهم في مقابرهم قائلين:ليس هناك مقابر "لهؤلاء" areae son sint ، أنظر:
- Tertullianus, apologia, XVI, 40, 2 ; ad scup. 3.

وهي كنيسة المسيح أو كما سمّاها خصومها الكنيسة الدوناتية، وكان أسقف قرطاج منسوريوس (Mensurius) مواليا للسياسة الإمبراطورية بمقدار تنكّره لمطالب شركائه في الإيمان ولذلك هوجم من قبَل حشد من سكّان قرطاج المسيحيين لمواقفه وخاصّة بعد أن سلّم الكتب المقدّسة للسلطات الإمبراطورية، وقد اعتبر أولئك المهاجمون أنّ تسليم الكتب المقدّسة للوثنيين (والسلطة الإمبراطورية كانت إلى ذلك الحين وثنية) تدنيسا لها واعتبروا ذلك خيانة[1]، وكان نصيب الرافضين للارتداد القتل مثلما حدث في أبيتينا (Abitina)، وتطوّرت الخلافات، واعتبر الدوناتيون أيّ اتصال بالخونة دون المرور على كنيستهم خيانة ومن ثمّ قرّروا حرمان كلّ متصل بالكنيسة الرسمية، وقد لقي هذا الموقف تجاوبا تامّا من قبل المجموعة المسيحية في نوميديا ومن كهنوتها وتوسّعت الحركة وأخذت طابعا اجتماعيا[2].

لقد أصبحت الدوناتية إذن حزبا وحركة فعلية بعد وفاة الأسقف منسوريوس وتعيين كايكيليانوس (Caecilianus) خلفا له، وحتّى هذا الأخير لم يعتَرف بتعيينه فقد وُجّهت له تهمة الإسهام في القضاء على المؤمنين الذين تظاهروا أمام سجن الشهداء في أبيتينا[3]، وفوق ذلك كان قد نظّم انتخابات كهنوتية بإشراف الموالين له، ووقع الطعن في تلك الانتخابات من قبل الكهنوت (Clergé) النوميدي، ووُجّه إلى كايكيليانوس طلب التنحّي من منصبه، وعند رفض هذا الأخير ذلك نظّم معارضوه أنفسهم واعتبروا دوناتوس زعيما وأسقفا عليهم وكانت تلك خطوة أولى نحو ظهور كنيسة موازية للكنيسة الرسمية[4].

إنّ تفسير الموقف المتصلّب والراديكالي الذي وقفه الدوناتيون إزاء المرتدّين ليس سهلا، لأنّ هؤلاء فضلا عن كونهم أخوة في الدين فإنّهم تعرّضوا للاضطهاد (التعذيب والقتل...) ولعلّ ارتدادهم كان ظاهريا للنجاة بأرواحهم، ولكن يبدو أنّ الحركة الدوناتية كانت مصرّة على مقاومة السلطة الإمبراطورية مهما كان الثمن وفي نظرها أنّ

---

1 انعقد مجمع سيرتا (Concilii Cirtensis) في مارس 305 م. وفيه تمّ رفْض الإجراءات التي اتخذها مجمع قرطاج الموالي للقرارات الإمبراطورية، ولعلّ هذا كان أول موقف كنسي دوناتي، ولذلك اعتبره القدّيس أوغسطين بداية للحركة الدوناتية التي كسبت تأييدا قويا من المسيحيين خاصّة في نوميديا،فقد اعتبروا ما أبدنه الجماعة الدوناتية من مقاومة لاجراءات السلطة بمثابة ميثاق شهداء (act martyrum)،أنظر: .Monceaux (p.) , IV. p. 204 et 287 -

2 - Julien (Ch. A.), Histoire de l'Afrique du nord, T. I, éd. Payot, paris 1966. p. 215.

3 - Beschaouch (A.), Sur la localisation d'Abitina, la cité célèbre des martyrs africains, CRAI, 1976, pp. 255-266.

4 - Lancel (Serge), «Les débuts du Donatisme : la date du "Protocole de Cirta" et de l'élection épiscopale de Silvanus», Revue des Études Augustiniennes, XXXV, 1979, p. 217-229.

الصفح عن هؤلاء المرتدّين سيشجّع السلطة الإمبراطورية على دفع المزيد من المؤمنين إلى الارتداد عن دينهم المسيحي ومن ثمّ تنجح السلطة الإمبراطورية في إضعاف المقاومة الدوناتية، ولعلّ الدوناتيين اتخذوا مواقف راديكالية حتّى لا تقع حركتهم فريسة تصدُّعات غير محمودة العواقب[1].

إنّ هؤلاء الدوناتيين إضافة إلى استيائهم من السلطة الرومانية القمعية وطبعهم المتصلّب والعنيف وهي خصائص الروح البربرية فإنّ مسيحيتهم وهي في شبابها الغضّ كانت مسيحية مبالغ فيها حسب كامبس[2]، لتعلّقهم بكلّ ما هو مطلق، ولذلك يبدون لنا مشاكسين عنيفين متصلّبين ليس إزاء الوثنيين بقدر ما هم إزاء إخوانهم في العقيدة، وفي بيئة كهذه من السهل حصول الانشقاق، وهو ما وقع في أفريقيا حتّى قبل الاضطهادات.

تحاول المصادر الكاثوليكية أن تجعل الخلاف بين الكنيستين الدوناتية والكاثوليكية لم يكن دينيا لاهوتيا رغم الاختلاف في النظرة بين الكنيستين وأنّ الاختلاف لم يتجاوز حدّ الانشقاق (Schisme) وفي نظر هؤلاء أنّ إيمان الدوناتيين يطابق الإيمان الكاثوليكي ولكن لو تحرّى الباحثون الدقّة والموضوعية لتبيّن بأنّه لا يمكن أن تجتمع الأضداد وأنّ الانقسام المذهبي بين الطرفين تجاوز الاختلاف في الوقائع أي مسألة تسليم الكتب المقدّسة إلى مسائل لاهوتية عقائدية قد تكون قريبة من الأريوسية مع أنّ مؤرّخي الكنيسة يخفّفون من حدّة الخلاف ولذلك لا تُعَدُّ الدوناتية في نظرهم هرطقة(Hérésic) ولكنّها مجرّد انشقاق (Schisme) لا أكثر ويعلّلون ذلك بأنّ الروح الأفريقية بسيطة وعنيفة في الآن نفسه ولذلك لم تتجاوز الانشقاق إلى الهرطقة فلم تكن للأفريقيين الدوناتيين كراهية عقائدية تجاه الأرثوذكس والكاثوليك وكانوا يريدون إقامة كنيسة لا أكثر، ولم يكن ذلك قائما على تناقضات لاهوتية لأنّ جدلهم كان يدور حول وقائع وليس حول آراء، ففي الدوناتية ليس هناك أيّ خلاف في مسألة روحية كما هو الحال في الهرطقات[3] ومن جهتنا نستخلص بأنّ هدف هؤلاء هو الدفاع عن وحدة الكنيسة، وهم يقاومون فكرة استقلال أفريقيا بكنيستها، التي ستكرّس التعاليم المسيحية الحقيقية التي تدعو إلى التسامح والعدالة.

---

1 - Bel Ochi (Mohamed Sadok), La Conversion des Berbères à l'Islam, Tunis 1981, p.48

2 - Camps (G.), Les Berbères, mémoires et identité, 2ème éd. Paris 1987, p. 179.

3 - LANCEL (SERGE) , «Aux origines du Donatisme et du mouvement des circoncellions», Hommages à Ch. Saumagne, Tunis, 1967, p. 183-188.

ظلّ الخلاف قائما إلى أن اعتنق قسطنطين المسيحية فأصدر قرار ميلانو 313م، الذي وضع حدّا للاضطهاد وهو ما جعل الطرفان الكاثوليكي والدوناتي يرغبان في الاحتكام إلى الإمبراطور وطبيعي أن يتّخذ هذا الأخير موقفا مؤيّدا لكنيسة أفريقيا الرسمية بقيادة الأسقف كايكيليانوس(Caecilianus)، ومنذئذ سيظهر اضطهاد جديد ولكن هذه المرّة من مسيحي لمسيحي آخر فتلاحمت الكنيسة الرسمية مع الإدارة إذ لا يمكن مقاومة واحدة دون مقاومة الأخرى في نفس الوقت وأصبح الدوناتيون في حكم الخارجين عن القانون[1].

اعتبر كامبس دعم قسطنطين للكنيسة الرسمية أول مظهر للبابوية القيصرية (Césaropapisme) أي وضع الكنيسة في خدمة الإرادة الإمبراطورية والمصلحة السياسية[2]، وفضلا عن قرار الإمبراطور أصدر المجمع الكنسي الذي انعقد في آرل (Arles) 313 م. قرارا يؤيِّد القرار الإمبراطوري وبذلك أصبح الدوناتيون تحت طائلة حكم مزدوج وذلك ما أعاد الاضطهاد من جديد ولكن هذه المرّة أصبح المسيحيون هم الذين يضطهدون مسيحيين آخرين، وهذا الوضع دفع بالدوناتية إلى التجذُّر أكثر، وستؤدّي الاضطهادات من قبل السلطة الرسمية إلى الاصطدام بين الكنيستين الدوناتية والرسمية، وأصبحت المسيحية الدوناتية محظورة مثلها مثل مسيحية الشهداء الأولين في عهد الأباطرة الوثنيين[3] ولن يتوقّف ذلك الاضطهاد حتّى سنة 321 م. مع صدور قرار التسامح الذي منح حرّية العبادة والاعتقاد للدوناتيين.

كانت الدوناتية إضافة إلى طابعها الديني، حركة سياسية فقد أظهرت الروح الاستقلالية للشعب الأهلي وأصبحت "الأخلاق" المسيحية حربا على الظلم الاجتماعي والاحتلال الأجنبي يتصدّى بصلابة لكلّ تحوير في الموقف المسيحي التقليدي إزاء الدولة الرومانية، فتلقّت تلك المواقف صدى واسعا لدى ذوي النزعة الاستقلالية من أفراد وجماعات الشعب الأهلي[4].

---

1 - Julien (Ch. A.),op. cit. p. 215

2 - Camps (G.), op. cit. p. 181

3 - Decret(f.) et Fantar (M.),l'Arique du nord dans l'antiquité, éd. Payot, paris 1981, p. 296.

4 - Legrand (Hervé), "Donatisme", In Encycl. Univers. paris 1984, pp. 357-359.

2. ثورة الريفيين:

مع تردّي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في البلاد الأفريقية ستتدعّم حركة الاحتجاج الديني (الدوناتية) بحركة احتجاج اجتماعية (ثورة الريفيين) وستجد الحركة الأولى في الحركة الثانية نعم السند إذا لم نعتبر الثانية جناحا "مسلّحا للأولى، فقد كانت الدوناتية حليفا طبيعيا لكلّ قوّة تعمل على العدالة والمساواة المستمدّة من التعاليم المسيحية، ومن ثمّ حليفا طبيعيا لكلّ من يعمل على زعزعة السلطة الإمبراطورية في نظامها الديني والسياسي[1]، وفي هذا السياق يُطرَح تساءل عن العلاقة بين الحركتين فهل كانت إحداهما مستقلّة عن الأخرى أم أنّهما حركتان متكاملتان ؟.

هناك فرضيتان في تفسير مصطلح السيركونسيليون (Circoncellions) وهي التسمية التي وصمهم بها - كما يبدو - معاصروهم من الموالين للسلطة الرسمية المدنية والدينية على السواء، تعتبر الفرضية الأولى المصطلح مشتقّاً من الأصل اللاتيني: Circum cellas أي الذين يطوفون حول الأهراء، أمّا الفرضية الثانية فتستبعد هذا التفسير وترى أنّه مشتقّ من عبارة: Circum Cellae أي الطوّافون حول المصلّيات الكنسية(Chapelles) والمقصود هم الكهنة الدوناتيون الذين كانوا يطوفون في صلواتهم حول شهداء المسيحية الدوناتية، وإذا كان التفسير الأول هو الذي تبنّاه الكثير من المشتغلين في حقل المسيحية الأفريقية وكأنّهم يتبنّون الموقف الرسمي الذي يصم الثوار الريفيين باللصوصية، فمن الطبيعي أن يكون ذلك التفسير مرفوضا من قبل من سُمّوا بالدوارين، ويستفاد من المصادر أنّ الدوناتيين كانوا يتغنّون بأنّهم جاءوا لإقامة العدل على الأرض، وأنّهم يدعون إلى تحرير العبيد وكلّ ذلك كما يردّدون مستمدّ من تعاليم المسيحية ومبادئها[2].

كان هؤلاء الثوار الريفيون من الفلاّحين الذين انتزعت منهم أراضيهم، ولم يبق لهم سوى قوّة سواعدهم التي وضعوها في خدمة كبار الملاّك، وكانوا في واقع الأمر عبارة عن عمّال موسميين يشتغلون في المزارع الكبرى (Domaines) خلال فصل الجني والحصاد، وقد اتسعت الهوّة تدريجيا بينهم وبين الطبقة الثرية المترومنة، حيث ظلّت تلك الطبقة الكادحة من البروليتاريا الفلاحية المسحوقة خارج الحضارة الرومانية[3].

---

1 - Masqueray (E.), op. cit. LXX.

2 - Lepelley (Claude), La crise de l'Afrique romaine au début du Ve siècle, d'après les lettres nouvellement découvertes de saint Augustin, CRAI, 1981, p. 445-463.

3 - Julien (Ch. A.), op. cit. p. 216

نظّمت الطبقة الكادحة نفسها خلال القرن الرابع الميلادي في حركة اجتماعية مطلبية حقيقية، وكانت تمثّل في نوميديا على الخصوص جمهورا واسعا من العمّال الريفيين الأحرار الذين تدهوَرت أوضاعهم وازدادت سوءا منذ بداية القرن الرابع، فانتظم هؤلاء في حركة لإصلاح الوضع وتطبيق العدالة موجّهين الضربة إلى طبقة الملاّك وهي في نظرهم مسؤولة عن تردّي وضعهم، وأخذوا يناضلون من أجل الحدّ من قساوة وضعهم الشبيه بالعبودية، لتحرير المُدانين المسحوقين تحت طائلة الشروط الربوية[1].

حاول مؤرّخو الاستعمار القدح في هذه الحركة وهو موقف أملته عليهم نزعتهم الاستعمارية لأنّهم اعتبروا ما "أنجزه" الاستعمار الفرنسي بالجزائر ما هو إلاّ تتمّة واستمرار للرومنة، لأنّ منظّري الاستعمار في شمال أفريقيا كانوا يبرّرونه بالوجود الروماني القديم في هذه المنطقة، وحاولوا تجريد الثوار الريفيين من المسيحية وتبرئة المسيحية منهم ومن أعمالهم التي فسّروها بـ"وحشية" البربر، وفي رأيهم أنّ مطالب الدوناتية كانت بسيطة لا تتجاوز حقّ الوجود، أمّا أولئك الثوار الريفيون الذين كانوا على وثنيتهم يتعبّدون للجنّ ولإلههم إفرو (Ifru) في المغاور والغابات فلا صلة لهم بالمسيحية السمحة بل استعملوها كشعار لاكتساح المدن والقرى يقول ماسكوراي[2]. وفي نفس السياق كتب بيروني أنّ البربر المتمنعين في جبالهم وجدوا - وهم يشاهدون انقسام المسيحيين في ما بينهم - الفرصة لإشباع غريزة النهب والسلب عندهم فكوّنوا مجموعات من المتذمّرين نزلوا بها من جبالهم الفقيرة لنهب السهول الغنية، إنّهم كانوا على الوثنية وظلّوا عليها ولم ينضمّوا إلى الدوناتيين إلاّ عندما وجدوا فرصة النهب مواتية، وليسوا سوى عصابات نهب وسلب وحرق بمعنى الكلمة [3].

لم يضف مؤرّخو الاستعمار شيئا أكثر من نقل الخطاب الروماني الرسمي وتوسيعه لوصم كلّ حركة مقاومة وطنية بما كان قد وُصم به الثوار الريفيون، وفي هذا السياق ننقل ما كتبه القدّيس أوغسطين "... مَن الذي لا يعرف في الواقع بأنّ هؤلاء الأشخاص لا يكلّون أبدا من ارتكاب أفظع الجرائم أمّا ما هو مجدي فيستنكفون من القيام به، يصفّون أعداءهم بفظاعة، ويقتل بعضهم بعضا بدناءة، تراهم يتجوّلون في

1 - Decret (F.) et Fantar(M.) , op. cit. p. 298.

2 Masqueray (E.),op. cit. p. LXV. هذا القول يخالف الحقيقة،وهو قول الكاثوليك خصوم الدوناتيين،وهل المسيحية دين الرضا بالعبودية، وكيف يبرّر الاضطهادات والتنكيل الفظيع بالمسيحيين على يد الحكّام الرومان حتّى قيل عن أفريقيا أنّها أرض الشهداء !.

3 - Peyronnet, le problème nord-africain, T.I, paris 1924, p. 172

الأرياف ولكن دون أن يساهموا في عمل شيء مفيد بها، حتّى إذا احتاجوا إلى الطعام والمال طافوا حول الأهراء لنهبها، إنّهم عار الإنسانية...[1]. وفي نفس السياق، يقول زميله أوبطاطوس أسقف ميلة وهو كاثوليكي مثله "... لا أحد يمكن أن يهنأ على أملاكه أو أن يستردّ ديونه، والكلّ في رعب كبير من هؤلاء الذين يرفعون شعار أنّهم القدّيسون، ومن تأخّر في الاستجابة لهم ستفاجئه إحدى عصاباتهم ولذلك لا أحد من المقْرِضين تجرّأ على طلب تسديد ديونه[2].

حقّا لا أحد يمكن أن ينكر أعمال النهب التي قام بها هؤلاء الثوار ولكن العبرة - كما في كلّ ثورة - هي في نبل الأهداف، وقبل إصدار الأحكام ينبغي أن نتساءل عن الأسباب التي دفعت بهؤلاء إلى هذا الحدّ من الثورة، أليسوا نتاج الاحتلال وظلم الرومنة، ألم يكن نصيبهم من السياسة الإمبراطورية هو الفقر والشقاء، ولذلك حدّدوا الهدف الذي يوجّهون إليه الضربة، وهو كبار الملاّك والمرابين ومن ثمّ إلى السلطة الإمبراطورية التي تحميهم[3]، والحال أنّ الكنيسة الدوناتية لم تكن على وفاق دائما مع الثوار الريفيين ولم تبارك أعمالهم كلّها، ولعلّ هذا الموقف هو موقف قيادتها الكنسية العليا أمّا صغار رجال الدين من الكهنة والشمامسة وهم ملتصقون بالشعب وبمعاناة المستضعفين فكانوا إلى جانب الثوّار ولعلّ ذلك كان يمثّل انشقاقا في الكنيسة الدوناتية ذاتها أمّا عامّة الشعب فكان الثوّار في نظرهم أبطالا ومن سقط منهم عُدَّ شهيدا.

3. انهيار الاستعمار الروماني ونهاية التاريخ القديم

عصفت الاضطرابات بالإمبراطورية الرومانية بداية بالفوضى العسكرية، وتحوّلت الإصلاحات الإدارية القائمة على اللامركزية إلى انقسام، وأصبح الشرق الإغريقي يمثّل مركز الثقل في الإمبراطورية، رغم أنّ الإمبراطورية نشأت غربية، وسيشعر حكّام الغرب اللاتيني بالتبعية لحكّام الشرق الإغريقي، تدهورت الأوضاع في روما مع ضعف الحكم المركزي وانتقال النفوذ إلى قادة الجيش وحكّام المقاطعات

---

1 عن دوكري وفنطر، أنظر : .Decret et Fantar, op. cit. p. 297 -

2 .Ibid. p. 298 - يمكن للقارئ المتفحّص أن يستخلص بأنّ الديون التي يتحدّث عنها أوبطاطوس هي خير دليل على استشراء الربا في أفريقيا بحيث أنّ عمّال الأرض يشتغلون ويكدحون دون أن يحصلوا على ما يضمن عيشهم فيستدينون من مالك الأرض وهذا الأخير يملي شروطه الربوية، ولذلك كان موقف الثوار الريفيين من هؤلاء المرابين صارما.

3 حاول البعض استخلاص أنّ ثورة الريفيين هي تعبير شعبي عن التذمّر والسخط وهذا لترجيح عامل الصراع الطبقي وفي هذا السياق كتب محمّد فنطر ودوكري:... من الواضح أنّ من بين الدوناتيين في البداية أساقفة من كبار الملاّك العقاريين كما ينبغي البحث في ما إذا كان كلّ الكاثوليك من الطبقة الميسورة 'كي يصحّ وضع الصراع في إطار ديني، والحال أنّ وجود الكاثوليك في صفوف الثوار الريفيين غير مستبعد بل هو شبه مؤكّد. نفسه ص299.

المتنافسين على القيادة بل وصل الأمر إلى إعلان الحرب بين حاكم أفريقيا بونيفاس (Boniface) الذي صدر بشأنه قرار العزل من منصبه (427 م) والحاكم الجديد الكونت سيجيسفولت القوطي (Sigisvult le gothique) وكان هذا الوضع في صالح الحركة الدوناتية التي وجدت الجوّ ملائما للتخلّص من القهر الاستعماري الروماني الذي دام قرونا، وكرّس هيمنة أقلّية من كبار الملاّك على ثروات البلاد وهو وضع نتج عنه تدنّي مستوى المعيشة وتحوّل الملايين إلى فقراء مستضعفين، ولا نستبعد أن تكون هناك اتصالات بين ممثّلي الحركة الدوناتية وجنسِريك، كما لا نستبعد وجود تقارب مذهبي بين الأصولية الدوناتية والمذهب الأريوسي[1].

كان رجال الدين الدوناتيون يردّدون بأنّ اجتياح الوندال لأفريقيا هو عقوبة إلهية ضدّ جبروت الاستعمار الروماني وأعوانه من كبار الملاّك وكهنة الكنيسة الكاثوليكية، أمّا عامّة المضطهَدين من الأفريقيين فقد انضمّوا إلى صفوف الوندال للانتقام من استعمار خيّم على البلاد أكثر من خمسة قرون من القهر والعبودية، وعمل الجميع أفريقيون ووندال على إجلاء العنصر الروماني والاستيلاء على أملاكه التي اعتبرها الأفريقيون حقوقا مستردّة[2]، وواكب ذلك هجوم الجيتول من وراء خطّ الليمس وإسقاطهم له واسترداد منتجعاتهم، أمّا السيطرةِ الوندالية فقد اقتصرت على المنطقة التلّية لما كان يسمّى بأفريقيا البروقنصلية وهي القطر القرطاجي والقسم الجيّد من نوميديا وباقي الأقاليم عادت إلى الأهالي مباشرة وبذلك يكون هؤلاء قد استرجعوا أملاك أسلافهم.

إذا كان الاقتصاد الروماني في أفريقيا اقتصادا انتاجيا استغلاليا فإنّ الاقتصاد الوندالي كان استنزافا لثروة البلاد فقد اغتنت الخزينة الوندالية لفترة غير قصيرة من الأموال الطائلة التي غُنمت من المعمّرين الرومان ومن إدارة المقاطعة وهي ثروات

---

1 المذهب الأريوسي نادى به أريوس في الاسكندرية–وهو من أصول أمازيغية –، وهو مذهب ينفي صفة الألوهية على السيّد المسيح، ويعتبره نبيّا لا غير، ونحن لا نجد في المصادر اللاتينية وهي كاثوليكية، تفاصيل عن عقيدة الدوناتيين في هذا الشأن، مع أنّ الباحثين وهم كاثوليك في الغالب يضعون الصراع الدوناتي الكاثوليكي في إطار سياسي، ولكن لو دُرِس الموضوع بعناية لاتّضح أنّ الخلاف كان شاملا.

2 لا ريب أنّ عددا معتبَراً من الأهالي قد انضمّ إلى الجيش الوندالي في حربه على الاستعمار الروماني بأفريقيا، ولم يكن في وسع الوندال تحقيق النصر التامّ في ظرف 10 سنين(429–439 م) == لولا المساعدة التي تلقّوها من الشعب الأفريقي (البربري)، وكان التوسّع الروماني في أفريقيا قبلهم قد استعرق عشرات السنين حتّى يبسط نفوذه على البلاد – وأكثر من ذلك عبرت فرق من هؤلاء الأهالي إلى إيطاليا كانت في عداد الجيش الوندالي الذي استباح روما لمدّة أسبوعين (2 جوان 455 م) وفعَل هؤلاء ما لم يتمكّن هانيبال من فعله ولعلّهم تذكّروا ملوكهم : سيفاكس ويوغرطة ويوبا الأول وبطليموس الذين اغتالهم تباعا استعمار متغطرس وشرس.

اكتنزها أولئك المعمِّرون طيلة قرون، وبعد تناقص أموال الغنائم تحوّل الاقتصاد الوندالي إلى اقتصاد ريعي، يضمن دخلا معتبَراً من استغلال أملاك الإمبراطور الروماني التي استولى عليها ملك الوندال جنسريك، وعهد بها منذ البداية إلى مسيّرين (Conductores) من الأهالي يديرونها حسب الطرق التي جرى بها العمل منذ قرون، وطبيعي ألاّ يأسف الفلاّحون الأفريقيون على زوال النظام الاستغلالي الروماني بل إنّهم احتجّوا بشدّة بعد زوال الاحتلال الوندالي ومجيء الاستعمار البيزنطي الذي أحيى النظام الروماني من جديد، وسيواصل الشعب الأفريقي نضاله ضدّ القهر الاستعماري[1] إلى وصول الفتح الإسلامي الذي أحدث انقلابا جذريا في المنطقة، فاندثرت قرطاج ليخلفها القيروان، وكان ذلك إيذانا بفصل أفريقيا نهائيا عن الغرب اللاتيني، واكبه تراجع الاقتصاد الزراعي أمام عودة الاقتصاد الرعوي حينا من الزمن.

1 عقون (محمّد العربي)، المنطقة الأوراسية في القرن السادس الميلادي من خلال المصادر،مقاومة الغزو البيزنطي، في مجلّة جامعة باتنة للعلوم الاجتماعية، العدد12، جوان2005، ص7-18.

خاتمة

دلّت الأبحاث الأثرية ولا تزال على أنّ الشمال الأفريقي من أقدم المناطق التي استقرّ فيها الإنسان ومارس مختلف الأنشطة التي تلبّي حاجياته وفي احتكاكه الطويل ببيئته تشير المعطيات الأثرية إلى أنّه تمكّن من تجاوز مرحلة القنص والقطف إلى استئناس الحيوان ثمّ الزراعة في وقت مبكّر، وقد توفّرت في هذه المنطقة الشاسعة مجالات واسعة للانتجاع وللزراعة كذلك، وكانت البداوة النمط الذي ميّز الحياة في المراحل الأولى وإذا كانت الرسوم الصخرية التي تزخر بها هذه المنطقة قد قدّمت لنا جوانب هامّة من حياة الإنسان القديم في مرحلة موغلة في القِدم فإنّ المرحلة التي تلتها تطرح إشكالا كبيرا ، وهي مرحلة طويلة يسودها الغموض في جوانب عديدة، وتمتد من عصر الدولمان إلى وصول البحارة الفينيقيين سواحل أفريقيا الشمالية في أواخر الألف الثانية ق.م.، ومع ذلك فمن غير المقبول الآن مع تقدّم البحوث الأثرية الإقرار بأنّ الإنسان الذي أبدع رسوم تاسيلي ناجّر تأخّر عن الركب مئات السنين بانتظار شعوب أخرى لتُدْخله التاريخ!، وهو ما روّجت له كتابات تاريخية مغْرِضة واكبت التوسّع الاستعماري في القرنين التاسع عشر والعشرين وأسّست لفكرة قصور المغاربة التي أسقطتها حديثا حركات الاستقلال.

فرضت الظروف الطبيعية والمناخية وجود ثنائية في نمط المعيشة، وهذه الثنائية كثيرا ما كانت متناقضة، ذلك التناقض انتبه الملك ماسينيسا إلى خطورته على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي ونفهم من تشجيعه على الاستقرار أنّه يريد دمج تربية الحيوان بالزراعة للحدّ من ذلك التناقض، وهي سياسة جاءت بنتائج إيجابية، فازدهر النشاط الاقتصادي عموما خلال الفترة النوميدية ولكن هذا الازدهار وجد أمامه الاحتكارات الإغريقية والقرطاجية التي حالت دون الاحتكاك المباشر والحرّ مع باقي شعوب المتوسّط، وما كادت هذه الاحتكارات تتراجع تدريجيا حتّى ظهرت قوّةٌ إمبراطورية شاءت صيرورة التاريخ أن تهمين بسلطانها على كلّ بلدان البحر المتوسّط وهي روما.

في المدن الساحلية سيطرت المركانتيلية الفينيقية ثمّ القرطاجية أمّا في الداخل فقد ساد الاقتصاد الطبيعي فترة طويلة، ولكن ماسينيسا أحدث تحوّلات كبيرة كان من نتائجها نمو الحواضر وظهور الأسواق وسكّ العملة "الوطنية"، وظلّ الاقتصاد ينمو

بتوسّع الأسواق ونشاط التبادل التجاري في الداخل ومع الخارج، وكان هذا الخطّ "التحرّري" ينمو تدريجيا في عهد خلفه الملك ميسيبسا أمام تراجع الهيمنة المركانتيلية القرطاجية، وكانت غايته توحيد البلاد إلاّ أنّ الرومان قضوا على ذلك الخطّ في منتصفه، وحلّ الاستعمار الروماني محلّ الاحتكارات الإغريقية القرطاجية، وهو المصير المشترك لكلّ شعوب المتوسّط التي أخضعتها جحافل الجيوش الرومانية شرقا وغربا.

ظلّ الريف مركز الثقل الاجتماعي- الاقتصادي، وفي هذا المجال لم يُحْدِث الاستعمار الروماني تحوّلا كبيرا، لأنّ الاقتصاد ظلّ ريفيا فلاحيا قبل وخلال الاحتلال الروماني، يقدّم لروما حاجتها من الموادّ والمحاصيل الزراعية والحيوانية، ولكن التأثير الكبير الذي أحدثته سياسة روما هو تحويل عدد كبير من العنصر الأهلي إلى قوّة عاملة تابعة لمنظومة إنتاجية ريعية، تتمثّل في المستثمرات الفلاحية الكبرى (اللاتيفونديا)، وهي وضعية لم يكن مغرب ما قبل الرومان يعرفها، ويمكن القول أنّ روما أنتجت في أفريقيا الشمالية بروليتاريا على غرار البروليتاريا الإيطالية التي كانت عامل اضطراب في مرّات عديدة في إيطاليا ذاتها، حيث أنتجت حرب العبيد والحركة الغراكية وحرب القراصنة وإذا كانت البروليتاريا الإيطالية هي التي قضت على النظام الجمهوري في روما، فإنّ البروليتاريا الأفريقية هي التي ستزعزع أركان الاستعمار الروماني في أفريقيا وتجعله يتهاوى أمام أولى ضربات الزحفة الوندالية.

لقد أحدثت السياسة الاستعمارية الرومانية تحوّلات عميقة في المستويات البنيوية في الشمال الأفريقي القديم، وكانت الكنطنة أداة لعزل السكّان عن بعضهم ممّا أدّى إلى انغلاق المجموعات السكّانية وانكفائها داخل أقاليمها الضيّقة وذلك من شأنه على المدى البعيد أن يضعف روح التواصل والتضامن تدريجيا، والنتيجة أقاليم معزولة عن بعضها ومدن معزولة عن محيطها الريفي بفعل التأثير الثقافي اللغوي، وعلى الصعيد الديمغرافي برز اختلال كبير بين مناطق جبلية محدودة الموارد وآهلة بالسكّان وسهول خصبة ذات كثافة سكّانية قليلة.

إذا كان المجتمع الإقطاعي هو مجتمع أسياد يتكوّن من فئات أرستقراطية يرتبط أعضاؤها فيما بينهم بروابط شخصية ويشكّلون الطبقات العليا التي تحتكر السلطة وتمتلك الريع الذي تستخرجه طبقة فلاّحين تحتفظ بحقوق الاستعمال، فإنّ الرومان أسّسوا نظاما إقطاعيا بأفريقيا القديمة أو على الأقلّ في القسم الأغنى منه، أمّا المجتمع الأهلي فقد أحدث فيه الاستعمار شرخا كبيرا فقد أعلن الحضر اعتناقهم النهائي

للحضارة الرومانية، وقطعوا الصلة بلغتهم الليبية وحقّقوا ذاتهم في ثقافة الغالب كما أثبتته النظرية الخلدونية في وقت لاحق، أمّا جماهير الأرياف المحافظة على كيانها وهويتها والتي فلتت من الرومنة اللغوية، فقد أصبحت مقطوعة الأوصال، ولذلك حلّت الزعامات القبلية محلّ القيادات الوطنية واحتمى المجتمع بالقبيلة بعد أن فقد السيادة الوطنية، وهذا الوضع هو الذي أفرز بعد الغارة الوندالية تلك الممالك الصغيرة التي أنهكها التناحر في ما بينها أكثر من غزوة الاسترداد البيزنطية، وكان في إمكانها لو تخطّت سقف القبيلة أن تقضي على الحكم الوندالي الهشّ وأن تأخذ زمام أمرها بنفسها دون انتظار قوّة مخلّصة (الاسترداد البيزنطي).

أنتج نزع الملْكية وكنطنة القبائل حصول روما على احتياطي عقاري كبير ستقيم عليه المستثمرات الكبرى وستملّكها للبيت الإمبراطوري وللطبقة السيناتورية عموما وكذا للطبقة الأرستقراطية البلَدية، هذه الأخيرة في قسم كبير منها من أصول أهلية، ولكن نشأت من هؤلاء جميعا طبقة مهيمنة ومحتكرة لمصادر الثروة فضلا عن احتكارها للسلطة، وفي المقابل هناك طبقة صغار الفلاّحين مالكي القطع الصغيرة (Microfundia) أو في الغالب مؤجّريها وهؤلاء يكدّون لتحقيق الاكتفاء الذاتي ومع ذلك فإنهم هم الذين يقدّمون للسوق الاستهلاكية حاجتها من المؤن الضرورية، وكانت الأرض دائما ملْكية عائلية توفّر العمل لكلّ أفراد العائلة، وسيرسخ ذلك أكثر في ظلّ الكنطنة.

من بين نتائج الكنطنة التي اعتبرها البعض إيجابية هي استقرار (Sédentarisation) جزء هامّ من الجماعات البدوية واعتناقها خدمة الأرض، يقدّم البعض قبيلة الموسولان كمثال، والحال أنّنا لا نمتلك مؤشّرات دقيقة عن النمط الذي كانت عليه هذه القبيلة، قبل الاحتلال الروماني، ويستخلص من الحرب التي شنّتها على الإدارة الرومانية بأنّها قبيلة من المزارعين المستقرّين في أغلبهم على الأقلّ، لأنّ البدوي أمام الضغط قد يغيّر خطوط انتجاعه، وليس له دافع للحرب من أجل أرض يستفيد منها في موسم أو فصل لا غير، بقدر ما للمزارع المستقرّ المرتبط بالأرض، فهذا الأخير هو الذي تتوفّر لديه كلّ الدوافع للتضحية من أجل الأرض، وفي هذا المجال لا نظنّ أنّ الكنطنة حملت إلى أفريقيا الشمالية حياة الاستقرار بقدر ما كانت سياجا يفصل بين طبقة حاكمة تملك كلّ شيء ويعضدها القانون، وشعب مضيَّق عليه في أرض كانت ميّتة فأحياها ذلك الشعب المكنطَن.

ينبغي أن نفهم من كثافة زراعة الزيتون في مناطق السهول العليا والسفوح الأطلسية من الكتلة الأوراسية إلى الدورسال التونسي (Dorsale tunisienne) أنّها ليست من الآثار الإيجابية لسياسة الأباطرة كما يصوّره لنا المفتتنون بحضارة روما بقدر ما هي نتيجة لإصرار الجماعات المكنطنة على العيش من جهدها الذي حوّلت به الأراضي الأقلّ جودةً إلى أراضٍ مُجْدية وذات قيمة إنتاجية فهذا الاكتفاء الذاتي هو الذي حافظت به الجماعات الأهلية على كيانها وظلّت قوّة اقتصادية احتياطية محافظة على البذرة الوطنية، ولذلك كانت الزحفة الوندالية فرصة لبروز تلك القوّة التي محت آثار الوجود الروماني نهائيا ليستعيد الشمال الأفريقي ذاته المرتهنة.

تشكّل المجتمع "الأمازيغي" منذ فجر التاريخ وظلّت حياته كغيره من مجتمعات الشعوب الأخرى تغتني بالتجارب التي كوّن من تراكمها تقاليده وعاداته وأعرافه وبُناه الاجتماعية، لضمان الانسجام والاستقرار على المستويين العائلي والقبَلي، وعلى المستوى الاجتماعي عموما، وكانت الجماعة هي الهيئة الاجتماعية الدينية والسياسية الأولى التي أفرزتها تلك الأعراف لتُعْنى بشؤون المجتمع ومنها ستنبثق القيادة السياسية (الزعامة ثمّ الملَكية)، وفي الحواضر أصبحت الجماعة هيئة إدارية (نموذج بلْدة دوقّة النوميدية)، وكانت النظم الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية في أفريقيا القديمة تنمو تدريجيا ولكن ما كادت تكتمل حتّى حلّ الاستعمار الروماني الذي سيدوم قرونا طويلة ويحدِث تأثيرا عميقا في البلاد على كلّ الصُّعُد.

استخلص المجتمع البربري القديم أوهامه وأفكاره الدينية من بيئته، وكان يتحسّس قوى الطبيعة ويتضرّع إليها بحثا عن الاطمئنان والهدوء لا غير، ولم يحصل للأمازيغ تضخّم عقائدي أو كهنوتي -كما هو الحال في المجتمع الفرعوني، حيث يكاد الكهنة هناك يعدّون على الإنسان كلّ صغيرة وكبيرة- ولم يكونوا في حاجة إلى اصطناع آلهة لا يرضيها إلاّ قرابين بشرية، وهذا جنّب المجتمع الوقوع في الأسر الكهنوتي على يد جهاز ديني ضخم ومسيطر، فقد كان المعتقد بسيطا ليس فيه أحبار ولا كهنة، بل إنّ المجتمع البربري يرفع الذين يتحلّون بفضائل الطهر والعفاف والنيّة الصادقة ويقول عنهم "فيهم شيء لله(*)"، ومن هذا الباب دخلت المسيحية لولا تحوّلها إلى أداة في يد الاستعمار الروماني والبيزنطي على الخصوص.

(*) وقد لا يعرف الكثير أنّ هذه العبارة جاءت منها الكلمة التي يلهج بها المريدون في الاحتفالات الدينية إلى اليوم وهي شاي للّه. لأنّ احتفالات الوعدة والزردة تترجم الكثير من عبارات الموروث العقائدي البربري القديم.

عندما فقدت البلاد السيادة احتمى المجتمع بأعرافه وتقاليده وانكفأ على نفسه في إطار القبيلة، وفي هذه الأوضاع التي دامت قرونا كان الاستعمار الروماني يغذّي التفرقة، بعد أن تمكّن من تفكيك المقاومة وتبديد قواها الاجتماعية تباعا (**)، وهو ما أحدث شرخا كبيرا، وكان من الصعب مع توالي القرون بناء الوحدة، ونتجت عن ذلك ظاهرة الصفّ التي نخرت المجتمع ولا تزال آثارها مستمرّة، وهي الظاهرة التي تنبّه إليها مستعمرو الشمال الأفريقي فأحسنوا استعمالها إلى حدّ أنّه قيل: لا يمكن السيطرة على هذه البلاد إلاّ بممالأة قسم من الشعب (صفّ أو كنفدرالية قبلية) وتحريضه على قسم آخر ومن هذه البوابة دخل المستعمرون وسادوا فترات طويلة تباعا!.

إذا كان العديد من المؤرّخين قد تناولوا موضوع الرومنة التي هي فرْض الثقافة اللاتينية والحضارة الرومانية على البلاد المفتوحة وأوّلها الشمال الأفريقي القديم، فإنّه ينبغي علينا اليوم الحديث عن الأفرقة (Africanisation) التي هي تغلغل العنصر الأفريقي المترومن في دواليب الإمبراطورية الرومانية في مختلف الميادين، يمثّلها عدد من الموهوبين الذين أبدعوا في ترقية الثقافة اللاتينية (أبوليوس في الآداب، ترنتيوس وبلاوتوس في المسرح وفرونطون السيرتي في البلاغة وفلوروس في التاريخ... وغيرهم كثير)، ووصلت الأفرقة أوجها باعتلاء الأسرة السيويرية العرش الإمبراطوري الروماني، وتزعُّم أوغسطين للكنيسة الكاثوليكية وكان الأب الروحي لهذه الكنيسة طيلة القرون الوسطى، وإذا كان الشرق قد تأغرق فإنّ أفريقيا بفضل هؤلاء ظلّت الملاذ الأخير للثقافة اللاتينية.

لقد أحدثت الرومنة والأفرقة عل السواء شرخا كبيرا في النسيج الاجتماعي الأفريقي فقد انقسم المجتمع لغويا إلى قسمين اتّسعت الفروق بينهما، وكان القسم الناطق باللاتينية وهو المتمركز في الحواضر ينظر إلى جمهور الشعب الناطق بالأمازيغية نظرة استعلاء، وكان يفترَض على النخبة التي استوعبت اللغة والحضارة اللاتينية ألاّ تقطع الصلة بلغتها الأصلية لتضمن تواصل الأجيال بها، ولكنّها لم تفعل لأنّ الاستلاب تمكّن منها، وهو استلاب ميّز تاريخ أفريقيا الشمالية عبر العصور، إلى درجة أنّ البعض أرجع عدم رسوخ المسيحية فيها إلى أنّ لغتها الليتورجية لم تكن أمازيغية بل كانت لاتينية ولذلك خلطت الجماهير بين المسيحية والاستعمار فزالت بزواله.

(**) ولعلّ أسوأ مثال في هذا السياق ما فعله الحكم العثماني (وكأنّه يتأسّى بالاستعمار الروماني) بالجزائر، فقد قسّم المجتمع إلى صفوف، وإلى قبائل مخزن وقبائل رعية، يستعمل الأولى لتأديب الثانية، وهو ما يؤدّي إلى زرع الكراهية وترسيخها عبر الأجيال ويحول دون الاندماج والتضامن الاجتماعي الذي تبني عليه الدولة الوطنية! وقد مهّد ذلك للاستعمار الفرنسي الذي وجد الشعب مفكّكا منقسما فأعانه ذلك على فرض الاحتلال.

ببيليوغرافيا

1- عربية

أ- مصادر.

ب- مراجع.

ج- رسائل.

د- دوريات.

هـ- قواميس.

2- لاتينية - فرنسية

أ. مصادر.

أ. 1- مصادر قانونية.

ب- دوريات.

ج- مؤتمرات علمية.

د- مراجع.

هـ- دوائر معارف وقواميس.

بيبليوغرافيا

1- **عربية**

أ - مصادر:

• سابن خلدون (عبد الرحمن)

01- العبر وديوان المبتدأ والخبر المعروف باسم تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1966.

ب - مراجع:

• الأثرم (رجب)

02- تاريخ برقة السياسي والاقتصادي (من القرن السابع ق.م. إلى بداية العصر الروماني)، منشورات مكتبة قورينا، بنغازي ليبيا 975.

• الناضوري (رشيد)

03- تاريخ المغرب الكبير في العصور القديمة (أسسه التاريخية والحضارية والسياسية) ج1، دار النهضة العربية بيروت 1961.

• إيمار (أندري)

04- تاريخ الحضارات العامّ (روما وإمبراطوريتها)، تعريب داغر(أسعد و فريد) بيروت، لبنان 1968.

• بوتفنوشت (مصطفى)

05- العائلة الجزائرية؛ التطوّر والخصائص الحديثة (سلسلة المجتمع)، ترجمة أحمد دمري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984.

• جوليان (شارل أندري)

06- تاريخ أفريقيا الشمالية، تعريب محمّد امزالي وبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس 1969.

• ول ديورانت

07- قصّة الحضارة، الترجمة العربية، القاهرة 1972.

• عبدالعليم (مصطفى كمال)

08- دراسات فى تاريخ ليبيا القديم، المكتبة الاهلية، بنغازى 1966.

• عقون (محمّد العربي)

09- المؤرّخون القدامى: غايوس كريسبوس سالوستيوس (86-35 ق.م.) وكتابه حرب يوغرطة، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر 2006.

• عتمان (أحمد)

10- الأدب اللاتيني ودوره الحضاري في سلسلة **عالم المعرفة** رقم141 الكويت 1989.

• شامو (فرانسوا)

11- فى تاريخ ليبيا القديم، الإغريق فى برقة الأسطورة والتاريخ، تعريب محمد عبد الكريم الوافى، منشورات جامعة قاريونس، بنغازى 1990

• شنيتي (محمّد بشير)

12- التغيّرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، المؤسّسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984.

13- الليمس الموريتاني ومقاومة المور(جزءان)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1999.

ج - رسائل

• حارش (الهادي)

14- التطوّر السياسي والاقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول (203-46 ق.م.) رسالة ماجستير، جامعة الجزائر 1985 .

• عقّون (محمّد العربي)

15- من التاريخ الحربي في الشمال الأفريقي القديم ؛ حملة يوليوس قيصر على أفريقيا 46-47 ق.م.، دراسة في التاريخ السياسي والعسكري للشمال الأفريقي القديم، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة 1995- 1996.

16- من التاريخ البلَدي للجزائر خلال العهد الإمبراطوري الأول: **الاتحاد السيرتي**، دراسة في تاريخ وآثار ونظم سيرتا العتيقة، أطروحة دكتوراه، جامعة منتوري قسنطينة 2004- 2005.

د - دوريات:

• عقّون (محمّد العربي)

17- من أعلام المغرب القديم: القدّيس أوغسطين، في **مجلّة الحوار الفكري**، صادرة عن مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة قسنطينة، العدد 3 جوان 2002.

18- من تداعيات الحرب البونية الأولى على قرطاج : ثورة جندها المأجور، في **مجلّة العلوم الإنسانية** صادرة عن جامعة قسنطينة، العدد 21 جوان 2004.

19- الإثنوغرافيا الاستعمارية: شارل فيرو نموذجا، في **مجلّة إنسانيات**، عدد 28، أفريل جوان، وهران 2005.

20- المنطقة الأوراسية في القرن السادس الميلادي من خلال المصادر، مقاومة الغزو البيزنطي، في **مجلّة جامعة باتنة للعلوم الاجتماعية**، العدد12، جوان2005.

• شنيتي (محمّد بشير)

21- لمحة عن التفاعل الثقافي في الجزائر القديمة، في **مجلّة الإنسان**، صادرة عن مركز البحوث في الأنثروبولوجيا وماقبل التاريخ والإثنوغرافيا، عدد 2 الجزائر 1983.

هـ - قواميس

• عليّة (بشير)

القاموس الاقتصادي، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت 1985.

2- لاتينية، فرنسية

A. Sources أ - مصادر

Ammien Marcellin,

23- Histoires, Texte établi et traduit par P. Goukowsky, avec la collaboration de S. Lancel. Editions: Belles Lettres,Paris 1974.

Apulée,

24- Apologie, trad. Par de violette, collection Budé, Paris 1954.

Arnobe,

25- Adversus nationes, éd. Rief. Atrschied, (Corpus de Vienne), 1875.

Caton ,

26- De Re Rust., éditions Keil, 1882 .

Cicéron,

27- Oeuvres, C. L. F. Edition Panchouche, Paris 1833-1840, (36 Tomes).

Claudien

28- Œuvres, éd. Birt. Paris 1892.

Columelle,

29- traité "De re rustica" en 12 livres. éd. Belles Lettres, Paris S.D.

Corippus,

30- Johannides, trad. Alix, éd. Revue Tunisienne, 1899-1902.

Diodore de Sicile,

31- Bibliothèque universelle, trad. Par Af. Milot, imprimerie croyale, Paris 1834-1837.

Elien,

32- Nat. Anim. Traduit et commenté par Arnaud Zucker. Postface de Jean-Christophe Bailly. 2002.

Hérodote,

33- Histoire, Livre IV, Texte établi et traduit par Ph. E. Le Grand, éditions les belles lettres, Paris 1980.

Homère,

34- Odyssée, trad. Par dufour, éd. Gallimard, Paris 1964.

Hyginus Grammaticus,

35- Œuvre géométrique, éditions de l'Office des publications officielles des communautés européennes, Luxembourg 2000.

Ibn Khaldoun,

36- Histoire des Berbères, trad. Par le Baron de Slane, éditions Guethner, Paris 1925-1956.

Maxime de Tyr,

37- Dissertations, Traduit par Combes Dounous et Jean Jacques, Masson et Besson éditeurs, Paris 1802.

Maxime Valère

38- œuvres (2 volu.), Texte établi et traduit par Constant, éd. Panthéon littéraire, Paris 1841.

Municius (Felix),

39- Octavius, éditions « Belles Lettres » Paris S.D.

Orose,

40- Adversus paganos, éd. K. zangemeister, 1882.

Pausinias

41- Description de la Grèce ou Périégèse Texte établi par M. Casevitz, traduit par J. Pouilloux et commenté par F. Chamoux, Paris S. D. .

Pline l'ancien

42- Histoire naturelle, Livre V, 1re partie: 1-46. (Géographie: L'Afrique du Nord). Texte établi, traduit et commenté par J. Desanges. Paris 1980.

Pline le jeune

43- Epistolae. Texte établi et traduit par M. Durry, éditions Belles Lettres, Paris 1947.

Plutarque,

44- De Viris illusteibus (Vies des hommes illustres), traduit par gérard walter, édition Gllimard, Paris 1951.

Polybe

45- Histoire Romaine, traduit par denis Roussel, édition Gallimard, Paris1970.

Procope

46- Histoire de la guerre des Vandales, trad. Par dureau de la malle, Paris 1852.

Ptolémée

47- Géographie, éd. C. Müller, Paris 1901.

Sallustius (C.C.),

48- Guerre de jugurtha, Conjuration de Catilina, Fragment des Histoires Traduit par Ernout, Edition Belles Lettres, Paris 1974.

Silius Italicus

49 - Les Puniques, traduit par E.F. Corpet, et N.A dubois Edition Panckoucke, Paris 1836-1838. (3 Volumes).

St. Augustin,

50 - Œuvres complètes, éditions Knoel, Paris 1836-1896.

Strabon

51 - Géographie, traduit par tardieu, Edition Hachette, Paris 1867-1870. (4 Volumes).

Suetonius,

52 - Vies des douze Césars, préf. M. BENABOU, trad. H. AILLOUD, éd. " Les Belles Lettres ", Paris 1931-1932,

Tertullien,

53 - Apologie, trad. Par de grand, Paris 1852.

Thucydide,

54 - Histoire de la guerre du Péloponnèse Editions Robert Laffont, Collection Bouquins, introduction par Jacqueline de Romilly, Paris 1964.

Tite-Live,

55 - Histoire Romaine, traduit par Verger, Edition Panckoucke, Paris 1930.

Victor De Vita,

56 - Histoire de la persécution vandale en Afrique Suivi de La passion des sept martyrs. Registre des provinces et des cités d'Afrique. **Textes établis, traduits et commentés par S. Lancel. 2002.**

A. 1 - Sources juridiques أ - 1 - مصادر قانونية

57 - Codex théod, édiotions Mommsen et Mayer, Berlin 1903.

58 - Codex Justin. (Digeste), éd. Mommsen et Mayer, Berlin 1908.

B. Périodiques **ب - دوريات**

Albertini (E.)

59 - Hippone et l'administration des domaines impériaux,in B.A.H., pp.57-62.

Alquier (J.et P.),

60 - les thermes romains de Val d'or, **RSAC** LIX, 1928-1929.

Aureggio,

61 - les chevaux du Nord de l'Afrique, Alger 1903.

Armandi (P.),

62 - Histoire militaire des éléphants, Paris 1843.

Ben Abed (A.)

63 - « L'amphore maurétanienne de la station 48 de la place des Corporations, identifiée à Pupput (Hammamet, Tunisie) », Antiquités Africaines 35, 1999.

Benseddik (N.)

64 - Un nouveau témoignage du culte de Tanit-Caelestis à Cherchell, in Ant. Afr. T. XX, 1984.

Berque (J.),

65 - Qu'est-ce qu'une tribu nord-africaine? IN Hommage à L. Fabvre, Paris 1951.

Berthier (A.),

66 - Nicibes et Suburbures, Nomades ou sédentaires, B.A.A., T. III, 1968.

Bertholon,

67 - les premiers colons de la souche européenne dans l'Afrique du Nord, in Revue Tunisienne, 1897-1899, IV-VI.

Bertrandy (F.),

68 - la communauté gréco-latine de Cirta, pendant le $2^{ème}$ s. et la première moitié du 1^{er} S. avant J.C., IN **LATOMUS**, 44, 1985.

Brulard (M.),

69 - Tfaska n'tisent : La fête du sel à Ghat, le 27 Ramdhan, Bull. de liaison saharienne n° 25, mars 1957, pp. 12-17.

Brun (J. P.),

70 - les pressoirs à vin d'Afrique et de Maurétanie à l'époque romaine, Africa, série, séances scientifiques I, 2003.

Brunon(Col ^{nel}),

71 - Note sur les vestiges d'un monument découvert à Constantine, dans **RSAC**, XVII, 1875.

Cagnat (R.)

72 - l'Annone d'Afrique, Mémoire présenté à l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres, Vol. XL., 1916.

73 - Note in Année épigraphique, 1896, N° 117.

Camps (G.),

74 - Origines de la domestication en Afrique du Nord et au Sahara, Revue française d'Histoire d'Outre-Mer, t. 63, 1978,

75 - L'éléphant berbère, Encyclopédie berbère - Cahier, t. 2, 1972

76 - Données nouvelles sur les tombeaux du Djebel Mistiri d'après une note de M. Latapie, Libyca: Anthropologie Préhistoire Ethnographie, t. 6-7, 1958-1959

77 - Le tombeau de Tin Hinan, Travaux de l'Institut de Recherches sahariennes, t. 24, 1965.

78 - Recherche sur les relations du Capsien supérieur et de l'Ibéromaurusien dans le Constantinois, in Bulletin de la Société d'Histoire naturelle de l'Afrique du Nord, t. 46, 1955

79 - L'origine des Berbères, in Islam et société: anthropologie du Maghreb, Paris, CNRS, 1981.

80 - Nouvelles remarques sur l'âge de l'Atérien, Bulletin de la Société préhistorique française, t. 71, 1974.

81 - Qui sont les Dii Mauri?, in Ant. Afr. T. XXVI, 1990.

82 - Les noms divins et les noms théophores chez les anciens africains, Bulletin archéologique du Comité des Travaux historiques et scientifiques (n.s.) - B: Afrique, t. 25, 1998.

83 - Les tumulus à chapelle du Sahara protohistorique : tombes-sanctuaires des Gétules, in: Eléments de pré et protohistoire européenne: hommages à Jacques-Pierre Millotte, Paris, Les Belles Lettres, 1984, (Annales littéraires de l'Université de Besançon ; 299).

84 - La céramique des sépultures berbères de Tiddis, Libyca: Anthropologie Préhistoire Ethnographie, t. 4, 1956.

85 - les Bavares, In **R. AF**. 1955

Camps (H. Fabrer)

86 - Une nouvelle huilerie romaine dans la région de Périgotville, in Libyca, a/ épigraphie. V, 1957.

Carcopino (J.)

87 - Salluste, le culte des « Cereres » et les Numides L213. RH, CLXVIII, 1928

88 - L'aptitude d'assimilation des Berbères à la civilisation d'après l'histoire ancienne de l'Afrique du Nord, in VIIIe Congrès Volta, 1938.

89 - Fermier général ou Sociétés publicaines, in REA, XXIV, 1922.

90 - Decumani. Note sur l'organisation des sociétés publicaines sous la République, MEFR, XXV, 1905.

91 - Du droit de cité accordé par les romains aux peuples conquis , extrait des Annales Universitaires de l'Algérie, Mars 1915, Typographie adolfe jourdan, Imprimeur Libraire de l'Université , Alger1915.

Carton (P.)

92 - La Lex Hadriana et son commentaire par le procurateur Patruclus, IN **R. AF**, 1893, p. 114.

Chastagnol (A.),

93 - l'empereur Julien et les avocats de Numidie, in Ant. Afr. T. XIV, 1979.

Chevalier (R.)

94 - la culture en terrasse en Afrique du Nord, annales: Economie, Société, Civilisations, 1956.

95 - la Centuriation romaine et la mise en valeur des sols dans la province d'Afrique, Géog. 22ème année, Sept- Oct. 1958.

Courtier (Ch.),

96 - Ruines romaines de Cap Bon, IN **Karthago,** V, 1954.

Cuoq (E.)

97 - Le Colonat partiaire dans l'Afrique romaine d'après l'Inscription d'Henchir Mettiche, **CRAI**, XI, 1ère série, 1901.

De Marcilly,

98 - Description de la voie romaine de Cirta à Rusicade, in **RSAC** N° 1, Année 1853.

Depachtere (F.G.),

99 - Le Règlement d'irrigation de Lamasba, Mélanges de l'école française de Rome (MEFR), N° 28, Année 1908.

Despois (J.)

100 - la culture en terrasses en Afrique du nord, Annales Economie, Société, Civilisations, 1956.

Dupuis (X.),

101 - «À propos d'une inscription de Thugga, un témoignage sur la vitalité des cités africaines pendant la «crise» du IIIe siècle», MEFRA 105, 1993.

102 - «Constructions publiques et vie municipale en Afrique de 244 à 276», MEFRA 104.1, 1992.

Erroux(J.),

103 - Essai d'une classification dichotomique des blés durs cultivés en Algérie, IN **Bulletin de la Société d'Histoire de l'Afrique du Nord**, T. 48, 1957.

Faidherbe (Le Général),

104 - Mémoire sur les éléphants des armées carthaginoises, in B.A.H.n°3. Bône, 1865.

Frezouls (E.),

105 - Les Baquates, et la province romaine de Tingitane, Bulletin d'Archéologie Marocaine, T. II, 1957.

Gascou (J.),

106 - le cognomen Gaetulus, Gaetulicus en Afrique romaine, IN MEFR, 82, 1970.

Gaukler (P.),

107 - P. Gauckler, Enquête sur les installations hydrauliques romaines en Tunisie, Tunis, 1897-1912.

Guéry (R.),

108 - Révisions des marques de potiers sur terra sigillata, découvertes en Algérie, in Ant. Afr., T. VI, 1972.

Guyon (D^R),

109 – Note , in CRAI, XXXIII, 1851.

Hitchner (Bruce R.),

110 - The Kasserine archaeological survey, in **Antiquités Africaines**, éditions CNRS, Paris 1988.

Lacroix (L.),

111 - Colonisation et administration romaine dans l'Afrique septentrionale, IN **R. AF.** Année 1863, N0 7.

Lassert (Jean-Marie),

112 - Onomastica africana, in Ant. Afr., T. XIII, 1979.

Lecocq (A.),

113 - le commerce de l'Afrique romaine, in B.S.G.O., T. XII, 1932.

Leschi (L.),

114 - Recherches épigraphiques dans le pays des Nemencha (Commune de Tebessa), Henchir -El-Abiod, IN **R.AF.**, N° 72, Année 1931.

Leveau (P.),

115 - "Occupation du sol , géosystèmes et systèmes sociaux, Rome et ses ennemis des montagnes et du désert dans le Maghreb antique", **in Annales: économies, sociétés, civilisations**, Vol. 41ème (nov. / Déc. 1986).

Maire (R.),

116 - Etudes sur la végétation et la flore de Grand Atlas et du Moyen Atlas marocains (Mém. S. Sc. Nat. Maroc), VII, 1924.

Masson (O.),

117 - Grecs et Libyens en Cyrénaïque, d'après les témoignages de l'épigraphie, in **Ant. Afr.** T. X, 1976.

Mansouri (Kh.),

118 - «Édifices publics et évergétisme en Maurétanie césarienne sous le Haut-Empire: témoignages épigraphiques », Afr.Rom. 15, 2004.

Masqueray (E.),

119 - note in Bulletin de correspondances africaines, III, 1885.

Mercier (G.),

120 - La Langue libyenne et la toponymie antique de l'Afrique du Nord, IN **Journal Asiatique** 1924.

Mespoulet (M.),

121 - l'Inscription d'Ain Ouassel, Nouv. Revue de Droit français, Mars-Avril 1892.

Pflaum (H.G.),

122 - Remarques sur l'onomastique de castellum celtianum, dans carnuntina, Vorträge biem Internationalen Kongress des Altertumforscher, graz- kölen, 1956.

Poulle,

123 - Bains de Pompeanus, in **RSAC**, 1878.

Rinn (L.),

124 - Essai d'études linguistiques et ethnographiques sur les origines berbères, in **R. AF**. 1887.

125 - Les Premiers Royaumes Berbères et la guerre de Jugurtha, IN **R. Af.**, N° 29, Année 1885.

Rousseau (M.),

126 - Hannon au Maroc, in **R. AF.**, 1949.

Vuillemont (G.),

127 - Vestiges puniques aux andalouses, in B.S.G.O. T. LXXIV, 1951.

Saumagne (Ch.),

128 - Sur la Législation relative aux terres incultes d'Afrique romaine, IN **Revue Tunisienne**, (1922).

Saumagne (Ch.),

129 - Circonscriptions domaniales dans l'Afrique romaine, in **R. T.** 1940.

Slim(L.), Bonifay (M.),

130 - « L'usine de salaison de Neapolis (Nabeul), premiers résultats des fouilles 1995-1998 », Africa XVII, 1999.

Tauxier (H.),

131 - Etude sur les migrations des tribus berbères avant l'Islam.,In **R.AF.** Année 1863.

Tchernia (A.),

132 - Amphores d'Afrique proconsulaire au Bas-Empire, in Ant. Afr., T. III, 1969.

Texier (M.),

133 - Mémoire sur les ports situés l'embouchure du Tibre : le port de Claude, le port de Trajan, in **C.R.A.I.,** 1857.

Vars (Ch.),

134 - Recherches archéologiques sur constantine, dans **RSAC, XXIX,** 1894.

VEL (Auguste),

135 - Quelques inscriptions, In RSAC, Vol. 43, 1909.

Wicichi (M.),

136 - les Gétules de Maurétanie, Bulletin de l'**I.F.A.N.**, 1955.

C. Congrès et séminaires scientifiques **جـ - مؤتمرات علمية**

BELKAHIA (S.) et DI VITA-ÉVRARD (G.),

137 -Magistratures autochtones dans les cités pérégrines de l'Afrique proconsulaire, actes de VIe colloque CTHS, I, Monuments funéraires. Institutions autochtones, Pau, 1993 (1995).

Breuil (abbé H.),

138- les roches peintes du Tassili n'ajjer, Actes de 2ème congrès panafricain de Préhistoire, Alger 1952.

Camps (G.),

139 - L'Homme de Mechta el-Arbi et sa civilisation : contribution à l'étude des origines guanches, in: Simposio internacional conmemorativo del centenario del descubrimiento del primer hombre de Cro-Magnon, Madrid / Las Palmas, Patronato de la Casa de Colón, 1969.

140 - La naissance du sentiment religieux durant les temps préhistoriques et les premiers pèlerinages, in: Histoire des pèlerinages non chrétiens: entre magique et sacré, le chemin des dieux, Branthomme H., Chélini J. (Dir.), Paris, Hachette, 1987.

141 - Un thème religieux dans l'art rupestre nord-africain: le bélier à sphéroïde, in: Studi di paletnologia in onore di Salvatore M. Puglisi, Liverani M., Palmieri A., Peroni R. (Dir.), Roma, Università La Sapienza, 1985.

Chaker (S.),

142 - Résistance et ouverture à l'autre: Le Berbère, une langue vivante à la croisée des échanges méditerranéennes, un parcours lexicologique, IN Acte du colloque: L'Interpénétration des cultures dans le bassin occidental de la Méditerranée (Paris , Sorbonne, 14/11/2001), Paris **Mémoire de la Méditerranée** 2003.

Coudray (C.),

143 - Diversité génétique (Allotypie GM et STRs) des populations Berbères et peuplement du Nord de l'Afrique, Actes de Colloque du groupement des Anthropologistes de langue française, in **Anthropologie**, Paris 2006.

Espérandieu (Docteur)

144 - Domestication et élevage dans le Nord de l'Afrique au Néolithique et dans la Protohistoire d'après les figurations rupestres, Actes du II e congrès pan africain de Préhistoire, Alger 1952.

EUZENNAT (Maurice).

145 - Les structures tribales dans l'Afrique préislamique. Un état de la question, acte de VIe colloque CTHS, Pau, 1993 (1995), I, Monuments funéraires. Institutions autochtones.

Gervasoni (Cabeillac),

146 - Ostie et le blé au 2ème siècle après J.C., actes du colloque sur le ravitaillement en blé de Rome et des centres urbains dés débuts de la République jusqu'au Haut-Empire, Naples-Rome, 1994.

KOLENDO (Jerzy),

147 - Les institutions autochtones dans les domaines africains, **Actes de V e Congrès CTHS, Avignon, 1990 (1992).**

148 - Les lieux de spectacles en Afrique romaine et les études démographiques, dans Actes du Ve colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord, Afrique du Nord Antique et médiévale. Spectacles, vie portuaire, religions, Avignon, Paris 1992.

Mercier (G.),

149 - les noms des plantes en dialecte Chaouia de l'Aurès, IN Acte de XIV e congrès international des orientalistes, Alger 1905, (Paris 1907).

MOREL (Jean-Paul) ,

150 - Nouvelles données sur le commerce de Carthage punique entre le VIIe siècle et le IIe siècle avant J.-C. **actes de IVe congrès CTHS Strasbourg, 1988 (1990).**

TOUBAL (Abderrahmane).

151 - Les mines et carrières en Numidie : exploitations antiques, Actes de VIe colloque CTHS, II, Productions et exportations africaines. Actualités archéologiques, Pau, 1993 (1995).

Villaverde Vega (N.),

152 - Comercio maritimo y crisis del siglo III, en el "circulo del estrecho" sus repercusiones en Mauretania Tingitana", Afrique du Nord antique et médiévale, spectacles, vie portuaire, religions (Actes du V[e] colloque international sur l'Histoire et l'Archéologie de l'Afrique du Nord, Avignon, 1990)Paris 1992.

D. Références — د - مراجع

Albertini (E.),

153 - L'Afrique Romaine, Presse de L'imprimerie officielle, Alger 1955.

Babelon (E.),

154 - Description historique et chronologique des monnaies de la république romaine, T. I, Paris 1887.

Baradez (J.),

155 - Fossatum africae, Paris 1949.

Bates (O.),

156 - The Eastern Libyans, 1915.

Bel Ochi (Mohamed Sadok),

157 - La Conversion des Berbères à l'Islam, Tunis 1981.

Bénabou (M.),

158 - La Résistance africaine à la romanisation, éditions Maspéro, Paris 1976.

Berthier (A.),

159 - Tiddis, cité antique de Numidie, Mémoire de l'Académie des Inscriptions et belles lettres, Nouv. Série, Tome XX, Paris 2000.

Bettendier et Trebut,

160 - Flore de l'Algérie, Alger, Jourdan 1888-90.

Billiard (R.),

161 - la vigne dans l'antiquité, Lyon 1913.

Birebent (Jean),

162 - AQVAE ROMANAE, recherche d'hydraulique romaine dans l'Est algérien, Alger 1962.

Bonnet et Barette,

163 - Catalogue raisonné des plantes vasculaires de la Tunisie, Imp. Nat. 1896.

Callegarin (L.),

164 - Productions et exportations africaines en Méditerranée occidentale (1^er^ siècle av. J.C. - 2^ème^ siècle av. J. C.) l'Afrique romaine, Pallas 68, 2005.

Camps (G.),

165 - Aux origines de la Berbérie, Massinissa ou les débuts de l'Histoire, Libyca, 1962.

166 - Berbères aux marges de l'histoire

167 - Les Berbères, mémoire et identité, éd. Barzakh 2007.

Camps-Fabrer (H.),

168 - L'Olivier et l'Huile dans l'Afrique romaine, Imprimerie officielle, Alger 1953.

Carcopino (J.),

169 - Le Maroc antique, éd. Gallimard, Paris 1948.

Cat (E.),

170 - Essai sur la province romaine de la Maurétanie césarienne, Paris 1891.

Charrier (L.),

171 - Description des monnaies de la Numidie.

Courtois (Ch.),

172 - les Vandales et l'Afrique, Paris 1955.

Courtois (ch.) , Leschi (L.), Perrat (Ch.) et Saumagne (Ch.),

173 - Tablettes ALBERTINI, Actes privés de l'époque Vandale, Paris 1952.

Courtois (Ch.) , Leschi (L.), Perrat (Ch.), Leschi (L.),

174 - Etudes d'épigraphie, d'archéologie et d'Histoire africaine, publications du gouvernement général de l'Algérie, 1958.

De Candolle (A.) ,

175 - Origines des plantes cultivées, Paris 1883.

Decret (f.) et Fantar (M.),

176 - l'Afrique du nord dans l'antiquité, éd. Payot, paris 1981.

Desanges (J.),

177 - The Proto-Berbers, in general history of Africa, édité par G. Molhtar, Paris Unesco.

Evêque (Pierre, l')

178 - l'aventure grecque, éditions Armand Colin, Paris 1964.

Ferembach (D.),

179 -On the origin of the Iberomaurusians (Upper palaeolothic: North Africa) a new hypothesis, J. Hum, volu. 14.

Gagé (J.),

180 - les Classes sociales dans l'Empire Romain, éditions Payot, Paris 1964.

Gascou (J.) ,

181 - la Politique municipale de l'Empire romain, éd. Payot, Paris 1964.

Gautier (E.F.),

182 - le Passé de l'Afrique du Nord, les siècles obscures. Éditions Payot, Paris 1937.

Gsell (S.),

183 - Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, hachette Paris 1913- 1928. (8 Volumes).

184 - HERODOTE, Textes relatifs à L 'Histoire de L'Afrique du Nord, Alger 1955.

Heeren,

185 - Politique et commerce des peuples de l'antiquité, trad. Française, IV Paris S.D. .

Hugoniot (Ch.),

186 - Rome en Afrique; de la chute de Carthage aux débuts de la conquête arabe, Manchecourt, Flammarion, 2000. Coll. Champs Université.

Julien (Ch. A.),

187 - Histoire de l'Afrique du nord, T. I, éd. Payot, paris 1966.

Lacroix (L.),

188 - Histoire de la Numidie et de la Mauritanie, Firmin didot frères éditeurs, Paris 1844.

Lacoste (Y.),

189 - L'ALGERIE passé et présent, éditions sociales, Paris. S. D. .

Laoust (E.),

190 - Mots et Choses berbères, Paris 1919.

191 - Siwa: son parler, éd. Leroux, Paris 1939.

Laronde (A.),

192 - Cyrène et la Libye hellénistique, Libykai Historiai, études d'antiquités africaines, éditions du CNRS, Paris 1997.

Lasserre (J. M.),

193 - Vbiqve Popvlus, édition CNRS, Paris 1977.

Leschi (L.),

194 - Etudes d'épigraphie, d'archéologie et d'Histoire africaine, publications du gouvernement général de l'Algérie, 1958, pp. 80-89.

Masqueray (E.),

195 - Chronique d'Abou-Zakariya, traduite et annotée, Alger 1887.

Mazard (J.) .

196 - Corpus Nummum Numidae Mauretaniaecque, éd. Arts et Métiers graphiques, Paris 1955.

Mercier (E.),

197 - Histoire de L'Afrique Septentrionale (BERBERIE) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française, Editions Ernest le roux Paris 1888.

Mommsen (Th.),

198 - Droit public

Monceaux (P.),

199 - Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne éd. Leroux, paris 1901-1923.

Movers (F.),

200 - die phönizer, II, Berlin 1856.

Paridolfi (Vito),

201 - Histoire du théâtre, trad. De l'Italien par Marie-Claude Coulon, éditions Marabout université, Paris 1968.

Peuras (Jean),

202 - La potestas occupandi dans l'Afrique romaine, in Dialogue d'Histoire Ancienne, Coll. Histoire ancienne, Vol. 25/1, Belles Lettres, Paris 1999.

Picard (G.Ch.),

203 - La Civilisation de l'Afrique romaine, études augustiniennes, 2ème édition, Paris 1990.

204 - les Religions de l'Afrique antique, éditions Plon, Paris s.d.

205 - La vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal, Paris 1958.

Peyronnet,

206 - le problème nord-africain, T. I, paris 1924.

Précheur-Canonge (Thérèse),

207 - La Vie Rurale en AFRIQUE ROMAINE, d'après les Mosaïques, PUF, Paris sans date.

Rachet (M.)

208 – Rome et les Berbères, un problème militaire d'Auguste à Dioclétien, Collection LATOMUS, (Volu. 110) , Bruxelles, 1970.

Rouissi (Moncer)

209 -Population et société au Maghreb, série horizion maghrébin. OPU. Tunis-Alger, 1983.

Rozet et Carette,

210 - L'Algérie, Firmin didot éditeurs, Paris 1850.

Salama (P.),

211 - les voies romaines de l'Afrique du Nord, Alger 1951.

Shaw (Brent D.),

212 - Rural markets in North Africa and the political economy of the Roman Empire, 1981.

213 - Voyages dans plusieurs provinces de la Barbarie (traduction française), 1743.

Soulignac (M.),

214 - Les pierres écrites de la Berbérie orientale (Est Constantinois et Tunisie), Tunis 1928.

Thouvenot (R.),

215 - Rome et les Barbares Africains, à propos d'une inscription de Volubilis, publication du service des Antiquités du Maroc, VII, 1945.

Tissot (Ch.),

216 - Géographie Comparée de la Province Romaine de L'Afrique, Imprimerie Nationale, Paris 1884.

Walter (G.),

217 - la destruction de Carthage. Paris 1937.

E. Encyclopédies et Dictionnaires — هـ - دوائر معارف وقواميس

218 - Guicherat (L.) et Daveluy (A.), Dictionnaire Latin - Français, édition Hachette, Paris S. D.

219 - Saglio (E.) et autres, Dictionnaire des antiquités grecques et romaines (D.A.G.R.), Hachette, Paris 1873-1919 (5 Tomes, 9 Volumes).

220 - Encyclopaedia Universalis, Paris 1984.

ثبت الجداول والأشكال

أ - الجداول

ب – الأشكال

فهرس

القسم الثاني

مجتمع الشمال الأفريقي القديم

الباب الثالث

قائمة الكتب التي صدرت في إطار سلسلة الكتب الأساسية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

1- الأسس العقلية للسياسة
د. بليمان عبد القادر

2- علم النفس القياسي: المبادئ الأساسية
د. بوسنة محمود

3- دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي (1288- 1916)
د. الغالي غربي

4- القوى السياسية والتنمية: دراسة في علم الاجتماع السياسي
د. زمام نور الذين

5- معالم الحضارة العربية الإسلامية: مدخل - نظم - علوم - زراعة وصناعة- اجتماعيات- عمارة والفنون - تأثيرات
د. سامعي إسماعيل

6- الميسر في العروض والقافية
د. لوحيشي ناصر

7- منهجية البحث في العلوم السياسية والإعلام
د. عامر مصباح

8- دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي
د. علاوة عمارة

9- الفتح الإسلامي لبلاد المغرب
د. بن عميرة

10- الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم

د. عقون محمد العربي

11- اسس المنطق الصوري

د. رشيد قوقام



أنجز طبعه على مطابع

ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية - بن عكنون

الجزائر



- الدكتور عقون محمد العربي أستاذ محاضر بجامعة منتوري قسنطينة .
  حائز على :
- دبلوم الدراسات المعمقة (D.E.A.) عن مذكرة في موضوع المؤرخين القدامى.
- ماجستير عن رسالة في موضوع التاريخ الحربي للشمال الأفريقي القديم .
- دكتوراه عن أطروحة في التاريخ البلدي للجزائر القديمة .
- للمؤلف بحوث متميزة منشورة في دوريات متخصصة وأعمال أخرى قيد الطبع.

واكب ظهور التاريخ الاقتصادي ظهور صنوه التاريخ الاجتماعي في بدايات القرن العشرين. والاثنان يسيران دائما جنبا إلى جنب ويعملان على تقديم مقاربات في هذا المجال الهام. وكأي علم في بداياته كان التاريخ الاقتصادي والاجتماعي عبارة عن رؤى وأفكار باحثين لا تتفق في جميع الأحوال، ولكن ظل موضوعه يثير الحماس، وأخذت ملامحه في التشكل والظهور تدريجيا في إطار نظريات ومبادئ قارة، وكانت مجالاته ومفاهيمه الإبيستيمولوجية ميدانا لنقاش واسع بين الرواد المتخصصين، وكانت العلوم التاريخية أكبر مستفيد منه بحيث امتدت الأبحاث الاجتماعية الاقتصادية إلى تاريخ الشعوب، وقد كانت قبل ذلك منحصرة في يوميات الطبقة الحاكمة، وبهذا المجال المعرفي الجديد يمكن رصد حركة القوى المجتمعية والدور الفعال للعوامل الاقتصادية في حركة التاريخ عموما وهو الجانب الذي أهملته الدراسات التقليدية رغم أهميته.

التخصص: التاريخ القديم

المستوى: التدرج وما بعد التدرج

www.opu-dz.com


9 789961 011423

460 دج
رقم النشر: 4958